١

مَنَاقِبُ التُّرْكِ

رسالة إلى الفتح بن خاقان فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه هى الرسالة الأولى من مجموعة رسائل الجاحظ نسخة مكتبة داماد ، وعنوانها فى المجموعة « فضائل الأتراك » . وقد اخترت لها العنوان الذى فى سائر المراجع المرموز لها بالرموز التالية :

م = مختارات فصول الجاحظ لعبيد الله بن حسان ، نسخة المتحف البريطانى المأخوذ منها نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٦٩ .

ف = الفصول المختارة لعبيد الله بن حسان ، المطبوعة بهامش كامل المبرد طبعة التقدم العلمية سنة ١٣٢٤ . وتختلف عن النسخة السابقة .

ن = ثلاث رسائل للجاحظ نشر ڤان ڤلوتن . طبع ليدن ١٩٠٣ .

س = مجموعة رسائل للجاحظ نشر الساسى .

كما جعلت الرمز « ب » لبقية النسخ إذا انفردت نسخة من النسخ السابقة بصورة من النص يخالف أخواتها .

وهذه الرسالة تستغرق من الأصل مابين الورقة ٢٠ والورقة ٤٩ . وقد أثبت أرقام هذه الأوراق على جنبات الكتاب تيسيرا للرجوع إلى الأصل .

وأكرر التنبيه هنا أن هذا الترقيم هو الترقيم الذى ورد فى النسخة ، وأنه ترقيم مسلسل مع كتاب آخر غير مجموعة داماد سابق عليها .

والفتح بن خاقان هذا هو وزير المتوكل العباسى ، وكان أديباً شاعراً فصيحاً بارع الذكاء ، وكانت له خزانة كتب حافلة ، وله مؤلفات منها كتاب اختلاف الملوك ، وكتاب الصيد والجارح ، وكتاب الروضة والزهر . وقتل مع المتوكل سنة ٢٤٧ . وهو غير الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان صاحب قلائد العقيان .

انظر فهرست ابن النديم ١٦٩ – ١٧٠ وفوات الوفيات ٢ : ١٥٣ – ١٥٤ .

بسم الله الرحمن الرحيم

وفّقك الله لرُشدِك ، وأعانَ على شكرِك ، وأصلحَك وأصلحَ على يديك ، ٢٠ ظ
وجعَلنا وإيّاك ممّن يقول بالحقّ ويعملُ به ، ويُؤْثِره ويحتمل ما فيه [ممّا قد يصدُّه عنه[1]] ، ولا يكون حظُّه منه[2] الوصفَ له والمعرفةَ به ، دون الحثِّ عليه والانقطاعِ إليه ، وكشف القِناع فيه ، [وإيصاله إلى أهله ، والصَّبرِ على المحافظة فى ألّا يصلَ إلى غيرهم ، والتثبُّتِ فى تحقيقه لديهم[3]] ؛ فإنَّ الله تعالى لم يعلِّم الناسَ ليكونوا عالمين دون أن يكونوا عامِلين ، بل علَّمهم ليعملوا ، وبيَّنَ لهم ليتَّقوا التورُّطَ فى وسط الخوف ، والوقوع فى المضارّ[4] ، والتوسُّطَ فى المهالك .

[فلذلك[5]] طلب الناسُ التبيُّن ، ولحبِّ السلامة من الهَلَكة ، والرَّغبةِ فى المنفعة ، احتملوا ثِقَلَ العلم ، وتعجَّلوا مكروه المعاناة . ولقلّة العاملين وكثرةِ الواصفين [قال الأوّلون : العارفون أكثر من الواصفين ، والواصفون أكثر من العاملين . وإنَّما[6]] كثُرت الصِّفات وقلَّتِ الموصوفات ، لأنَّ ثوابَ العملِ مؤجَّل ، واحتمال ما فيه معجَّل .

---

(١) ساقطة من الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ .
(٢) فى الأصل « فيه » ، وأثبت ما فى ف ، ن ، س .
(٣) التكملة من م ، ف ، ن ، س .
(٤) فى الأصل و س : « ليتقوا ولخوف الوقوع فى المضار » .
(٥) التكملة من م ، ف .
(٦) التكملة من م ، ف ، ن ، س .

وقد أعجبنى ما رأيتُ من شَغَفك بطاعة إمامك ، والمحاماةِ لتدبير خليفتك ،
وإشفاقِك من كل خَلَل وخَلَّة دخَل على مُلكهِ وإنْ دقّ[1] ، ونالَ سُلطانَه وإن
صغُر ، ومن كلِّ أمرٍ خالفه وإنْ خفِيَ مكانُه ، وجانَبَ رضاه وإنْ قلَّ ضرره ؛
ومِنْ تخوُّفك أن يَجِد المُتأوِّلُ إليه طريقا[2] والعدوُّ عليه متعلَّقا ؛ فإنَّ السلطانَ
لا يَخلو من مُتأوِّلٍ ناقم ، ومن محكوم عليه ساخط ، ومن معدول عن الحكمِ
زارٍ[3] ، ومن متعطِّل متصفِّح ، ومن مُعجَبٍ برأيه ذى خَطَلٍ فى بيانه ، مولَعٍ
بتهجين الصَّواب ، وبالاعتراض على التَّدبير ، حتَّى كأنَّه رائدٌ لجميع الأمَّة ،
ووكيلٌ لسكان جميع المملكة ؛ يَضَع نفسه فى موضع الرُّقباء ، وفى موضع
التصفُّح على الخلفاء والوزراء ؛ لا يَعذِرُ وإن كان مَجازُ العُذر واضحًا ، ولا يقف
فيما يكون لِلشكِّ محتمِلا ، ولا يُصدِّق بأنَّ الشاهدَ يرى ما لا يرى الغائب ،
وأنَّه لا يعرف مَصادر[4] الرَّأى من لم يشهد مَوارِدَه ، ومُستدبَرَه من لم يعرف
مُستقبَله . ومِن محرومٍ قد أضغَنَه الحرمان[5] ، ومن لئيم قد أفسَدَه الإحسان .
٢١ و ومن مستبطِئٍ قد أخذ أضعاف حقِّه ، وهو لجهلِه بقَدره ، ولِضِيق ذَرْعه وقلَّة
شكره ، يظنُّ أن الذى بَقِىَ له أكثر ، وأنَّ حقَّه أوجَب . ومن مستزيدٍ

---

(١) م ، ف : « من كل خلل يدخله وإن دق » ن : « من كل خلل دخل على ملكه وإن دق » .

(٢) المراد بالمتأول المتعلل الذى يتلمس علة وتأويلا لقيامه على السلطان .

(٣) فى الأصل : « عن الحكمة » . وأثبت ما فى ب . والزارى ، من قولهم : زرى عليه يزرى زريا وزراية : عابه وعاتبه .

(٤) فى الأصل : « مصداق » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٥) أضغنه : حمله على الضغن والحقد . وفى الأصل : « أضعفه » ، صوابه فى سائر النسخ .

لو ارتجع السُّلطان[١] سالفَ أياديه البِيض عندَه ، ونِعمَه السَّالفةَ عليه ، لكان لذلك أهلًا ، وله مستحقًّا . قد غرَّه الإملاء[٢] ، وأبطرَه دوامُ الكفاية ، وأفسدَه طولُ الفراغ . ومِنْ[٣] صاحبِ فِتنةٍ خاملٍ فى الجماعة ، رئيس فى الفُرقة ، نعَّاق فى الهَرْج ، قد أقصاه السلطان ، وأقام صَغْوه ثِقاف الأدب[٤] ، وأذلَّه الحكمُ بالحقّ ، فهو مَغيظٌ لايجد غير التشنيع ، ولا يتشفَّى بغير الإرجاف ، ولا يستريح إلَّا إلى الأمانى ، ولا يأنس إلَّا بكلِّ مُرجِفٍ كذّاب ، ومفتونٍ مُرتاب ، وخارصٍ لا خيرَ فيه[٥] ، وخالفٍ لا غَناءَ عنده ، يريد أن يسوَّى بالكُفاة ، ويُرفَع فوق الحُماة ؛ لأمرٍ [ما] سلَفَ له ، ولإحسانٍ كانَ من غيره ، وليس ممَّن يربُّ قديماً بحديث[٦] ، ولا يَحفل بدُروس شرف ، ولا يَفصل بين ثواب المحتسبين ، وبين الحفظ لأبناء المحسنين .

وكيف يعرف فرقَ ما بين حقِّ الذِّمام وثوابِ الكفاية ، من لا يعرف طبقاتِ الحق فى مراتبه ، ولا يفصل بين طبقات الباطل فى منازله .

---

(١) فى الأصل : « لو ارتجع للسلطان » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٢) فى الأصل و ف : « الأصل » .

(٣) كلمة « من» ساقطة من الأصل و ن و س .

(٤) الصغو . الميل فى الأصل : «صعره » م ، ف : « صغره » ، وأثبت مافى س ، ن .

(٥) الخارص : الكاذب ، يقال خرص وتخرص واخترص . ورجل خراص : كذاب . وفى التنزيل العزيز : « قتل الخراصون » س ، ن « حارص » بالمهملة ، تحريف .

(٦) ربه به : أصلحه وطيبه .

ثم أعلمتَنى بذلك أنَّك بنفسك بدأتَ فى تعظيم إمامك ، والحفظ لمناقب أنصار خليفتك ، وإيَّاها حُطت بحياطتك لأشياعه ، واحتجاجك لأوليائه . ونِعم العونُ أنتَ إن شاء الله على ملازمة الطَّاعة ، والمؤازرة على الخير ، والمكانفة لأهل الحق[١] .

وقد استدللتُ بالذى أرى من شِدَّة عنايتك ، وفَرط اكترائك ، وتفقُّدك لأخاير الأعداء[٢] وبحثك عن مناقب الأولياء ، على أنَّ ما ظهر من نصحك أَمَمٌ[٣] ، فى جَنْب ما بطَنَ من إخلاصك .

فأمتعَ اللهُ بك خليفتَه ، ومنحنا وإياك مَحبَّته[٤] ، وأعاذَنا وإيَّاك من قَوْل الزُّور[٥] ، والتقرُّب بالباطل ، إنَّه حميد مَجيد ، فعّالٌ لما يريد .

وذكرتَ أبقاك اللهُ أنَّك جالست أخلاطًا من جُند الخلافة ، وجماعةً من أبناء الدَّعوة ، وشيوخًا من جِلَّة الشِّيعة ، وكُهولًا من أبناء رجال الدَّولة ، والمنسوبين إلى الطاعة والمناصحة ، [والمحبَّة[٦]] الدِّينية ، دون محبة الرغبة والرهبة ، وأنَّ رجلا من عُرْض تلك الجماعة ، ومن حاشية تلك الجِلَّة[٧] ارتحل ٢١ ظ

(١) المكانفة : المعاونة .

(٢) م ، ف فقط : « لأجناس الأعداء » .

(٣) الأمم : الشيء اليسير .

(٤) فى الأصل : « نخبة » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٥) فى الأصل و ن : « قبول الزور » .

(٦) التكملة من ف ، م ، س .

(٧) م : « وأن رجلا من عرض تلك الجملة » .

الكلام ارتجالَ مستبدٍّ ، وتفرد به تفرُّدَ مُعجَب[١] ، وأنه لم يستأمر زعماءهم ، ولم يراقب خطباءهم ، وأنَّه تعسَّفَ المعانَى وتهجّمَ على الألفاظ ، وزعم أنَّ جُند الخلافة اليومَ على خمسة أقسام : خراسانى ، وتركىّ ، ومَولًى ، وعربىّ ، وبَنَوىّ . وأنه أكثر من حَمْد الله وشكره على إحسانه ومِنَنه ، وعلى جميع أياديه وسابغِ نعمه ، وعلى شمول عافيته وجزيل مواهبه ، حين ألَّف على الطاعة هذه القلوبَ المختلفة ، والأجناسَ المتباينة ، والأهواءَ المتفرّقة . وأنَّك اعترضت على[٢] هذا المتكلم المستبدّ ، وعلى هذا القائل المتكلِّف ، الذى قسَّم هــذه الأقسام ، وخالف [بين[٣]] هذه الأركان ، وفصَّل بين أنسابهم[٤] ، وفرَّق بين أجناسهم ، وباعَدَ بين أشبابهم[٥] . وأنَّك أنكرتَ ذلك عليه أشدَّ الإنكار ، وقذعته أشدَّ القَذْع[٦] ، وزعمت أنَّهم لم يَخرجوا من الاتِّفاق أو من شىء يَقرب من الاتِّفاق . وأنَّك أنكرتَ التَّباعدَ فى النَّسب ، والتَّباين فى السَّبب . وقلتَ : بل أزعُم أنَّ الخُراسانىَّ والتركىَّ أَخَوانِ ، وأن الحيِّز واحد ، وأن [حكم ذلك الشَّرق ، والقضيَّة على[٧]] ذلك الصُّقع متَّفق غير مختلف ، ومتقاربٌ غير متفاوت . وأنَّ الأعراق فى الأصل إن لا تكن [كانت[٧]] راسخةً فقد كانت متشابهة ، وحدود البلاد المشتملة عليهم إن

---

(١) الكلام بعده إلى « خطباءهم » ساقط من ف .
(٢) فى الأصل : « أعرضت عن » ، صوابه فى سائر النسخ.
(٣) الكلمة ساقطة من الأصل ثابتة فى سائر النسخ .
(٤) ن ، س : « وباعد بين أنسابهم ». وما بعده إلى « أنسابهم » التالية ساقط من ف ، م .
(٥) فى الأصول : « أنسابهم » ، والوجه ماأثبت .
(٦) قذعه قذعا : رماه بالفحش وسوء القول .
(٧) مابين المعقفين ثابت فى جميع النسخ ساقط من الأصل .

لا تكن متساويةً فإنّها متناسبة ؛ وكلُّهم خراسانىٌّ فى الجملة وإنْ تميَّزوا ببعض الخصائص ، فافترقوا ببعض الوُجوه .

وزعمتَ أنَّ اختلاف التركى والخراسانى ليس كالاختلاف بين العجمى والعربىّ ، ولا كالاختلاف بين الرُّومى والصَّقْلبىّ ، والزِّنجىّ والحبَشى ، فضلاً عما هو أبعدُ جوهراً وأشدُّ خلافاً . بل كاختلافِ ما بين المكّىّ والمدنى ، والبدوىّ والحضرى ، والسُّهلى والجبلى ، وكاختلاف ما بين الطائىّ الجبلىّ والطائىّ السُّهلى ، وكما يقال : أنَّ هذيلاً أكراد العرب ، وكاختلاف ما بين مَنْ نزل البُطون وبين من نزل الحُزُون ، وبين من نزل النُّجود وبين من نزل الأغوار .

وزعمتَ أنَّ هؤلاء وإن اختلفوا فى بعض اللُّغة ، وفارق بعضُهم بعضاً فى بعض الصُّوَر ، فقد تخالفت عُليا تميمٍ ، وسُفلَى قيس ، وعَجُز هوازن ٢٢ و
وفُصحاء الحجاز ، فى اللُّغة ، وهى فى أكثرها على خلافِ لغة حِمير ، وسُكان مَخاليف اليمن ، وكذلك فى الصُّورةِ والشمائلِ والأخلاق[(١)] . وكلُّهم معَ ذلك عربىٌّ خالص ، غير مَشُوب ولا مُعلهَج[(٢)] ولا مذرَّع[(٣)] ولا مزلَّج[(٤)] . ولم يختلفوا اختلافَ ما بين بنى قَحطان وبنى عدنان ، من قِبَل[(٥)] ما طبع الله

(١) ج ، ف : « وكذلك الصورة والصورة ، والشمائل والشمائل ، والأخلاق والأخلاق » .

(٢) المعلهج : الهجين ، وهو العربى ولد من أمة

(٣) المذرع : الذى أمه عربية وأبوه غير عربى . وأنشد :

إذا باهلى عنده حنظلية   لها ولد منه فذاك المذرع

ف ، ج : « مربوع » تحريف .

(٤) المزلج : الدعى ، والملزق بالقوم وليس منهم .

(٥) فى الأصل : « بأمر قبل » ، صوابه فى سائر النسخ .

عليه تلك البريّةَ من خصائص الغرائز ، وما قسم الله تعالى لأهل كلّ جيزة[١] من الشَّكل والصُّورة[٢] ومن الأخلاق واللُّغة .

فإنْ قلتَ : فكيف كان أولادهما جميعاً عرباً مع اختلاف الأبوّة .

قلنا : إنَّ العربَ[٣] لما كانت واحدةً فاستوَوْا فى التُّربة وفى اللغة ، والشّمائل والهمّة ، وفى الأنَف والحميَّة[٤] ، وفى الأخلاق والسَّجيّة ، فسُبكُوا سَبكاً واحداً ، وأُفرِغوا إفراغاً واحداً ، وكان القالَب واحداً ، تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاط ، وحين صار ذلك أشدَّ تشابهاً فى باب الأعمّ والأخصّ وفى باب الوِفاق والمباينة[٥] من بعض ذوى الأرحام ، جرى عليهم حكمُ الاتِّفاق فى الحسب ، وصارت هذه الأسباب ولادةً أخرى حتّى تناكحوا عليها ، وتصاهَروا من أجلها ، وامتنعت عدنان قاطبةً من مناكحة بنى إسحاق وهو أخو إسماعيل ، وجادُوا بذلك فى جميع الدهر لبنى قَحطان ـ وهو ابن عَابَر[٦] ـ فى إجماع[٧] الفريقين على التناكح والمصاهرة ، ومنعهما من ذلك جميعَ الأمم : كِسرى فمَن دونه ، دليلٌ على أنّ النسبَ عندهم متّفق ، وأنَّ هذه المعانىَ قد قامت عندهم مَقام الولادة والأرحام الماسَّة .

---

(١) الجيزة ، بالكسر : الناحية ، كما فى القاموس . ف ، ج : « جزيرة » تحريف .

(٢) فى الأصل : «الصور» مع سقوط الواو بعدها ، ووجهه من سائر النسخ .

(٣) م ، ف : « الجزيرة » .

(٤) الأنف ، بالتحريك : الأنفة . ف فقط : « الأنفة » .

(٥) م ، ف : « وفى البنية » . وفى الأصل : «الشية» ، وأثبت ما فى سائر النسخ .

(٦) فى الأصحاح ١١ : ١٢ من التكوين أنه قحطان بن عابر بن شالح بن أرفكشاد .

(٧) فى الأصل : « اختلاف » ، صوابه من سائر النسخ .

وزعمتَ أنَّه أراد الفُرقة والتَّحزيب[١] ، وأنَّك أردت الأُلفة والتَّقريب .

وزعمتَ أيضاً أنَّ البَنَوىَّ خُراسانى ، وأنَّ نسبَ الأبناء نسبُ آبائهم ، وأنَّ حُسن صنيع الآباء ، وقديمَ فعال الأجداد ، هو حسب الأبناء . وأنَّ الموالىَ بالعرب أشبه ، وإليهم أقرب ، وبهم أمسُّ ؛ لأن السُّنّة جعلتهم منهم . فقلت : إنَّ الموالىَ أقرب إلى العرب فى كثير من المعانى ؛ لأنّهم عربٌ فى المدَّعَى[٢] ، وفى العَاقلة[٣] ، وفى الوِراثة[٤] . وهذا تأويل قوله « موَلى القَوم مِنْهم » و « مولى القَوم مِن أنفسهم[٥] » ، و « الولاءُ لحُمَةٌ كلُحمة النَّسب[٦] » . وعلى شبيه ذلك صار حليفُ القوم منهم ، وحكمه حكمهم ، فصار الأخنس بن شُريق[٧] وهو رجلٌ من ثقيف ، وكذلك يَعلَى بن مُنْيَةَ[٨] وهو رجل من بَلعدويّة ، وكذلك خالد بن عُرفُطة[٩] وهو رجلٌ من عُذرة ٢٢ ظ

---

(١) التحزيب : أن يجعلهم أحزابا وفرقا . فى الأصل : « التخويف » صوابه فى سائر النسخ .

(٢) فى الأصل فقط : « النسب » .

(٣) العاقلة : العصبة التى تعقل عن القاتل ديته .

(٤) م ، ف : الراية » .

(٥) أخرجه البخارى عن أنس . الجامع الصغير ٩١٢٤ .

(٦) أخرجه الطبرانى عن عبد الله بن أبى أوفى ، والحاكم والبيهقى عن ابن عمر . الجامع الصغير ٩٦٨٧ .

(٧) ترجم له فى الإصابة ٦١ وذكر أنه ممن اختلف فى إسلامه .

(٨) فى الأصل : « منبه » ، صوابه فى سائر النسخ وجمهرة ابن حزم ٢١٣ ، ٢٢٩ . قال ابن حزم : « وهى أمه ، وهى بنت غزوان ، أخت عتبة بن غزوان . اسم أبيه أمية بن عبدة » .

(٩) الاشتقاق ٥٤٧ .

من قريش . وبذلك النَّسَب حَرُمت الصَّدقةُ على موالى بنى هاشم ؛ فإنَّ النبى صلى الله عليه وسلم أجراهم فى باب التنزيه والتطهير مَجرى مواليهم . وبذلك السَّبب قَدَّمَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بنى عبد المطَّلب على بنى عبد شمس ، وقرابتُهم سواءٌ ونسبُهم واحد ، للعَقْد المتقدِّم ، وللأيدى المتَّفقة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مِنَّا خير فارسٍ فى العرب : عُكاشة ابن مِحْصَن[1] » ، فقال ضِرار بن الأَزْوَر الأَسَدىّ : ذاك رجلٌ منَّا يا رسول الله . قال : « بل هو منّا بالحِلف » . فجعلَ حليفَ القوم منهم ، كما جعلَ ابنَ أُخت القوم منهم .

ثم زعمتَ أنَّ الأتراك قد شاركوا هؤلاءِ القومَ فى هذا النَّسب ، وصاروا من العرب بهذا السَّبب ، مع الذى بانوا به من الخِلال ، وحُبُوا به من شرف الخصال .

على أنّ وَلاء الأتراك للُبَاب قُريش ، ولمُصَاصِ عبد مناف ، و [هم] فى سرِّ بنى هاشم ، [وهاشمٌ[2]] موضعَ العذار من خدِّ الفرس ، والعِقدِ من لَبَّة الكاعب ، والجوهر المكنون ، والذَّهب المصفَّى ، وموضع المُحَّة من البيضة ، والعَين فى الرأس ، والرُّوح من البدن ؛ وهم الأنف المقدَّم ، والسَّنام الأكبر[3] ، والدُّرَّة الزهراء ، والرَّوضة الخضراء ، والذَّهب الأحمر . فقد شاركوا العربَ فى أنسابهم ، والموالىَ فى أسبابهم ، وفَضَلوهم

---

(١) الإصابة ٥٦٢٦ . وعكاشة بتشديد الكاف وتخفيفها ، وفيه الحديث : « سبقك بها عكاشة » .

(٢) ساقطة من الأصل ثابتة فى سائر النسخ .

(٣) فى سائر النسخ : « الأكوم » .

بهذا الفضل الذى لا يبلغُه فضلٌ وإنْ بَرَع ، بل لا يَعشُره شَرفٌ وإنْ عظُم ، ولا مجدٌ وإنْ قَدُم .

فزعمتَ أنَّ أنسابَ الجميع متقاربةٌ غير متباعدة ، وعلى حسب ذلك التَّقارب تكون المؤازرة والمكاتفة ، والطاعة والمناصحة ، والمحبة للخلفاء والأئمة .

وذكرت أنّهُ ذكر جُملاً من مفاخرة الأجناس ، وجمهرةً من مناقب هذه الأصناف ، وأنَّه جمعَ ذلك وفَصَّله(١) وفسّره ، وأنَّه ألغَى ذكر الأتراك فلم يَعرِض لهم ، وأضربَ عنهم صفحا ، يُخبر عنهم كما أخبر عن حُجّة كلِّ جيل ،
٢٣ و وعن بُرهان كلِّ صِنف ؛ وذكرَ أنَّ الخراسانىَّ يقول: نحن النُّقباء وأبناء النقباء ، ونحن النُّجباء وأبناء النُّجباء ، ومنَّا الدُّعاة ، قبل أنْ تَظهر نِقابَة(٢) ، أو تُعرَف نَجابة ، وقَبلَ المغالبة والمباراة ، وقبل كَشف القِناع وزوال التَّقيَّة وزوال ملك أعدائنا عن مستقَرِّه ، وثبات ملك أوليائنا فى نِصابه . وبين ذلك ما قُتِلنا وشُرِّدنا ، ونُهِكْنا ضرباً(٣) وبُضِعنا بالسُّيوف الحِداد(٤) ، وعذِّبنا بألوان العذاب .

وبنا شَفَى اللهُ الصُّدورَ ، وأُدرِكَ الثأر . ومنَّا الاثناعَشَر النُّقباء ، والسَّبعون النَّجباء . ونحن الخندقيّة(٥) ، ونحن الكَفِّيَّة وأبناء الكَفِّيَّة(٦) ،

---

(١) بعده فى معظم النسخ : « وأجمله ».

(٢) النقابة ، بالفتح المصدر ، وبالكسر الاسم . والنقيب : العريف على القوم المقدم عليهم الذى يتعرف أخبارهم وينقب عن أحوالهم.

(٣) م ، ف : « وطلباً » .

(٤) الحداد : المرهفة ، جمع حديد . والبضع : القطع والشق .

(٥) الخندقية : أصحاب الخنادق أيام نصر بن سيار ، كما سيأتى .

(٦) م ، ف : «الكتفية وأبناء الكتفية » .

وَمنا المستجيبة ومن يهرج التيمية[١] ومنّا نيم خزان[٢] وأصحاب الجوربين[٣] ومنا الزَّغَنديَّة[٤] والآزاذمردية[٥] .

ونحن فتحنا البلادَ وقتلنا العباد ، وأبَدْنا العدوَّ بكلِّ وادٍ . ونحنُ أهلُ هذه الدولة ، وأصحاب هذه الدعوة ، ومَنبِت هذه الشجرة . ومن عندنا هبَّت هذه الرِّيح .

والأنصار أنصاران : الأوس والخزرجُ نصرو النبيَّ صلى الله عليه وسلم فى أوَّل الزمان ، وأهلُ خراسان نصروا ورثتَه فى آخر الزَّمان . غذَانا بذلك آباؤنا وغذَوْنا به أبناءنا ، وصار لنا نسباً لا نُعرف إلاَّ به ، ودِيناً لا نوالِى إلاَّ عليه .

ثم نحن على وتيرةٍ واحدة ، ومنهاج غير مشترك ؛ نُعرف بالشيعة ، ونَدِين بالطَّاعة ، ونُقتَل فيها ونَمُوت عليها . سِيانا موصوفٌ ، ولباسنا معروف . ونحن أصحاب الرَّاياتِ السُّود ، والروايات الصحيحة ، والأحاديث المأثورة ، والذين يَهدِمون مُدنَ الجبابرة ، ويَنزِعون المُلْك من أيدى الظَّلَمة . وفينا

---

(١) ن ، س : « يمرج » . م : « النيمية » .

(٢) ف : « تيم » بدل « نيم » .

(٣) الجوربين مهملة فى الأصل وإعجامها من س ، ن . و فى ف : « الحوزتين » و م : « الجوزتين » .

(٤) زغند ، فى الفارسية بمعنى صوت الحيوان الوحشى . فى الأصل : « الدعيدية » وأثبت مافى سائر النسخ . وسيأتى قوله : « ولنا الأصوات التى تسقط منها الحبالى » :

(٥) الآزاذ مردية ، اسم كان يطلق على طبقة الأشراف من الفرس . انظر مقال الدكتور كراوس فى مجلة الثقافة العدد ٢٢٤ .

تَقدَّم الخَبر ، وصحَّ الأثر . وجاء فى الحديث صفة الذين يفتحون عَمُّورِيَّةَ[١] ويظهرون عليها ، ويقتلون مُقاتليها ويَسْبون ذراريها ، حيث قالوا فى نعتهم : « شُعومهم شعُور النِّساء ، وثيابهم ثيابُ الرهبان » . فصَدَّق الفعلُ القول ، وحقَّق الخبرَ العِيان .

ونحن الذين ذَكرَنا وذَكر بلاءنا أمامُ الأئمة ، وأبو الخلائق العشرة : محَمَّد بن على[٢] ، حين أراد توجيهَ الدُّعاة إلى الآفاق ، وتفريقَ شيعته فى البلاد ، أن قال :

٢٣ ظ أما البَصرة وسوادُها فقد غلب عليها عثمانُ وصنائع عثمان ، فليس بها من شيعتنا إلاَّ القليل . وأمَّا الشام فشيعةُ بنى مروان وآل أبى سُفيان . وأمَّا الجزيرة فحَرُوريَّة شارِيَة[٣] ، وخارجة مارقة ، ولـكن عليـكم بهذا الشَّرق ؛ فإنَّ هناك صدوراً سليمة وقلوباً باسلة ، لم تُفْسِدها الأهواء ، ولم تَخامِرها الأدواء ، ولم تعتَقِبْها البدع ، وهم مغيظون موتورون . وهناك العَدد [والعُدَّة[٤]] ، والعَتاد والنَّجدة .

---

(١) عمورية : بلد فى بلاد الروم ، فتحها المعتصم العباسى سنة ٢٢٣ . ولهذا الفتح قصة عجيبة فى كتب التاريخ . وفيه يقول أبو تمام :

يايوم وقعة عمورية انصرفت عنك المنى حفلا معسولة الحلب

(٢) محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، والد السفاح والمنصور ، أول من نطق بالدعوة العباسية . توفى سنة ١٢٥ . تهذيب التهذيب .

(٣) الشارية : جمع شار ، وهم الذى شروا أنفسهم أى باعوها فى سبيل الله ، وهم الخوارج .

(٤) ساقطة من الأصل ثابتة فى سائر النسخ .

ثم قال : [وأنا أتفاءل[١]] إلى حيث يطلع منه النَّهار[٢] . فكنّا خَيْرَ جُنْدٍ لِخَيرِ إمام ؛ فصدَّقنا ظنَّه ، وثبَّتْنَا رأيه ، وصوَّبنا فِراستَه .

وقال مرَّةً أخرى :

أمْرُنا هذا شرقيٌّ لا غربيّ ، ومُقْبِل لا مدبر[٣] ، يطلُع كطلوع الشَّمس ، ويمتدُّ على الآفاق امتدادَ النهار ، حتَّى يبلغ حيث تباغه الأخفاف[٤] ، وتناله الحوافر .

قالوا : ونحن قتَلنا الصَّحْصَحِيَّة[٥] ، والدَّالقيّة ، والذَّكوانيَّة ، والرَّاشديَّة[٦] . ونحن أيضًا أصحاب الخنادق أيَّامَ نصْر بن سَيّار ، وابن جُدَيْعٍ الكَرمانيّ[٧] ، وشيبان بن سَلَمة الخارجي . ونحن أصحاب نُباتة بن حنظلة[٨] ، وعامر بن ضُبارة[٩] ، وأصحابُ ابن هبيرة . فَلَنا قديمُ هذا الأمر وحديثُه ، وأوّله وآخره

---

(١) موضعها بياض فى الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ .

(٢) م ، ف : « إلى حيث ما تطلع » فقط . ن ، س : « إلى حيث يطلع النهار » .

(٣) م ، ف : « غير مدبر » .

(٤) م ، ف : « حيثما تبلغه الأخفاف » .

(٥) فى الأصل ، م ، ف : «الصحيحة » صوابه فى ن ، س .

(٦) الصحصحية : نسبة إلى صحصح ، وكان أحد المتكلمين . انظر الحيوان ٣ : ٣٩٥ والبخلاء ٤ والطبرى ٩ : ١٣١ فى حوداث سنة ١٣٢ . والدالقية ، بدلها فى الطبرى : « الدوكانية » . والراشدية ذكرهم الطبرى فى الموضع الذى أشرت إليه .

(٧) هو على بن جديع الكرمانى . الطبرى ٩ : ٩١ ، ٩٧ والاشتقاق ٢٩٥ ونوادر المخطوطات ٢ : ١٨٦ ، ١٩١ وجمهرة ابن حزم ٣١٧

(٨) جمهرة أنساب العرب ٢٨٣ . وهو من بنى كلاب بن ربيعة .

(٩) الاشتقاق ٢٨٩ ، ٢٩٠ والجمهرة ٢٥٤ ، وكان من قواد ابن هبيرة .

ومنّا قاتلُ مروان(١) .

ونحنُ قومٌ لنا أجسامٌ وأجرام ، وشُعورٌ وهام ، ومناكبُ عِظام ، وجِباهٌ عِراض ، وقَصَرٌ غِلاظ(٢) ، وسواعدُ طوال .

ونحنُ أولَدُ للذُّكورة ، وأنسَلُ بُعولة ، وأقلُّ ضَوًى وضُؤولة ، وأقلُّ إتآمًا وأنتق أرحاما(٣) ، وأشدُّ عصبا وأتمُّ عظاما ، وأبداننُا أحمَل للسلاح ، وتِجْفافُنا(٤) أملأُ للعيون .

ونحن أكثر مادّةً ، وأكثر عَددا وعُدّة .

ولو أنَّ يأجوج ومأجوجَ كاثَروا مَنْ وراءَ النَّهر منّا لظهروا عليهم بالعَدد . فأمّا الأَيْد وشِدّةُ الأَسْر ، فليس لأحدٍ بعدَ عادٍ وثمودَ والعمالقة والكَنْعانيِّين مثلُ أيدِنا وأسْرِنا .

---

(١) في الطبرى ٩ : ١٣٦ أن قاتل مروان بن محمد سنة ١٣٢ رجل من أهل البصرة يقال له « المغود » . في الأصل : « وبنا قاتل من ولى » ، صوابه في سائر النسخ .

(٢) القصر ، بالتحريك : جمع قصرة ، وهي أصل العنق ، وبه فسر ابن عباس قوله تعالى : « إنها ترمى بشرر كالقصر » في قراءته بفتح الصاد . في الأصل : « فصص » وفي ن ، س : « قصص » صوابه في م ، ف .

(٣) هذا ما في م ، ف . والإتآم : أن تلد اثنين في بطن . وأنتق أرحاما : أكثر ولادة . وفي الأصل : « وأجل أحسابا وأوثق أبدانا » وفي ن ، س : « وأقل أيامى وأنتق أرحاما » ، لكن بعض أصول ن توافق الأصل .

(٤) التجفاف : ما جلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح في الحرب . وفي الأصل : « وخفافنا » وفي سائر الأصول : « وأخفافنا » ، والوجه ما أثبت . وفي البيان ٣ : ١٨ في قول الشعوبية : « ولا تعرفون الأقبية ولا السراويلات ، ولا تعليق السيوف ، ولا الطبول ولا البنود ولا التجافيف » وانظر ص ١٩ س ١٢ .

ولو أن خيولَ الأرضِ وفُرسان جميعِ الأطراف جُمِعوا فى حَلْبَةٍ واحدة ، لـكُنّا أكثَرَ فى العيون ، وأَهْوَلَ فى الصُّدور .

ومتى رأيتَ مواكبَنا وفُرسانَنا ، وبُنودنا التى لا يحملها غيرُنا ، علِمتَ أننا لم نُخلَق إلّا لقَلْبِ الدُّوَل ، وطاعة الُخلفاء ، وتأييد السلطان . ٢٤ و

ولو أنَّ أهلَ التُّبَّت ورجالَ الزَّابج[١] ، وفُرسانَ الهند ، وحَلْبة الرُّوم ، هجَم عليهم هاشم بن أشتاخنج[٢] لمـا امتنعوا من طَرْحِ السِّلاح والهربِ فى البلاد .

ونحنُ أصحابُ اللِّحَى وأرباب النُّهى ، وأهلُ الحلم والحِجَا ، وأهلُ الثَّخَانة[٣] فى الرأى، والبُعد من الطَّيش . ولسنا كجُنْد الشَّام المتعرِّضين للحَرَم ، والمنتهكين لـكلِّ مَحْرَم .

ونحن ناسٌ لنا أمانةٌ وفينا عِفَّة . ونحن نجمع بين النَّزاهة والقَناعة والصَّبرِ على الخدمة ، والتجمير عند بعد الشُّقَّة[٤] . ولنا الطُّبول المَهُولة العِظام والبُنود ، ونحن أصحاب التجافيف والأجراس ، والبازيكند[٥] واللُّبود الطِّوال ، والأغماد

---

(١) الزابج بفتح الباء وكسرها : جزيرة فى أقصى بلاد الهند فى حدود الصين . وفى الحيوان ٧ : ٣٣٠ : « ويزعم تجار التبت ممن قد دخل الصين والزابج » . م : « الزنج » ، تحريف .

(٢) كلة « بن » ساقطة من الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ والطبرى ٩ : ٢٨٣ . وقتل هاشم هذا سنة ١٥٢ .

(٣) فى الأصل : « النجـــابة » ، وفى م ، س : « الثجانة » ، وأثبت ما فى سائر النسخ . والمراد قوة الرأى وجزالته .

(٤) تجمير الجيش : إبقاؤه فى ثغر العدو .

(٥) الباز يكند ، يدو أنه كساء يلقى على الـكتف . و « باز » فى الفارسية =

المعقَّفة[١] والشَّوارب المُعقرَبة ، والقلانس الشاشيَّة ، والخيول الشهريَّة[٢] ، والكافر كوبات[٣] والطَّبَرْزينات[٤] [في الأكُفّ] ، والخناجر في الأوساط . ولنا حُسْنُ الجِلسة على ظهور الخيل . ولنا الأصواتُ التي تُسقِط منها الحَبَالى .

وليس في الأرض صِناعةٌ غريبةٌ من أدبٍ وحكمة ، وحسابٍ وهندسة ، وإيقاع وصَنعة[٥] ، وفِقهٍ ورواية ، نَظَرتْ فيها الخراسانية إلّا فَرَعت فيها الرُّؤساء[٦] ، وبَزَّت فيها العلماء .

ولنا صَنعة السِّلاح من لِبْد ورِكابٍ ودِرع . ولنا مما جعلناه رياضة وتمرينًا ، وإرهاصًا للحرب ، وتثقيفًا ودُربةً للمجاولة والمُشَاولة ، [و] للـكرِّ

= بمعنى الكتف . انظر البيان ١ : ٩٥ / ٣ : ١١٥ . في الأصل : « البار كند » وفي سائر النسخ : « الباز فكند » .

(١) المعقفة : المعوجة ، وذلك لاعوجاج السيوف التي تجعل فيها . ف : « والأعمدة والحقفة » ج : « والأعمدة والمعقفة » .

(٢) في اللسان : « والشهرية : ضرب من البراذين ، وهو بين البرذون والمقرف من الخيل » .

(٣) الكافر كوبات : جمع كافركوب ، وهي المقرعة . انظر حواشي البيان ١ : ١٤٢ . في الأصل : « الكافر كورات » ، صوابه في سائر النسخ .

(٤) الطبرزينات : جمع طبرزين ، وهو فأس تستعمل في القتال عند الفرس ، مركب من « تبر » بمعنى الفأس ، و « زين » بمعنى السرج ، لعله سمى بذلك لالتزام وضعه بجانب السرج . استينجاس ٢٧٠ والمعرب ١٩٤ والألفاظ الفارسية ١١١ . وكلة « في الأكف » بعدها من سائر النسخ .

(٥) م ، ف : « وارتفاع بناء وصنعة » .

(٦) فرّعه : علاه وطاله .

بعد الكرّ : مثل الدَّبُّوق[1] ، والنَّزْو على الخيل صغارًا ، ومثل الطَّبطاب[2] والصَّوَالجِةِ الكبار ، ثم رمى الجثَّمة[3] ، والبُرجاس[4] والطائر الخطّاف .

فنحن أحقُّ بالأَثَرةِ[5] ، وأولى بشرف المنزلة .

ثم قلت : وزَعم أنَّ القُربة[6] تُستَحَقُّ بالأسباب الثابتة ، وبالأرحام الشابكة ، وبالقِدمة ، والطاعة للآباء والعشيرة ، وبالشكر النافع ، والمديح الكافى[7] بالشِّعر الموزون الذى يبقى بقاءَ الدهر ، ويلوح مالاحَ نجم ، ويُنْشَد ما أُهِلَّ بالحج ، وما هَبّت الصَّبا ، وما كان للزَّيت عاصر ؛ وبالكلام المنثور والقول المأثور . أو بصفة مخرج الدولة والاحتجاج للدعوة ، وتقييد المآثر ، إذْ لم يكن [ذلك من[8]] عادة العجم ، ولا كان يُحفظ ذلك معروفًا لسوى العرب . ونحن نرتبطها بالشعر المقفَّى ، ونصلها بحفظ الأمِّيِّين[9] . [الذين ٢٤ ظ

---

(١) فى اللسان : « الدبوق : لعبة يلعب بها الصبيان ، معروفة » .

(٢) الطبطاب : مضرب الكرة .

(٣) المجثمة : مانصب من الحيوان للرمى والقتل ،

(٤) البرجاس : غرض فى الهواء على رأس رمح أو نحوه . الألفاظ الفارسية ١٨ . فى الأصل و م : « البرجاسب » وفى ف : « البرحاسبار » ، وأثبت مافى سائر النسخ .

(٥) فى الأصل وبعض أصول ن : « بالإمرة » . وانظر ٢٥ س ٩ و ٢٨ س ١٤

(٦) القربة : القرابة . م : « إن تكن القربة » ف « إن تكن القربى » :

(٧) م ، ف : « والمدلج الباقى » ولعلها : « والمديح الباقى » .

(٨) التكملة من سائر النسخ .

(٩) فى الأصل : « الأثر » ، صوابه من سائر النسخ . وقد سقط بعده سقط كبير ينتهى فى ص ٢٥ أثبته من سائر النسخ بين معقفين .

لا يتّكلون على الكتب المدوّنة ، والخطوط المطرّسة . ونحن أصحاب التفاخُر والتنافر ، والتنازع فى الشّرف ، والتحاكم إلى كلّ حَكم مُقنِع وكاهنٍ سَجّاع . ولنا التعايُر بالمثالب ، والتفاخُر بالمناقب . ونحن أحفظ لأنسابنا ، وأرعى لحقوقنا وتقييدها أيضًا بالمنثور المرسَل ، بعد الموزون المعدَّل ، بلسانٍ أمضى من السِّنان ، وأرهفَ من السَّيف الُحسام ، حتى نذكّرهم ما قد درس رسمُه ، وعفا أثره .

وبين القتال من جهة الرغبة والرهبة فرق ، وليس المُعْرِق فى الحفاظ كمن هذا فيه حادث . وهذا بابٌ يتقدَّم فيه التالد القديمُ الطارفَ الحديث .

وطُلّاب الطوائل رجلان : سجستانى وأعرابىّ . وهل أكثر النقباء إلّا من صميم العرب ، ومن صَليبة هذا النَّسب ، كأبى عبد الحميد قَحطَبة ابن شَبيب الطائى ، وأبى محمد سليمان بن كثير الخزاعى ، وأبى نصر مالك ابن الهيثم الخزاعى ، وأبى داود خالد بن إبراهيم الذُّهلىّ ، وكأبى عمرو لاهز ابن قريظ المَرَئىّ(١) ، وأبى عتيبة موسى بن كعب المرئىّ(٢) ، وأبى سهل القاسم ابن مجاشع المزنىّ(٣) ، ومن كان يجرى مجرى النُّقباء ولم يدخل فيهم ، مثل مالك ابن الطواف المُزَنىّ .

وبعد فمن هذا الذى باشر قتل مروان(٣) ، ومن هزمَ ابنَ هبيرة ، ومن

---

(١) نسبة إلى امرئ القيس . فهو لاهز بن قريط بن سرى بن الكاهن بن زيد بن عصية بن امرئ القيس . جمهرة أنساب العرب ٢١٤ . قال : «كان من وجوه أهل دعوة بنى العباس » وفى الأصول : « المزنى » .

(٢) إن صح كان نسبة إلى مران بن جعفى بن سعد العشيرة . انظر جمهرة ابن حزم ٤٠٩ . والمعارف ٤٨ .

(٣) انظر ماسبق فى ص ١٨ . ويبدو أن قتل مروان بن محمد كان موضع مفاخرة بين العرب وغيرهم .

قتلَ ابن ضُبارة ، ومن قتل نُباتة بن حنظلة ، إلّا عَرَبُ الدّعوة ، والصَّميمُ من أهل الدولة ؟! ومن فتح السِّند إلا موسى بن كعب ، ومن فتح إفريقيَّة إلّا محمد ابن الأشعث؟!

وقلت : وقال : وتقول الموالى : لنا النصيحة الخالصة ، والمحبة الراسخة ، ونحن موضع الثقة عند الشدّة . وعللُ المولى[1] من تحتُ موجبة لمحبّة المولى من فوق ، لأنَّ شرف مولاه راجعٌ إليه ، وكرمه زائد فى كرمه ، وخموله مُسقطٌ لقدره . وبودِّه أنَّ خصالَ الكرام كلَّها اجتمعت فيه ؛ لأنَّه كلَّما كان مولاه أكبر وأشرف وأظهر ، كان هو بها أشرفَ وأنبل . ومولاك أسلم لك صدرًا ، وأردُّ ضميرًا ، وأقلُّ حسدًا .

وبعدُ فالوَلاء لحمة كلحمة النَّسب[2] ، فقد صارَ لنا النسب الذى يصوِّبه العَربىّ ، ولنا الأصل الذى يفتخر به العجمى .

قال : والصَّبر ضروب ، فأكرمها كلها الصَّبر على إفشاء السرّ . وللمولى فى هذه المكرمة ما ليس لأحد .

ونحن أخصُّ مَدخلاً ، وألطف فى الخدمة مسلكاً . ولنا مع الطاعة والخدمة والإخلاص وحُسن النيّة ، خدمةُ الأبناء للآباء ، والآباءِ للأجداد ، وهم بمواليهم آنَس ، وبناحيتهم أوثق ، وبكفايتهم أسَرّ .

وقد كان المنصور ، ومحمد بن على ، وعلى بن عبد الله ، يخصُّون مواليَهم بالمواكلة والبسط والإيناس ، لا يُبهرجون الأسْوَدَ لسواده[3] ، ولا الدميم

---

(١) م : « الموتى » ، وكذا بعض أصول ن .

(٢) انظر ماسبق فى ١٢ س ٧ .

(٣) بهرج الشىء : أبطله وأهدره . والمراد أنهم لايضعون من قدره .

لدمامته ، ولا الصناعةَ الدنيئة لدناءتها . ويوصون بحفظهم أكابرَ أولادهم ، ويجعلون لكثيرٍ من موتاهم الصلاةَ على جنائزهم ، وذلك بحضرة من العمومة وبنى الأعمام والأخوة .

ويتذاكرون إكرام رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثةَ مولاه ، حينَ عقدَ له يومَ مؤتة على جِلّة بنى هاشم ، وجَعَله أميرَ كلِّ بلدةٍ يطؤها[1] .

ويتذاكرون حبّه لأسامة بن زيد ، وهو الحِبُّ ابنُ الحِبِّ[2] . وعقد له على عظماء المهاجرين وأكابر الأنصار .

ويتذاكرون صنيعه بسائر مواليه ، كأبى أنسة[3] ، وشُقران[4] ، وفلان وفلان .

قالوا : ولنا من رءوس النقباء أبو منصور مولى خزاعة ، وأبو الحكم عيسى بن أعْيَن مولى خزاعة ، وأبو النجم عمران بن إسماعيل مولى آل

---

(١) أى يدخلها ويفتحها .

(٢) العثمانية للجاحظ ١٤٧ ، وقد وقع هناك تحريف فى الطبع .

(٣) اختلف فى اسمه فقيل أنسة أيضا كما فى الإصابة ٢٨٥ . وكان حبشيا كما فى جوامع السيرة لابن حزم ١١٤ وكان يأذن على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومات فى خلافة أبى بكر .

(٤) شقران يقال كان اسمه صالح بن عدى ، وكان حبشيا أهداه عبد الرحمن بن عوف لرسول الله . الإصابة ٣٩١١ . وهو أحد من دلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قبره . جوامع السيرة ٢٦٥ . وذكر ابن هشام فى السيرة ١٠١٨ أنه تولى صب الماء عليه فى غسله .

أبى مُعَيط . فلنا مناقب الخُراسانية ، ولنا مناقب الموالى فى هذه الدعوة ، ونحن منهم وإليهم ، ومن أنفسهم ، لا يدفع ذلك مسلمٌ ولا ينكره مؤمن ، خدمْناهم كباراً وحملناهم على عَواتقنا صغاراً . هذا مع حقِّ الرَّضاع والخؤولة ، والنشوء فى الكُتّاب ، والتقلُّب فى تلك العِراص التى لم يبلغها إلاّ كلُّ سعيدِ الجَدّ ، وجيهٍ فى الملوك . فقد شاركْنا العربىَّ فى فخرِه ، والخراسانىَّ فى مجده ، والبَنَوىَّ فى فضله ، ثم تفرَّدْنا بما لم يشاركونا فيه ، ولا سبَقونا إليه .

قالوا : ونحن أشكل بالرعيّة ، وأقرب إلى طِباع الدَّهماء ؛ وهم بنا آنَس وإلينا أسكن ، وإلى لقائنا أحنُّ ؛ ونحن بهم أرحم ، وعليهم أعطف ، وبهم أشْبَه . فمَنْ أحقُّ بالأثرة ، وأولى بحُسن المنزلة ممّن هذه الخصالُ له ، وهذه الخلالُ فيه .

وقلت وذكرت أن البنَوىَّ قال :

أنا أصلى خراسان ، وهى مَخرج الدَّولة ومَطلع الدَّعوة ؛ ومنها نَجَم هذا القرن ، وصبأ هذا الناب[١] ، وتفجَّر هذا اليَنبوع ، واستفاض هذا البحر ، حتى ضَرب الحقُّ بِجرانه[٢] ، وطبّق الآفاقَ بضيائه ، فأبرأ من السُّقم القديم ، وشفى من الداء العُضال ، وأغنى مِن العَيْلة[٣] ، وبصَّر من العمى[٤]] .

---

(١) صبأ الناب : طلع حده وخرج .

(٢) ضرب بجرانه : استقر وثبت . وأصل الجران باطن عنق البعير ، فإذا برك البعير واستقر قيل : ألقى جرانه . وفى حديث عائشة أيضاً : « حتى ضرب الحق بجرانه » .

(٣) أى بعد العيلة وهى الفقر .

(٤) هنا ينتهى السقط الذى بدأ فى ص ٢١ ، وأثبته من سائر النسخ .

قال : وفرعى بغدادُ ، وهى مستقرُّ الخلافة ، والقرار بعد الحَوْلة[١] ، وفيها بقيّة رجال الدعوة ، وأبناء الشِّيعة ، وهى خُراسانُ العراق ، وبيت الخلافة ، وموضع المادّة .

قال : وأنا أعْرقُ فى هذا الأمر مِن أبى ، وأكثر تردادًا فيه من جدّى[٢] ، وأحقُّ فى هذا الفَضْل[٣] من المولى والعربىّ . ولنا بعدُ فى أنفسنا مالا يُنكَر من الصَّبر تحت ظِلال السُّيوف القصار والرِّماح الطوال[٤] . [ولنا معانقة الأبطال عند تحطُّم القنا وانقطاع الصفائح[٥] . ولنا المواجأة بالسكاكين ، وتلقِّى الخناجر بالعيون ، ونحن حُماة المستلحَم ، وأبناء المَضايق . ونحن أهل الثبات عند الجولة ، والمعرفة عند الحَيْرة[٦] ، وأصحاب المشهَّرات ، وزينةُ العساكر وحُلَى الجيوش ، ومَن يمشى فى الرُّمح ، ويختال بين الصَّفَّين . ونحن أصحاب الفتك والإقدام ، ولنا بعدُ التسلُّقُ ، ونقْب المدُن ، والتقحُّم على ظُبات السُّيوف وأطرافِ الرِّماح ، ورضخ الجندل ، وهشْم العُمد ، والصبرُ على الجراح وعلى جَرِّ السِّلاح[٧] إذا طار قلبُ الأعرابىّ ، وساء ظنُّ الخُراسانىّ . ثم الصَّبرُ تحت العقوبة ، والاحتجاج عند المساءلة ، واجتماع العقل ، وصحّة

(١) الحولة ، بالحاء المهملة المفتوحة : التحول والتنقل .
(٢) فى الأصل و ن ، س : « وأكثر ترددا من جدى » ، وأثبت ما فى م ، ف .
(٣) ج ، ف : « وأحق بهذا الفضل »
(٤) بعده سقط فى الأصل ، تمامه فى ص ٢٨ س ٩ .
(٥) الصفائح : جمع صفيحة ، وهى السيف العريض .
(٦) ج وبعض أصول ن : « الحيرة » ، وفى سائر النسخ : « الخبرة » ، والوجه ما أثبت .
(٧) يقال أجرّه الرمح ، إذا طعنه به فمشى وهو يجره .

الطَّرْف ، وثباتُ القدمين ، وقلّة التـكفّى بحبل العُقابين[١] ، والبعد من الإقرار[٢] ، وقلّة الخضوع للدهر والخضوع عند جفوة الزوّار[٣] وجفاء الأقارب والإخوان .

ولنا القتالُ عند أبواب الخنادق ، ورءوسِ القناطر . ونحن الموتُ الأحمر عند أبواب النُّقَب . ولنا المواجأة فى الأزقّة ، والصَّبر على قتال السُّجون . فسَلْ عن ذلك الخُلَيْدية[٤] ، والـكتفية ، والبلاليّة ، والحريبية[٥] . ونحن أصحاب المـكابدات[٦] وأرباب البَيات ، وقتل النـاسِ جِهاراً فى الأسواق والطُّرقات .

ونحن نجمع بين السَّلّة والمزاحَفة[٧] . ونحن أصحاب القنا الطِّوال ما كنّا رَجّالة ، والمَطاردِ القصـارِ ما كنّا فُرسانا[٨] . فإن صِرنا كُمُنًا[٩] فالحَتْف

---

(١) التـكفى : التميل والتقلب . والعقابان : خشبتان يشبح بينهما الرجل فيجلد . اللسان (عقب) وجنى الجنتين ٨٠ .

(٢) ف فقط : « من الفرار » . والمراد الإقرار بالذال .

(٣) فى معظم الأصول : « حفوة » . بالحاء المهملة ، والوجه ما أثبت .

(٤) طائفة منسوبون إلى خليد ، وجاء فى البخلاء ٤٢ - ٤٣ : « سل عنى الـكتيفية والخليدية والحريبية والبلاليـة » . ويبدو أنهم طوائف من أهل الشغب والفوضى .

(٥) الحريبية : نسبة إلى الحريبة ، بالتصغير ، وهى موضع بالبصرة ، يبدو أنه كان مأوى للشطار .

(٦) هذا ما فى ف . وفى سائر الأصول : « المـكابرات » .

(٧) السلة : الدفعة فى السباق إحضاراً .

(٨) المطارد ، جمع مطرد بالـكسر ، وهو الرمح القصير .

(٩) جمع كمين ، وهم الذين يكمنون ويختفون فى الحرب .

القاضى ، والسمُّ الذُّعاف . وإنْ كنّا طلائعَ فكلُّنا يقوم مقامَ أمير الجيش . نقاتل بالليل كما نقاتل بالنَّهار ، ونقاتل فى الماء كما نقاتل على الأرض ، ونقاتل فى القرية كما نقاتل فى المحلّة .

ونحن أفتك وأخشب[١] ، ونحن أقطع للطّريق وأذكر فى الثُّغُور ، مع حُسن القُدود وجَودة الخرط ومقادير اللِّحَى ، وحُسن العِمَّة ، والنفس المُرَّة . وأصحابُ الباطل والفتوّة[٢] ، ثم الخطّ والكتابة ، والفقه والرِّواية .

ولنا بغدادُ بأسرها ، تسكن ما سكنّا ، وتتحرّك ما تحرّكنا . والدُّنيا كلُّها معلَّقة بها ، وصائرة إلى معناها . فإذا كان هذا أمرَها وقدرها فجميع الدُّنيا تبعٌ لها[٣]] . وكذلك أهلُها لأهلها ، وفُتّاكها لفتّاكها ، وخُلاَّعها لخُلاّعها[٤] ، ورؤساؤها لرؤسائها ، وصلحاؤها لصلحائها .

ونحن بعدُ تربيةُ الخلفاء ، وجِيران الوُزَراء ، وُلِدنا فى أفنية مُلوكنا ، ونحن أجنحةُ خلفائنا ، فأخَذْنا بآثارهم ، واحتَذَينا على مثالهم ، فلسنا نَعرِف سواهم ، ولا نُعرَف بغيرهم ، ولا يطمع فينا أحدٌ قطُّ من خُطّاب مُلكهم ، وممن يترشَّح للاعتراض عليهم . فمَنْ أحقُّ بالأَثَرة ، وأولى بالقُرب فى المنزلة مِمَّن هذه الخصالُ فيه ، وهذه الخلالُ له .

---

(١) أى أشد خشونة وغلاظة .
(٢) كلمة « الباطل » ساقطة من ف .
(٣) هنا ينتهى سقط الأصل الذى بدأ فى ص ٢٦ س ٦ وإثباته من سائر النسخ .
(٤) كذا فى جميع النسخ .

بسم الله الرحمن الرحيم

إنْ ذهَبْنا حفظك الله بِعَقب هذه الاحتجاجات ، وعندَ مقطع هذه الاستدلالات ، نستعمل هذه المعارضةَ[١] بمناقب الأتراك ، والموازنة بين خصالهم وخصال كلٍّ صنف من هذه الأصناف ، سلكنا فى هذا الكتاب سبيلَ أصحابِ الخصومات فى كُتُبهم ، وطريقَ أصحاب الأهواء فى الاختلاف الذى بينَهم .

وكتابُنا هذا إنَّما تكلَّفناه لنؤلِّف بين قلوبهم التى كانت مختلفة ، ولنزيد الأُلفة إن كانت مؤتلفة ، ولنُخبِر عن اتِّفاق أسبابهم لتجتمع كلمتُهم ، ولتسلم صدورهم ، وليعرِفَ من كان لا يعرف منهم موضعَ التفاوُت فى النسب ، وكم مقدارُ الخلاف فى الحسب[٢] ، فلا يُغيِّر بعضهم مغيِّر ، ولا يفسدَهُ عدوٌّ بأباطيلَ مموَّهة وشُبهات مزوَّرة ؛ فإنَّ المنافق العليم ، والعدوَّ ذا الكيد العظيم ، قد يصوِّر لهم الباطل فى صورة الحقّ ، ويُلبِس الإضاعةَ ثياب الحَزْم . إلا أنَّا على حال سنذكر جُملاً من أحاديثَ رويناها ووعيناها ، وأُمورٍ رأيناها وشاهدناها ، وفضائلَ تلقَّفْنَاها[٣] من أفواه الرجال وسمعناها . ٢٥ و

وسنذكر جميع ما فى هذه الأصناف[٤] من الآلات والأدوات ، ثم ننظر أيُّهم لها أشدُّ استعمالاً ، وبها أشدُّ استقلالاً ، ومَن أثْقَبُ كَيسا وأفتح عيناً

(١) ما عدا الأصل وبعض أصول ن : « المفاوضة » ، والوجه ما أثبت .
(٢) م ، ف : « كم مقدار » بدون واو .
(٣) فى الأصل : « تلقناها » ، وأثبت ما فى سائر النسخ .
(٤) فى سائر النسخ : « ما حفظ لجميع الأصناف » .

وأذكى يقيناً ، وأبعدُ غَوراً وأجمع أمراً ، وأعمُّ خواطرَ وأكثُر غرائبَ ، وأبدع طريقاً ، وأدوَمُ نفعاً فى الحروب ،وأضْرَى وأدربُ دُربةً ، وأغمضُ مكيدةً[١] ، وأشدُّ احتراساً وألطفُ احتيالاً ؛ حتّى يكون الخيار فى يد الناظر المتصفِّح لمعانِيه ، والمقلِّب لوجُوهه ، والمفكِّر فى أبوابه ، والمقابِل بين أوّله وآخرِه ، فلا نكون نحن انتحلنا شيئاً دون شيء ، وتقلّدنا تفضيلَ بعضٍ على بعض ، بل [لعلّنا أن لا[٢]]نُخبرَ عن خاصّة ما عِندنا بحرف واحدٍ .

فإذا دبَّرنا كتابَنا هذا التدبيرَ ، وكان موضوعُه على هذه الصِّفة ، كان أبعدَ له من مذاهبِ الجدال والمِراء ، واستعمالِ الهوى .

وقد ظَنَّ ناسٌ أنَّ أسماءَ أصناف الأجناس كما اختلفت فى الصُّورة والخطِّ والهجاء ، أن حقائقها[٣] ومعانيَها على حَسَبَ ذلكَ . وليس الأمرُ على حسب ما توهَّمَه ؛ ألا ترى أنَّ اسمَ الشَّاكريَّة[٤] وإن خالفَ فى الصُّورة والهجاءِ اسمَ الجُنْد ، فإنَّ المعنى فيهما ليس ببعيدٍ ؛ لأنَّهم يرجعون إلى معنًى واحد وعمل واحد . والذى إليه يرجعون طاعةُ الخلفاء ، وتأييد السلطان .

وإذا كان المولى منقولاً إلى العرب فى أكثر المعانى ، ومجعولاً منهم فى عامّة

---

(١) بعده فى الأصل: «وأبدع طريقاً وأدوم نفعاً فى الحروب» ، وهو تكرار .

(٢) التكملة من سائر النسخ .

(٣) ج ، ف : « كانت حقائقها » .

(٤) الشاكرية : ضرب من الجنود . وفى القاموس : « الشاكرى : الأجير المستخدم ، معرب چاكر » . وانظر الحيوان ٢ : ١٣٠ .

الأسباب ، لم يكن ذلك بأعجبَ ممّنْ جَعَلَ الخالَ والدًا ، والحليفَ من الصَّميم ، وابنَ الأخت من القوم .

وقد جُعِل ابنُ الملاعَنة[١] المولودُ على فراشِ البعل منسوبًا إلى أمِّه .

وقد جعلوا إسماعيلَ وهو ابن عجميَّين عربيًّا ؛ لأنَّ الله تعالى فتَق لَهاتَه بالعربيَّة المُبينة على غير التلقين والترتيب ، ثمَّ فطره على الفصاحة العجيبة على غير النشوِّ والتَّقدير[٢] ، وسلخَ طِباعه من طبائع العجم ، ونقَلَ إلى بدنه تلك الأجزاءَ ، [وركّبه اختراعا[٣]] على ذلك التركيب ، وسوَّاه تلك التسوية ، وصاغَه تلك الصِّياغة[٤] ، ثم حباهُ من طبائعهم ، ومنحه من أخلاقهم وشمائلهم ، وطبَعَه من كرمهم وأنفَتِهم وهممهم عَلَى أكرمِها وأمكنها ، وأشرفها وأعلاها ، وجعلَ ذلك برهانًا على رسالته ، ودليلًا على نبوَّته ؛ فكان أحقَّ بذلك النَّسب ، وأولى بشرف ذلك الحسب . ٢٥ ظ

وكما جُعِل إبراهيمُ أبًا لمن لم يلدْه ، فالبَنَويُّ خُراسانيٌّ من جهة الولادة ، والمولى عربيٌّ من جهة المدَّعَى والعاقلة[٥] . وإنْ أحاطَ علمنا بأنَّ زَيدًا لم يخلق من نَجْل عمرو إلَّا عِهارًا لنفيناه عنه[٦] ، وإن وثِقْنا[٧] أنه لم يخلق من صُلبه .

(١) الملاعنة : أن يقذف الرجل امرأته برجل أنه زنى بها .
(٢) وكذا فى بعض أصول ن ، وفى سائر النسخ : « والتمرين » .
(٣) التكملة من سائر النسخ .
(٤) وكذا فى بعض أصول ن . وفى سائر النسخ : « الصيغة » .
(٥) انظر ماسبق فى ص ١٢ الحاشية ٣ .
(٦) فى الأصل وبعض أصول ن : « إلا بما هو ألحقناه به » .
(٧) وكذا فى بعض أصول ن ، وفى سائر النسخ : « وإن أيقنا » .

وكما جَعل النبيُّ صلى الله عليه وسلم أزواجَه أمَّهات المؤمنين وهنَّ لم يلدنَهم ولا أرضعنَهم ، وفى بعض القراءات[١] : ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ﴾ ، على قوله : ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ[٢]﴾ . وجَعل المرأة من جهة الرَّضاع أُمًّا ، وجَعل [امرأة] البعل أمّ ولد البعل من غيرها ، [وجعلَ] الرابَّ والدًا ، وجعل العمّ أبًا [فى كتاب الله[٣]] . وهم عبيدُه لا يتقلَّبون إلَّا فيما قلَّبهم فيه . وله أن يجعل من عباده مَن شاء عربيًّا ومن شاء عجميًّا ، ومن شاء قرشيًّا ، ومن شاء زِنجيًّا ؛ كما لَه أن يجعل من شاء ذكراً ومن شاء أنثى ، [ومن شاء خنثى[٤]] ، ومن شاء أفردَه من ذلك فجعَله لا ذكراً ولا أُنثى ولا خُنْثى .

وكذلك خَلق الملائكةَ وهم أكرمُ على الله من جميع الخليقة . وخلقَ آدمَ فلم يجعل له أبًا ولا أمًّا ، وخلقه من طينٍ ونسبه إليه ، وخلق حَوّاء من ضِلع آدمَ وجعلها لهُ زوجًا وسَكَنا . وخلق عيسى من غير ذكرٍ ونسبه إلى أمِّه التى خلقه منها . وخَلق الجانَّ من نار السَّموم ، وآدمَ من طينٍ ، وعيسى من غير نُطفة . وخلقَ السَّماءَ من دُخَان ، والأرضَ من الماء ، وخلق إسحاقَ من عاقرٍ . وأنطق عيسى فى المَهْد ، وأنطق يحيى بالحكمة وهو صغير ، وعلَّم سليمانَ منطِق الطَّيرِ ، وكلامَ النَّمل ، وعلَّم الحَفَظة من الملائكة جميعَ الألسنة حتَّى كَتبوا بكلِّ خَطّ ، ونطقوا بكلِّ لسان . وأنطَق ذئبَ أُهبانَ بن أوس[٥] .

---

(١) هى قراءة أبى وعبد الله بن مسعود فى الآية ٦ من سورة الأحزاب . تفسير أبى حيان ٧ : ٢١٢ .

(٢) الآية ٧٨ من سورة الحج .

(٣) هذه التكملة واللتان قبلها من سائر النسخ .

(٤) التكملة من سائر النسخ .

(٥) أهبان هذا : أحد الصحابة ، ذكروا أن الذئب كلّه ثم بشره بالرسول ، =

والمؤمنون من جميع الأمم إذا دخلوا الجنّة ، وكذلك أطفالهم والمجانينُ [منهم[١]] ، يتكلَّمون ساعةَ يدخلون الجنة بلسانِ أهل الجنّة ، على غير الترتيب والتنزيل ، والتعليم على طول الأيّام والتلقين . فكيف يتعجَّب الجاهلون من إنطلق إسماعيل بالعربية على غير تعليمِ الآباء ، وتأديب الحواضن ؟ !

وهذه المسألة ربَّما سأل عنها بعضُ القحطانية، ممن لا علم له، بعضَ العدنانية ، وهي على القحطانيِّ أشدُّ . فأمّا جواب العدنانيّ فسلِسُ النِّظام سهلُ المخرج ، ٢٦ و
قريبُ المعنى ؛ لأنَّ بني قَحطان لا يدَّعون لقحطانَ نُبوَّة[٢] فيعطيَه الله مثلَ هذه الأُعجوبة .

وما الذي قَسَم الله ـ عزَّ اسمُه ـ بين الناس من ذلك ، إلّا كما صنع في طِينة الأرض ، فجعل بعضَها حجراً ، وبعض الحجر ياقوتاً ، وبعضَه ذهبًا ، وبعضه نُحاسًا ، وبعضه رَصاصًا ، وبعضه حديدًا ، وبعضَه ترابًا ، وبعضه فَخَّارًا . وكذلك الزّاج[٣] ، والمَغْرة ، والزِّرنيخ ، والمَرْتك ، والكبريت[٤] ، والقار[٥]

= انظر تفصيل ذلك في ثمار القلوب ٣٠٩ . وانظر كذلك الحيوان ١ : ٢٩٨ / ٣ / ٥١٣ / ٤ : ٨٠/٧ : ٥٠ ، ٢١٣ ، ٢١٧ والإصابة ٣٠٥ . في الأصل : «لهيار» ، صوابه في سائر النسخ والمراجع المتقدمة .

(١) التكملة من م ، ف .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « بنوم » ، تحريف .

(٣) في الأصل وبعض أصول ن : « الزجاج » ، تحريف .

(٤) في الأصل وبعض أصول ن : « والطين » ، صوابه في سائر النسخ .

(٥) في بعض أصول ن وس : « والغار » تحريف . والقار : الزفت .

والتُّوتيا ، والنُّوشادُر(١) ، والمرقَشِيثا ، والمِغناطيس .

ومَنْ يُحصى عددَ أجزاء الأرض(٢) ، وأصنافَ الفلِزّ ؟ !

وإذا كان الأمر على ما وصَفْنا فالبَنَوىُّ خراسانىّ . وإذا كان الخراسانىُّ مولًى ، والمولَى عربىٌّ ـ فقد صار الخراسانىُّ والبَنَوىُّ والمولى والعربىُّ واحدًا .

وأدنى ذلك أن يكون الذى معهم من خصال الوِفاق غامراً ما معهم من خِصال الخِلاف ، بل هم فى معظم الأمر وفى كُبْر الشَّأن(٣) وعمود النَّسب متَّفقون . والأتراكُ خراسانيةٌ وموالى الُخلفاءِ قُصرةً(٤) ، فقد صار التركىُّ إلى الجميع راجعًا ، وصار شرفُه إلى شرفهم زائداً .

وإذا عُرِف سائرُ ذلك سامحت النُّفوس ، وذهب التَّعقيد(٥) ، ومات الضِّغن ، وانقطع سبب الاستثقال ؛ فلم يبقَ إلَّا التحاسُد والتَّنافسُ الذى لا يزال يكون بين المتقاربَين فى القَرابة وفى المجاورة .

على أنَّ التَّوازُرَ والتسالُم(٦) فى القرابات وفى بنى الأعمامِ والعشائرِ ، أفشى وأعمُّ من البُعداء .

(١) انظر حواشى الحيوان ٣ : ٣٧٧ و ٥ : ٣٤٩ .

(٢) وكذا فى بعض أصول ن . وفى سائر النسخ : « جواهر الأرض » .

(٣) كبر الشأن ، بكسر الكاف وضمها : معظمه . وبهما قرئ قوله تعالى : « والذى تولى كبره منهم » .

(٤) قصرة ، بالضم ، أى أدنى إليهم ، كما يقال هو ابن عمى قصرة ، أى دانى النسب . وفى الأصل وبعض أصول ن : « نصرة » .

(٥) التعقيد كناية عن الضغينة المعقودة ، ويقولون للرجل إذا سكن غضبه : قد تحللت عقده . وفى الأصل وبعض أصول ن : « التعقل » ، تحريف .

(٦) فى الأصل وبعض أصول ن : « فإن التوازن فى الفساد » ، صوابه فى سائر النسخ .

ولخوفِ التّخاذل ولحبِّ التناصُر ، والحاجةِ إلى التّعاون ـ انضمَّ بعضُ القبائل فى البوادى إلى بعضٍ ، ينزلون معًا ويَظْعَنون معًا . ومن فارق أصحابَه أقلّ[١] ، [و] من نَصر ابنَ عمِّه أكثر . ومَن اغتبط بنعمتهِ وتمنَّى بقاءها والزيادة فيها أكثر ممَّن بَغَاها الغوائلَ[٢] ، وطلبَ انقطاعَها وزوالَها . ولا بدَّ فى أضعاف ذلك من بعض التَّنافُس والتخاذُل ، إلَّا أنَّ ذلك قليلٌ من كثير .

وليس يجوز أن تصفُوَ الدُّنيا وتَنْقَى من الفساد والمكروه[٣] حتَّى يموت جميعُ الخلائق ، وتستوىَ لأهلها ، وتتمهَّد لسكَّانها على ما يشتهون ويهوَوْن ؛ ٢٦ ظ
لأن ذلك من صفة دار الجزاء ، وليس كذلك صفةُ دارِ العمل .

(١) فى الأصل : « أولى » .

(٢) الغوائل : المهلكات . ويقال بغيتك الشىء : طلبته لك وتمنيته . وفى التنزيل العزيز : « يبغونكم الفتنة » ، أى يبغون لكم .

(٣) نقى الشىء ينقى : صار نقياً خالصا .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب كنتُ كتبتُه أيّامَ المعتصم بالله[١] ،رضى الله عنه ، فلم يصل إليه ، لأسبابٍ يطول شرحُها، فلذلك لم أعرِضْ للإخبار عنها . وأحبَبْتُ أن يكونَ كتاباً قَصْداً ، ومذهباً عَدْلاً ، ولا يكونَ كتابَ إسرافٍ فى مديح قوم ، وإغراقٍ فى هجاء آخرين . وإن كان الكتابُ كذلك شابَهُ الكذب ، وخالطه التزَيُّد ، وبُنِى أساسُه على التكلُّف ، وخرج كلامُه مَخرجَ الاستكراه والتَّغْليق[٢] .

وأنفَعُ المدائح[٣] للمادح وأجداها على الممدوح ، وأبقاها أثراً وأحسنُها ذكرا : أنْ يكون المديحُ صِدقاً ، وللظّاهر[٤] من حَالِ الممدوح موافقاً ، وبه لائقاً ، حتّى لا يكونَ من المعبِّر عنه والواصفِ [له[٥]] إلاَّ الإشارةُ إليه ، والتنبيهُ عليه .

وأنا أقول : إن كان لا يمكن ذلك فى مناقب الأتراكِ إلاَّ بذِكر مثالب سائر الأجناد ، فتَرْكُ ذكرِ الجميعِ أصْوب ، والإضرابُ عن [هذا الكتاب

---

(١) بويع المعتصم بالله محمد بن هارون الرشيد بعد وفاة أخيه المأمون سنة ٢١٨ . وتوفى بسرمن رأى سنة ٢٢٧ . وولى الخلافة بعده ولده هارون الواثق .

(٢) التغليق ، المراد به العسر ،كما يغلق الباب تغليقا . وفى جميع الأصول : «التعليق» بعين مهملة .

(٣) فى الأصل وبعض أصول ن : « المدح » ، ولا تساوق سائر الكلام .

(٤) فى الأصل وبعض أصول ن : « والظاهر » ، والوجه من سائر النسخ التى سقطت منها كلمة « من » بعدها .

(٥) التكملة من سائر النسخ ، وقد سقطت من بعض أصول ن .

أحزم ، وذكر الكثير من[1]] هذه الأصناف بالجميل[2] ، لا يقوم بالقليل[3] من ذِكر بعضِهم بالقبيح ، لأنَّ ذِكر الأكثر بالجميل نافلةٌ ، وبابٌ من التطوُّع ، وذِكرَ الأقلِّ بالقبيح معصية ، وبابٌ من ترك الواجب . وقليلُ الفريضة أجدَى علينا من كثير التطوُّع .

ولكلٍّ نصيبٌ من النَّقص ، ومِقدارٌ من الذُّنوب ؛ وإنَّما يتفاضَل النّاسُ بكثرة المحاسن وقلّة المساوى . فأمّا الاشتمال على جميع المحاسن ، والسَّلامةُ من جميع المساوِى دقيقِها وجليلِها ، وظاهِرها وخفيِّها ، فهذا لا يُعرف .

وقد قال النابغة :

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلُمّه على شَعَثٍ ، أيُّ الرِّجالِ المهذَّبُ

وقال حَرِيش السَّعديّ[4] :

أخ لى كأيّام الحيـاةِ إخاؤه تلوَّنُ ألوانًا علىَّ خطوبُها
إذا عبت مِنْه خَلّةً فتركتُه دعتنى إليه خَلّةٌ لا أعيبها

وقال بشّار[5] : ٣٧ و

إذا كنتَ فى كلِّ الأمور معاتباً خليلَكَ لم تَلقَ الذى لا تُعاتِبهُ

---

(١) التكملة من سائر النسخ .
(٢) فى الأصل : « أجمل » ، صوابه من سائر النسخ .
(٣) فى الأصل : « لا يقوم الكثير من ذكر بعضهم بالجميل بالقليل » ، وتوجيه العبارة من باقى النسخ .
(٤) فى الأصل : « مرس السعدى » ، وأثبت مافى سائر النسخ . والبيتان بدون نسبة فى عيون الأخبار ٣ : ١٧ .
(٥) ديوان بشار ١ : ٣٠٩ وحماسة البحترى ١٠٠ وحماسة ابن الشجرى ١٤٣ والأغانى ٣ : ٤٧ والتمثيل والمحاضرة للثعالبى ٧٤ .

فعِشْ واحداً أو صِلْ أخاكَ فإنَّه مُقــارِفُ ذنبٍ مَرّةً ومُجانبُه
إذا أنتَ لم تشرَبْ مِراراً على القذَى ظَمِيتَ وأيُّ الناس تَصفو مشاربُه

وقال مطيع بن إياسٍ اللَّيثيّ :

ولئن كنتَ لا تصاحبُ إلاَّ صاحباً لا تزِلُّ ، ما عاشَ ، نَعلُه
لم تجِــدْه ولو جَهَدتَ وأنَّى بالذى لا يكونـ يُوجَد مثلُه
إنَّما صاحبى الذى يَغفِر الذنـ ـبَ ويكفيه من أخيه أقلُّه

وقال محمد بن سعيد(١) ، وهو رجل من الجُنْد :

سأشكر عَمراً إن تراخَتْ مَنِيَّتِى أيادىَ لم تُمنَن وإنْ هى جَلَّتِ
فتًى غير محجوب الغِنى عن صديقه
ولا مُظهِرِ الشَّكوى إذا النعلُ زَلَّتِ
رأى خَلَّتى من حيثُ يَخفَى مكانُها فكانت قَذَى عينَيه حتّى تَجلَّتِ

---

(١) فى معجم الشعراء للمرزبانى ٤٢١ أنه محمد بن سعد الكاتب التيمى ، وأنه شاعر بغدادى . وقيل الشعر لأبى الأسود الدؤلى وكان عند عمرو بن سعيد بن العاص فبينا هو يحدث إذ ظهر كم قميصه من تحت جبته وبه خرق ، فلما انصرف بعث إليه بعشرة آلاف درهم ومائة ثوب ، فقال هذا الشعر . وقيل الشعر لعبد الله بن الزَّبير الأسدى ، وأنه أتى عمر بن أبان بن عثمان فسأله فأعطاه . اللآلى ١٦٦ . ونسب إلى إبراهيم بن العباس الصولى فى مجموعة المعانى ٩٦ ومعجم الأدباء ٥ : ٢٥٨ مرجليوث وابن خلكان ٢ : ٢٤٧ . وقيل لعمرو بن كميل يمدح عمرو بن ذكوان وكان قد رآه وعليه جبة بلا قميص فتشفع له حتى ولى الحرب بالبصرة ، فأصاب فى ولايته مالا عظيما . أو هو رجل من أشراف المدينة أنعم عليه عمرو بن سعيد بن العاص وكان قد ظهر كم قميصه من تحت جبته . شرح التبريزى للحماسة . والأبيات بدون نسبة فى الحماسة ١٥٨٩ بشرح المرزوقى وحماسة البحترى ١٥٩ والكامل ١٢٣ .

فإذا كان الخلطاء[١] من جُمهور الناس، وأصحابُ المعايش من دَهْماء الجماعة، يرون ذلك واجباً وتدبيراً فى التعامل، على ما هم فيه من مشاركة الخطأ للصواب، وامتزاج الضَّعف بالقوّة، فلسنا نشكُّ أنّ الإمامَ الأكبرَ والرّئيس الأعظم، مع الأعراق الكريمة والأخلاق الرفيعة، والتَّمام فى الحلم والعلم، والكمال فى الحزم والعَزْم، مع التمكين والقُدرة، والفَضيلةِ والرّياسة [والسيادة[٢]]، والخصائِص التى معه من التَّوفيق والعِصمة، والتأييد وحسن المعونة، أنّ الله[٣] جلّ اسْمه لم يكن ليجلِّله باسم الخلافة، ويحبوَه بتاج الإمامة، وبأعظم نعمةٍ وأسبغها، وأفضل كرامةٍ وأسناها، ثم وصَلَ طاعته بطاعته، ومعصيتَه بمعصيته، إلَّا ومعه من الحلم فى موضع الحلم، والعفو فى موضع العفو، والتَّغافل فى موضع التَّغافل، مالا يبلُغه فضلُ ذى فضل، ولا حِلمُ ذى حلم.

ونحن قائلون، ولا حولَ ولا قوّةَ إلَّا بالله، فيما انتهى إلينا فى أمر الأتراك:

٢٧ ظ زعم محمّدُ بنُ الجَهْم، وثُمامةُ بن أشرَس، والقاسمُ بن سيَّار، فى جماعةٍ ممن يَغشَى دارَ الخلافة، وهى دار العامَّة[٤]، قالوا جميعا:

بينا حُمَيد بنُ عبد الحميد جالسًا ومعه بخشاد الصُّغدىّ[٥]، وأبو شجاع

---

(١) فى الأصل وبعض أصول ن: « الخطاء »، صوابه فى سائر النسخ.

(٢) التكملة من سائر النسخ.

(٣) فى الأصل، وبعض أصول ن: «وأن الله»، وفى سائر النسخ: «لم يكن الله».

(٤) ف فقط: « الإمامة ».

(٥) ن، س: « بخشاد » ج، ف: « إخشيد الصغدى ».

[شبيب[1]] بن بُخاراخداى البَلخيّ ، ويحيى بن معاذ ، ورجال من المعدودين المتقدّمين فى السلم بالحرب [من أصحاب التجارب والمراس ، وطول المعالجة والمعاناة[1]] فى صناعات الحرب[2] ، إذ خرج رسولُ المأمون فقال لهم : نقول لكم متفرِّقين[3] ومُجتمِعين : ليكتبْ كلُّ رجلٍ منكم دعواه وحجته ، وليقُلْ أيُّما أحبُّ إلى [كلِّ[4]] قائدٍ منكم إذا كان فى عُدَّته من صحبه وثِقاته : أنْ يَلقَى مائةَ تركيٍّ أو مائةَ خارجيٍّ ؟ فقال القوم جميعًا : [لأنْ[5]] نلقَى مائة تركيٍّ أحبُّ إلينا من أن نَلقى مائة خارجيّ ! وحُميدٌ[6] ساكت .

فلما فرغ القومُ [جميعًا] من حُجَجهم[7] ، قال الرّسولُ : قد قال القوم فقُلْ

(١) التكملة من سائر النسخ .

(٢) فى سائر النسخ : « بصناعة الحرب » . وكذا فى بعض أصول ن .

(٣) فى سائر النسخ وبعض أصول ن : « مفترقين » .

(٤) التكملة من سائر النسخ .

(٥) التكملة من ف فقط .

(٦) هو أبو غانم حميد بن عبد الحميد الطوسى ، أحد أمراء الدولة العباسية وقوادها وأجوادها ، وهو أحد من وطد الخلافة للمأمون بهزيمته لإبراهيم بن المهدى. وكان لأبى العتاهية وعلى بن جبلة وأبى تمام فيه مدائح . كما رثاه أبو تمام ورثى بنيه محمداً وقحطبة وأبا نصر بقوله :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر   فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

وقد قتل بشربة صنعها له جبريل بن بختيشوع سنة ٢١٠ . الأغانى ١٩ : ١٠٠ – ١١٤ والطبرى ٩ : ٢٤٥ – ٢٥٤ وأسماء المغتالين من نوادر المخطوطات ٢ : ١٩٩ – ٢٠٠ .

(٧) فى الأصل وبعض أصول ن : « حجتهم » ، وأثبت ما فى سائر النسخ وكلمة « جميعاً » قبله تكملة من ف وبعض أصول ن .

واكتبْ قولَك ، وليكن حجّةً لك أو عليك . قال : بل ألقَى مائة خارجيٍّ أحبُّ إليَّ ؛ لأنَّنى وجدت الخصالَ التى يَفضُل بها الخارجىُّ جميعَ المقاتلة غيرَ تامّةٍ فى الخارجىّ ، ووجدتُها تامّةً فى التُّركى . فَفَضْل التركىِّ على الخارجىّ بقَدْر فضل الخارجىِّ على سائر المقاتِلة ، ثمَّ بانَ التركىُّ عن الخارجىِّ بأمورٍ ليس فيها للخارجىِّ دعوى ولا متعلَّق . على أن هذه الأمورَ التى بان بها التركىُّ عن الخارجىّ ، أعظمُ خطراً وأكثر نفعا ، ممَّا شاركه الخارجىُّ فى بعضها[١] .

ثم قال حُميد : والخصال التى يَصُولُ بها الخارجىُّ على سائر الناس صِدق الشَّدَّة عن أوّلِ وهلة ، وهى الدَّفعة التى يَبلُغون بها ما أرادوا ، وينالون الذى أمَّلوا[٢] .

والثانية : الصَّبر على الخبب وعلى طول السُّرى ، حتَّى يُصبِح القومُ [الذين مَرقوا بهم[٣]] غارِّين[٤] فيهجموا عليهم وهم بَسْوء[٥] ، ولحمٌ على وضَم[٦] ، يتعجَّلونهم عن الرَّوِيَّة ، وعن ردِّ النفس عن النَّزوة والجولة ؛ لا يظنُّون أنّ أحدًا يقطع فى ذلك المقدارِ من الزَّمان ذلك المقدارَ من البِلاد .

---

(١) ج ، ف : « فى بعضه » .

(٢) ج ، ف : « وينالون بها ما أملوا » .

(٣) التكملة من سائر النسخ . والمروق : المرور بسرعة ، كما يمرق السهم من الرمية .

(٤) غارّين : غافلين .

(٥) ج ، ف وبعض أصول ن : « بشر » .

(٦) الوضم : جمع وضمة ، وهوكل شىء يوضع عليه اللحم من خشب أو حصير يوقى به الأرض . واللحم على الوضم مثل للضعف وعدم الامتناع .

والثالثة : أنَّ الخارجىَّ موصوفٌ عند[١] الناس بأنَّه إن طَلَبَ أدرَكَ ، وإن طُلِبَ فات .

والرابعة : خِفَّة الأزواد وقلّة الأمتعة ، وأنَّها تَجنُب الخيلَ[٢] وتركبُ البغال ، وإن احتاجت أمسَتْ بأرضٍ وأصبحَتْ بأُخْرى ، وأنَّهم قوم حين خَرَجُوا لم يخلِّفوا الأموالَ الكثيرة ، والجِنَانِ الملتفَّة ، والدُّور المشَيَّدة ، ولا ضياعًا ولا مُستَغَلَّات ، ولا جوارىَ مطهَّمات[٣] ، و [أنهم[٤]] لا سَلَب ٢٨ و
لهم ولا مالَ معهم فيرغبَ الجندُ فى لقائهم ، وإنَّما هم كالطَّير لا تدَّخر ولا تهتمّ لغَدٍ ، ولها فى كلِّ أرضٍ من المياه والأقوات ما تتبلَّغ به[٥] ، وإن لم تجد ذلك فى بعض البلاد فأجنِحتُها تُقرِّب لها البعيد ، وتسهِّل لها الحزون . وكذلك الخوارج لا يمتنع عليهم القِرَى والمَطعَم ، وإنْ تمنَّع عليهم ففى بنات شَحَّاج وبنات صَهَّال[٦] ، وخفَّةِ الأثقال على طُول الخَبَب ، ما يسهِّل أقواتها ، ويكثِّر من أرزاقها .

---

(١) وكذا فى بعض أصول ن . وفى سائر النسخ : « بعد » .

(٢) أى تقودها إلى جنب البغال . والضمير للخوارج .

(٣) المطهم من الناس والخيل : الحسن التام كل شىء منه على حدته ، فهو بارع الجمال .

(٤) التكملة من ج ، ف وبعض أصول ن .

(٥) ج ، ف وبعض أصول ن : « من المياه والبزور ما يقوتها » .

(٦) بنات شحاج ، هى البغال ، لأنها تشحج بصوتها . وبنات صهال ، هى الأفراس ، فللفرس صهيل . ويقال بنات شاحج أيضاً . وبنات صهال لم ترد فى اللسان ولا القاموس ، ولكن وردت فى المزهر ١ : ٥٢٥ .

والخامسة : أن الملوك إنْ أرسَلوا إليهم أعدادهم ليكونوا فى خفّة أوزارهم[(١)] وأثقالهم ، وليقوَوْا على التنقُّل كقوّتهم ، لم يقوَوْا عليهم ؛ لأنّ مائةً من الجند لا يقومون لمائة من الخوارج ؛ وإن كثَّفوا الجيشَ بالجيش ، وضاعفوا العدد [بالعَدد[(٢)]] ثقُلوا عن طلبهم ، وعن الفَوْت إن طلبهم عدوُّهم . ومتى شاء الخارجىُّ أن يقرب منهم ليتطرّفَهم[(٣)] أو ليصيب الغِرّةَ منهم ، أو ليسلُبَهم ، فَعَل ذلك ثقةً بأنّه يغنم عند الفرصة[(٤)] ورؤية العَورة ، ويمكنه الهربُ عند الخوف . وإنْ شاءَ كبسَهم ليقطع نظامَهم ، أو ليقتطِع[(٥)] القطعةَ منهم .

قال حُميد : فهذه هى مَفاخرُهم وخصالهم ، التى لها كرِه القُوّاد لقاءهم .

قال قاسم بن سيَّار : وخَصلة أُخرى ، وهى التى رعَبت القلوبَ وخَلَعتْها ، ونقضت العزائم وفسختْها ، وهو ما تسمع الأجنادُ ومقاتِلة العوامّ ، مِن ضرب المثَل بالخوارج ، كقول الشاعر :

إذا ما البخيـــــلُ والمحاذِر للقِرى
رأى الضَّيفَ مثـــل الأزرقىِّ المجفِّفِ[(٦)]

---

(١) الأوزار : جمع وزر بالكسر ، وهو الحمل الثقيل . ف ، ج وبعض أصول ن : « أزوادهم » ، وهو جمع زاد .
(٢) التكملة من سائر الأصول .
(٣) التطرف : الإغارة من حول العسكر .
(٤) فى الأصل : «وليعلم ذلك فانه يغنم عن الفرصة» ، وصوابه من سائر النسخ .
(٥) فى الأصل وبعض أصول ن : « ليقطع » .
(٦) المجفف : الذى جفف فرسه بالتجفاف ، وهو ما جلل به من سلاح وآلة تقيه الجراح .

وكقول الآخر :

وقَلْبِ ودٍّ حالَ عن عَهدِهِ والسَّيْفُ ينبو بيــدِ الشّارى

وكقول الآخر :

لقاء الأُسدِ أهونُ من لِقاهُ إذا التحكيم يسهر بالأصــيلِ

فهذه زيادة قاسم بن سَيّار .

فأمَّا حُميد فإنّه قال :

الشَّدّةُ الأولى التركيُّ فيها أحمد [أثراً ، وأجمع[١]] أمراً ، وأحكم شأنا ؛

٢٨ ظ لأنَّ التركيَّ من أجْلِ أن تَصدُقَ شَدّتُه ويتمكَّن عزمُه ، ولا يكونَ مشترَكَ العزم ولا منقسِم الخواطر ، قد عوَّد بِرذونَه ألّا ينثنى وإنْ ثناه ، أن يملأ فروجَه[٢] للأمر يديره مرّةً أو مرَّتين ، وإلَّا فإنَّه لا يدع سَنَنه ، ولا يَقطع ركضه . وإنَّما أراد التركيُّ أن يوئس نفسَه من البَدَوات[٣] ، ومن أن يعتريه التكذيبُ بعد الاعتزام ، لهَوْل [اللقاء[٤]] ، وحبِّ الحياة ؛ لأنَّه إذا علم أنه قد صيَّر بِرذَونَه إلى هذه الغاية حتَّى لا ينثنيَ ولا يُجيبه إلى التصرُّف معه إلّا بأنْ يصنع شيئاً بين الصَّفَّين فيه عطبُه ، لم يُقدِم على الشَّدَّة إلَّا بعد إحكام الأمر ، والبصر

---

(١) التكملة من سائر النسخ .

(٢) الفروج : مابين قوائم الفرس ، وملؤها كناية عن الإسراع وشدة العدو حتى لاتكاد تبدو .

(٣) البدوات : الخطرات والآراء تبدو وتظهر .

(٤) موضع هذه الكلمة بياض فى الأصل ، وإثباته من سائر النسخ . وفى الأصل: « لطول » ، تحريف .

بالعورة[١] . وإنَّما يريد أن يُشَبِّه نفسَه بالمُحرَج الذى إذا رأى أشدَّ القتال[٢] لم يَدعْ جُهدا ولم يدَّخر حِيلة ، ولينفىَ عن قلبه خواطرَ الفِرار ، ودواعىَ الرُّجوع .

وقال : الخارجىُّ عند الشَّدَّة إنَّما يعتمد على الطِّعان ، والأتراك تطعن طعنَ الخوارج ، وإن شدَّ منهم ألفُ فارسٍ فرَموا رِشْقاً واحداً صرعوا ألفَ فارس ، فما بقاءُ جيشٍ على هذا النَّوع من الشَّدَّة !

والخوارج والأعراب ليست لهم رِمايةٌ مذكورة على ظهور الخيل ، والتركىُّ يرمى الوحشَ والطَّير ، والبُرجاس[٣] ، والنَّاسَ[٤] ، والمجثَّمة ، والمُثُلَ الموضوعة ، ويَرمِى وقد ملأ فُروجَ دابَّته مُدبِراً ومُقْبلاً ، ويَمنةً ويَسرة ، وصُعُدا وسُفْلا ، ويرمى بعشرة أسهم قبل أن يُفوِّق الخارجىُّ سهماً واحداً[٥] ، ويركض دابَّتَه منحدراً من جَبَل ، أو مستفِلاً إلى بطن واد بأكثرَ مما يمكن الخارجىَّ على بَسيط الأرض .

وللتركىِّ أربعة أعين[٦] : عينان فى وَجْهه ، وعينان فى قفاه . وللخارجىِّ

---

(١) فى الأصل : « والنظر إلى العودة » وكذا فى بعض أصول ن ، والصواب من سائر النسخ .

(٢) فى الأصل : « إذا آثر القتال» ، ووجهه من سائر النسخ .

(٣) سبق تفسيره فى ص ٢١ .

(٤) انظر ما سيأتى فى ص ٤٨ س ٦ و ٥٩ س ٢ .

(٥) فوق السهم : جعل له فوقا ، والفوق بالضم : موضع الوتر من السهم ، والمراد وضع السهم فى الفوق .

(٦) كذا بتأنيث الأربعة مع العين المؤنثة ، وهو وجه جائز فى العربية مذكور فى المطولات . انظر الصبان ٤ : ٦٢ حيث ذكر ابن هشام أن ما كان لفظه مذكراً ومعناه مؤنثا ، أو بالعكس ؛ فإنه يجوز فيه وجهان.

عيبٌ فى مُستدبَر الحرب ، وللخراسانىِّ عيبٌ فى مُستقبَل الحرب . فعيب الخراسانيَّة أنَّ لها جَولة عند أوَّل الالتقاء[1] ، وإن ركبوا [كُسْأهم[2]] كانت هزيمتهم ، وكثيراً ما يَثُوبون ، وذاك [بعد[3]] الخِطار بالعسكر ، وإطماع العدوِّ فى الشَّدَّة .

والخوارج إذا ولَّوْا فقد ولَّوْا وليس لهم بعد الفَرِّ كرّ ، إلَّا ما لا يُعَدّ . والتركىُّ ليست له جولةُ الخراسانىّ ، وإذا أدبَرَ فهو السّمُّ الناقع ، والحَتْف القاضى ؛ لأنه يصيب بسهمه وهو مدبرٌ كما يصيب به وهو مُقْبل ، ولا يُؤمَن وَهَقه[4] ، ولا انتسافُ الفَرَس[5] ، واختطافُ الفارس بتلك الرَّكضة .

ولم يُفْلِت من الوَهَق فى جميع الدَّهر إلَّا المهلَّب بن أبى صُفرة ، والحَريش ٢٩ و
ابن هلال[6] ، وعبَّاد بن الحُصَين[7] . وربَّما رَمى بالوهَق وله فيه تدبير آخر

---

(١) فى الأصل : « بين أول الالتقاء » ، ووجهه من سائر النسخ .

(٢) موضعها بياض فى الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ ما عدا ف ، ففيها : « أكساءهم » بالجمع. ويقال ركب كسأه :وقع على قفاه ، والمراد أدبروا وتقهقروا . وكسء كل شىء : مؤخره . (٣) إثباتها من سائر النسخ .

(٤) الوهق ، بالتحريك : حبل شديد الفتل يرمى وفيه أنشوطة ، فتؤخذ فيه الدابة والإنسان ، وجمعه أوهاق . والكلام بعده إلى كلة « المرمى » ساقط من ج ، ف ، وبعض أصول ن .

(٥) انتسف الشىء : اقتلعه . قال أبو النجم :

وانتسف الجالب من أندابه إغباطنا الميس على أصلابه

(٦) فى الاشتقاق ٢٥٧ : « الحريش بن هلال بن قدامة ، كان من فرسان بنى تميم ، وله أيام بخراسان مشهورة » .

(٧) هو عباد بن الحصين بن يزيد التميمى ، كان شجاعا رئيساً . جمهرة ابن حزم ٢١٣ والاشتقاق ٢٠٢ والبيان ٤ : ٣٦ .

وإن لم يَجْنُب المرمىَّ معه ، يوهم الجاهلَ أنّ ذلك إنما كان لخُرق التُّركى[(١)] ، أو لحِذْق المرمىّ .

قال : وهم علَّموا الفُرسانَ حَمل قوسَين وثلاثة قِسّى ، ومن الأوتار على حسبِ ذلك .

قال : والتركىُّ فى حال شَدّته ، معَه كلُّ شىء يحتاج إليه لنفسه وسلاحه ودابّته وأداة دابّته . فأمَّا الصَّبر على الخَبَبِ وعلى مواصلة السَّفر ، وعلى طُول السُّرى وقَطعِ البلاد ، فعجيبٌ جداً .

فواحدةً : أنّ فرسَ الخارجىِّ لا يصبر صَبر برذَون التُّركىّ .

والخارجىُّ لا يُحسِن أن يعالج فرسَه إلَّا معالجَةَ الفُرســان لخيولهم ، والتُّركى أحذق من البيطار ، وأجود تقويماً لبِرْذونه على ما يريده من الرَّاضَة[(٢)] [وهو استنتجَه[(٣)]] ، وهو ربَّاه فِلوًا ، وتتبَّعه إنْ سماه[(٤)] ، وإنْ ركضَ ركض خلفه . وقد عوَّده ذلك حتَّى عرفه ، كما يعرف الفرس أقدِمْ[(٥)] ،

---

(١) فى الأصل : «لحذق» صوابه فى ن ، س. والخرق ، بالضم: الجهل والحمق، ونقيض الرفق .

(٢) الراضة : جمع رائض ، وهو من يروض الدابة ويسوسها ويذللها . وفى الأصل وبعض أصول ن : « الرياضة » ، صوابه من سائر النسخ .

(٣) موضعها بياض فى الأصل ، وإثباتها من النسخ .

(٤) فى الأصل وبعض أصول ن : « وثبته » ، صوابه من سائر النسخ .

(٥) أقدم : زجر للفرس ، وكذا اقدم . ومثله اجدَم وهجدَم ، كلها زجر للفرس . فى معظم النسخ : « اجدم » بالجيم ، وهذه بوصل الهمزة وفتح الدال .

والنّاقة حَلْ[١] ، والجمل جَاهِ ، والبغل عَدَسْ ، والحمار ساسا ، وكما يعرف المجنون لقبَه والصبيُّ اسْمه .

ولو حصّلت عُمر التركىِّ وحَسبت أيامه لوجدتَ جلوسَه على ظهر دابّته أكثرَ من جلوسه على ظهر الأرض . والتركىُّ يركب فَحلا أو رَمَكَة ، ويَخرج غازيًا أو مسافراً ، أو متباعداً فى طلب صيدٍ ، أو سببٍ من الأسباب ، فتتبعه الرَّمَكة وأفلاؤها ، إن أعياه اصطيادُ الناس اصطاد الوحش ، وإن أخفقَ منها أو احتاج إلى طعامٍ فَصَدَ دابّةً من دوابِّه ، وإن عَطِش حَلب رَمَكة من رِماكه ، وإن أراح واحدةً تحتَه ركب أخرى من غير أن ينزل إلى الأرض . وليس فى الأرض أحدٌ إلّا وبدنه ينتقض على اقتيات اللّحم وحدَه غيرُه ؛ وكذلك دابّته تكتفى بالعَنقَر[٢] والعُشب والشَّجر ، لا يظلُّها من شمس ولا يكنُّها من برد .

قال : وأما الصَّبر على الخَبَب فإنَّ الثَّغرَيِّين،[٣] والفُرانقيِّين[٤] ، والخُصيان والخوارجَ ، لو اجتمعت قواهم فى شخصٍ واحد لما وفَوْا بتركىٍّ واحد[٥] .

---

(١) ويقال : « حلى » أيضاً كما فى بعض النسخ . وقال أبو النجم :

* وقد حدوناها بحوب وحل *

(٢) العنقر ، بضم العين والقاف : أصل البقل والقصب والبردى مادام أبيض مجتمعاً . فى الأصل : « بالعفر » ، صوابه من سائر النسخ .

(٣) الثغريون : نسبة إلى الثغر ، وهو واحد ثغور الشام ، ومن أشهر مدنه أنطاكية وبغراس والمصيصة ، وأصل أهلها من الروم .

(٤) نسبة إلى الفرانق ، يعنى بهم عمال البريد . ويبدو أنهم كانوا من غير العرب . والفرانق : الذى يدل صاحب البريد على الطريق ، معرب « پرْوانك » .

(٥) يقال وفى الشىء الشىء ووفى به : عادله . وفى الأصل وبعض أصول ن : « لم يوفوا » ، تحريف .

والتركىُّ لا يبقى معه على طول الغاية إلّا الصَّميمُ من دوابِّه[١] . [و] الذى يقتُله التركىُّ بإتعابه له ، وينفيه[٢] عند غَزاته ، هو الذى لا يَصبِر معه فرس الخارجىّ ، ولا يبْقى معه كُلُّ بِرذَونٍ بُخارىّ[٣] . ولو سايرَ خارجيًّا لاستفرغَ وُسْعَه قبل أن يبلغ الخارجىُّ عَفوَه[٤] . ٢٩ ظ

والتُّركى هو الراعى ، وهو السائس وهو الرائض ، وهو النَّخَّاس ، وهو البَيطار ، وهو الفارس . والتركىُّ الواحدُ أمّةٌ على حِدة .

قال : وإذا سار التركىُّ فى غير عَساكر الترك ، فسار القومُ عَشْرَةَ أميالٍ سار عشرين مِيلا ؛ لأنه ينقطع عن العسكر يَمنةً ويَسرة ، ويُسرع فى ذُرى الجبال ، ويَستبطِن قُعور الأودية فى طلب الصَّيد ؛ وهو فى ذلك يرمى [كُلَّ[٥]] ما دبَّ ودَرَج ، وطارَ ووقع .

قال : والتركىُّ لم يَسِر فى العساكر سيرَ النَّاسِ قطُّ ، ولا سارَ مستقيمًا قطُّ .

قالوا : وإذا طالت الدُّلْجة واشتدَّ السير ، وبَعُد المنزل ، وانتصف النَّهار ، واشتدَّ التَّعب ، وشغلَ النَاسَ الكَلالُ[٦] ، وصَمَت المتسايرون فلم ينطقوا ،

---

(١) الصميم : الخالص المحض . فى الأصل : « الاطول الصميم » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٢) فى بعض أصول ن : « ويبقيه » .

(٣) نسبة إلى بخارى . وفى بعض أصول ن : « تخارى » .

(٤) العفو : مايجىء بسهولة وبغير كلفة . فى سائر النسخ : «لاستفرغ جهده » .

(٥) التكملة من سائر النسخ .

(٦) الكلال : التعب والإعياء . ج ، ف وبعض أصول ن : « الكلام » ، تحريف

وقطَعَهم ما هم فيه عن التّشاغُل بالحديث ، وتَفَسَّخَ كُلُّ شيء من شدّة الحرّ ، وخمد كُلُّ شيء من شدَّة البرد[١] ، وتمنَّى كُلُّ جليدِ القوى على طُول السُّرى[٢] أنْ تُطوَى له الأرض ، وكلّما رأى خيالًا أو أبصر علَمًا[٣] سُرَّ به واستبشر ، وظنَّ أنَّه قد بلغ المنزل ؛ فإذا بلغَه الفارس نزلَ وهو متفحِّجٌ[٤] كأنَّه صبيٌّ مَحقون ، يئنُّ أنينَ المريض ، ويستريح إلى التثاؤب ، ويتداوى مما به بالتمطِّى والتضجُّع . وترى التركىَّ فى تلك الحال وقد سار ضعفَ ما ساروا وقد أتعب مَنكِبيه كثرةُ النَّزْع[٥] ، يرى قُربَ المنزلِ عَيْرًا[٦] أو ظبيًا ، أو عرَض له ثَعلبٌ أو أرنب ، فيركضُ ركضَ مبتدئٍ مستأنِف ، كأنَّ الذى سار ذلك السَّيرَ وتعب ذلك التّعبَ غيرُه .

وإنْ بلغ الناسُ واديًا فازدحموا على مَسلكه أو [على[٧]] قنطرته ، بطَن بِرذونَه فأقحمَه[٨] ثم طَلَع من الجانب الآخَر كأنَّه كوكب . وإن انتهَوْا إلى عَقَبةٍ صَعبةٍ ترَكَ السَّنَنَ[٩] وذهب فى الجبل صُعُدًا ، ثم تدلَّى من موضعٍ يَعجِز

(١) ج ، ف : « وتفسخ كل شيء من شدة البرد » فقط .
(٢) ف فقط : « قوى على طول السرى » .
(٣) أبصر ، من الأصل فقط . وفى الأصل : « عطاء » موضع «علما » ، صوابه من باقى النسخ .
(٤) متفحج : قد فتح ما بين رجليه .
(٥) النزع فى القوس : مد وترها للرمى بسهامها .
(٦) فى الأصل وبعض أصول ن : « عنزا » ، ووجهه من سائر النسخ .
(٧) التكملة من سائر النسخ .
(٨) بطنه بطنا : ضرب بطنه .
(٩) السنن : نهج الطريق ومحجته . فى الأصل ، ف: « السير » ، صوابه فى سائر النسخ .

عنه الوعِل ؛ وأنت تحسبه مخاطراً بنفسه ، للذى تَرَى من مُطَّلعه . ولو كان فى كلِّ ذلك مخاطراً لما دامت له السلامة مع تتابعِ ذلك منه .

قال : ويفخر الخارجىُّ بأنّه إذا طَلَب أَدرَك ، وإذا طُلِب لم يُدرَك . ٣١ و
والتركىُّ ليس يُحوَج إلى أنْ يفوت ؛ لأنه لا يُطلب ولا يُرام . ومَن يروم [ما لا يُطمع فيه] ؟!

فهذا . على أنَّا قد علمنا أنَّ العـلَّة التى عمَّت الخوارجَ بالنَّجدة استواء حالاتهم فى الدِّيانة ، واعتقادُهم أنَّ القتال دِين ؛ لأنَّنا حين وجدنا السِّجستانىَّ والُخراسانى والجَزَرىَّ واليمامىَّ والمغربِىَّ والعُمانىَّ ، والأزرقىَّ منهم والنَّجْدىَّ[١] والإباضىَّ والصُّفْرىّ ، والمولى والعربىّ ، والعجمىَّ والأعرابىّ ، والعَبيـد والنِّساء ، والحائك والفَـلَّاح ، كلُّهم يقاتل مع اختلاف الأنساب وتباين البلدان[٢] ــ علمْنا أنَّ الدِّيانة هى التى سوَّتْ بينهم ، ووفَّقت بينهم فى ذلك . كما أنَّ كلَّ حجَّامٍ فى الأرض من أىّ جنسٍ كان ، ومن أى بلدٍ كان،فهو يحبُّ

(١) نسبة إلى نجدة بن عامر ــ وقيل عاصم ــ الحنفى . وهم النجدات أيضاً . وكان نجدة ممن خرج مع ابن الزبير ثم فارقه هو ونافع بن الأزرق من الخوارج ، فصار نافع إلى البصرة ، ونجدة إلى اليمامة . وذلك فى سنة ٦٤ . الملل والنحل ١ : ١٦٥ والطبرى ٧ : ٥٦ ــ ٥٧٠ . ثم صار إلى الطائف ثم إلى البحرين ، ووجه إليه مصعب الزبير بخيل بعد خيل فهزمهم ، وظل خمس سنوات هو وعماله بالبحرين واليمامة وعمان وهجر والعرض ، ثم نقم عليه الخوارج فخلعوه بعد أن كان يسمى أمير المؤمنين ، وأقاموا أبا فديك مكانه سنة ٧٣ وقتل نجدة فى تلك السنة . الطبرى ٧ : ١٩٤ . وانظر أيضاً الفرق بين الفرق ٦٧ والمواقف ٦٢٩ .

(٢) فى الأصل : « وسائر البلدان » ، صوابه من سائر النسخ .

النَّبيذ ، وكما أنَّ أصحاب الخُلْقان[١] والسَّماكين والنَّخَّاسين والحاكَة فى كلِّ بلد من كلِّ جنس ، شِرَارُ خلق الله فى المبايعة والمعاملة . فعلمنا بذلك أنَّ ذلك خِلقةٌ فى هذه الصناعات ، وبِنْيَةٌ فى هذه التِّجارات ، حين صاروا من بين جميع الناس كذلك .

قال : ورأينا التركىَّ فى بلاده ليس يقاتل على دينٍ ولا على تأويل ، ولا على مُلْك ولا على خَراج ، ولا على عصبيّةٍ ولا على غَيرةٍ دونَ الحُرمة والمَحْرَم[٢] ، ولا على حَمِيّة ولا على عَداوة ، ولا على وطنٍ ومنع دارٍ ولا مال ؛ وإنَّما يقاتل على السَّلب والخيارُ فى يده . وليس يخاف الوعيدَ إن هرب ، ولا يرجو الوَعْدَ إنْ أَبلَى عذرا . وكذلك هم فى بلادهم وغاراتهم وحروبهم . وهو الطالب غير المطلوب ؛ ومن كان كذلك فإنَّما يأخذ العفْوَ من قُوَّته ، ولا يحتاج إلى [مجهوده[٣]] . ثم هو مع ذلك لا يقُوم له شىءٌ ولا يَطمع فيه أحد ، فما ظنُّك بمن هذه صفتُه أنْ لو اضطرَّه إحراجٌ أو غَيْرةٌ أو غَضَب أو تديُّن ، أو عَرَضَ له بعضُ ما يصحبُ المقاتِلَ المحامىَ من العلل والأسباب .

قال : وقناة الخارجىِّ طويلة صَمَّاء ، وقناة التُّركىّ مِطرَدٌ أجوف[٤] . والقُنِىُّ المجوَّفة القِصار أشدُّ طعنةً وأخفُّ فى المحمِل . والعجم تجعل القُنِىَّ

---

(١) يراد بهم من يبيعون الخلقان من الثياب ، جمع خلق ، وهو البالى . انظر الحيوان ٢ : ١٠٥ .

(٢) أى على غيرة على حرمته ومحرمه . فى الأصل وبعض أصول ن: «غير ذلك» صوابه فى سائر النسخ .

(٣) موضعها بياض فى الأصل ، وإثباتها من ب .

(٤) المطرد : رمح قصير .

الطِّوالَ للرَّجَّالة ، وهى قُنىّ الأبناء[1] ، على أبواب الخنادقِ والمضايق . ٣٠ ظ
والأبناء فى هذا الباب لا يَجرُون مع الأتراك والخُراسانيَّة ؛ لأنَّ الغالبَ على الأبناء المطاعنةُ على أبواب الخنادق وفى المضايق ، وهؤلاء أصحابُ الخَيل والفرسانُ وعلى الخيل والفُرسانِ تدور الجُيوش ، لهم الكرُّ والفرُّ . والفارس هو الذى يَطوِى الجيش طىَّ السجِلّ ، ويفرِّقهم تفريق الشعر . وليس يكون الكَمينُ إلّا منهم ولا الطَّليعة ولا السَّاقَة[2] . وهم أصحابُ الأيَّام المذكورة والحروبِ الكبار والفُتوحِ العظام[3] ، ولا تكون القانب والكتائِب الّا منهم . ومنهم من يحمل البُنودَ والرَّايات ، والطُّبول والتجافيف[4] والأجراس . وهم أصحاب الصَّهيل والقَتام[5] ، وزجْرِ الخيل ، وقعقعةِ الريح فى الثِّياب[6]

---

(١) الأبناء ، قوم من الفرس أرسلهم كسرى مع سيف بن ذى يزن لما جاء يستنجده على الحبشة ، فنصروه وملكوا اليمن وتديَّروها ، وتزوجوا فى العرب فقيل لأولادهم الأبناء ، وغلب عليهم هذا الاسم ، لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم . اللسان (بنو) . وفى التنبيه والإشراف ٢٢٦ أنهم الذين ساروا مع خرزاذ بن نرسى ابن جاماسب أخى قباذ بن فيروز . وفى ص ٤٢١ أنهم الذين شخصوا مع وهرز إلى اليمن . ويبدو أن جميع الذين اجتذبتهم الحروب من الفرس إلى جزيرة العرب كان العرب يسمونهم الأبناء .

(٢) كذا فى الأصل وبعض أصول ن . وفى ب : « وليس يكون الكمين ولا الطليعة ولا الساقة إلا الكبار منهم » .

(٣) الكلام بعده إلى موضع التنبيه فى ص ٦٥ لم يرد فى ج ، ف . وسأنبه على ذلك فى موضعه .

(٤) جمع تجفاف ، بكسر التاء وفتحها ، وهو ما يوضع على الخيل من حديد وسلاح يقيه الجراح فى الحروب .

(٥) القتام : الغبار . وفى الأصل وبعض أصول ن : « القيام » .

(٦) فى الأصل : « ثياب » مع بياض بعدها ، وأثبت ما فى ن ، س .

والسِّلاح ووقع الحوافر، والإدراك إذا طَلَبوا، والغَوْث إذا طُلِبوا. ولم يجعل النبيُّ صلى الله عليه وسلم للفارس سهمين وللراجل من المقاتلة سهماً واحداً إلَّا لتضاعيف الردّ في القتل والفُتوح، والنُّهبة والمغانم(١).

ثم قال: ولعمرى إنّ للأبناء من القتال في السِّكك والسُّجون(٢) والمَضَايق ما ليس لغيرهم. ولكن الرجَّالة أبداً أتباعٌ ومأمورون ومنقادون، وقائد الرَّجَّالة لا يكون [إلّا(٣)] فارساً، وقائد الفُرسان من الممتنع أن يكون راجِلاً. ومَن تعوَّدَ الطِّعانَ والضّرب والرميَ راكباً إن اضطُرّ إلى الطَّعن والضَّرب والرمى راجلاً كان على ذاك أدفعَ عن نفسه، وأردَّ عن أصحابه، من الراجل إذا احتاج أن يستعملَ سلاحَه فارساً. وعلى أنّه ما أكثَرَ ما ينزلون ويقاتلون. وقد قال الشاعر(٤):

لم يُطِيقوا أن ينزلوا ونَزَلْنا وأخو الحرب مَن أَطاقَ النُّزولا

وقال الضَّبِّيّ(٥):

* وعَلامَ أركبُهُ إذا لم أنزِلِ(٦) *

---

(١) الرد: النفع. والنهبة، بالضم الغنيمة، كالنهبى. وفى الأصل: « الهيبة »، صوابه فى ن، س.

(٢) وكذا سبق فى ص ٢٧ س ٦.

(٣) تكملة ضرورية.

(٤) هو مهلهل، كما فى الأغانى ٤: ١٤٩ وشروح سقط الزند ٦٦ والخزانة ٢: ٣٠٥. وانظر ما قيل فى النزول فى هذا الموضع من الخزانة.

(٥) هو ربيعة بن مقروم الضبى. الحماسة ص ٦٢ بشرح المرزوقى والخزانة ٢: ٣٠٥.

(٦) صدره: فدعوا نزال فكنت أول نازل

وقال آخر :

* فمعانقٌ ومنــــــــازلُ[١] *

وقال حُمَيد : وليس فى الأرض قومٌ إلّا والتّساندُ فى الحروب ، والاشتراكُ فى الرِّياسة ضارٌّ لهم ، إلّا الأتراكَ . على أنّ الأتراكَ لا يتساندون ولا يتشاركون ؛ وذلك أنّ الذى يُكره من المساندة والمشاركة اختلافُ الرأى ، والتنافُس ٣١ و
فى السِّرّ[٢] ، والتحاسد بين الأشكال ، والتواكل فيما بين المشتركين .

والأتراكُ إذا صافُّوا جيشاً إن[٣] كان فى القوم موضعُ عورةٍ فكلُّهم قد أبصَرها وعرَفها ؛ وإن لم تكن هناك عورةٌ ولم يكن فيهم مطمع ، وكان الرأىُ الانصرافَ ، فكلُّهم قد رأى ذلك الرأىَ وعرفَ الصوابَ فيه . وخواطرهم واحدة ، ودواعيهم مستوية بإقبالهم معاً . وليس هم أصحابَ تأويلاتٍ ولا أصحابَ تفاخر وتناشد ، وإنّما شأنهم إحكام أمرِهم؛ فالاختلاف يقلُّ بينهم .

وكانت الفُرس تعيب العرب إذا خرجو إلى الحرب متساندين ، وكانت تقول : الاشتراكُ فى الحرب وفى الزّوجة وفى الإمْرة سواء .

قال حُمَيد : فما ظنُّك بقومٍ إذا تساندَوا لم يضرّهم التّساند ، فكيف يكونون إذا تحاسدوا .

---

(١) لم أهتد إلى بقيته ولا إلى قائله .

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : « السير » .

(٣) فى الأصل وبعض أصول ن : « وإن » ، والواو مقحمة .

فلما انتهى الخبر إلى المأمون(١) قال : ليست بالتُّرك حاجةٌ إلى حكم حاكم بعد حُمَيد ؛ فإنَّ حُميداً قد مارسَ الفريقين ، وحُميد خُراسانيٌّ وحُميد عربيٌّ ، فليس للتُّهمَة عليه طريق .

قالوا : وأتى الخبرُ ذا اليمينين(٢) طاهرَ بن الحسين فقال : ما أحسنَ ما قال حُميد . أَمَا إنه لم يقصِّر ولم يفرِّط .

فهذا قول الخليفة المأمون ، وحُكم حُميد ، وتصويبُ طاهرٍ .

وخبّرنى رجلٌ من أهل خراسان أو من بنى سَدوس قال : سمعت أبا البطِّ يقول : ويلكم ، كيف أصنع بفارسٍ يملأ فروج دابَّته منحدراً من جَبَل ، أو مُصْعِداً فى مقطعٍ عَفِير ، ويمكنه على ظهر الفَرس مالا يمكن الرّقّاص الأُبُلّيّ(٣) على ظهر الأرض .

قال : وقال سعيد بن عُقْبة بن سَلْم الهُنائيّ(٤) ، وكان ذا رأيٍ فى الحرب وابنَ ذى رأيٍ فيها(٥) : فَرقُ ما بيننا وبين التُّرك أن التُّرك لم تغزُ قوماً قطّ ،

---

(١) كلمة « الخبر » ساقطة من ن ، س

(٢) قالوا : سمى بذلك لأنه ضرب شخصا بالسيف فى وقعته مع على بن ماهان ، فقدَّه نصفين ، وكانت الضربة بيساره . ولد طاهر سنة ١٥٩ وتوفى سنة ٢٠٧ . وفيات الأعيان وثمار القلوب ٢٠٧ .

(٣) نسبة إلى الأبلة ، وهى بلدة على شاطئ دجلة ، وفيها يقول الأصمعى : جنان الدنيا ثلاث : غوطة دمشق ، ونهر بلخ ، ونهر الأبلة .

(٤) نسبة إلى بنى هناءة بن مالك بن فهم بن دوس . الاشتقاق ٤٩٨ وجمهرة ابن حزم ٣٨٠ حيث ذكر عقبة بن سلم .

(٥) كان عقبة بن سلم والد سعيد والياً للمنصور على البحرين والبصرة .

ولا صافّت جيشاً ولا هجَمَتْ على عدّو كانوا عرباً أو عجماً ، فأخرَجوا إليهم أعدادَهم ولَقُوهم بمثلهم . وليس غايتهم إلّا أن ينقادوا ليكفُّوا عنهم بأسَهم ومَعرّتَهم[(١)] ، ويصرفوا عنهم كيدهم . فإن هم امتنعوا من الصُّلح واعتزموا على الحرب فليس شأنهم والذى يدور عليه أمرهم إلّا مَنعَ أنفسِهم وتَحصينَ عسكرهم ، والاحتراسَ منهم . فأمّا أن ترقى هِمَمُهم وتسموَ أنفسُهم إلى الاحتيال عليهم ، والتماس غِرّتهم ، فإنّ هذا شئ لا يخطُر على بالِ من يحاربهم . ٣١ ظ

ثم قال : وقد عرفتم حيلَهم فى دخول المُدن من جهة حِيطانها المُصْمَتة العريضة ، وحيلتَهم فى عبور نهر بَلْخ .

وسعيدٌ هذا هو الذى قال : إذا حاربتم وكنتم ثلاثةً فاجعلوا واحداً مددا ، وآخرَ كمينا . وله كلامٌ فى الحرب غير هذا كثير .

قال سعيد : وأخبرنى أبى قال : شهدت أبا الخطّاب يزيد بن قَتادة ابن دِعامة الفقيهِ[(٢)] ، وذكر قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى التُّرك حيث قال : « عَدوٌّ شديدٌ طلبُه ، قليلٌ سلبُه » ، فقال رجلٌ من العاليَة : نهى عمرُ[(٣)] أبا زُبيدٍ الطائىَّ عن وصف الأسد ؛ لأنَّ ذلك ممّا يزيد فى رُعب

---

(١) المعرة : الشدة والأذى فى الحرب .

(٢) ليس الفقيه يزيد ، بل أبوه قتادة هو الفقيه . وهو قتادة بن دعامة السدوسى ، وكنيته أبو الخطاب أيضاً . ولد سنة ٦١ وتوفى سنة ١١٧ . تهذيب التهذيب ووفيات الأعيان ونكت الهميان ٢٣٠ . وقد ذكر الجاحظ قتادة فى مواضع كثيرة من الحيوان والبيان .

(٣) كذا . والمعروف أن عثمان بن عفان هو الذى نهاه . انظر طبقات ابن سلام ٥١٠ و الأغانى ١١ : ٢٤ والخزانة ٢ : ١٥٥ .

الجبان ، وفى هَول الجَنان ، ويُقلُّ من رَغَب الشُّجاع[١] ، وقد وُصِف التُّرك بأشدَّ من وصف أبى زُبيدٍ الأسد .

وقال سعيد فى حديثه يومئذ ، وقد قطعتْ شِرذِمةٌ منهم بلادَ أبى خزيمة – يُريدُ حمزة[٢] بن أدركَ الخارجىّ – وما والى خُراسانَ [فى] بعض الأمر ، وحَمزةُ فى مُعظَمِ الناس ، فقال لأصحابه : أفرِجوا لهم ما تركوكم ، ولا تتعرَّضوا لهم ؛ فإنّه قد قيل : « تاركوهم ما تاركوكم » .

فهذا قول سعيد بن عقبة ورأيُه وحديثه ؛ وهو عربىٌّ خُراسانى .

وذكر يزيد بن مَزْيد الوقْعةَ التى قَتل فيها يولبا[٣] التركىُّ الوليدَ بن طريفٍ[٤] الخارجىّ ، فقال فى بعض ما يصف من شأن التُّرك : ليس لبدن التُّركى على

---

(١) الرغَــب : الرغبة والطمع والحرص .

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : « يزيد بن حمزة » تحريف . وأبو خزيمة كنية حمزة . وفى البيان ٤ : ٢٥ عند الكلام على الكنية بأبى خزيمة : « وهذه الكنية كنية زرارة بن عدس ، وكنية خازم بن خزيمة ، وكنية حمزة بن أدرك » . وفى الطبرى ١٠ : ٦٥ وابن الأثير ٦ : ٥٣ : « حمزة بن أترك » وما هنا يطابق البيان والملل والنحل ١ : ١٧٤ . وكان حمزة صاحب فرقة من فرق العجاردة من الخوارج ، خرج فى أيام هارون الرشيد سنة ١٧٩ بسجستان وخراسان ومكران وقهستان ، وهزم الجيوش الكبيرة ، وبقى الناس فى فتنته إلى أن مضى صدر من أيام خلافة المأمون ، ودارت بينه وبين طاهر بن الحسين وعبد الرحمن النيسابورى حروب انتهت بموت حمزة . وانظر المواقف ٦٣٠ والفرق بين الفرق ٧٦ والاعتقادات للرازى ٤٨ .

(٣) أهمل نقط الحرف الأول فى الأصل وبعض أصول ن .

(٤) هذا نص نادر ، فإن الضربة التى أصيب بها الوليد بن طريف لم يعين =

ظهر الدابّة ثِقل ، ولا لمشيه على الأرضِ وَقْع ، وإنّه ليَرى وهو مدبرٌ ما لا يرى الفارسُ منّا وهو مُقْبل . وهو يرى الفارسَ منا صَيدًا ويعدُّ نفسَه فَهْدا ، ويعُدُّه ظبياً[1] ويعدُّ نفسَه كلبا . والله لو رُمِيَ به فى قعرِ بئر مكتوفا لما أعجزَتْه الحيلة ؟ ولولا أنَّ أعمار عامَّتهم تقصُر دُون الجَبَل – يعنى جَبَل حُلوان – ثم همُّوا بنا ، لألقَوا لنا شُغْلاً طويلاً .

وأنشد رجلٌ من أصحابه :

هَبِ الدنيا تُسَاقُ إليك عفـوًا أليس مصيرُ ذاكَ إلى زَوَالِ

قال : أمّا التُّركى فَلأَن يَنالَ الـكَفافَ غَصبًا أحبُّ إليه من أن ينال المُلْك عفواً . ولم يَتهنَّ تُركىٌّ بطعامٍ إلّا أن يكون صيداً أو مغنما ، ولا يُعَزُّ[2] على ظَهر دابّته طالباً كان أو مطلوبا . ٣٢ و

وقال ثُمامة بن أشرس ، وكان مثلَ محمّدِ بن الجهم فى كثرة ذِكره للتُّرك . قال ثمامة : التركىُّ لا يخاف إلّا مَخُوفا ولا يَطمع فى غير مطمع ، ولا يكفُّه عن الطَّلب إلّا اليأسُ صِرفا ، ولا يدع القليلَ حتَّى يصيب أكثَرَ منه ، وإنْ قدر أن يجمعهُما لم يفرِّط فى واحدٍ منهما . والباب الذى لا يُحسنه لا يُحسن منه شيئاً ،

= ضار بها المؤرخون . انظر ابن الأثير ٦ : ٥١ فى حوادث ١٧٩ وكذا الأغانى ١١ : ٩ . وقد ذكر ابن الأثير وأبو الفرج والطبرى ١٠ : ٦٥ أن يزيد بن مزيد هو الذى احتز رأسه بعد ما أصيب . وفى ذلك تقول أخت الوليد ليلى بنت طريف ، أو الفارعة :

فإن يك أرداه يزيد بن مزيد فيارُبَّ خيـل فضها وصفوفِ

وانظر الأمالى ٢ : ٢٧٤ واللآلىء ٩١٣ ووفيات الأعيان ٢ : ١٧٩ .

(١) أى يعد الفارس منا ظبيا جديراً بالقنص . وفى الأصل وبعض أصول ن : « ونعده » .

(٢) أى لايغلب . فى الأصل و ن : « ولا يغر » . وفى س : « ولا يفر » .

والباب الذى يُحسنه قد أحكمه بأَسره وأمرَّه[١] وخفيُّه عنده كظاهره[٢] ، ولا يتشاغل بشىء ليس فيه شىء ، ولا على نفسه من شىء[٣] . فلولا أن يُجِمَّ نفسَه بالنَّوم لما نام ، على أنَّ نومَه مشوبٌ باليقَظة ، ويقظتَه سليمة من الوَسْنة . ولو كان فى شِقِّهم أنبياء ، وفى أرضهم حُكماء ، وكانت هذه الخواطرُ قد مرّتْ على قلوبهم ، وقَرعَت أسماعَهم[٤] ، لأنْسَوكَ أدب البصريِّينَ ، وحِكمة اليونانيِّين ، وصَنعةَ أهلِ الصِّين .

وقال ثمامة : عَرضَ لنا فى طريق خُراسانَ تركىٌّ ومعنا قائد يصولُ بنفسه ورجاله ، وبيننا وبين التركىِّ وادٍ ، فسأله أن يبارزه فارسٌ من القوم ، فأخرج له رجلًا لم أر قطُّ أكملَ منه ، ولا أحسنَ تمامًا وقوامًا منه ، فاحتال حتّى عبر إليهم الفارس ، فتَجاوَلا ساعةً ، ولا نظنُّ إلّا أنَّ صاحبنا يَفِي بأضعافه ، وهو فى ذلك يتباعد عنَّا . فبينا هما فى ذلك إذْ ولَّى عنه التُّركى كالهاربِ منه ، وفَعل ذلك فى موضعٍ ظننَّا أنَّ صاحبنا قد ظهر عليه ، وأتبعه الفارسُ لا نشكُّ إلّا أنّه سيأتينا برأسه ، أو يأتينا به مجنوباً إلى فرسه ، [فلم نشعر[٥]] إلَّا وصاحبُنا قد أفلتَ عن فرسه وغاب عنه ، فنزل التركىُّ إليه فأخذ سَلَبَه وقتلهُ ، ثم عارضَ فرسَهُ فجنبه إليه معه .

---

(١) أمره إمرارا : أحكمه ووثقه توثيقاً .
(٢) فى الأصل و ن : « وأمره عنده خفيه كظاهره » . والوجه ما أثبت من س .
(٣) صحفت فى ن ، س بزيادة « يخاف » بعد كلمة «لا» .
(٤) هذا هو الصواب ، وعدلت فى ن ، س إلى : « وفرغت لها أسماعهم » ، وليس مايدعو إلى ذلك ، وما أثبت من الأصل أوفق وأعلى .
(٥) موضعها بياض فى الأصل ، وإثباتها من ن ، س .

قال ثمامة : ثم رأيتُ بعد ذلك التركىّ قد جِئ به أسيراً إلى دار الفضل ابن سهل ، فقلت له: كيفَ صنعتَ يومئذ ، وكيف طاولتَه ثمّ علاكَ ثم وليت عنه هاربا ثم قتلته ؟ قال : أمَا إنّى لو شئت أن أقتله حين عَبَر؛ وقد كانَ مقتلُه بارزاً لى ، ولكنّى احتلتُ عليه حتّى نحَّيته عن أصحابه لأجوِّزه ، فلا يُحَالَ بينى وبين فرسِه وسَلَبه . ٣٢ ظ

قال ثمامة : وإذا هو يُديِر الفارسَ من سائر الناس ويُريغُه كيف شاءَ وأحبّ(١) .

قال ثمامة : وقد غَبرتُ فى أيديهم أسيراً فما رأيتُ كإكرامهم وتُحفهم وألطافهم .

فهذا ثمامةُ بن أشرَس ، وهو عربىٌّ لا يُتَّهم فى الإخبار عنهم .

وأنا أُخبرك أنّى قد رأيتُ منهم شيئاً عجيباً وأمراً غريبا : رأيت فى بعض غَزَوات المأمون سِماطَىْ خيلٍ على جَنْبتى الطَّريق بقُرب المنزل ، مائة فارسٍ من الأتراك فى الجانب الأيمن ، ومائةٌ من سائر الناس فى الجانب الأيسر ، وإذا هم قد اصطفُّوا ينتظرون مجىءَ المأمونِ ، وقد انتصفَ النّهارُ واشتدَّ الحر . فورد عليهم وجَمعُ الأتراك(٢) جلوسٌ على ظُهور خيولهم إلّا ثلاثة أو أربعة ، وجميع تلك الأخلاطِ من الجند قد رَمَوْا بنفوسهم إلى الأرض إلّا ثلاثةً أو أربعة . فقلت

(١) أراغه : أراده وطلبه . وعلى الأمر : أداره عليه . وأنشدوا :

يديرونى عن سالم وأريغه   وجلدة بين العين والأنف سالم

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : « وجميع » .

لصاحبٍ لى : انظر أىُّ شىء اتَّفق لنا . أشهد أنَّ المعتصمَ كان أعرفَ بهم حين جَمَعهم واصطنعهم .

وأردتُ مرّةً القاطُولَ ــ وهى المباركة ــ وأنا خارجٌ من بغداد ، وأرى فوارسَ من أهل خراسان والأبناءِ وغيرهم من أصناف الجند ، قد عارَ لهم فرس(١) ، وهم على خيلٍ عتاق يُريغونه فلا يقدرون على أَخْذه ، ومرّ تركىٌّ ولم يكنْ من ذوى هيئاتهم وذوى القدرِ منهم ، وهو على بِرذونٍ له خسيس ، وهم على الخيول المطهَّمة ، فاعترضَ الفرسَ اعتراضًا ، وقتله قتلا وَحِيًّا(٢) ؛ وأتاه مَن زجَره بشىء ، فوقف أولئك الجندُ وصارُوا نَظّارة ، فقال بعضهم ممن كان يُزرِى على ذلك التركىّ : هذا وأبيك التكلُّف والتعرُّض : أنّ فرسًا قد أعجزهم وهم أَسْد البِلاد ، وجاءَ هذا مع قِصَر قامته وضَعْف دابَّته ، فطمِعَ أن يأخذه . فما انقضَى كلامُه حتّى أقبلَ به ثمّ سلَّمه إليهم ومضى لطَلِبته ، لم ينتظر ثَناءَهم ولا دُعاءَهم ، ولا أَراهم أنَّه قد صنع شيئًا ، أو أتَى إليهم معروفا .

والأتراك قومٌ لا يعرفون المَلَق ولا الخِلابةَ ، ولا النِّفاق ولا السِّعاية ، ٣٣ و
ولا التصنُّع ولا النَّميمة ولا الرِّياء ، ولا البَذَخ على الأولياء(٣) ، ولا البغْىَ على الخلطاء ، ولا يعرفون البِدَع ، ولم تُفسِدهم الأهواء ، ولا يستحلُّون الأموال على التأوُّل ، وإنما كان عَيبَهم ، والذى يُوحِش منهم ، الحنينُ إلى الأوطان ، وحبُّ التقلُّب فى البُلدان ، والصَّبابة بالغارات ، والشَّغَف بالنَّهب ، وشدَّة

(١) عار يعير : انفلت وذهب هاهنا وهاهنا وحاد عن الطريق .
(٢) الوحى : السريع .
(٣) البذخ : الكبر والتطاول والفخر .

الإلف للعادة ، مع ما كانوا يتذاكرون من سُرور الظفر وتَتابُعِه ، وحَلاوة المَغْنم وكثرته ، وملاعبهم في تلك الصَّحارى ، وتردُّدهم في تلك المُروج ، وألَّا يذهب بطول الفَراغ فضلُ نَجْدتهم باطلا ، ويصير حَدُّهم على طول الأيام كليلًا .

ومَن حَذق شيئاً لم يَصبِر عنه ، ومن كَرِه أمرًا فرَّ منه .

وإنّما خُصُّوا بالحنين من بين جميع العجم لأنَّ في تركيبهم وأخلاطِ طبائعهم من تركيب بلدهم وتربيتهم ، ومشاكلة مياههم ومناسبة إخوانهم ، ما ليس مع أحدٍ سواهم . ألَا ترى أنَّك ترى البصريَّ فلا تدرى أبصريٌّ هو أم كوفيّ ، وترى المكّيَّ فلا تدرى أمكّيّ هو أم مدنيّ . وترى الجَبَليَّ فلا تدرى أجَبَليٌّ هو أم خراسانيّ ، وترى الجَزَريَّ فلا تدرِى أجَزَريٌّ هو أم شاميّ . وأنت لا تَغلَط في التركيّ ، ولا تحتاج فيه إلى قيافةٍ ولا إلى فِراسة ، ولا إلى مُساءلة . ونساؤهم كرجالهم ، ودوابُّهم تركيّةٌ مثلهم .

وهكذا طَبَع اللهُ تلك البلدة ، وقسم لِتلك التُّربة . وجميعُ دُور الدنيا ونشوُّها إلى منتهى قُواها ومدَّة أجلها ، جارية على عللها ، وعلى مقدار أسبابها ، وعلى قدر ما خصَّها الله تعالى به وأبانَها ، وجَعَل فيها . فإذا صاروا إلى دار الجزاء ، فهي كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً[1] ﴾ .

وكذلك ترى أبناءَ العرب والأعرابِ الذين نزلوا خُراسانَ ، لا تَفصِل بين من نزل أبوه بفرغانة وبين أهل فَرغانة ، ولا ترى بينهم فرقًا في السِّبال الصُّهب

(١) الآية ٣٥ من سورة الواقعة .

والجلود القَشِرة[١] ، والأقفاء العظيمة ، والأكسية الفَرغانية . وكذلك جميع تلك الأرباع ، لا تفصل بين أبناء النازلة وبين أبناء النّابتة .

٣٣ ظ ومحبّةُ الوطن شيءٌ شاملٌ لجميع الناس ، وغالبٌ على جميع الجِيرة[٢] . ولكن ذاك في التُّرك أغلَب ، وفيها أرسَخ ؛ لما معها من خاصّة المشاكلة والمناسبة ، واستواء الشَّبَه ، وتكافِي التركيب . ألا ترى أنّ العبديّ يقول[٣] : « عَمَّر اللهُ البُلدان بحبِّ الأوطان » ، وأنّ ابنَ الزُّبير قال : « ليس الناس بشيء من أقسامهم أقنَعَ منهم بأوطانهم[٤] » ، وأنّ عُمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « لولا تفرُّق أهواء العِباد لما عَمّر الله البِلاد » ، وأنّ جُمعة الإياديّة قالت : « لولا ما أوصى الله به العبادَ من قَفْر البلاد ، لما وَسِعهم وادٍ ولا كفاهم زاد » .

وذكر قتيبة بن مسلم التُّرك فقال : « هم والله أحنُّ من الإبل المعقَّلة إلى أوطانها » ؛ لأنّ البعير يحنُّ إلى وطنه وعَطَنِه ، وهو بعُمانَ ، من ظهر البَصْرة ، فهو يخبط[٥] كلَّ شيء ويَستبطن كلَّ وادٍ ، حتّى يأتيَ مَكانَه ؛ على أنّه طريقٌ لم يسلكه إلّا مرة واحدة ، فلا يزال بالشَّمّ والاسترواح وحسن الاستدلال ، وبالطبيعة المخصوص بها حتّى يأتي مَبْرَكَه ، على بُعد ما بين عُمانَ والبَصرة .

(١) من القشر ، بالتحريك ، وهو شدة الحمرة .

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : « الحيرة » . وفى ف : « الجيزة » . والجيزة بمعنى الناحية .

(٣) بدله فى الحيوان ٣ : ٢٢٧ : « وقد قالوا » .

(٤) الأقسام : جمع قسم ، بالكسر ، وهو الحظ والنصيب . والنص فى الحيوان ٣ : ٢٢٧ .

(٥) فى الأصل وبعض أصول ن : « فهى تحت » تحريف .

فلذلك ضربَ به قتيبةُ المثلَ[١] .

والشُّحُّ على الوطن [والحنين إليه[٢]] ، والصَّبابة به ، مذكورة فى القرآن ، مخطوطة فى [الصُّحف بين[٢]] جميع الناس . غير أنَّ التركىَّ للعلل التى ذكرناها أشدُّ حنيناً وأكثر نُزوعاً[٣] .

وباب آخر ، ممَّا كان يدعوهم إلى الرجوع قبل العزم الثابت[٤] ، والعادة المنقوضة[٥] : وذلك أنَّ التُّركَ قومٌ يشتدُّ عليهم الحَصْر [والجُثوم[٦]] ، وطول اللُّبث والمُكْث ، وقلَّة التصرُّف والتحرُّك ، وأصلُ بِنيتهم إنَّما وُضِع على الحركة ، وليس للسكون فيها نصيب ، وفى قُوى أنفُسهم فضلٌ على قوى أبدانهم ، وهم أصحاب توقُّد وحرارةٍ ، واشتغال[٧] وفطنة ، كثيرة خواطرهم ، سريعٌ لحظهم ، وكانوا يَرون الكِفايةَ مَعجَزة ، وطُول المُقام بلادة ، والراحةَ عُقْلة[٨] ، والقناعة من قِصر الهِمَّة ؛ وأنَّ تَركَ الغَزْو يُورث الذِّلَّة .

---

(١) إلى هنا ينتهى إغفال الاختيار فى ج ، ف الذى نبهت على بدايته فى ص ٥٣ .

(٢) التكملة من ب .

(٣) هذا مافى ف . وفى الأصل ، ن : «وأشد نزاعا» . ج : «وأكثر نزعا» .

(٤) ج : « عزم الثانى» ف : « ثنى العزم » ، وفى الأصل : « العزم الثانى » ، والوجه ما أثبت من سائر النسخ

(٥) فى الأصل ، س : « والمادة المقوضة » ، صوابه فى ج ، ف . وفى ن : « والمادة المنقوصة » .

(٦) التكملة من ن . والكلمة ساقطة من ف . وبدلها فى ج : « الختوم » . جثم : لزم مكانه فلم يبرحه .

(٧) فى الأصل و ف : « واستعال » ، وأثبت ما فى ب .

(٨) أى تعقل صاحبها وتحبسه عن الانطلاق .

٣٤ و وقد قالت العرب فى مثل ذلك : قال عبدُ الله بن وَهْبٍ الراسبىّ : « حب الهُوَينا يُكسِب النَّصَب » . والعرب تقول : « من غلا دماغه فى الصَّيف غَلَتْ قِدرُه فى الشِّتاء » . وقال أكثم بن صَيفىّ : « ما أحبُّ أنّى مكفىٌّ كلَّ أمرِ الدنيا » . قيل : ولِمَ ؟ قال : « أخاف العجز » .

فهذه كانت عِللَ التُّرك فى حبِّ الرُّجوع والحنين إلى الوطن .

ومن أعظم ما كان يَدْعُوهم إلى الشُّرُودِ ويبعثهم على الرجوع ، ويُكرِّه عندهم المُقام ، ما كانوا فيه من جَهل قُوَّادهم بأقدارهم ، وقلَّة معرفتهم بأخطارهم ، وإغفالهم موضع الرَّد عليهم والانتفاع بهم ، حتَّى جعلوهم أُسوةَ أجنادهم ، ولم يقنعوا أن يكونوا فى الحاشية والحُشْوة ، وفى غِمار العامّة ومن عُرْض العساكر ، وأنفوا من ذلك لأنفسهم ، وذكروا ما يجب لهم ، ورأوا أنَّ الضَّيْمَ لا يليق بهم ؛ وأنَّ الخمول لا يجوز عليهم ، وأنهم فى المُقام على من لا يعرف حقَّهم ألْوَم ممَّن منعَهم حقَّهم ، فلمَّا صادفُوا مَلِكاً حكيماً ، وبأقدار النَّاس عليماً ، لا يميل إلى [سوء[٢]] عادةٍ ولا يَجنَح إلى هوى ، ولا يتعصَّب لبلدٍ على بلد ؛ يدور مع التدبير حيثما دار ، ويقيم مع الحقِّ حيثما أقام ، أقاموا إقامةَ من قد فهم الحظّ[٣] ، ودانَ بالحقّ ونبَذ العادة ، وآثر

(١) فى الأصل وبعض أصول ن : « الدنيا » ، صوابه فى ب .

(٢) التكملة من ب .

(٣) فى الأصل وبعض أصول ن : « الحق » ، وأثبت ما فى ب . لكن فى ف : « منح » موضع « فهم » .

الحقيقة ، ورحَل نفسَه لقطيعَة وطَنه[١] ، وآثَر الإمامة على مُلك الجَبَرية[٢] ، واختار الصَّواب على الإلْف .

ثم اعلمْ[٣] بعد هذا كلِّه أنَّ كلَّ أمةٍ وقرنٍ ، وكلَّ جيل وبَنى أبٍ وجدتَهم قد برعوا فى الصِّناعات ، وفَضَلوا النّاسَ فى البيان ، أو فاقوهم فى الآداب ، وفى تأسيس الملك ، وفى البصر بالحرب ؛ فإنَّك لا تجدهم فى الغاية وفى أقصى النهاية ، إلاَّ أن يكون اللهَ قد سخَّرهم لذلك المعنى بالأسباب ، [وقصرهم[٤]] عليه بالعلل التى تقابل تلك الأمور ، وتصلح لتلك المعانى ؛ لأنَّ مَنْ كان متقسَّم الهوى ، مشترَكَ الرَّأى ، ومتشعِّب النفس ، غير موفَّر على ذلك الشَّىء ولا مهيَّأٍ له ، لم يَحذِق من تلك الأشياء [شيئاً[٤]] بأسْرِه ، ولم يبلغ فيه غايتَه ، كأهل الصين فى الصناعات ، واليونانيِّين فى الحِكَم والآداب ، والعَرَبِ فيما نحن فيه ذاكروه فى موضعه ، وآلِ ساسان فى المُلْك ، والأتراك فى الحروب . ألا ترى أنَّ اليونانيين الذين نظروا فى العِلَل لم يكونوا تُجَّاراً ٣٤ ظ
ولا صُنّاعاً بأكُفِّهم ، ولا أصحابَ زرعٍ ولا فِلاحة وبناء وغَرْس ، ولا أصحابَ جمعٍ ومنع ، وحِرص وكَدّ ، وكانتِ الملوكُ تفرِّغهم ، وتُجرى عليهم كفايتَهم ،

(١) يقال رحل نفسه لكذا ، إذا صبر على أذاه . وفى الأصل وبعض أصول ن : « نفطنه » تحريف .

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : « وآثر ملك الإقامة على ملك الحرية » ، صوابه فى ب .

(٣) فى الأصل وبعض أصول ن : « وأعظم » .

(٤) موضعها بياض فى الأصل ، وإثباته من ب .

فنظروا حين نَظَروا بأنفسٍ مجتمعة ، وقوّة وافرة ، وأذهان فارغة ، حتّى استخرجوا الآلاتِ والأدوات ، والملاهيَ التي تكون جَمَاماً للنّفس ، وراحةً بعد الكدّ ، وسروراً يداوى قَرحَ الهُموم ، فصنعُوا[1] من المرافق ، وصاغوا من المنافع كالقَرِصطونات[2] ، والقَبّانات ، والأَسطُرلابات[3] ، وآلة الساعات ، وكالكونيا[4] وكالشيزان[5] والبِركار[6] وكأصناف المزامير والمعازف ، وكالطبِّ والحسابِ والهندسة واللُّحون ، وآلات الحرب كالمجانيق ،

---

(١) فى الأصل وبعض أصول ن : « فصنفوا » .

(٢) جاء فى النزهة المبهجة لداود الأنطاكى بهامش تذكرة داود ١ : ١٥ : «علم مركز الأثقال مثل القرصطيون ، يعنى القبان» . وجاء فى كتاب التربيع والتدوير ص ١٣٨ ساسى : « وخبرنى عن القرسطون كيف أخرج أحد رأسيه ثلاثمائة رطل زاد ذلك أم نقص، ووزن جميعه ثلاثون رطلا زاد ذلك أو نقص » وانظر الحيوان ١ : ٨١ ، فيبدو أنه ضرب من القبان .

(٣) الأسطُرلاب أو الأصطرلاب: مقياس للنجوم ، وهو باليونانية أصطرلابون. وأصطر هو النجم ، ولابون هو المرآة ، وقد يهذى بعض المولعين بالاشتقاقات فى هذا المعنى بما لا معنى له ، وهو أنهم يزعمون أن لاب اسم رجل وأسطر جمع سطر . وهذا اسم يونانى ، اشتقاقه من لسان العرب جهل وسخف. مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ١٣٤ والحيوان ١ : ٨١ / ٢ : ٢٤٢ . وقد وقع صاحب القاموس فى هذا الوهم الذى نبه عليه الخوارزمى فى مادة (لوب) .

(٤) فى الأصل : «وكالكرسا» بهذا الإهمال ، وأثبت ما فى ج ، ف . وفى مفاتيح العلوم : « الكونيا » بالواو ، وقال : « للنجارين يقدرون بها الزاوية القائمة » .

(٥) ج ، ف : « والكسيران » ن ، س : « والكشتوان » .

(٦) البركار : آلة هندسية مركبة من ساقين متصلتين تثبت إحداهما وتدور حولها الأخرى ، ترسم بها الدوائر والأقواس ، وتسمى بالعامية « البرجل » ، وهى فى الفارسية « پَركار » .

والعَرّادات[١] ، والرّتيلات[٢] ، والدَّبّابات ، وآلة النَّفّاط[٣] ، وغير ذلك مما يطول ذكرُه .

وكانوا أصحابَ حكمة ولم يكونوا فَعَلة ؛ يصوِّرون الآلة ، ويخرطون الأداة ، ويصوغون المُثُل ولا يُحسنون العملَ بها[٤] ، ويشيرون إليها ولا يمسُّونها ، ويرغِّبون فى العلم ويرغَبون عن العمل .

فأمّا سُكّان الصين فهم أصحاب السَّبْك والصيَاغة ، والإفراغ والإذابة والأصباغ العجيبة ، وأصحاب الخَرْط والنَّحت والتصاوير ، والنَّسخ والخطّ ، ورفق الكفّ فى كلّ شىء يتولّونه ويُعانُونه ، وإن اختلف جوهرهُ ، وتباينت صنعته ، وتفاوَت ثمنُه .

واليونانيون يعرفون الفَلك ، لأنَّ أولئك حكماء وهؤلاء فَعَلة[٥] . وكذلك العرب ، لم يكونوا تُجّارًا ولا صُنّاعا ، ولا أطِبّاء ولا حُسّابًا ، ولا أصحابَ فلاحة فيكونون مَهنة ، ولا أصحاب زرع ، لخوفهم من صَغار

---

(١) العرادة : منجنيق صغير . والمنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة فى القتال . وانظر حواشى البيان والتبين ٣ : ١٧ .

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : «الترسلات» بالإهمال . وفى بعض أصول ن : « الزقيلات » ، وباقى النسخ : « الرتيلات » . وفى البيان ٣ : ١٧ : « الرتيلة » .

(٣) ج ، ف : « النفاطين » .

(٤) فى الأصل وبعض أصول ن : « المثال ولا يحسنون العمل به » ، وعدلت العبارة لتتفق مع سائرها .

(٥) فى الأصل وبعض أصول ن : « حكما وهم فعلة » وأثبت الصواب من ب .

الجزية(١) . ولم يكونوا أصحابَ جمعٍ وكسب ، ولا أصحابَ احتكار لما فى أيديهم وطلب ماعند غيرهم ، ولا طلبوا المعاشَ من ألسنة الموازين ورءوس المكاييل ، [ولا عرفوا الدَّوانيق والقراريط ، ولم يفتقروا الفقر المدقع الذى يشغَل عن المعرفة(٢)] ، ولم يستغنوا الغنَى الذى يورث البُلدة(٣) ، والثروة التى تحدث الغِرَّة ، ولم يحتملوا ذُلًّا قطُّ فيُميتَ قلوبَهم ويصغِّر عندهم أنفسَهم . وكانوا سكانَ
٣٥ و فيافٍ وتربيةَ العَرَاء ، لا يعرفون الغَمَقَ ولا اللَّثَق(٤) ، ولا البُخَار ولا الغِلَظ ولا العَفَن ، ولا التَّخم(٥) . أذهان حِداد ، ونفوسٌ منكرة ، فحين حَمَلوا حَدَّهم ووجَّهوا قواهم لقولِ الشِّعر وبلاغة المنطق ، وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام ، بعد قيافة الأثَر وحفظ النَّسَب ، والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآفاق ، وتعرُّف الأنواء ، والبَصر بالخيل والسِّلاح وآلة الحرب ، والحفظ لكلِّ مسموع والاعتبار بكلِّ محسوس ، وإحكام شأن المثالب والمناقب ، بَلَغوا فى ذلك الغايةَ ، وحازوا كلَّ أمنيَّة . وببعض هذه العلل صارت نفوسُهم أكبر ، وهممهم(٦) أرفعَ من جميع الأمم وأفخر ، ولأيَّامهم أحفظَ وأذكر .

وكذلك التُّرك أصحاب عَمَد وسُكّان فيافٍ وأرباب مواشٍ ، وهم أعراب

---

(١) الصَّغار : الذل .

(٢) التكملة من ب ، ولم يبيض لها فى الأصل .

(٣) البلدة ، بضم الباء وفتحها : ضد النفاذ والذكاء والمضاء فى الأمور .

(٤) الغمق : الندى والرطوبة والوخامة . واللثق : الندى مع سكون الريح . فى الأصل وبعض أصول ن : « العمق والسق » ، تحريف .

(٥) التخم : الوخم ، وهو الوباء .

(٦) فى الأصول وبعض أصول ن : « وقسمهم » ، وأثبت مافى ب .

العَجَم كما أنّ هذيلا أكراد العَرب . فحين لم تشغلهم الصّناعات والتّجارات ، والطِّبُّ والفِلاحة والهندسة ؛ ولا غرسٌ ولا بُنيانٌ ، ولا شقُّ أنهار ، ولا جباية غَلّات ، ولم يكن همُّهم غير الغزو والغـارة والصَّيد وركوب الخيل ، ومقارعة الأبطال ، وطلب الغنائم وتدويخ البُلدان ، وكانت هممهم إلى ذلك مصروفةً وكانت لهذه[1] المعـانى والأسباب مسخّرةً ومقصورةً ، عليها ، وموصولةً بها [أحكموا ذلك الأمر بأسره ، وأتَوا على آخره[2] ، و] صار ذلك هو صناعتَهم وتجارتهم ، [ولذّتهم[2]] ونخرهم ، وحديثهم وسَمَرَهم .

فلمَّا كانوا كذلك صاروا فى الحرب كاليونانيين فى الحـكمة ، وأهـل الصِّين فى الصناعات ، والأعرابِ فيما عددنا ونزّلنـا ، وكآل ساسانَ فى المُلك والرياسة .

ومما يُستدلُّ به على أنَّهم قد استقصوا هذا البابَ واستغرقوه ، وبلغوا أقصى غايتهِ وتعرّفوه ، أنَّ السَّيف إلى أن يتقلَّده متقلِّد ، أو يَضرِب به ضارب ، قد مرَّ على أيدٍ كثيرة ، وعلى طبقاتٍ من الصُّنَّاع ، كلُّ واحدٍ منهم لايعمل عملَ صاحبه ، ولا يُحسنه ولا يدَّعيه ولا يتكلَّفه ، لأنَّ الذى يذيب حديد السَّيف ويُميعُه ، ويصفِّيه ويهذّبه ، غير الذى يمدُّه ويمطُله[3] ؛ والذى يمدُّه ويمطُله[4]

---

(١) فى الأصل وبعض أصول ن : « وكانوا بهذه » .

(٢) التـكملة من ب .

(٣) فى الأصل وبعض أصول ن : «غير الذى يحده ويمده» ، وأثبت مافى ب .

(٤) المطل : المد . وفى الأصل وبعض أصول ن : « ويملطه » تحريف .

٣٥ ظ غير الذى يطبعه ويسوِّى متنَه ، ويقيم خَشيبَتَه[١] ؛ والذى يطبعه ويسوِّى متنَه غير الذى يَسقيه ويُرهِفُه ، والذى يُرهِفه غير الذى يُركِّب قَبِيعتَه ويستوثق من سِيلانه[٢] ، والذى يعمل مسامير السِّيلان و [شارِبَى[٣]] القبيعة ونصلِ السيف غير الذى ينحت خَشَب غِمده ، والذى ينحت خَشَب غمده غير الذى يدبُغ جِلْده ، والذى يدبغ جلده غير الذى يحلِّيه ، والذى يُحلِّيه ويركِّب نعلَه غير الذى يَخرز حمائله . وكذلك السَّرْج[٤] ، وحَالات السَّهم والجَعْبة والرُّمح وجميعِ السلاح ، مما هو جَارِحٌ أو جُنَّة[٥] .

والتركىُّ يعمل هذا كلَّه لنفسه من ابتدائه إلى غايته ، فلا يستعين برفيق ، ولا يَفزَع فيه إلى صديق[٦] ، ولا يختلف إلى صانع ، ولا يَشغَل قلبه بمطاله وتسْويفه ، وأكاذيب مواعيده ، وبِغُرم كِرائه .

وحين بلغَ أوسُ بن حجر صفةَ القانص ، وبلغ له الغايةَ فى جمعه لأبواب الكفاية بنفسه ، قال :

---

(١) فى اللسان : « يقال سيف مشقوق الخشيبة ، يقول عرض حين طبع » . فى الأصل وبعض أصول ن : « جنبتيه » ، ج : « خشابته » ، وأثبت ما فى ن ، س ، ف .

(٢) السيلان ، بالكسر : سنخ قائم السيف ، أى أصل مقبضه .

(٣) التكملة من ن ، س . وبدلها فى ج « وشادى » وفى ف : « وشاذى » . والقبيعة : ما على مقبض السيف من فضة أو حديد . والشاربان : أنفان طويلان فى أصل مقبض السيف .

(٤) فى الأصل وبعض أصول ن : « السراج » .

(٥) الجنة ، بالضم : ما يتقى به من ترس ونحوه . فى الأصل وبعض أصول ن : « خارج أو منه » ، تحريف .

(٦) ب : « ولا يفزع إلى رأى صدق » .

قَصِيٌّ مَبيتِ اللَّيلِ للصَّيد مُطعَم لأَسهُمِه غارٍ وبارٍ وراصفُ[١]

وليس أنه ليس فى الأرض تركىٌّ إلّا وهو كما وصفنا ، كما أنَّه ليس كل يونانىٌّ حكيمًا ولا كل صينىٍّ غايةً فى الحذق ، ولا كلُّ أعرابىٍّ شاعراً قائفا ، ولـكنَّ هذه الأمور فى هؤلاء أعمُّ وأتمُّ ، وهى فيهم أظهر وأكثر .

قد قلنا فى السبب الذى تـكاملت به النَّجدة[٢] والفروسيَّة فى التُّرك دون جميع الأمم ، وفى العلل التى من أجلها انتظموا جميعَ معانى الحرب ، وهى معانٍ تشتمل على مذاهبَ غريبة ، وخصالٍ عجيبة .

فمنها : ما يُقضى لأهله بالـكرم وببُعْد الهمَّة وطلب الغاية . ومنها : ما يدلُّ على الأدب السَّديد والرأى الأصيل ، والفِطنة الثَّاقبة والبصـيرة النافذة . [ألا ترى أنّه ليس بدٌّ لصاحب الحرب من الحلم والعلم ، والحزْم والعزم ، والصبر والـكتمان ، ومن الثقافة[٣]] ، وقلَّة الغفلة وكثرة التجربة . ولا بدَّ من البصر بالحيل والسـلاح ، [والخبرة[٤]] بالرِّجال وبالبلاد ، والعلم بالمـكان والزَّمان والمـكايد ، وبما فيه صلاحُ هذه الأمور كلّها .

---

(١) ديوان أوس ص ٧١ . قصى مبيت الليل ، يقول : لا يبيت مع أهله ، إنما يبيت مع الوحش . ويقال فلان مطعم للصيد ومطعم الصيد ، إذا كان مرزوقا . منه . غار ، هو من غراه يغروه ، إذا طلاه بالغراء . والبرى معروف . والراصف ، من الرصفة ، وهى ما يشد على صدر السهم . فى الأصل : «وواصف» ، صوابه فى ن ، س . والبيت والـكلام المتعلق به قبله ساقط من ج ، ف .

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : «قد قلنا فى السنة التى لها تـكاملت النجدة» ، صوابه فى ب .

(٣) التـكملة من ب . (٤) التـكملة من ب .

٣٦ و والمُلْكُ يحتاج إلى أواخِ شِدادٍ وأسباب مِتَان ، ومن أتمّها سببًا وأعمقها نفعاً ما ثبّته فى نِصابه ، وأقرّه وسكّنه فى قراره ، وزاد فى تمكُّنه وبهائه ، وقطع أسباب المطمعة فيه ، ومنع أيدى البُغاةِ من الإشارة إليه فضلا عَن البَسْط عليه[1] .

قال : ثم إنَّ التُّرك عطفَتْ على العرَب بالمحاجَّة والمقايَسة ، وقالوا : قلتم إن تكن القرابةُ مما يستَحقُّ بالكفاية فنحن أقدَمُ فى الطَّاعة والوُدّ والمناصحة ، وإن تكن تُستحقُّ بالقرابة فنحن أقربُ قرابةً .

قالوا : والعرب بعد هذا صِنفانِ : عدنان وقَحطان . فأمَّا القحطانىُّ فنسبتنا إلى الخلفاء أقربُ من نسبتهم ، ونحن أمسُّ بهم رَحِمًا ؛ لأن الخليفة من ولد إسماعيل بن إبراهيم ، دون قحطانَ وعابَر . وولدُ إبراهيم عليه السلام إسماعيلُ ، وأمُّه هاجَر ، وهى قبطيّة . وإسحاقُ وأمُّه سارَةُ وهى سُريانيَّة . والسّتّة الباقون أمُّهم قَطُورا بنت مفطون[2] عربيّة ، من العرب العاربة .

وفى قول القحطانية : إنَّ أمَّنا أشرفُ فى الحسب إذْ كانت عربية . وأربعةٌ من السّتّة هم الذين وقَعوا بخراسانَ ، فأولدوا تُركَ خراسان . فهذا قولنا للقحطانىّ .

---

(١) الكلام بعده إلى « وكلها جواد » فى ص ٨٧ ليس فى اختيار ج ، ف .
(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : «أمهم قنطور» ، والوجه ما أثبت من جمهرة أنساب العرب ٥ ، ٥١٠ وسيرة ابن هشام ٧١ . وفى سفر التكوين ٢٥ : ١ « قطورة » . وقد ذكرت أسماء الستة فى سفر التكوين .

وأما قولُنا للعدنانىّ ، فإبراهيم أبونا ، وإسماعيلُ عمُّنا ، وقرابتنا من إسماعيل كقرابتهم .

قال الهيثم بن عدىّ : قيل لمبارَك التُّركىّ ، وعنده حَمَّادٌ التركى : إنّكم من مَذحِج . قال : ومَذحج هذا من هو ذاك ؟ وما نعرف إلّا إبراهيمَ خليلَ الله وأميرَ المؤمنين .

قال الهيثم : وقد كان سقَط إلى بلاد الترك رجلٌ من مَذحجٍ فأنسلَ نسلًا كثيراً ، ولذلك قال شاعر الشُّعوبية للعرب فى قصيدةٍ طويلة :

زعمتم بأنَّ الترك أبناء مذحجٍ وبينَكم قُربَى وبين البرابرِ
وذٰلكم نسلُ ابن ضَبَّة باسلٍ وصُوفانَ أنسال كثير الجرائر(١)

وقال آخر :

متى كانت الأتراكُ أبناءَ مَذحجٍ ألَا إنَّ فى الدنيا عجيبًا ابن عَجبْ

وقد سمعتم ما جاءَ فى سدّ بنى قُطورا(٢) وشأنِ خيولهم بنخْل السَّواد(٣) ، وإنَّما كان الحديثُ على وجه التَّهويل والتخويف بهم لجميع الناس ، فصاروا للإسلام مادّةً [و] جنداً كثيفا ، وللخلفاء وِقايةً وموئلًا وجُنّةً حصينة ، ٣٦ ظ
وشعاراً دون الدِّثار .

---

(١) فى جمهرة ابن حزم ٢٠٣ : « وباسل بن ضبة يقال إن الديلم من ولده » .
(٢) فى الأصل : « قنطور » . وانظر ما سبق .
(٣) ن ، س : « تبخو السواد » . والسواد سواد العراق ، وهى قرى الكوفة والبصرة ، وأصل السواد جماعة النخل والشجر .

وفى المأثور من الخبر : « تارِكُوا التُّركَ ماتَارَكوكم » . وهذه وصيّةٌ لجميع العرب ؛ فإنَّ الرأى متاركتنا ومسالمتنا . وما ظنُّكم بقـومٍ لم يَعرِض لهم ذو القرنين . وبقوله « اتركوهم » سُمُّوا التُّرك . هذا بعد أن غَلَب على جميع الأرض غَلبةً وقسراً ، وعَنوةً وقهراً .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « هذا عدوٌّ شديدٌ كَلَبُه ، قليل سَلَبه » . فنهى كما ترى عن التعرُّضِ لهم ، بأحسنِ كناية .

والعربُ إذا ضَربت المثلَ فى العداوة الشَّديدة قالوا : ماهم إلاّ التُّركُ والدَّيلم. قال عَمَلّس بن عَقيل بن عُلَّفة :

تبدَّلت منه بعد ما شاب مَفرِقى عداوةَ تُركىٍّ وبغضَ أبى حِسْلِ

وأبو حِسْلٍ هو الضَّبّ . والعرب تقول : « هو أعقُّ من ضَبّ » ؛ لأنَّه يأكل أولادَه .

ولم يُرعِب قلوبَ أجناد العربِ مثلُ التُّرك . وقال خلفٌ الأحمر :

كأنِّى حين أرهنُهم بَنِيِّ دفعتُهمُ إلى صُهبِ السِّـبالِ(١)

قال : وإيَّاهم عنَى أوسُ بن حجر :

نـكَّبتُها ماءهم لـما رأيتهم صُهبَ السِّبالِ بأيديهم بيـازيرُ(٢)

---

(١) يجوز فى ياء المتكلم المدغم فيها ياء أن تكون مفتوحة كما يجوز كسرها . وبالأخيرة قرأ حمزة : « وما أنتم بمصرخىِ » بالكسر . الأشمونى ٢ : ٢٨٢ .

(٢) فى الأصل وفى بعض أصول ن : « سكمهم اساهم » ، وكتب فى حاشيتها : « ظ حسبتهم أنهم لما رأيتهم » أى الظاهر . والصواب ما أثبت من ن ، س وديوان أوس ٣٣ . والبيازير : جمع بيزارة ، وهى العصا العظيمة . وفى الأصول : «مارين» صوابه من الديوان .

وحدثنى إبراهيمُ بن السِّندى مولى أمير المؤمنين ، وكان عالماً بالدَّولة ، شديدَ الحبِّ لأبناءِ الدَّعوة ، وكان يحوطُ مواليَه ويحفظ أيَّامَهم ، ويدعو الناسَ إلى طاعتهم ، ويَدرسهم مناقبهم[1] ، وكان فخمَ المعانى فخمَ الألفاظ ، لو قلت لسانُه كان أردَّ[2] على هذا المُلْك من عَشْرةِ آلاف سيفٍ شَهِيرٍ ، وسِنانٍ طَرِيرٍ[3] ، لـكان ذلك قولاً ومذهباً .

قال : حدَّثنى عبد الملك بن صالح ، عن أبيه صالح بن على ، أنَّ خاقان ملكَ الترك وافقَ مرة الجُنَيد بنَ عبد الرحمن[4] أميرَ خراسان ، وقد كان الجنيدُ هالَه أمره ، وأفزعه شأنُه ، وتعاظَمه جموعُه وجَمعه ، وبَعِل به[5] ، وفطن به خاقانُ ٣٧ و
وعرف ما قد وقَع فيه ، فأرسل إليه :

« إنِّى لم أقفْ هذا الموقفَ وأُمْسِكْ هذا الإمساكَ وأنا أريدُ مكروهاً ، فلا تُرَعْ . ولو كنتُ أريد غَلبةً أو مكروهاً لقد كنت انتسَفْتُ عسكرَك انتسافاً

---

(١) يقال درسته الشىء درساً وأدرسته إياه : علمته إياه . انظر اللسان (درس ٣٨٢) .

(٢) يقال هذا الشىء أرد من ذاك ، أى أنفع وأكثر عائدة .

(٣) الشهير : المشهور المسلول ، وإن كان لم ينص عليه فى المعاجم المتداولة . والطرير : المحدد . وانظر البيان ٣ : ٢٧٣ .

(٤) هو الجنيد بن عبد الرحمن بن عمرو بن الحارث ، المرى . جمهرة أنساب العرب ٢٥٢ وفتوح البلدان للبلاذرى ٦٠٣ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ . وقد استعمله هشام ابن عبد الملك على خراسان سنة ١١١ وكانت له حروب مع خاقان ملك الترك . الطبرى ٨ : ٢٠٤ – ٢١٤ . وهو غير الجنيد بن عبد الرحمن بن عوف بن بجيد الكلابى . وقد ولى خراسان أيضاً . الجمهرة ٢٨٧ .

(٥) بعل به : ضاق به ودهش فلم يدر كيف يصنع .

أعْجِلك فيه عن الروِيّة وقد أبصرتُ موضعَ العورة . ولولا أن تعرفَ هذه المكيدة فَتعُود بها على غيرى من الأتراك ، لعرَّفتُك موضعَ الانتشار والخلل والخطأ فى عسكرك وتعبيتك. وقد بلغَنى أنَّك رجلٌ عاقل ، وأنَّ لك شرفاً فى بيتك وفضلاً فى نفسك ، وعلماً بدينك ، وقد أحببت أن أسأل عن شىء من أحكامكم لأعرفَ به مذهبكم ، فاخرُجْ إلىّ فى خاصَّتك لأخرجَ إليك وحدى ، وأسائلك عما أحتاج إليه بنفسى . ولا تحتفلْ ولا تحترسْ ؛ فلَيس مثلى مَنْ غدَر ، وليس مثلى يُؤمِن من نفسه ، ومن مَكره وكيده ، ثم ينكُثُ بوعده . ونحن قَومٌ لا نخدع بالعمل ، ولا نستحسِن الخديعةَ إلاَّ فى الحرب ، ولو استقام أمر الحرب بغير خديعة لما جوَّزْنا ذلك لأنفسنا » .

فأبى الجُنيد أن يَخْرج إليه إلاَّ وحدَه ، ففَصَلا من الصُّفوف . وقال : سَلْ عمَّا أحببتَ ، فإنْ كان عندى جوابٌ أرضاه أَجبتُك، وإلاَّ أشرتُ عليك بمن هو أبصر بذلك منِّى .

قال : ما حكمكم فى الزَّانى ؟

قال الجُنَيد : الزَّانى عندنا رجلان : رجلٌ دفعنا إليه امرأةً تُغْنيه عن حُرَم النّاس ، وتكفُّه عن حُرَم الجيران ؛ ورجلٌ لم نُعطِه ذلك ، ولم نَحُلْ بينه وبين أن يفعل ذلك لنفسه . فأمَّا الذى لازوجةَ له فإنّا نجلده مائة جَلدة ونُحْضِر ذلك الجماعةَ من الناس لنشهِّره ونحذِّره به ، ونغرِّبه فى البُلدان لنزيد فى شهرته وفى التَّحذير منه ، ولينزجر بذلك كلُّ من كان يُهمُّ بمثل عمله . فأما الذى قد [أغنيناه[1]] فإنا نرجُمه بالجَنْدلِ حتّى نقتلَه .

---

(١) موضعها بياض فى الأصل ، وإثباتها من ن ، س .

قال : حَسَن جميلٌ ، وتدبير كبير ، فما قولكم فى الذى يَقذِف عفيفاً بالزِّنى ؟

قال : يجلَد ثمانين جلدةً ، ولا نَقبَل له شهادةً ، ولا نُصدِّق له حديثا .

قال : حَسنٌ جميل ، وتدبير كبير ، فما حُكمكم فى السارق ؟

قال : السَّارق عندنا رجلان : رجل يحتال لما قد أحرزَه الناس من أموالهم حتَّى يأخذها بنَقْب حيطانهم وبالتسلُّق من أعالى دُورهم ؛ فهذا نقطَع يدَه التى سَرقَ بها ، ونَقَب بها ، واعتَمَد عليها . ورجل آخر يُخيف السبيل ، ويقطع الطَّريق ، ويكايد على الأموال[1] ، ويَشْهَرُ السِّلاح فإنْ منعَه صاحب المَتَاع قَتَله ، فهذا نقتُله ونَصلِبه على المناهج والطُّرق . ٣٧ ظ

قال : حَسَن جميلٌ ، وتدبير كبير . قال : فما حُكمكم فى الغاصب والمستلِب ؟

قال : كلُّ مافيه الشُّبهة ويجوز فيه الغَلَط والوُجوهُ ، كالغَصْب والاستلاب ، والجنايةِ ، والسَّرِقة لما يؤكل أو يُشرب فإنَّا لا نقطع فيما فيه شُبهة ونتمحَّل[2] لذلك وجهاً غيرَ السَّرِقة .

قال : حَسَنٌ جميلٌ وتدبير كبير . قال : فما حُكمكم فى القاتل وقاطع الأُذُن والأنف ؟

(١) المراد بالمكايدة هنا الاحتيال والمعالجة . وفى الأصل : « يكابر » ، وأثبت ما فى ن ، س .

(٢) فى أصول ن : « ويمتحل » وقد جعلها فان فلوتن : « ويحتمل » ، وتبعته نسخة س . وما أثبت من الأصل أولى وأوفق .

قال : النَّفس بالنَّفس ، والعَيْن بالعين ، والأنفُ بالأنف . وإنْ قتل رجلاً عَشَرَةٌ قتلْناهم . ونقتل القويَّ البدن بالضَّعيف البدن ، وكذلك اليدُ والرِّجل .

قال : حَسن جميلٌ وتدبير كبير . قال : فما تقولون فى الكذَّاب والنَّمَّام والضَّراط .

قال : عندنا فيهم الإقصاء لهم وإبعادُهم وإهانتهم ، ولا نقبل شهادتَهم ، ولا نصدِّق أحكامهم .

قال : وليس إلَّا هذا ؟

قال : هذا جوابُنا على ديننا .

قال له : أمَّا النمام عندى ، هو الذى يُضرِّب بين الناس[1] ، فإنِّى أحبِسُه فى مكانٍ لا يَرى فيه أحدًا . وأمَّا الضَّرَّاطُ فإنِّى أكوِى استَه ، وأعاقب ذلكَ المَكانَ فيه[2] . وأمَّا الكذّاب فإنى أقطع الجارحةَ التى بها يكذب ، كما قطعتم اليَد التى بها يَسرق ، وأمَّا الذى يُضحِك النّاسَ ويعوِّدهم السُّخْفَ فإنِّى أُخْرِجه من سلطانى ، وأُصْلح بإخراجه عُقولَ رعيتى .

قال : فقال الُجنَيد بن عبد الرحمن : أنتم قومٌ تردُّون أحكامَكم إلى جواز العقول ، وإلى ما يَحسُن فى ظاهر الرأى ؛ ونحن قومٌ نتبع الأنبياء ، ونرى أنْ لم نَصلُح على تدبير العباد . وذلك أنَّ الله تعالى أعلَمُ بغَيب المَصالح وسِرِّ الأمر[3]

---

(١) وكذا فى ن مع عدم سبق واو لكلمة « هو » فيهما . لكن فى س : « وهو الذى يرفع الحديث بين الناس إشاعة » .

(٢) جعلت فى ن ، س : « منه » .

(٣) ن ، س : « وبسر الأمر » .

وحقائقه ، ومحصوله وعواقبه ، والناسُ لا يعلمون ولا يَرون الحزمَ إلّا على ظاهر الأمور . وكم من مُضيع يَسلم ، وحازمٍ يعطب .

قال : ما قلتَ كلاماً أشرف من هذا ، ولقد ألقيتَ لى فكراً طويلا .

قال إبراهيم : قال عبدُ الملك : قال صالح : قال الجُنيد : فلم أرَ أوفَى ولا أنصَفَ ولا أفهمَ ولا أذكى منه . ولقد واقَفْتُه ثلاثَ ساعاتٍ من النّهار

وما تحرّك منه شيء إلّا لسانُه ، وما منّى شيء لم أحرِّكه . ٣٨ و

وهكذا يَصِفون مُلوكَ التُّرك ، يزعمون أنَّ ساسان وخاقانَ الأكبرَ ، تواقفا ببعض الكسور[1] ، وفَصَلا من الصَّفَّين ، وطالت المناجاة ، فلما انفتلا قالوا : كان خاقانُ أركنَ وآدَب ، وكان مَركَب كسرى أركن وآدَب[2] ، ولم يتحرّك من خاقانَ إلّا لسانُه ، وكان بِرذونُه يرفع قائمةً ويَضع أخرى ، وكان مركب كسرى كأنَّما صُبَّ صبًّا ، وكان كسرى يحرِّك رأسَه ويُشير بيده .

قالوا : ومن الأعاجيب أنَّ الحارثَ بن كعب لا يقوم لَحزْم[3] ، وحزم لا تقوم لكندةَ ، وكندةُ لا تقوم للحارث بن كعب .

---

(١) كسور الأودية والجبال : معاطفها وشعابها ، لا يفرد لها واحده كما فى اللسان . وقد حورت فى ن ، س إلى «الجسور» خلافاً لما فى الأصول ، وليس مايدعو إليه .

(٢) أركن من الركانة ، وهى السكون والوقار . وفى جميع الأصول : «أزكى» فى هذا الموضع .

(٣) بنو حزم بن زيد بن لوذان بن عمرو بن عبد بن عوف بن غنم بن مالك ابن النجار . جمهرة أنساب العرب ٣٤٨ . وفى العرب جرم بن ربان بن حلوان ابن عمران بن الحاف بن قضاعة . الجمهرة ٤٥١ .

قالوا : ومثل ذلك من الأعاجيب فى الحارث : أنَّ العربَ لا تقوم للتُّرك ، والتُّرك لا تقوم للرُّوم ، والرُّوم لا تقوم للعرب .

قال جهمُ بن صَفْوانَ الترمذىّ[١] : قد عرفْنا ما كانَ بين فارسَ والتُّركِ من الحرب ، حتَّى تزوَّج كسرى أَبْرَويز ، خاتونَ بنت خاقان ، يستميله بذلك الصِّهر ، ويدفَعُ بأسه عنه . وقد عَرفْنا الحروبَ التى كانت بين فارسَ والرُّوم ، وكيف تساجلوا الظفرَ ، وبأىِّ سببٍ غُرِس الزَّيتون بالمدائن وسوسا[٢] ، وبأىِّ سببٍ بنيت الرُّوميّة[٣] ولم سمِّيت بذلك ، ولم بَنَى كسرى على الخليج قُبالة قُسطنطينيَّة النَّواويس[٤] وبيوتَ النار . ولكن متى ظهرت الرُّوم على تُرك خراسان ظهوراً مواليًا ، ضَربُوا بها المثل إلى آخر دارمسه[٥] ، ومَن هناك من الأشباه ، ومن يتخلّل هذا النسب .

وكانت خاتونُ بنت خاقانَ عند أبرويز فولدت له شِيرويه . وقد ملك شِيرَويه بعد أبرويز ، فتزوَّج شيرويه مريم بنت قيصر ، فولدت له

---

(١) نسبة إلى ترمذ ، وكان قد أظهر دعوته بها . السمعانى ١٤٩ والفرق بين الفرق ١٩٩ والملل والنحل ١ : ١٠٩ . وقد قتل سنة ١٢٨ . البداية والنهاية ١٠ : ٢٧ ولسان الميزان ٢:١٤٢ . ويقال له أيضاً السمرقندى كما فى لسان الميزان . وفى الأصول : « البريدى » بالإهمال .

(٢) الذى فى معجم البلدان « شوشة » قال : قرية بأرض بابل .

(٣) هذه رومية المدائن ، وهى غير رومية الروم . انظر معجم البلدان (رومية) .

(٤) النواويس : جمع ناووس ، وهى مقابر النصارى .

(٥) كذا وردت هذه العبارة .

فيروزا شاهى[١] أمَّ يزيدَ الناقِص[٢] والوليد. وكان يقول: ولدنى أربعة أملاك: كسرى، وخاقان، وقيصرٌ، ومَرْوان. وكان يرتجز فى حُروبه التى قَتل فيها الوليد بن يزيد بن عاتكة:

أنا ابنُ كسرى وأبى خاقانْ وقيصرٌ جدِّى وجدِّى مَروانْ[٣]

فلما صار إلى الافتخار فى شِعره بالنَّجدة والثقافة بالحرب، لم يفخر إلَّا بخاقانَ فقط فقال:

فإنْ كنتُ أرمِى مُقْبِلًا ثم مُدبرا وأطلُع من طَودٍ زليق على مُهْر
لخاقان جدِّى فاعرِف ذاكِ واذكرى أخابيرَهُ فى السَّهل والجبل الوعرِ[٣] ٣٨ ظ

قوله «وأطلُع» يريد: وأنزل، وهى لغة أهل الشام[٤] وأخذوها من نازلة العرب فى أوَّل الدهر. وجعل دابَّتَه مُهرًا، لأنَّ ذلك أشدُّ وأشقّ.

---

(١) فى الأصول: «فيروزا بنتاهى» تحريف. وفى الطبرى ٩ : ٤٦ أن اسمها «شاه آفريد بنت فيروز».

(٢) هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان. الطبرى ٩ : ٣٢، ٤٦ قال: «وإنما قيل يزيد الناقص لنقصه الناس الزيادة التى زادهموها الوليد بن يزيد فى أعطياتهم وذلك عشرة عشرة». وروى الطبرى أيضاً أنه سمى بذلك تلقيبا له من مروان ابن محمد، إذ سماه الناقص بن الوليد فسماه الناس الناقص لذلك. فهذا تعليل آخر. وفى أمثلة النحويين: «الناقص والأشج أعدلا بنى مروان». والأشج: عمر ابن عبد العزيز، سمى بذلك لشجة أصابته.

(٣) فى الطبرى ٩ : ٤٦:

أنا ابن كسرى وأبى مروان وقيصر جدى وجدى خاقان

(٣) ن، س: «أخايره».

(٤) لم تسجلها المعاجم المتداولة ولا كتب الأضداد، لكنهم ذكروا طلع عنهم وعليهم بمعنى غاب واختفى. وطلع عنهم وعليهم بمعنى أقبل.

وقال الفضل بن العبَّاس بن رَزِين : أتانا ذات يوم فُرسانٌ من التُّرك ، فلم يبق أحد ممن كان خارجًا إلَّا دخَل حِصنَه وأغلَق بابَه ، وأحاطوا بحصنٍ من ذلك الحصون ، وأبصرَ فارسٌ منهم شيخًا يطَّلع إليهم من فوق ، فقال له التركىّ : لئن لم تنزلْ إلىَّ لأقتُلنَّك قِتلةً ما قتلتُها أحدًا ! قال : فنزل إليه وفتح له الباب ، ودخلوا الحصن ، واكتسحوا كلَّ شىءٍ فيه ، فضحِك من نُزوله إليه وفَتْحِه له وهو فى أحصنِ موضعٍ وأمنعِ مكان ، ثم أقبلَ به إلى حصنٍ أنا فيه فقال : اشتروه منّى . قلنا : لا حاجةَ لنا فى ذلك . قال : فإنّى أبيعُه بدرهمٍ واحد . فرمينا إليه بدرهمٍ فخلَّى سبيله ، ثمَّ أدبرَ عنا ومضَى مع أصحابه ، فما لبث إلَّا قليلًا حتَّى عاد إلينا فوقَف حيثُ نسمع كلامَه ، فراعنا ذلك ، فأخرجَ الدِّرهم من فمه وكسرهُ بنصفَين . وقال : لا يَسْوَى درهمًا[1] ، وهذا غَبنٌ فاحِش ، فخُذُوا هذا النِّصفَ ، وهو على كلِّ حالٍ غالٍ جدًّا بالنِّصف الآخَر .

قال : فإذا هو أظرفُ الخلق .

قال : وكنَّا نعرف ذلك الرجلَ بالجُبْن ، وقد كان سمِعَ باحتيال التُّرك فى دخول المُدن وعُبور الأنهار فى الحروب ، فتوهَّم أنه لم يَتوعَّد بفتح الباب[2]

وقال ثُمامة : ما شبَّهتُ الذَّرَّ إلّا بالتُّرك ؛ لأنَّ كُلَّ ذرّةٍ على حِدَتها مَعها من المعرفة بادِّخار الطُّعم ، ومن الشَّمِّ والاسترواح ، ونَجْب المدَّخَر[3] حتَّى

(١) أى لايساوى درهما . وقد أنكر هذه الكلمة أبو عبيد ، وحكاها أبو عبيدة كما فى اللسان (سوى ١٤٠) .

(٢) أى لم يكن كلامه وعيدا فحسب . وفى ن بعده : « إلا وعنده » ، ثم أكملها فان فلوتن بعبارة « شىء من ذلك » .

(٣) النجب : العض والقشر ، والمراد شق الحبوب . انظر الحيوان ٤ : ٥-٦ ،=

لا ينبُتَ فى جحره[١] ، ثم الاحتيال للناس فى الاحتيال لها بالصِّمامة والعِفاص والمزدجر[٢] ، وتعليق الطَّعام على الأوتاد والبَرَّادات ، مثلُ الذَّرّ مع صاحبتها .

وقال أبو موسى الأشعرىّ : كل جنسٍ يحتاج إلى أمير ورئيسٍ ومدبِّر ، حتَّى الذّرّ[٣] .

وروى أبو عُمَر الضَّرير[٤] ، أن رئيس الذّرّ الرَّائدَ الذى يخرج أوّلًا لشيء قد شَمَّه دونَ أصحابه ، لخصوصيّةٍ خَصَّه الله تعالى بها ، ولَطافة الحِسّ ، فإذا حاولَ حملَه وتعاطى نَقْلَه ، وأعجزهُ ذلك بعد أن يُبْلِيَ عُذرا ، أتاهنَّ فأخبرهنَّ فرجَع ، وخرجَتْ بعده كأنَّها خيطٌ أسودُ ممدود . وليست ذَرّةٌ أبدًا ٣٩ و
تستقبل ذَرّةً أخرى إلّا واقَفَتْها وسارَّتْها بشيء ثم انصرفتْ عنها[٥] .

وكذلك الأتراكُ كلُّ واحدٍ منهم غير عاجزٍ عن معرفةِ مصلحة أمْره ، إلّا أنَّ التفاضل واجبٌ فى جميع أصناف الأشياء والنَّبات والمَوَات . وقد تختلف الجواهر وكلُّها كريم[٦] ، وتتفاضل العِتاق وكلُّها جَوَاد .

= ١٨ و ٧ : ٣٥ . وفى الأصل « يجنب » بإهمال الحرف الأول والثالث . وجعلها فان فلوتن : « وتجنب المزجر » .

(١) فى الأصل : « حتى لا يبيت إلا فى جحره » . والوجه ما أثبت . انظر التنبيه السابق ومراجعه .

(٢) فى الأصل : « والمودحر » .

(٣) انظر الحيوان ٤ : ١٩ ، ٢٠ .

(٤) وكذا ورد اسمه فى البيان ٢ : ٦٩ . وفى بعض نسخ البيان « أبو عمرو الضرير » وورد فى الحيوان ٤ : ٢٠ « أبو عمرو المكفوف » .

(٥) انظر الحيوان ٤ : ٧ — ٨ .

(٦) فى الأصل : « وكله كريم » .

وقد قلنا فى مناقب جميع الأصناف بجُمَل ما انتهى إلينا وبلغَه عِلمُنا ؛ فإنْ وقعَ ذلك بالموافقة فبتوفيق الله وصُنْعه ، وإن قصَّر دون ذلك فالذى قصَّر بنا نُقصانُ عِلمنا ، وقلَّة حفظنا وسماعنا . فأمَّا حُسْنُ النِّيَّة ، والذى نُضمِر من المحبّة والاجتهاد فى القُرْبة ، فإنا لا نرجع فى ذلك إلى أنفسنا بلائمة . وبين التقصير من جهة التفريط والتَّضييع ، وبين التقصير من جهة العَجز وضَعفِ العَزْم ، فرقٌ .

ولو كان هذا الكتاب من كتب المناقضات ، وكتب المسائل والجوابات ، وكان كُلُّ صِنفٍ من هذه الأصناف يريد الاستقصاء على صاحبه ، ويكون غايته إظهارَ فَضْلِ نفسِه وإن لم يصل إلى ذلك إلّا بإظهار نقص أخيه ووليِّه(١) ، لكان كتاباً كبيراً ، كثيرَ الورق عظيما ، ولكان العددُ(٢) الذين يَقْضُون لمؤلِّفه بالعلم والاتِّساع فى المعرفة أكثرَ وأظهر ، ولكنَّا رأينا أنَّ القليل الذى يُجمع خيرٌ من الكثير الذى يُفرَّق .

ونحن نعوذ بالله من هذا المذهب ، ونسأله العونَ والتسديد ، إنّه سميع قريبٌ ، فعّالٌ لما يريد .

تم الكتاب ولله المنة ، وبيده الحول والقوة
والله الموفق للصواب

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامُه
وهو حسبُنا ونعم الوكيل .

---

(١) فى ن ، س : « ووالده » .
(٢) فى ب : « عدد » .

٢

رِسَالة

الْمعَاش وَالمعَاد

أوْ

الأخْلاق المحْمُودَة وَالمذمُومَة

كتب بها إلى أبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دواد

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الرسالة من نسختين فى الأصل :

النسخة الأولى عنوانها : (رسالة أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك فى الأخلاق المحمودة والمذمومة) وهى ثانى رسالة فى مجموعة الأصل ، والنسخة الثانية عنوانها : (رسالة المعاد والمعاش فى الأدب وتدبر الناس ومعاملاتهم كتب بها إلى أبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دواد) وترتيبها فى المجموعة هو الرابع ، إذ يفصل بين النسخة الأولى والثانية رسالة أخرى هى (كتاب كتمان السر وحفظ اللسان) .

أما محمد بن عبد الملك الزيات فهو فى غنى عن التعريف ، وإن كنت قد عرفت به فى كتابى الحيوان والبيان .

وأما محمد بن أحمد بن أبى دواد فكان قاضياً كأبيه ، ولاه المتوكل على قضاء بغداد والأعمال بعد أن فلج أبوه سنة ٢٣٣ ، ثم عزله المتوكل سنة ٢٣٧ . وتوفى أبو الوليد محمد سنة ٢٣٩ ومات أبوه بعده بعشرين يوماً[1].

والراجح أن الرسالة كتبها الجاحظ إلى أبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دواد ، لا إلى محمد بن عبد الملك ؛ لأنه يذكر فى صدرها أنه عرف المكتوب إليه هذه الرسالة « أيام الحداثة » . ولا ينطبق ذلك على محمد بن عبد الملك الزيات ، فقد كانت حياته بين سنتى ١٧٣ ، ٢٣٣ ولم تعرف صلة الجاحظ به إلا فى أيام سلطانه .

---

(١) تاريخ بغداد ١ : ٢٩٧ — ٣٠١ . وانظر لترجمة أبيه وإخوته جمهرة أنساب العرب ٣٢٨ وتاريخ بغداد ٤ : ١٤١ — ١٥٦ ووفيات الأعيان ١ : ٢٢ — ٢٦ . وقد انفرد ابن حزم بتسمية أبيه أحمد بن محمد بن أبى دواد .

وتجد ما يقتضى التسمية بالمعاش والمعاد فى ص ٩٥س ١٧ .
وقد حققت هذه الرسالة على أربع نسخ :

١ — نسخة الأصل فى الموضع الأول من المجموعة .
٢ — نسخة الأصل فى الموضع الثانى من المجموعة ، ورمزها د .
٣ — نسخة المتحف البريطانى التى تمثلها مصورة الجامعة ، ورمزها م .
٤ — نشرة پاول كراوس ومحمد طه الحاجرى ورمزها ط .

بسم الله الرحمن الرحيم

حَفِظكَ اللهُ وأمتعَ بك (١)

أما بعدُ فإنَّ جماعاتِ أهل الحكمة قالوا : واجبٌ على كلِّ حكيمٍ أن يُحسِنَ الارتيادَ لموضع البُغْية ، وأن يبيِّن أسبابَ الأمور ويمهِّدَ لعواقبها . فإنَّما حُمِدت العلماء بحسن التثبُّت فى أوائل الأمور ، واستشفافِهم (٢) بعُقولهم ما تجىء به العواقب ، فيعلمون عند استقبالها ما تَؤُول به الحالات فى استدبارها . وبقدر تفاوتهم فى ذلك تستبين فضائلهم . فأمَّا معرفةُ الأمورِ عند تكشُّفها وما يظهر من خَفيَّاتها فذاكَ أمرٌ يعتدل فيه الفاضل والمفضول ، والعالمون والجاهلون (٣) .

وإنِّى عرَفتك ـ أكرَمك الله ـ فى أيام الحداثة ، وحيث سُلطان اللَّهو المُخْلق للأعراض أغلبُ على نظرائك ، وسُكر الشباب والجِدَة (٤) المتحيِّفَين للدِّين والمرُوءة مستولٍ على لِدَاتك فاختُبِرت أنت وهم [ففقتَهم (٥)] ببَسْطة المقدِرة وحُمَيَّا الحداثة ، وطَوْلِ الجِدَة ، مع ما تقدَّمتَهم فيه من الوسامة فى الصُّورة ، والجمال فى الهيئة . وهذه كلُّها أسبابٌ [تكاد أن (٦)] توجب

(١) « حفظك الله وأمتع بك » من د فقط .
(٢) د : « واستشرافهم » .
(٣) م : « والعالم والجاهل » .
(٤) الجدة ، كعدة : اليسار والسعة والغنى ، ومثلها الوجد مثلثة الواو : م : « الحدة » تصحيف .
(٥) التكملة من م .
(٦) التكملة من م .

الانقيادَ للهوى ، ولُججٌ من المهالك لا يَسلمُ منها إلاَّ المنقطع القرين فى صِحَّة الفطرة ، وكمال العقْل . فاستعبدَتْهم الشَّهواتُ حتى أعطَوها أزِمَّة أديانهم ، وسلَّطوها على مُروءاتهم وأباحوها أعراضَهم ، فآلت بأكثرهم الحالُ إلى ذُلِّ العُدم وفقد عِزِّ الغنى فى العاجل ، والنَّدامة الطويلة والحسرةِ فى الآجل .

وخرجتَ نسيجَ وحدِك ، أوحديًّا فى عصرك[١] ، حكَّمت وكيلَ الله عندَك ـ وهو عقلُك ـ على هواك ، وألقيتَ إليه أزِمَّةَ أمرك ، فسلَكَ بك طريقَ السَّلامة[٢] ، وأسلمك إلى العاقبة المحمودة ، وبلغ بك من نيل اللذَّات
٤١ و أكثرَ مما بلغوا ، ونال بك من الشَّهوات أكثر مما نالوا ، وصرَّفك من صنوف النِّعَم[٣] أكثر مما تصرَّفوا ، وربطَ عليك من نِعَمِ الله التى خوَّلك ما أطلقَه من أيديهم إيثارُ اللَّهو[٤] وتسليطُهم الهوى [على أنفسهم[٥]] ؛ فخاض بهم سُبُل تلك اللُّجَج[٦] ، واستنقذَك من تلك المعاطب ، فأخرجكَ سليمَ الدِّين ، وافرَ المرُوءة ، نقيَّ العرض ، كثير الثَّراء ، بيِّن الجِدَة[٧] . وذلك سبيلُ مَن كان ميلُه إلى الله تعالى أكثرَ من ميلهِ إلى هواه .

---

(١) هذا مافى د . وفى الأصل و م : « نفسك » .

(٢) هذا مافى د . وفى الأصل : « طرق » وفى م : « سبيل » .

(٣) هذا مافى د ، م وفى الأصل : « التنعم » .

(٤) د : « إيثار الهوى » .

(٥) هذه من د .

(٦) فى الأصل ، م : « فخاض بك تلك اللجج » ، وأثبت ما فى د .

(٧) هذه الكلمة والتى قبلها ساقطتان من د . وفى الأصل ، م: « من الجدة » ،

فلم أزَلْ [أبقاكَ الله[١]] فى أحوالك تلك كلِّها بفضيلتك عارفاً ، ولك بنعَم الله عندكَ غابطاً ، أرى ظواهر أموركَ المحمودةِ فتدعونى إلى الانقطاع إليك ، وأسأل عن بواطن أحوالك فتزيدنى رغبةً فى الاتِّصال بك ، ارتياداً منى لموضع الخِيَرة فى الأخوَّة ، والتماساً لإصابة الاصطفاء فى المودّة ، وتخيُّراً لمستودع الرَّجاء فى النَّائبة .

فلما مَحضَتْك الخِبرةُ ، وكشَفَكَ الابتلاء عن المحمدة ، وقَضَتْ لك التَّجارِبُ بالتَّقدِمة ، وشهِدت لك قلوبُ العامَّةِ بالقَبول والمحبَّة ، وقَطَع الله عُذْرَ كلٍّ من كان يَطلُب الاتِّصالَ بك ، طلبتُ الوسيلةَ إليك والاتِّصالَ بحبلك ، ومَتَتُّ بحُرمة الأدب وذِمام كرمك . وكان من نِعمة الله عندى أنْ جعل أبا عبد الله[٢] ـ حفظه الله ـ وسيلتى إليك ، فوجدت المطلبَ سهلاً والمُرادَ محموداً ، وأفضيت إلى ما يجوز الأُمنيَّة ويفوت الأمل ، فوصلتَ إخاىَ[٣] بمودَّتك ، وخلطتَنى بنفسك ، وأسْمَتَنى فى مراعى ذَوِى الخاصَّة بك ، تفضُّلاً لا مجازاة ، وتطوُّلاً[٤] لا مكافاة ، فأمِنت الخطوبَ ، واعتلَيتُ على الزَّمان ، واتخذتُك للأحداث عُدَّةً ، ومن نوائب الدهر حِصناً منيعاً .

فلمَّا حُزْتُ المؤانسة ، وتقلَّبت من فضلك فى صُنوف النِّعمة ، وزاد بصرى من مَواهبك فى السُّرور والخبْرة ، أردتُ خِبرة المشاهدة ، فبلوتُ

(١) التكملة من أحد أصول ط .

(٢) لعله يعنى أبا عبد الله أحمد بن أبى دواد .

(٣) د : « رجاى » .

(٤) د : « وتكرما » .

أخلاقك ، وامتنحت شِيَمك ، وعجمت مذاهبَك على حين غَفَلاتك ، وفى
٤١ ظ الأوقات التى يقلُّ فيها تحفُّظك ، أراعى حركاتِك ، وأراقب مخارج أمْرِك
ونَهْيك ، فأرى [من] استصغارِك لعظيم النِّعم التى تَنْعَم بها ، واستكثارِك
لقليل الشُّكر من شاكِرِيك ، ما أعرف به[٢] [و] بما قد بلوت من غيرك ،
وما قد شهدت لى به التَّجارِب ، أنَّ ذلك منك طبعٌ غير تكلُّف .

هيهاتَ ! ما يكاد ذو التكلُّف أن يَخفَى على أهل الغَبَاوة[٣] ، فكيف على مثلى من المتصفِّحين. فزادتنى المؤانسة فيك رغبةً ، وطول العِشرة لك محبَّة ، وامتحانى أفاعيلَك لك تفضيلاً ، وبطاعتك دينونةً .

وكان من تمام شكرى لربِّى ولىِّ كلِّ نعمة ، والمبتدئ بكلِّ إحسان ، الشُّكرُ لك والقيامُ بمكافأتك بما أمكنَ من قولٍ وفعل[٤] ؛ لأنَّ الله تبارك وتعالى نَظَم الشُّكر له بالشُّكر لذِى النِّعمة مِن خَلْقه ، وأبَى أن يقبلَهما إلاَّ معاً ؛ لأنَّ أحدهما دليلٌ على الآخَر ، وموصولٌ به . فمن ضَيَّع شكر ذى نعمةٍ من الخلق فأمْرَ الله ضيَّع ، وبشاهده استخفَّ[٥] .

ولقد جاء بذلك الخبرُ عن الطَّاهر الصادق صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « من لم يشكر للناس لم يشكر لله » .

---

(١) التكملة من أحد أصول ط .

(٢) فى الأصل و د : « أعرف» فقط . والكلمة التى قبلها والتى بعدها من أحد أصول ط . وقد زدت الواو بعد هذه العبارة ليلتئم القول .

(٣) فى الأصل و د : « على الغباة » ولم يعرف هذا الجمع للغبي ، ولا هو مقيس . وأثبت ما فى م .

(٤) د : « وعمل » .

(٥) الشاهد : الدليل . فى الأصل : « وبشهادته » ، وأثبت ما فى د .

ولعمرى إنَّ ذلك لموجودٌ فى الفطرة، قائم فى العقل: أنَّ مَن كفر نِعَم الخَلْق كان لِنعمِ الله أكفر؛ لأنَّ الخلق يُعطى بعضُهم بعضاً بالكُلْفة والمشقَّة، وثِقَل العطية على القلوب، واللهُ يعطى بلا كُلْفة. ولهذه العلّة جمع بين الشُّكر له والشكر لذَوِى النِّعَم من خلقه.

فلما وجبت علىَّ الحجَّة بشُكرك، وقُطع عُذرى فى مكافأتك، اعترفتُ بالتقصير عن تقصِّى ذلك، إلاَّ أنِّى بسطتُ لسانى بتقريظك ونشرِ محاسنك. موصولٌ ذلك منِّى[1] عند السامعين بالاعتراف بالعجز عن إحصائها.

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: «من أُودع عُرفاً فليشكره، فإن لم يمكنه فلينشرهُ، فإذا نشره فقد شَكَره، وإذا كتمه فقد كَفَره».

ثم رأيت أنْ قد بقىَ علىَّ أمرٌ من الأمور يمكننى فيه برُّك، وهو عندى عَتيد، وأنت عنه غير مستغنٍ، والمنفعة لك فيه عظيمة عاجلة وآجلة إن شاء الله. ٤٢ و

ولم أزل أبقاكَ اللهُ بالموضع الذى قد عرفتَ[2]، من جَمْع الكُتُب ودراستِها والنَّظَر فيها، ومعلومٌ أنَّ طُول دراستها إنّما هو تصفُّح عقول العالمين، والعلمُ بأخلاق النبيِّين، وذوى الحكمة من الماضين والباقين من جميع الأمم، وكتبِ أهل الملل.

فرأيتُ أن أجمع لك كتاباً من الأدب، جامعاً لعلمٍ كثيرٍ من المَعاد والمعاش، أصِفُ لك فيه عللَ الأشياء، وأُخبرُك بأسبابها وما اتَّفقت عليه محاسنُ الأمم.

---

(١) فى الأصل: «عندى» وأثبت ما فى د.

(٢) د: «علمت».

وعلمتُ أنَّ ذلك من أعظم ما أبَرُّك به[١] ، وأرجَحِ ما أتقرَّبُ به إليك . وكان الذى حدانى على ذلك ما رأيتُ الله قَسَم لك من الفَهْم والعقل ، وركَّب فيك من الطَّبع الكريم .

وقد أجمعت الحكماء[٢] أنَّ العقل المطبوع والكرمَ الغريزىّ لا يبلغان غايةَ الكمال إلاَّ بمعاونة العقل المكتسَب . ومثَّلوا ذلك بالنَّار والحطب ، والمِصباح والدُّهن . وذلك أنَّ العقل الغريزىَّ آلة والمكتسَب مادّة ، وإنَّما الأدبُ عَقلُ غيرِك تَزيده فى عقلك .

ورأيتُ كثيراً من واضعى الآداب قبلى قد عَهِدوا إلى الغابرين[٣] بعدَهم فى الآداب عُهوداً قاربوا فيها الحقَّ ، وأحسنوا فيها الدلالة ، إلاَّ أنِّى رأيت أكثرَ مارَسَموا من ذلك فروعاً لم يبيِّنوا عللَها ، وصفاتٍ حسنةً لم يكشفوا أسبابَها ، وأموراً محمودة لم يدلُّوا على أصولها .

فإنْ كان ما فعلوا من ذلك [رواياتٍ روَوها عن أسلافهم ، و[٤]] وراثاتٍ وَرِثوها عن أكابرهم ، فقد قاموا بأداءِ الأمانة ، ولم يبلغوا فضيلةَ من استنبط[٥] . وإنْ كانوا تركوا الدَّلالة على عِلل الأمور[٦] التى بمعرفة عللها[٧] يُوصل إلى

(١) د : « أسرك به » .
(٢) م : « وقد اجتمعت الحكماء على » .
(٣) د : « الغابر » .
(٤) التكملة من د ، م .
(٥) د . « يستنبط » . م : « استطب » .
(٦) هذا مافى الأصل و م . وفى د : «على أعيان الأمور» .
(٧) د : « اللاتى على معرفة عللها » . وفى الأصل : « التى فى معرفة عللها » وأثبت ما فى م .

مباشرة اليقين فيها ، ويُنتَهى إلى غاية الاستبصار منها ، فلم يَعْدُوا فى ذلك منزلة الظنّ بها . ولن تجدوا وصايا أنبياء الله أبداً إلاّ مبيِّنةَ الأسباب ، مكشوفة العِلل ، مضروبةً معها الأمثال .

فألَّفت لك كتابى هذا إليك ، وأنا واصفٌ لك فيه الطبائعَ التى رُكِب ٤٢ ظ
عليها الخلق ، وفُطرت عليها البَرايا كلُّهم ، فهم فيها مستوون[1] ، وإلى وجودها فى أنفسهم مضطرُّون ، وفى المعرفة بما يَتولَّد عنها متَّفقون .

ثمَّ مبيِّنٌ لك كيف تفترق بهم الحالات ، وتَفاوَتُ[2] بهم المنازل ، وما العللُ التى يُوجب بعضُها بعضا ، وما الشىء الذى يكون سببًا لغيره ، متى كانَ الأوّلُ كان ما بعدَه ، وما السَّبب الذى لا يكون الثَّانى فيه إلّا بالأوّل ، وربَّما كان الأول ولم يكن الثانى . وفرقَ ما بين الطَّبع الأول وبين الاكتساب والعادةِ التى تصير طبعًا ثانيا . ولم اختلفَ ذلك ؟ وكيف دواعى قلوبِ الناس ، وما منها يمتنعون عنه ، وما منها لايمتنعون منه . وما أسباب نوازع شهواتهم ؟ وما الشَّىء الذى يُحتال لقلوبهم به حتى تُستمال ، وحتى تُؤنَس بعد الوَحْشة ، وتَسكن بعد النِّفار ؟ وكيف يُتأتَّى لِيُنْقَضَ[3] ما فيهم من الطبائع المذمومة حتَّى تُصرف إلى الشِّيَم المحمودة ؟ وراسمٌ لك فى ذلك أصولًا ، ومبيِّن لك مع كلِّ أصل منها علَّته وسببَه .

---

(١) فى الأصل : « متساوون » وأثبت ما فى د .

(٢) أى تتفاوت ، بحذف إحدى التاءين . وفى د : « وتتفاوت » .

(٣) د : « لنقض » .

وقد علمتَ أنّ فى كثيرٍ من الحقّ مشبّهات لا تُستبان إلّا بعد النظر ، وهنالك يختِل[١] الشّيطانُ أهلَ الغفلة ، وذاك أنّه لا يجد سبيلا إلى اختداعهم عن الأمور الظاهرة[٢] .

فلم أدَعْ من تلك المواضع الخفيّة موضعًا إلّا أقمتُ لك بإزاء كلِّ شبهة منه دليلًا[٣] ، ومع كلِّ خفيٍّ من الحقّ حجّةً ظاهرة ، تَستنبط لها غوامضَ البرهان وتَستبين بها دقائق الصَّواب[٤] ، وتَستشِفُّ بها سرائرَ القلوب ، فتأتى ما تأتى عن بيِّنة ، وتَدع ما تدعُ عن خِبرة ، ولا يكون بك وحشةٌ إلى معرفةِ كثيرٍ مما يغيب عنك ، إذا عرفت العلل والأسباب ، حتّى كأنك مشاهدٌ لضمير كلِّ امرئٍ ، لمعرفتك بطبعه وما ركّب عليه ، وعوارض الأمور الداخلة عليه ٤٣ و ثمَّ ؛ غيرَ راضٍ لك بالأصول حتّى أتقصّى لك ما بلغَه علمى من الفروع . ثم لا أرسم لك من ذلك [إلّا[٥]] الأمرَ المعقول فى كل طبيعة ، والموجودَ فى فِطر البرايا كلِّها[٦] . فإنْ أحسنتَ [رعايةَ[٧]] ذلك وأقمته على حُدوده ، ونزَّلتَه منازلَه ، كان عمرُك ـ وإن قَصُرت أيّامُه ـ طويلا ، وفارقتَ ما لا بدَّ لك من فراقه محموداً ، إن شاء الله .

---

(١) فى الأصل : « يخيل » صوابه فى د . ويختل : يخدع .

(٢) فى الأصل : « عن الأمر الظاهر » ، وأثبت ما فى د .

(٣) كلمة « منه » ليست فى الأصل ، وإثباتها من م وفى د : « منها دليلا » .

(٤) هذا ما فى د . وفى الأصل : « دفائن الصواب » .

(٥) التكملة من د .

(٦) فى الأصل : «فى فطرة» ، وأثبت ما فى د .

(٧) التكملة من د .

واعلم أنَّ الآدابَ إنَّما هى آلاتٌ تَصلُح أن تُستعمَل فى الدِّينِ وتُستعمَلَ فى الدنيا ، وإنَّما وُضعت الآداب على أصول الطبائع . وإنَّما أصول أمور التدبير فى الدِّين والدُّنيا واحدة ، فما فسدت فيه المعاملةُ فى الدِّين فسَدتْ فيه المعاملةُ فى الدنيا ، وكلُّ أمرٍ لم يصحَّ فى معاملات الدُّنيا[1] لم يصح فى الدِّين . وإنَّما الفرق بين الدين والدُّنيا اختلافُ الداريَن من الدُّنيا والآخرة فقط ، والحكم ها هنا الحكم هناك ، ولولا ذلك ما قامت مملكة ، ولا ثبتت دولة ، ولا استقامت سياسة . ولذلك قال الله عزَّ وجل : ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا[2]﴾ ، قال ابن عباس فى تفسيرها : من كان ليس له من العقل ما يَعرف به كيف دُبِّرت أمور الدنيا ، فكذلك هو إذا انتقل إلى الدِّين ، فإنّما ينتقل بذلك العقل . فبقدْر جهله بالدُّنيا[3] يكون جهلُه بالآخرة أكثر ؛ لأن هذه شاهدةٌ وتلك غَيب[4] ؛ فإذا جهل ما شاهَد فهو بما غاب عنه أجهل .

فأوّلُ ما أُوصيك به ونفسى تقوى الله ؛ فإنَّها جِماعُ كلِّ خير ، وسببُ كلِّ نجاة ، ولِقاح كلِّ رشد . هى أَحرزُ حرزٍ ، وأقوى مُعين ، وأمنَع جُنَّة . هى الجامعةُ محبة قلوب العباد[5] ، والمستقبلةُ بك محبّةَ قلوبِ من لا تَجرى عليهم

(١) د : « فى معاملة الدنيا » .
(٢) الآية ٧٢ من سورة الإسراء .
(٣) فى النسخ : « فى الدنيا » ، والوجه ما أثبت .
(٤) الشاهدة : نقيض الغائبة .
(٥) فى الأصل : « قلوب محبة العباد » ، صوابه فى د .

نعمُك(١). فاجعلها عدَّتَك وسلاحَك(٢)، واجعل أمر الله ونَهيه نُصب عينيك.

٤٣ ظ وأحـذِّرك ونفسى اللهَ والاغترار به، والإدهان فى أمره، والاستهانةَ بعزائمه، والأمْنَ لمكره؛ فقد رأيتَ آثارَه(٣) فى أهل وِلايته وعداوته، كيف جعلهم للماضين عِبرةً، وللغابرين مثلا.

واعلم أنَّ خَلْقه كلَّهم بَرِيَّتُه، لا وُصْلةَ بينه وبين أحدٍ منهم إلَّا بالطاعة، فأولاهم به أكثرهم تزيُّدًا فى طاعته، وما خالفَ هذا فإنّه أمانىُّ وغُرور.

وقد مكَّن الله لك من أسباب المقدرة، ومَهَّدَ لك فى تمكين الغنى والبَسْطة ما لم تُنْحَله بحيلة(٤)، ولا بلغْتَه بقوّة(٥)، لولا فضله وطَولُه. ولكنّه مكّنك ليبلو خُبْرك، ويختبر شُكرك، ويحصىَ سعيَك، ويكتب أثَرَك، ثم يوفِّيَك أجرَك، ويأخُذَك بما اجترحَتْ يدُك أو يَعفوَ؛ فأهلُ العفو هو.

ولله ابتلاءانِ فى خَلْقه ـ والابتلاء هو الاختبار ـ ابتلاء بنعمة، وابتلاء بمصيبة. وبقَدر عظمها يجب التَّكليف من الله عليها(٦)؛ فبقدر ما خَوَّلك من النعمة يستأديك الشُّكر(٧).

---

(١) كلمة «محبة» ساقطة من الأصل، وإثباتها من د.

(٢) د: «عونك وسلاحك».

(٣) د: «أثره».

(٤) تنحله، من النحلة وهى العطية. د: «ما لم تنله بحيلة».

(٥) فى الأصل: «ولم تلقنه بقوة»، وأثبت ما فى د.

(٦) د: «وبقدر عظمهما يجب التكليف عليهما».

(٧) استأداه المال ونحوه: استخرجه منه وطلب أداءه.

ولو تقصَّى الله على خلقه لعذَّبهم ؛ ولذلك قال : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ[١] ﴾ . ولـكنَّه قَبِل التَّوبة ، وأقالَ العَثرة ، وجعل بالحسنة أضعافَها .

واعلمْ أنَّ الحـكم فى الآخرة هو الحـكمُ فى الدُّنيا : ميزانٌ قِسط ، وحكمٌ عدل . وقد قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ[٢] ﴾ .

وهذا مثلٌ ضرَبَه الله ؛ لأنَّ الناس يعلمون أن لو وضع فى إحدى كِفَّتَى الميزان شىء ولم يكُ فى الأخرى قليلٌ ولا كثير ، لم يكنْ للوزنِ معنًى يُعقَل . وذلك أن أحدًا من الخلْق لا يخلو من هَفوةٍ أو زَلّة أو غَفلة ؛ فأَخبرَ أنَّ من كان حسناتُه الراجحةَ على سيئاته ، مع النَّدَم على السَّيئات ، كان على سبيل النجاة ، وطريق الفوز بالإفلاح . ومن مالت سيِّئاته بحسناته كان العطبُ والعذاب أولَى به . ٤٤ و

وكذلك حكمُه فى الدنيا ؛ لأنَّه قد تولَّى أولياءَ من خلقـه وشَهِد لهم بالعدالة ، وقد عاتَبَهم فى بعض الأمور لغلبة الصَّلاح [فى أفعالهم وإن هفَوا ، وتبرَّأ من آخرين وعاداهم لغلبة الجور[٣]] على أفاعيلهم[٤] ، وإن أحسَنُوا فى بعض الأمور .

---

(١) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

(٢) الآية ١٠٢ — ١٠٣ من سورة المؤمنون .

(٣) التكملة من د .

(٤) د : « على أفعالهم » .

وكذلك جَرتْ معاملاتُ الخَلْق بينهم ، يُعدِّلون العادلَ بالغالب من فعله وربَّما أساء ، ويفسِّقون الفاسق وربَّما أحسن . وإنما الأمورُ بعواقبها ، وإنَّما يُقضَى على كلِّ امرئٍ بما شاكَلَ أحوالَه .

فهذه الأمورُ قائمةٌ فى العقول ، جرت عليها المعاملة ، واستقامت بها السياسة ، لا اختلافَ بين الأمَّة فيها .

فلا تُغْبَنَنَّ حَظَّك من دِينك[1] ، وإن استطعتَ أن تبلغ من الطَّاعة غاياتِها فلنَفْسك تُمهِّد ، وإلَّا فاجهَدْ أن يَكون أغلبُ أفعالك عليك الطَّاعةَ[2] ، مع النَّدامة عند الإساءة ، ويكون ميلُك عند الإساءة ، إلى الله أكثر . والله يوفِّقك .

اعلمْ أنَّ اللهَ جلَّ ثناؤه خَلَق خلْقه ، ثمَّ طبعهم على حبِّ اجترار المنافع[3] ، ودفع المضارّ ، وبُغض ما كان بخلاف ذلك[4] . هذا فيهم طبعٌ مركَّب ، وجِبِلّة مفطورة ، لا خلافَ بين الخلْق فيه ؛ موجودٌ فى الإنس والحَيوان ، لم يدَّعِ غيره مدَّعٍ من الأوَّلين والآخِرين . وبقدر زيادةِ ذلك ونُقصانه تَزيد المحبَّة والبغضاء ؛ [فنقصانُه[5]] كزيادته تميل الطَّبيعة معهما[6] كميل كِفَّتى الميزان ، قلَّ ذلك أو كثُر .

(١) فى الأصل : « فلا تعتبر » ، صوابه فى د .
(٢) فى الأصل : « أفاعيلك الطاعة » ، وأثبت ما فى د .
(٣) اجترار المنافع : اجتلابها . وكلمة « حب » ساقطة من د .
(٤) فى الأصل : « ونقص من كان » ، صوابه فى د .
(٥) تكملة ضرورية ليتزن بها الكلام .
(٦) فى الأصل ، د : « معها » .

وهاتان جملتان داخلٌ فيهما جميع مَحَابِّ العباد ومَكارههم . والنَّفس فى طبعها حبُّ الرَّاحة والدَّعة ، والازدياد والعلوّ ، والعِزّ والغَلبة ، والاستطراف والتَّنُّوق[١] ، وجميع ما تستلذ الحواسُّ من المناظر الحسنة ، والروائح العَبِقة ، والطُّعوم الطَّيِّبة[٢] ، والأصوات المونقة ، والملامس اللَّذيذة . ومما كراهيتُه[٣] فى طباعهم أضدادُ ما وصفتُ لك وخلافه .

فهذه الخلالُ التى تجمعها خَلتان[٤] غرائز فى الفِطَر ، وكوامن فى الطَّبع ؛ جِبلَّةٌ ثابتة ، وشيمة مخلوقة . على أنَّها[٥] فى بعضٍ أكثرُ منها فى بعضٍ ، ولا يعلم قدرَ القلَّة فيه والكثرة إلَّا الذى دبَّرهم . ٤٤ ظ

فلمَّا كانت هذه طبائعَهم ، أنشأ لهم من الأرض أرزاقهم ، وجعل فى ذلك مَلاذَّ لجميع حواسِّهم ، فتعلَّقت به قلوبُهم ، وتطلَّعت إليه أنفسهم . فلو ترَكَهم وأصلَ الطبيعة ، مع ما مكَّن لهم من الأرزاق المشتهاة فى طبائعهم ، صاروا إلى طاعة الهوى ، وذهب التعاطف والتبارُّ . وإذا ذهَبا كان ذلك سببًا للفساد ، وانقطاعِ التَّناسل ، وفناء الدُّنيا وأهلها ؛ لأنَّ طَبْع النفس لا يسلُس بعطيّةِ قليلٍ ولا كثيرٍ مما حَوتْه ، حتَّى تعوَّض أكثر مما تُعطِى ، إمَّا عاجلًا وإما آجلًا مما تستلذُّه حواسُّها .

---

(١) التنوق فى الشىء : التجود والمبالغة فيه ، مثل التأنق . وفى النسختين : « التلون » ، وقد ارتضيت هذا التصحيح من ناشر ط .

(٢) فى الأصل : « والطعم ذو الطيبة » ، وأثبت ما فى د .

(٣) هذا ما فى د . وفى الأصل : « كراهته » .

(٤) يعنى : « المحاب والمكاره » . وفى د : « التى وصفت لك تجمعها خلتان » . ولا وجه لهذه الزيادة .

(٥) د : « إلا أنها » .

فعلِم اللهُ أنَّهم لا يتعاطفون ولا يتواصلون ولا ينقادون[١] إلاَّ بالتأديب ، وأنَّ التأديب ليس إلاَّ بالأمر والنَّهى ، [وأنّ الأمر والنهى[٢]] غير ناجعَين فيهم إلاَّ بالترغيب والترهيب اللذَين فى طباعهم[٣] . فَدعاهم بالتَّرغيب إلى جَنّته ، وجعلها عوضاً ممَّا تركوا فى جنب طاعته[٤] ، وزجَرهم بالتَّرهيب بالنار عن معصيته ، وخوَّفهم بعقابها على ترك أمره . ولو ترَكهم جلَّ ثناؤه والطِّباعَ الأوّل[٥] جرَوْا على سَنَن الفِطرة ، وعادة الشِّيمة[٦] .

ثم أقامَ الرَّغبة والرَّهبةَ على حدود العَدل ، وموازين النَّصَفة ، وعدَّلهم تعديلاً متّفقا ، فقال : ﴿ فمن يَعْمَل مِثقالَ ذَرّةٍ خيراً يَرَهُ . ومَن يَعمل مِثقالَ ذَرّةٍ شرًّا يره[٧] ﴾ .

ثم أخبر الله تبارك وتعالى أنَّه غير داخلٍ فى تدبيره الخللُ ، ولا جائزٌ عنده المحاباة ؛ ليعملَ كلُّ عاملٍ على ثقةٍ ممَّا وعَده وواعَده ، فتعلَّقت قلوبُ

---

(١) ولا ينقادون ، ساقطة من د .

(٢) التكملة من د .

(٣) د : « طبائعهم »

(٤) فى الأصل : « طاعتهم » ، وأثبت ما فى د .

(٥) الطباع : الطبيعة والسجية . قال الزجاجى : «الطباع واحد مذكر كالنحاس والنجار » ، يعنى بكسر أولهما . انظر اللسان (طبع) . وفى د : « والطبع الأول » ، وكلاهما متجه .

(٦) م : « وعادات الشيمة » .

(٧) الآية ٧ — ٨ من سورة الزلزال .

العباد بالرغبة والرَّهبة ، فاطَّردَ التدبير ، واستقامت السِّياسة ، لموافقتهما[١] ما فى الفِطرة ، وأخذهما بمجامع المَصلحة .

ثمَّ جعلَ أكثر طاعته فيما تَستثقل النفوس ، وأكثرَ معصيته فيما تَلَذّ . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « حُفَّت الجنة بالمكاره ، والنّارُ بالشهوات[٢] » . [يخبر أنّ الطريق إلى الجنّة احتمال المكاره ، والطريق إلى النار اتباع الشهوات[٣]] .

فإذا كانوا لم يصلحوا لخالقهم ولم ينقادوا لأمره إلاَّ بما وصفتُ لك من الرَّغبة والرَّهبة ، فأعجزُ الناسِ رأياً وأخطؤهم تدبيراً ، وأجهلُهم بموارد الأمور ومصادرها ، من أمَّل أو ظنّ أورجَا أنَّ أحداً من الخلْق ــ فوقه أو دونه أو من نظرائه[٤] ــ يصلح له ضميره ، أو يصحُّ له بخلاف مادبرهم الله عليه ، فيما بينه وبينهم . ٤٥ و

فالرَّغبة والرَّهبة أصلاَ كلِّ تدبير ، وعليهما مدار كلِّ سياسة ، عظُمتْ أو صغُرت . فاجعلْهما مِثالَك الذى تَحتذِى عليه ، وركنَك الذى تستنِد إليه . واعلمْ أنَّك إن أهملت ماوصفتُ لك عرَّضتَ تدبيرك للاختلاط .

---

(١) يعنى الرغبة والرهبة . وفى الأصل : « لموافقتها » ووجهه من د .

(٢) رواه مسلم والترمذى وأحمد عن أنس ، ومسلم أيضاً عن أبى هريرة . الجامع الصغير ٢٧٣٢ .

(٣) التكملة من د .

(٤) فى الأصل : « أو من يظن أن » مع سقوط هذه العبارة من د ، وصوابها مارأيت وانظر ماسيأتى .

وإنْ آثرتَ الهُوينَا واتّكلت على الكُفاةِ فى الأمر الذى لا يجوز فيه إلاّ نظرك ، وزَجّيت أمورك على رأيٍ مدخول ، وأصلٍ غيرِ محكَم ، رجع ذلك عليك بما لو حُكّم فيك عدوُّك كان ذلك غايةَ أمنيّته ، وشفاءَ غيظِه .

واعلم أنَّ إجراءك الأمورَ مجاريَها ، واستعمالَك الأشياء على وجوهها ، يجمع لك أُلفةَ القلوب ، فيعاملك[١] كلُّ من عاملَك بمودّةٍ ، أو أَخْذ أو إعطاء ، وهو على ثقةٍ من بَصَرك بمواضع الإنصاف[٢] ، وعلمك بموارد الأمور .

واعلم أنّ أَثرتَك على غير النصيحة والشّفقة ، والحُرمة والكِفاية ، يوجب [لك[٣]] المباعدةَ وقلّةَ الثقة ممن آثرته أو آثرتَ عليه .

فاعرِف لأهل البَلاء ـ ممَّن جرت بينك وبينه مودّةٌ أو حرمة ، ممن فوقَك أو دونك أو نظرائك ـ أقدارَهم ومنازلَهم . ثمَّ لتكنْ أمورُك معهم على قدر البلاء والاستحقاق ، ولا تُؤْثر فى ذلك أحَداً لهوًى[٤] ؛ فإنَّ الأثَرة على الهوى توجب السُّخطة ، وتُوجب استصغار عظيم النِّعمة ، ويُمحَق بها الإفضال ، وتَفسد عليها[٥] الطائفتان : مَن آثرتَ ومن آثرت عليه .

أما من آثرت[٦] فإنَّه يعلم أنَّك لم تُؤْثره باستحقاقٍ بل لهوًى ، فهو

(١) فى الأصل : « ويعاملك » والوجه من د .

(٢) د : « بمواقع الإنصاف » .

(٣) التكملة من د .

(٤) د : « بهوى » .

(٥) فى الأصل : « بها » وأثبت ما فى د .

(٦) د : « آثرته » فى هذا الموضع وسابقه .

مترقِّبٌ أن ينتقل هواك إلى غيره ، فتَحُول أَثَرتُك حيث مال هواك . فهو مدخولُ القَلْب فى مودَّتك ، غير آمنٍ لتغيُّرك .

وأمَّا من آثرتَ عليه بعد الاستحقاق منه ، فقد جعلتَ له السبيلَ إلى الطَّعن عليك ، وأعطيتَه الحُجَّة على نفْسِك . فكلٌّ من يعمل على غير ثقةٍ ٤٥ ظ
عاد ما أراد به النَّفعَ ضرراً ، والإصلاح [فيه[1]] فساداً .

وربَّما آثر الرجلُ المرءَ من إخوانه بالعطية السنيَّة على بلاءِ أبلاه[2] ، فيعظمُ قدرُها[3] عنده حتَّى لعلّه تطيبُ نفسُه ببذل مالِه ودمِه دونَه[4] . فإنْ أعطى من أبلى كبلائه وكانت له مثل دالَّته[5] ، أكثرَ ممَّا أعطاه ، انتقل كلُّ محمودٍ من ذلك مذموماً ، وكل مستحسَنٍ مستقبحاً . وكذلك الأمر فى العقوبة ، يجريان مجرى واحداً .

فاجعل العدلَ والنَّصَفة فى الثَّواب والعقاب حاكمًا بينك وبين إخْوانك ، فمن قدَّمت منهم فقَدِّمْه على الاستحقاق ، وبصحة النّيّة فى مودته ، وخلوص نصيحته لك ممّا قد بلوتَ من أخلاقه وشيمه[6] ، وعلمتَ بتجربتك له ، أنَّه يعلم أنَّ صلاحَه موصولٌ بصلاحك ، وعطبَه كائن مع عطبك ، ففوِّض

---

(١) التكملة من د .

(٢) فى الأصل : « بلا بلاء أبلاه » ، والوجه من د .

(٣) فى الأصل : « قدرها » ، صوابه من د .

(٤) د : « ونفسه دونه » .

(٥) فى الأصل : « دلالته » ، صوابه فى د .

(٦) فى الأصل : « ممن قد بلوت فى أخلاقه وشيمه » ، والوجه من د .

الأمرَ إليه ، وأشرِكْه فى خواصِّ أمورِك وخفىِّ أسرارك ، ثمَّ اعرفْ له قدرَه فى مجلسك ومُحاورتك[١] ومعاملتك ، فى كلِّ حالاتك ومزاولاتك فى خلواتك معه[٢] ، وبحضرةِ جُلسائك ؛ فانَّ ذلك زيادة فى نيته ، وداعيةٌ[٣] لمَنْ دونه إلى التقرُّب إليك بمثل نصيحته .

فإن ابتُليتَ فى بعض الأوقات بمن يَضْرِب بحرمة[٤] ويمتُّ بدالّة ، يطلب المكافأةَ بأكثر ممَّا يستوجب ، فدعاك الكرمُ والحياء إلى تفضيله على من [هو[٥]] أحقُّ منه ، إمّا تخوُّفًا من لسانه[٦] ، أو مداراةً لغيره ، فلا تَدع الاعتذارَ إلى من فوقَه من أهل البَلاَء والنَّصيحة وإظهارَ ما أردتَ من ذلك لهم ؛ فإنّ أهلَ خاصَّتك والمؤتمنِين على أسرارك ، هم شركاؤك فى العيش ، فلا تَستهينَنَّ بشىءٍ من أمورهم ؛ فإنَّ الرَّجلَ قد يترك الشىء من ذلك اتِّكالاً على حسن رأى أخيه[٧] ، فلا يزال ذلك يجرح فى القلب وينمو ، حتَّى يولِّد ضِغناً ويَحُولَ عداوة .

فتحفَّظْ من هذا الباب ، واحملْ إخوانك عليه بجهدك .

---

(١) د : « ومحادثتك » .

(٢) فى الأصل : « ومزاولتك » . والكلام بعد « معاملتك » إلى هنا ساقط من د .

(٣) د : « فإن ذلك زائد فى نيته وداع » .

(٤) د : « يتقرب بحرمة » .

(٥) التكملة من د .

(٦) د : « تخوفا » بدل « خوفاً » .

(٧) فى الأصل : « أموراً لا على رأى أخيه » ، صوابه فى د .

وستجد فى من يتّصل بك من يغلبه إفراط الحِرص وحُمَيّا الشّره ، ولينُ جانبك له ، على أن ينقِم العافية ، ويطلُب اللُّحوق بمنازلِ مَن ليس هو ٤٦ و
مثلَه[١] ، ولا له مثلُ دالّته ، فتلْقاه لما تصنع به مستقِلاً ، ولمعروفك مُستصغِراً . وصلاح من كانت هذه حالَه بخلافِ ما فَسَد عليه أمرُه . فاعرفْ طرائقهم وشِيَمهم ، وداوِ كلَّ مَن لا بدَّ لك من معاشرته بالدواء الذى هو أنجعُ فيه ، إنْ ليناً فليناً ، وإنْ شدّةً فشدّة ؛ فقد قيل فى المثل :

من لا يــؤدّبُه الجميـ ـلُ ففى عقـــوبته صـــلاحُه

وقد قال بعضُ الحكماء :

« ليس بحكيمٍ من لم يعاشرْ من لا يَجد من معاشرته بُدًّا[٢] ، بالعدل والنَّصفة ، حتّى يجعل الله له من أمره فرجا ومخرجا[٣] .

فاحفظْ هذه الأبوابَ التى يُوجب بعضها بعضًا ، وقد ضمِنَتْ لك أوائلُها كونَ أواخرها . فاعرفْها واقتبسْها ، واعلم أنَّه متى كان الأوّلُ منها وجبَ ما بعده لا بدَّ منه . فاحذر المقدِّمات اللاتى يعقبها المكروه[٤] ، واحرِص على توطيد الأمور التى على أثَرها السّلامة ، وألقِحْ فى البدىِّ الأمورَ التى نِتاجُها العافية[٥] .

(١) د : « ويطلب اللحاق بمنازل من ليس مثله » .
(٢) د : « من لم يعاشر من لا بد من معاشرته » .
(٣) هذا ما فى د . وفى الأصل : « حتى يجعل الله له فرجاً » فقط .
(٤) د : « التى » .
(٥) البدىّ : الأول . فى الأصل : « والفتح فى يدى » صوابه فى د . وفى د : « أموراً نتاجها العافية » . وفى الأصل : «ونتائجها» .

فمن الأمور التى يُوجب بعضُها بعضًا : المنفعةُ توجب المحبَّة ، والمَضرّة توجب البغضاء[١] ، والمُضادّة توجب العداوة ، وخلافُ الهوى يُوجب الاستثقال ، ومتابعتُه توجب الأُلفة ، والصِّدقُ يوجب الثِّقة ، والكذب يُورث التُّهمة[٢] ، والأمانة توجب الطُّمأنينة ، والعدل يوجب اجتماع القُلوب ، والجور يوجب الفُرقة ، وحسن الخلق يُوجب المودَّة ، وسوء الخلق يوجب المباعدة[٣] ، والانبساط يوجب المؤانسة ، والانقباض يوجب الوحشة ، والتكبُّر[٤] يوجب المقت ، والتواضُع يوجب المِقَة ، والجود بالقصد يوجبُ الحمد[٥] ، والبخل يوجب المذَمَّة ، والتوانى يوجب التَّضييع ، والجدّ يوجب رخاء الأعمال ، والهُوَينا تورث الحسْرة ، والحزم يورث السُّرور ، والتَّغرير يُوجِب النَّدامة ، والحذر يوجب العُذْر ، [وإصابة التدبير توجب بقاءَ النعمة[٦]] والاستهانة توجب التَّباغِى ، والتَّباغى مقدِّمة الشَّرّ[٧] وسببُ البَوار . ٤٦ ظ

ولكلِّ شىء من هذا إفراط وتقصير[٨] ، وإنَّما تَصحُّ نتائجها إذا أُقيمت على حدودها ، وبقدر ما يدخل مِن الخلل فيها يدخُل فيما يتولَّد منها ، لا بدَّ منه

(١) د : « لبغضة » .

(٢) فى الأصل : « النميمة » ، صوابه فى د .

(٣) د : « التباعد » .

(٤) د : « والكبر » .

(٥) د : « والجود والفضل يوجبان الحمد » . ولا يتساوق هذا مع سائر الأسلوب.

(٦) التكملة من د .

(٧) د : « مقدمات الشر » .

(٨) هذا ما يعبر عنه الأخلاقيون بمذهب الوسط .

ولا مَزْحَل عنه ، عليه عادةُ الخلق ، وبه جرَتْ طبائعهم ، وتمام المنفعة بها إصابةُ مواضعها :

فالإفراط فى الجود يوجب التَّبذير ، والإفراط فى التواضع يوجب المذلَّة[١] ، والإفراط فى الكبر يدعو إلى مقت الخاصّة[٢] ، والإفراط فى المؤانسة يدعو خلطاءَ السُّوء[٣] ، والإفراط فى الانقباض يوحش ذا النَّصيحة . وآفة الأمانة ائتمان الخَانة[٤] ، وآفة الصِّدق تصديق الكَذَبة ، والإفراط فى الحذر يدعو إلى ألاَّ يُوثَق بأحد ؛ وذاك ما لا سبيل إليه . [والإفراط فى المضرَّة مَبعثةٌ على حربك[٥]] ، والإفراط فى جرِّ المنفعة عَناءٌ لمن أفرطتَ فى نَفعه عَنك .

واحذرْ كل الحذر أن يختدعَك الشيطانَ عن الحزْم[٦] فيمثِّلَ لك التَّوانىَ فى صورة التوكُّل ، ويسلبَك الحذر ، ويُورثَك الهُوَينا بإحالتك على الأقدار ؛ فإنَّ الله إنَّما أمر بالتوكُّل عند انقطاع الحِيَل ، والتسليمِ للقَضاء بعد الإعذار ، بذلك أنزلَ كتابَه ، وأمْضَى سُنَّته فقال : ﴿ خُذُوا حِذْرَكُم[٧] ﴾ ،

---

(١) فى الأصل : « يورث المذلة » ، وأثبت ما فى د .

(٢) فى الأصل : « يدعو العقب الخاصة » ، صوابه فى د .

(٣) بعده فى الأصل : « والإفراط فى الحذر يدعو إلى أن لا يثق بأحد » ، وهو تكرار لما سيأتى مما اتفقت عليه النسختان .

(٤) الخانة : جمع خائن ، وفى اللسان : «والجمع خانة وخونة ، الأخيرة شاذة». ونظير هذه الأخيرة فى الشذوذ حائك وحوكة .

(٥) التكملة من د .

(٦) هذا ما فى د . وفى الأصل : « الحرص » .

(٧) الآية ٧١ من سورة النساء .

﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ[١] ﴾ . وقولُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم : « اعْقِلْهَا وَتوَكَّلْ[٢] » . وسُئل ما الحَزْم ؟ فقال : الحَذَر[٣] .

فتحفَّظْ من هذا الباب وأحكِمْ معرفتَه إن شاء الله تعالى .

واعلمْ أنَّ أكثر الأمور إنَّما هو على العادة وما تَضْرَى عليه النُّفوس ، ولذلك قالت الحكماء : « العادةُ أمْلَكُ بالأدب »

فَرُضْ نفسَك على كلِّ أمرٍ محمود العاقبة ، وضَرِّها بكلِّ ما لا يُذَمّ من الأخلاق[٤] يَصِرْ ذلك طِباعا[٥] ، وينسب إليك منه أكثرُ مما أنت عليه .

واعلم أنَّ الذى يُوجب لك اسمَ الُجود القيامُ بواجب الحقوق عند النَّوائب ، مع بَعضِ التَّفضُّل على الراغبين . وإذا أُوجِبَ[٦] لك اسمُ الُجود زالَ عنك اسمُ البخل .

٤٧ و واعلم أنَّ تثمير المال آلةٌ للمكارم ، وعونٌ على الدِّين ، ومُتَألَّفٌ للإخوان ؛ وأنَّ مَن قد فَقدَ المال قلَّت الرغبة إليه ، والرَّهبة منه ؛ ومَن لم يكنْ بموضعِ رغبةٍ ولا رهبة استهانَ النّاسُ بقدره[٧] .

---

(١) الآية ١٩٥ من سورة البقرة .

(٢) رواه الترمذى عن أنس ، وهو حديث ضعيف ، الجامع الصغير ١١٩١ . ورواه الطبرانى: «قيدها وتوكل» أسنى المطالب لمحمد بن درويش البيروتى ص ٤٤ .

(٣) هذا ما فى د . وفى الأصل : « قال الحذر » .

(٤) فى الأصل : «الإخلاص» صوابه فى د . والتضرية : التعويد ، والضراوة : العادة .

(٥) الطباع : الطبع والجبلة . وانظر ما سبق فى حواشى ١٠٤ . د . طبعا » .

(٦) د : « وجب » .

(٧) هذا ما فى د . وفى الأصل : « به » .

فاجهَد الجُهْد كله ألّا تزالَ القلوبُ معلّقةً منك برغبة أو رهبةٍ ، في دينٍ أو دُنيا .

واعلم أنَّ السَّرَف لا بقاء معه لكثير ، ولا تثميرَ معه لِقليل ، ولا تصلح عليه دنيا ولا دين . وتأدَّبْ بما أدَّبَ الله تعالى به نبيَّه[1] فقال : ﴿ ولا تَجْعَلْ يدَكَ مَغلولةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبسُطْها كلَّ البَسْطِ فتقعُدَ مَلُومًا مَحسُوراً[2] ﴾ . وقالت الحكماء : « القَصْد أبقى للجَمَام[3] » .

فداوِمْ حالَكَ وبقاءَ النِّعمة عليك ، بتقديرك أمورَكَ على قَدْر الزمان ، وبقدر الإمكان ؛ فقد قال الشاعر[4] :

مَن سابَقَ الدَّهرَ كبا كَبوةً ... لم يَسْتَقِلْها من خُطَى الدَّهر

فاخطُ مع الدَّهر على ماخطا ... واجرِ مع الدَّهر كما يجرى[5]

واعلم أنَّ الصمت في موضعه ربَّما كان أنفعَ من الإبلاغ بالمنطق في موضعه ، وعند إصابة فرصته . وذلك صَمْتُك عند من يعلم أنَّك لم تصمت عنه عِيًّا[6] ولا رَهبة . فليزِدْكَ في الصَّمْت رغبةً ماترَى من كثرة فضائح المتكلِّمين في غير الفُرص ، وهَذَرِ مَن أطلق لسانَه بغير حاجة .

---

(١) في الأصل : « وتأديب الله فيه ما أدب به نبيه صلى الله عليه وسلم » ، صوابه في د .

(٢) الآية ٢٩ من سورة الإسراء .

(٣) الجمام ، كسحاب : الراحة .

(٤) هو أبو العتاهية ، كما في البيان ٤ : ٢١ وملحقات ديوانه ٩٨ نقلا عن الأغاني ٣ : ١٦٤ .

(٥) في الأصل والبيان : «إذا ما خطا» ، وأثبت ما في د وبعض أصول البيان .

(٦) العي : العجز . وفي الأصل : « عياء » ، صوابه في د .

واعلمْ أنَّ الُجبن جبنانِ ، والشَّجاعة شجاعتان ، وليست تـكون الشجاعةُ إلاَّ فى كلِّ أمر لا يُدرَى ماعاقبته ، يُخاطَر فيه بالأنفس والأموال . فإذا أردتَ الحزمَ فى ذلك فلا تشجِّعنَّ نفسَك على أمرٍ أبداً إلاَّ والذى ترجو من نفعه فى العاقبة أعظمُ ممَّا تبذل فيه فى المستقبل ، ثم يكون الرجاء فى ذلك أغلبَ عليك من الخوف .

وها هنا موضعٌ يُحتاج فيه إلى النظر : فإن كان ذلك أمرًا واجباً فى الدِّين ، أو خوفاً لعارٍ تُسبُّ بهِ الأعقابُ فأنت معذورٌ بالمخاطرة فيه بنفسك ٤٧ ظ
ومالك . وإن كان أمراً تعظُم منفعتُه فى الدنيا[(١)] إلاَّ أنَّك لا تناله إلاّ بالخطار بمهجة نفسِك[(٢)] أو بتعريضِ كلِّ مالك للتَّلف ، فالإقدام على مثل هذا ليسَ بشجاعة ، ولـكنْ حماقةً بيِّنةً عند الحـكماء .

وقد قالت علماء أوائل الناس[(٣)] :

* لا يرسل السَّاقَ إلاَّ ممسكاً ساقا[(٤)] *

---

(١) فى الأصل : « للدنيا » ، وأثبت ما فى د .

(٢) الخطار : المخاطرة ، وهو أن يشفى بنفسه على خطر الهلك . وفى الأصل : « بالإخطار » والوجه ما أثبت من د . وفى د : « بالخطار بنفسك » .

(٣) د : « علماء الأوائل » فقط .

(٤) فى الأصل : « ممسك » صوابه فى د . وهو عجز بيت لأبى دواد الإيادى ، من أبيات رواها العسكرى فى الجمهرة ٢١٢ . وانظر اللسان (حرب ، سوق) وعيون الأخبار ٣ : ١٩٢ وأمثال الميدانى ١ : ٢٠٢ وديوان المعانى ١ : ٢٣٨ والمخصص ٨ : ١٠٣ . وصدره :

* أنى أتيح له حرباء تنضبة *

وقالوا : « لا تُخرج الأمرَ كلَّه مِن يدك وخـذْ بأحد جانبَيْه[١] » .
ثم الشجاعة والجبن فى ذلك بقدر الحالات والأوقات .

واعلمْ أنَّ أصلَ ما أنت مستظهر به على عدوِّك ثلاثُ خلال :

أشرفها : أن تأخذ عليه بالفَضْل وتبتدئَه بالُحسنى ، فتـكون عليه رحمةً ولنفسك ناظرا ؛ فإنَّ كثرة الأعداءِ تنغيصٌ للسُّرور ، وقد قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ادفَعْ بالتى هِىَ أحسَنُ فإذا الذى بَينَك وبينه عَداوةٌ كأنَّهُ ولىٌّ حميم[٢] ﴾ .

فإن كان عدوُّك مما لا يصلُح على ذلك فحصِّن عنه أسرارك ، وعَمِّ عليه آثار تدبيرك[٣] ، ولا يطَّلعنَّ على شىء من مكايدتك له[٤] بقولٍ ولا فعل ، فيأخذَ حِذرَه ، ويعرفَ مواضعَ عَوَارك ، فإنَّ تحصينَ الأسرار أَخذٌ بأزمَّة التدبير ، والإكثارَ من الوعيد للأعداء فشَـل[٥] . ولـكنْ داجِ عدوَّك ما داجاكَ ، وأحصِ معايبَه ما لاحاكَ .

وقال الشاعر[٦] :

كلٌّ يداجِى على البغضاء صاحبه ... زَكِنْتُ منهم على مِثل الذى زَكِنُوا[٧]

(١) د : « جوانبه » .
(٢) الآية ٣٤ من فصلت .
(٣) د : « وعم عليه تدبيرك » .
(٤) د : « مكايدك » .
(٥) هذا ما فى د . وفى الأصل : « وإكثار الوعيد للأعداء فشل » .
(٦) هو قعنب بن أم صاحب ، كما فى اللسان (زكن) . وانظر أبياتاً من قصيدة البيت فى الحماسة (باب الهجاء) بشرح التبريزى .
(٧) زكن بمعنى علم . وعداه بعلى لأن فيه معنى اطلعت .

واعلم أنَّ أعظمَ أعوانك عليه الحُجج [ثم الفرصَة(١)] ، ثم لا تُظهرن عليه حُجَّةً ، ولا تهتبِلْ منه غِرّة ،ولا تطلبنَّ له عَثرة ، ولا تهتكنَّ له ستراً [إلاّ] عند الفرصة فى ذلك كلِّه ، وفى المواضع التى يجب لك فيها العُذْر ويعظم فيها ضررُه ، إن كان العفو عنه شرًّا له .

وإن كان ممن يُظهِر لك العداوةَ ويكشف لك قِناع المحاربة ، وكان ممن أعياكَ استصلاحه بالحلم والأناة ، فلتكن فى أمره بين حالين(٢) : استبطانِ
الحذَر منه ، والاستعداد له وإظهار الاستهانة [به(٣)] . ولستَ مستظهِراً عليه ٤٨ و
بمثل طهارتك من الأدناس ، وبراءتك من المعايب .

فلتكن هذه سيرتَك فى أعدائك .

واعلم أنَّ إشاعةَ الأسرار فسادٌ فى كلِّ وجهٍ من الوجوه ، من العدوّ والصديق(٤) . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « استعينوا على الحوائج بسَتْرها ؛ فإنَّ كلَّ ذى نعمة محسود(٥) » .

وإذا أَفشيتَ سِرَّك لجاءتِ الأمورُ على غير ما تقدِّر كان ذلك منك فضلاً من قولك على فعلك(٦) . وقد قيل فى الأمثال : « من أفشَى سِرَّهُ كثُر المتآمرون

---

(١) التكملة من م .
(٢) د : « حالتين » .
(٣) التكملة من د .
(٤) هذا مافى د . وفى الأصل : « والعدو والصديق » .
(٥) أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير ٩٨٥ وذكر أنه حديث ضعيف .
(٦) الكلام من أول الفقرة إلى هنا ساقط من د .

عليه » . فلا تضَعْ سرَّك إلاّ عند من يضرُّه نشره كما يضرُّك ، وينفعه ستره بحسب ما ينفعك[١] .

واعلم أنّك ستصحب من الناس أجناساً متفرِّقةً حالاتُهم ، متفاوتةً منازلُهم ، وكلُّهم بك إليه حاجة ، وكلُّ طائفة تسُدُّ عنك كثيراً من المنافع لا يقوم به من فوقها ، ولعلَّهم مجتمعون على نصيحتك والشَّفقة عليك . فمنهم من تُريد منه الرأى والمشورة ، [ومنهم مَن تريده للحفظ والأمانة[٢]] ، ومنهم من تريده للشِّدّة والغلظة ، ومنهم من تريده للمِهنة . وكلٌّ يسُدُّ مسَدَّه على حياله . وقد قيل فى الحكمة : « إنّ الخلال تنفع حيث لا يَنفع السَّيف » .

ولا تُخْلينَّ أحداً منهم ـ عظُم قدره أو صُغرت منزلتُه ـ مِن عنايتك وتعهُّدك بالجزاء على الحسنة ، والمعاتبة عند العثْرة ؛ ليعلموا أنَّهم منك بمرأًى ومسمع . ثُمَّ لا تجوزَنَّ بأحدٍ منهم حَدَّه ، ولا تدخلْه فيما لا يصلُح له ، تستقمْ لك حالُه ، ويتَّسِقْ لك أمره[٣] .

واعلم أنه سيمرُّ بك فى معاملاتِ الناس حالاتٌ تحتاج فيها إلى مداراةِ أصنافِ الناس وطبقاتهم ، يَبلغُ بك غايةَ الفضيلة فيها ، وكمالَ العقل والأدب منها ، أنْ تُسالم أهلَها وتملكَ نفسَك عن هواها ، وتكفَّ من جماحها[٤] ، بالأمر الذى لا يُخْرجك فى دينك[٥] ولا عِرضك ولا بدنك ، بل يُفيدك عزَّ الحلم ، وهيبة الوقار . وهى أمور مختلفة ، تجمعُها حالٌ واحدة . ٤٨ ظ

---

(١) فى الأصل : « وينفعه نشره » ، صوابه فى د . (٢) التكملة من د .

(٣) يتسق : ينتظم . وفى الأصل : « ويتفق » ، وأثبت ما فى د .

(٤) فى النسختين : « عن جماحها » .

(٥) فى الأصل : « بأمر لا يخرجك فى دينك » . صوابه فى د .

منها : أن تأتىَ مَحفِلاً فيه جَمعٌ من الناس ، فتجلس منه دون الموضع الذى تستحقُّه حتى يكون أهلُه [الذين[١]] يرفعونك ، فتظهر جلالتُك وعِظَمُ قدرك .

ومنها : أن يُفيض القومُ فى حديثٍ ، عندكَ منه مثلُ ما عندهم أو أفضلُ ، فيتنافسون فى إظهار ما عندهم ، فإنْ نافستَهم كنْتَ واحداً منهم ، وإن أمسَكت اقتضَوْك ذلك ، فصرتَ كأنَّك ممتنٌّ عليهم بحديثك ، وأنصَتُوا لك ما لم يُنصِتُوا لغيرك .

ومنها : أن يتمارى جُلساؤُك ـ والمِراءُ نِتاجُ اللَّجاجة وثَمرةٌ أصلُها الحِميَّة ـ فإنْ ضبطتَ نَفَسك كان تحاكُمُهم إليك ، ومعوَّلُهم عليك .

واعلمْ أنَّ طبع النُّفوس ـ إذْ كان على حسبِ العلوّ والغَلَبة ـ أنَّ فى تركيبها بُغضَ من استطالَ عليها . فاستدعِ محبّةَ العامَّة بالتَّواضع ، ومودَّةَ الأخِلاّء بالمؤانسة والاستشارة ، والثِّقةِ والطُّمأنينة .

واعلم أنَّ الذى تُعامِل به صديقَك هو ضدُّ ما تعامل به عدوَّك . فالصَّديقُ وجهُ معاملتِه المسالمةُ ، والعدوُّ وجهُ معاملته المداراةُ[٢] والموارَبة ، هما ضدّانِ يتنافيان ، يُفسد هذا ما أصلح هذا[٣] ، وكلَّما نقصت من أحدِ البابَين زاد فى صاحبه ، إنْ قليلٌ فقليلٌ ، وإنْ كثيرٌ فكثيرٌ[٤] .

---

(١) التكملة من د .

(٢) د: . « المداراة والمسالمة » ، وكلمة « والمسالمة » مقحمة .

(٣) د : « فصلاح هذا ما أفسدها »

(٤) د : « إن قليلا فقليل وإن كثيراً فكثير » .

فلا تَسلمُ بالمواربة صَداقةٌ ، ولا تَظفرُ بالعدوِّ مع الاستسلام إليه . فضَع الثِّقةَ موضعَها ، وأقم الحذرَ مُقامَه(١) ، وأسرعْ إلى التفهُّمَ بالثِّقة ، ولا تبادرْ إلى التَّصديق ، ولا سيَّما بالمحالِ من الأمور .

واعلمْ أنَّ كلَّ علمٍ بغائبٍ ، كائناً ما كان ، إنَّما يُصاب من وجوهٍ ثلاثة لا رابعَ لها ، ولا سبيلَ لك ولا لغيرك إلى غاية الإحاطات ؛ لاستئثار الله بها . ولن تَهْنأ بعيشٍ مع شدَّة التحرُّز ، ولن يتّسِق لك أمرٌ مع التضييع(٢) . فاعرفْ أقدارَ ذلك .

فما غابَ عنك مما قد رآه غيرُك ممَّا يُدرَك بالعِيان ، فسبيلُ العلمِ به الأخْبَار المتواترة ، التى يحملُها الولىُّ والعدوُّ ، والصَّالح والطَّالح ، المستفيضةُ فى الناس ، فتلك لا كُلْفَة على سامعها من العلم بتصديقها . فهذا الوجهُ يستوى فيه ٤٩ و
العالم والجاهل .

وقد يجىء خبرٌ أخصُّ من هذا(٣) إلاَّ أنَّه لا يُعرف إلاَّ بالسُّؤال عنه ، والمفاجأة لأهله ، كقوم نَقَلوا خَبَرًا ، ومثلُك يحيط علمُهُ(٤) أنَّ مثلَهم فى تفاوت أحوالهم ، وتباعُدِهم من التَّعارف ، لا يُمكن(٥) فى مثلِه التَّواطؤ وإنْ جَهِل ذلك أكثر الناس . وفى مثل هذا الخبر يمتنع الكذبُ(٦) ، ولا يتهيّأ الاتفاق فيه على الباطل .

---

(١) د : « مكانه » .
(٢) فى الأصل : « ولن يتفق » ، ووجهه من د .
(٣) فى الأصل : « أصح من هذا » ، صوابه فى د .
(٤) د : « وعلمك محيط » ، فقط .
(٥) د : « لا يكون » .
(٦) د : « يشنع الكذب » .

وقد يجيء خبرٌ أخصُّ من هذا ، يحمله الرجلُ والرجلانِ ممن يجوز أن يَصدُقَ ويجوز أن يكذب ، فصِدْق هذا الخبرِ فى قلبك إنَّما هو بحُسن الظّنّ بالمخبر ، والثِّقة بعدالته . ولن يقومَ هذا [الخبر[١]] من قلبك ولا قلب غيرك مقام الخبرين الأوَّلين [أبداً[١]] . ولو كان ذلك كذلك بطل التصنُّع بالدِّين[٢] واستوى الظاهر والباطن مْن العالَمين .

ولما أنْ كان موجوداً فى العقول أنَّه قد يفتَّش بعضُ الأُمناء عن خيانةٍ[٣] ، وبعضُ الصَّادقين عن كذبٍ ، وأنّ مِثل[٤] الخبرين الأوَّلَين لم يتعقّب الناس فى مثلهما كذِباً قطُّ ، عُلِم أنَّ الخبرَ إذا جاءَ مِن مِثلِهما جاء مجيءَ اليقين ، وأنَّ ما عُلِم من خبر الواحدِ فإنّما هو بحُسْن الظنِّ والائتمان[٥]

فهذه[٦] الأخبار عن الأمور التى تدركها الأبصار .

فأمَّا العلم بما غابَ مما لا يُدرِكه أحدٌ بعِيان ، مثلُ سرائر القلوب

---

(١) التكملة من د .

(٢) أى والتصنع بالدين كائن لا محالة بين طائفة من الناس ، لا يخلو منه عصر. والتصنع : تكلف حسن السمت وإظهاره والتزين به والباطل مدخول . اللسان : (صنع ٧٩) .

(٣) أى تظهر خيانتهم بعد تفتيشهم .

(٤) فى الأصل : « أو مثل » ، صوابه من د .

(٥) د : « فإذا علم » .

(٦) فى الأصل : « بهذه » ، وفى د : « هذه » . وصواب الأول ووجه الثانى ما أثبت .

وما أشبهها ، فإنَّما يُدْرَك علمُها بآثار أفاعيلها وبالغالب[1] من أمورها ، على غير إحاطةٍ كإحاطة الله بها .

وأوّلُ العلمِ بكلّ غائبٍ الظُّنونُ ، والظُّنونُ إنّما تقع فى القلوب بالدّلائل ، فكلّما زاد الدليل قَوِىَ الظنُّ حتّى ينتهىَ إلى غاية تزول معها الشكوكُ عن القلوب ؛ وذلك لكثرة الدلائل ، [ولترادفها .

فهذا غاية علم العباد بالأمور الغائبة[2]] .

فمن عرف ما طُبع عليه الخَلْق وجَرت به عاداتُهم ، وعرفَ أسبابَ اتّصالهم واتّصاله بهم ، وتقصّى عِللَ ذلك ، كان خليقًا ـ إنْ لم يُحطْ بعلم ما فى قلوبهم ـ أن يقعَ من الإحاطة قريباً .

واعلمْ أن المقادير ربّما جرت بخلاف ما تقدّر الحكماء ، فنال[بها[3]]الجاهلُ فى نفسه ، المختلطُ فى تدبيره ، ما لا ينال الحازمُ الأريب الحذِر . فلا يدعونّك ما ترى من ذلك إلى التّضييع والاتّكال على مثل تلك الحال ؛ فإنّ الحكماء قد أجمعت أنّ مَن أخذَ بالحزم وقدّمَ الحذر ، فجاءت المَقاديرُ بخلاف ما قدّر ، كان عندهم أحمدَ رأياً وأوجبَ عذراً ، ممّن عمل بالتفريطِ وإن اتّفقت له الأمور على ما أراد .

---

(١) فى الأصل : « وبالغائب » ، صوابه فى د .

(٢) التكملة من د . والكلام بعده إلى « والله يوفقك » فى ص ١٢٣ انتقل فى الأصل إلى ما يلى «والمواظبة عليه» فى ظهر الورقة ٥١ من الأصل . وقد أجريت ترتيب العبارة من د .

(٣) التكملة من د .

ولعمرى ما يكاد ذلك يجىء إلاَّ فى أقلِّ الأمور ، [وما كَثُر مجىء السَّلامات إلاّ لمن أتَى الأمور [1]] من وجوهها وإنما الأشياء بعوامِّها[2]. فلا تكونن لشىء ممَّا فى يدك أشدَّ ضِنًّا ، ولا عليه أشدَّ حَدَبًا ، منك بالأخ الذى قد بلوتَه فى السَّرَّاء والضَّرَّاء ، [فعرفت مذاهبه[3]] وخَبَرتَ شِيَمه ، وصحَّ لك غَيبُه ، وسلمتْ لك ناحيتُه ؛ فإنما هو شقيقُ روحك [4] وباب الرَّوح إلى حياتك ، ومُستمَدُّ رأيك وتوأم عَقْلك[5] . ولست منتفعاً بعيشٍ مع الوحدة . ولا بدَّ من المؤانسة ، وكثرةُ الاستبدال تهجم بصاحبه على المكروه . فإذا صفا لك أخٌ فكن به أشد ضنًّا منك بنفائس أموالك ، ثمَّ لا يزهِّدنَّك فيه أنْ ترى منه خُلقاً أو خُلقين تكرههما ؛ فإنَّ نفسَك التى هى أخصُّ النفوس بك لا تُعطيك المَقادةَ فى كلِّ ما تريد ، فكيف بنَفْسِ غيرك !

وبحَسْبك أن يكون لك من أخيك أكثرهُ ، وقد قالت الحكماء : « مَن لكَ بأخيك كلِّه[6] » ، و « أىُّ الرِّجال المهذَّب[7] » .

ثم لا يمنعْك ذلك من الاستكثار من الأصدقاء[8] فإنهم جندٌ مُعَدُّون

---

(١) التكملة من د .

(٢) يعنى أن العبرة فى الأحكام بالأعم الغالب .

(٣) التكملة من د .

(٤) د : « شق روحك » .   ٥ د : « ويوم غفلتك » ، تحريف .

(٦) لأكثم بن صيفى . المعمرين ١٢ .

(٧) من قول النابغة الذبيانى فى ديوانه ١٤ :

ولست بمستبق أخا لا تلمه   على شعث أى الرجال المهذب

(٨) د : « الصديق » .

[لك[١]] ينشُرون محاسنَك ، ويحاجُّون عنك . ولا يحملنَّك استطرافُ صديق ثانٍ[٢] على ملالةٍ للصَّديق الأول ؛ فإن ذلك سبيلُ أهل الجهالة ، مع ما فيها من الدناءة وسوء التدبير ، وزهد الأصدقاء[٣] جميعاً فى إخائك . والله يوفقك[٤] .

وستجد فى الناس من قد جرَّبَتْه الرِّجالُ قَبلَك ، ومَحَضه اختبارهم لك . فمن كان معروفاً بالوفاء فى أوقات الشِّدّة وحالات الضرورة ، فنافِسْ فيه واسبقْ إليه ؛ فإنَّ اعتقاده أنفَسُ العُقَدِ[٥] . ومن بلاهُ غيرك فكشف عن ٤٩ ظ
كُفر النِّعمة ، والغَدْر عند الشدّة ، فقد حذَّرك نفسَه وإنْ آنسك[٦] وكما غدر بغيرك يَغدِر بك ؛ فإنَّ مَن شيمته الوفاء يفِى للصَّديق والعدوّ ، ومَن طبيعتُه الغَدرُ لا يفِى لأحد[٧] ، وإنما يميل مع الرُّجحان : يذِلُّ عند الحاجَة[٨] ويشمخ مع الاستغناء .

فاحذر ذلك أشدَّ الحذر . واعلم أنَّ الحكماء لم تذم شيئاً ذمَّها أربعَ خلال :

---

(١) التكملة من د .

(٢) فى الأصل : « الصديق » فقط ، صوابه من د .

(٣) فى الأصل : « الصديقين » ، وأثبت ما فى د .

(٤) د : « موفقك » .

(٥) أراد أنفس مايقتنى . وأصل العقدة الضيعة يقتنيها الرجل .

(٦) فى الأصل : « وأنسك » وأثبت ما فى د .

(٧) فى الأصل : « لا يدوم » ، وأثبت ما فى د .

(٨) د : « فى وقت الحاجة » مع إسقاط كلمة « يذل » .

الـكذبُ فإنَّه جِماعُ كلِّ شرٍّ . وقد قالوا : لم يكذب أحدٌ قطُّ إلاَّ لصغرِ قَدر نفسِه عندَه .

والغَضَبُ فإنَّه لؤمٌ وسوء مقدِرة ؛ وذاك أنَّ الغضبَ ثمرةُ خلافِ ماتهوى النفس(١) ، فإنْ جاءَ الإنسانَ خلافُ مايهوى ممَّن فوقه أغضى وسمَّى ذلك حُزناً ، وإن جاءهُ ذلك ممَّن دونَه حمله لؤمُ النَّفس وسوء الطِّباع على الاستطالة بالغَضَب ، والقدرة والبسطة على البطش(٢) .

والجزعُ عند المصيبة التى لا ارتجاعَ لها ؛ فإنَّهم لم يجعلوا لصاحب الجزع فى مثل هذا عُذراً ، لما يتعجَّل من غمِّ الجزع مع علمه بفَوت المجزوع عليه . وزعموا أن ذلك من إفراط الشَّرَه ، وأنَّ أصل الشَّرَهِ والحسد واحدٌ وإن افترقَ فرعاهُما .

وذمُّوا الحسدَ كذمِّهم الجزعَ ، لما يتعجَّل صاحبُه من ثقل الاغتمام ، وكُلفة مقاساة الاهتمام ، من غير أن يجدىَ عليه شيئاً(٣) . فالحسد اغتمام ، والغَدْر لؤم . وقال بعض الحكماء : «الحسد خلقٌ دنىء ، ومِن دناءته أنَّه يبدأ بالأقرب فالأقرب» . وزعموا أنَّه لم يَغدِر غادرٌ قطُّ إلاّ لصغر همَّته عن الوفاء ، وخمول قَدره عن احتمال المكاره فى جنب نَيل المكارم .

(١) د : « النفوس » .

(٢) فى الأصل : « والمقدر والبسطة » ، وفى د : « والمقدرة بالبطش » ، وصوبت العبارة وأكملتها بما تتلاءم به مع ما قبلها .

(٣) هذا ما فى د . وفى الأصل : « من غير أن يكون عليه فى ذاك شىء » ، تحريف .

وبقدر ماذَمّت الحكماء هذه الأخلاق الأربعة[١] ، فكذلك حمِدت أضدادها من الأخلاق ، فأكثرت فى تفضيلها الأقاويل ، وضربت فيها الأمثال ، وزعمت أنّها أصلٌ لكل كريمٍ ، وجِماعٌ لكل خير ، وأنَّ بها تُنال جِسامُ الأمور فى الدُّنيا والدين[٢] .

فاجعل هذه الأخلاقَ إمامًا لك ، ومَثَلاً بين عينيك ، ورُضْ عليها ٥٠ و
نفسَك ، وحكِّمها فى أمرك ، تفُز بالرّاحة فى العاجل[٣] ، والكرامة فى الآجل .

والصبر صبران : فأعلاهما أن تصبرَ على ما ترجو فيه الغُنم فى العاقبة . والحِلمُ حلمان : فأشرفُهما حلمُك عمّن هو دُونَك . والصِّدق صدقان : أعظمهما صدقك فيما يضرُّك . والوفاء وفاءان : أسناهما وفاؤك لمن لا ترجوه ولا تخافُه . فإنّ مَن عُرف بالصِّدق صار الناس له أتباعا ، ومن نُسِب إلى الحلم أُلبِس ثوب الوقار والهيبة وأُبَّهةِ الجلالة ، ومن عرف بالوفاء استنامت بالثِّقة به الجماعات[٤] ومن استعزَّ بالصبر[٥] نال جسيمات الأمور .

ولعمرى ما غَلِطت الحكماء حين سمَّتْها أركانَ الدِّين والدُّنيا .

فالصِّدق والوفاء توأمان ، والصَّبر والحلم توأمان[٦] ، فهنّ[٧] تمامُ كلِّ

---

(١) فى الأصل : « من هذه الأخلاق الثلاثة » ، والوجه من د .

(٢) د : « فى الدين والدنيا » .

(٣) هذا ما فى د . وفى الأصل : « فى العاجل والآجل » .

(٤) يقال استنام إليه ، إذا أنس به واطمأن إليه وسكن . فى الأصل : « واستقامت بالثقة به الجماعة » ، صوابه فى د . وانظر ص ١٣٩ .

(٥) د : « استعان بالصبر » .

(٦) يقال هما توأم أيضاً . فى الأصل : « توأم » فى الموضعين ، وأثبت ما فى د .

(٧) فى الأصل : « فبهن » ، وفى د : « منهن » ، والوجه ما أثبت .

دين ، وصلاحُ كلِّ دنيا . وأضدادهنَّ سببُ كلِّ فُرقة ، وأصلُ كلِّ فساد .

واحذَرْ خَصلةً رأيت الناس قد استهانُوا بها ، وضيَّعوا النظر فيها ، مع اشتمالها على الفساد ، وقَدْحِها البغضاءَ في القلوب ، والعداوةَ بين الأوِدّاء : المفاخرةُ بالأنساب ؛ فإنّه لم يغلَط فيها عاقلٌ قطُّ ، مع اجتماع الإنس جميعاً على الصورة[1] وإقرارهم جميعاً بتفرُّق الأمور المحمودة والمذمومة من الجمال والدَّمامة ، واللُّؤم والكرم ، والجُبْن والشَّجاعة ، في كلّ حين ، وانتقالها من أمّةٍ إلى أمة ، ووجودِ كلِّ محمود ومذموم في أهل كلّ جنسٍ من الآدميِّين . وهذا غير مدفوع عند الجميع .

فلا تجعلنَّ له من عقلك نصيباً ، ولا من لسانك حَظًّا ، تسلَمْ بذلك على النَّاس أجمعين ، مع السَّلامة في الدين .

واعلم أنَّك موسومٌ بسيما من قارنتَ ، ومنسوبٌ إليك أفاعيلُ مَن صاحبت . فتحرَّزْ من دُخلاء السَّوء ، ومجالسة أهل الرِّيَب[2] ، وقد جَرتْ لك في ذلك الأمثالُ ، وسُطِّرتْ لك فيه الأقاويل ، فقالوا : « المرء حيث يجعلُ نفسَه[3] » ، وقالوا : « يُظَنُّ بالمرء ما ظُنَّ بقرينه » ، وقالوا : « المرء بشكلِه ، والمرء بأليفه » . ٥٠ ظ

ولن تقدر على التحرُّز من جماعة النـاس[4] ، ولكن أقِلَّ المؤانسةَ

---

(١) أي اتفاقهم جميعاً في الصورة الإنسانية .
(٢) د : « وأظهر مجانبة أهل الريب » .
(٣) ومنه قول منقر بن فروة ، أنشده الجاحظ في البيان ٢:١٠٣ و ٣ : ٢٢٨ :
وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ... ففي صالح الأخلاق نفسك فاجعل
(٤) د : « جماعات الناس » .

إلاّ بأهل البراءة من كلِّ دنَس . واعلم أنّ المرء بقدر ما يَسبِق إليه يُعرَف ، وبالمستفيض من أفعاله يُوصَف ، وإن كان بين ذلك كثيرٌ من أفعاله[١] ألغاه الناس وحكموا عليه بالغالب من أمره .

فاجهَدْ أن يكون أغلبَ الأشياءِ على أفاعيلك كلُّ ما تحمده العوامُّ[٢] ولا تذُمُّه الجماعات ، فإنّ ذلك يعفِّى على كلِّ خالٍ إن كان .

فبادِرْ ألسنةَ الناس فاشغَلْها بمحاسنك ، فإنّهم إلى كلِّ سيِّئٍ سِراع[٣] ، واستظهِرْ على مَن دونك بالتّفضُّل ، [وعلى نظرائك[٤]] بالإنصاف ، وعلى مَن فوقك بالإجلال . تأخذْ بوثائق الأمور ، وأزِمَّة التدبير .

واعلم أنّ كثرةَ العتاب سببٌ للقطيعة ، واطِّراحَه كلِّه دليلٌ على قلّة الاكتراث لأمر الصّديق[٥] . فكن فيه بين أمرين : عاتِبْهُ فيما تشتركان في نفعه وضرّه وذلك في الهِنّات[٦] ، وتجافَ له عن بعض غَفَلاته تسلمْ لك ناحيتُه . وبحسَبِ ذلك فكن في زيارته ، فإنّ الإلحاح في الزِّيارة يَذهَب بالبهاء ، وربّما أورثَ الملالةَ ؛ وطولَ الهِجرانِ يُعقب الجفوة ، ويحُلُّ عقدةَ

---

(١) في الأصل : « خلافه » ، ووجهه من د .

(٢) في الأصل : « عليك أفاعيلك » صوابه في د . وفي د أيضاً : « ماتحمده العوام » .

(٣) في النسختين : « إلى كل شيء » والوجه ماأثبت . وفي م : « إلى كل شر » .

(٤) التكملة من د ، م .

(٥) في الأصل : « الأمن » وفي د : « بأمر » وهذه الأخيرة صحيحة ، يقال ما اكترث به وما اكترث له ، أي مابالى به . وأثبت الوجه الذي يقتضيه الجمع بينهما .

(٦) د : « الهنات » ، وكلاهما متجه .

الإخاء ، ويجعلُ صاحبه مدرجة للقطيعة[١] وقد قال الشاعر[٢] :

إذا ما شئت أن تَسْلى حبيباً فأكثِرْ دونَه عَددَ اللَّيالى
فما يُسلِي حبيبَك مثلُ نأيٍ ولا يُبلِي جديدَك كابتذال[٣]
[وزر غِبًّا إذا أحببت خِلاًّ فتحظى بالودادِ مع اتصال[٤]]

واقتصِدْ فى مِزاحك ؛ فإنَّ الإفراط فيه يذهب بالبهاء ، ويجرِّئ عليك أهل الدَّناءة . وإنَّ التقصير فيه يقبِض عنك المؤانسين . فإن مزحت فلا تمزَحْ بالذى يسوء مُعاشِريك .

وأنا أوصيك بخلقٍ قلَّ من رأيته يتخلَّق به ، وذاك أنَّ محمِلَه شديد ، ومرتقاه صعب ، وبسَبَبِ ذلك يورث الشَّرف وحميدَ الذِّكر : ألاَّ يُحدثَ لك انحطاطُ من حَطّتِ الدُّنيا من إخوانك استهانةً به ، ولا لحقِّه إضاعة ، ولما كنتَ تعلم من قَدرِه استصغاراً ؛ بل إن زرتَه قليلاً كان أشرفَ لك ، وأعطفَ للقُلوب عليك . ولا يحدث لك ارتفاعُ مَن رفعت الدنيا منهم تذلُّلاً ٥١ و
وإيثاراً له على نظرائه فى الحفظ والإكرام ؛ بل لو انقبضتَ عنه كان مادحُك أكثرَ من ذامِّك ، وكان هو أولى بالتعطُّف عليك ، إلاَّ أن يكون مسلَّطاً تخافُ شَذَاه ومَعرَّتَه[٥] ، وترجو عنده جَرَّ منفعةٍ لصديق ، أو دفعَ مضرَّةٍ

---

(١) هذا ما فى د . وفى الأصل : « درجة للقطيعة » .

(٢) البيتان التاليان من أبيات الحماسة . انظر شرح المرزوقى ١٣٠٠ وشروح سقط الزند ١٢٢ ، ٦٥٣ ، ٦٩٠ .

(٣) هذا البيت ساقط من د .

(٤) التكملة من د .

(٥) الشذا : الأذى والشر . د : « شذاته » ؛ والشذاة : الحدة . والمعرة : الأذى .

عنه ، أو كبتاً لعدوّ وإنزالَ هوانٍ به ؛ فإنَّ السُّلطان وخُيلاءه وزَهوَه يُحتمَل فيه ما لا يجوز فى غيره ، ويُعذَر فيه ما لا يُعذر فى سواه[1] .

واعلمْ أنَّ نشرَ محاسنك لايليق بك ، ولا يُقبل منك[2] ، إلّا إذا كان القولُ لها على ألسُن أهلِ المروءات ، وذَوِى الصِّدق والوفاء ، ومن يَنجع قولُه فى القلوب ممَّن يُستنام إلى قوله ، ويُصدَّق خبره ، وممن إنْ قال صدق ، أو مَدحَ اقتصد ، يُثْنِى بقدر البلاء ، فإنَّ إشراف[3] الثَّناء على قدر النِّعمة يولِّد فى القلوب التكذيب ، ويدلُّ على طلب المَزَايد .

فأمَّا ثناء المادحين لك فى وجهك ، فإنَّما تلك أسواقٌ أقاموها للأرباح ، وساهَلُوك فى المبايَعة ، ولم يكن فى الثَّناء عليهم كُلفة ، لكساد أقاويلهم عند الناس . أولئك الصادُّون عن طرق المكارم ، والمثبِّطون عن ابتناء المعالى .

فارتَدْ لنِعَمك مَغرِسًا تنمو فيه فروعُها ، وتزكو ثمرتُها ، لا تذهبْ نفقتُك ضَياعا ، إمَّا لعاجلٍ تقدِّمه ، أو لآجلٍ ثناءٍ تنتفع به[4] .

ولن تَعـدَمَ أنْ يفجأكَ فى بعض أحوالك حقوقٌ تَبهَظُك ، وأحوالٌ تفدحك ، وأمورٌ كلُّها تتقسَّمُ عنايتَك ، وفى التثبُّت فى مثلها تُعرف فضيلتُك ،

---

(١) الكلام بعده إلى كلة « تنتفع به » فى س ١٢ ساقط من د .

(٢) فى الأصل : « فيك » .

(٣) الإشراف : العلو ، يقال أشرف عليه ، أى علا . والمراد الزيادة . وفى الأصل : « إسراف » .

(٤) انظر ماسبق فى التنبيه الأول .

فلا تستقبلْها بالتضجُّع وتفتير الرأى[١] ، وابدأْ منها بأعظمها منفعةً ، وأشدِّها خوفَ ضرر . وكِلْ ما أعجزَكَ إلى الـكُفاة ، واعتذر من تقصيرٍ إنْ كان ؛ فإنَّ الاعتذار يكسر حُمَيَّا اللائمة[٢] ، ويردع شَذاةَ الشِّرَّة .

ثمَّ تلافَ بعد انـكشاف ذلك عنك ما فاتك[٣] ، واجهد الجُهْد كلَّه أنْ
٥١ ظ تـكون مخارج الحقوق اللازمة لك من عندك سهلةً ، موصولةً لأصحابها[٤] ببِشرك وطلاقة وَجْهك ؛ فقد زعمت الحـكماء أنَّ القليل مع طلاقة الوجه أوقع بقلوبِ ذوى المروءات من الـكثيرِ مع العُبوس والانقباض[٥] .

وقد قال بعض الحـكماء : « غاية الأحرار أن يَلقَوْا ما يحبُّون ويُحرَموا ، أحبُّ إليهم من أن يلقَوْا ما يكرهون ويُعطَوْا » .

[وما أبعَـدوا عن الحقّ[٦]] .

ولا يدعونَّك كفرُ كافرٍ لبعض نِعَمك[٧] ممن آثر هواه على دينـه

---

(١) التضجع ، يقال تضجع فى الأمر ، إذا تقعد ولم يقم به . وفى د : « وتغبين الرأى » .

(٢) الحميا : السورة والشدة والحدة ، وأصله من كسر حميا الشراب بمزجه بالماء . فى الأصل : « حمى اللائمة » ، ووجهه فى د .

(٣) فى الأصل « الانـكساف » وفى د : « انـكسار » ، والوجه ما أثبت . وكلمة « ما فاتك » ساقطة من د .

(٤) د : « لأصحابك » .

(٥) الـكلام بعده إلى كلمة « ويعطوا » فى س ٩ ساقط من د .

(٦) التـكملة من د .

(٧) د : « نعمتك » .

ومروءته ، أو غَدْرةُ غادرٍ تصنَّعَ لك وخَتَلك عن مالكَ ، أنْ تزهدَ في الإنعام[1] ، وتسيء بثقاتك الظنون ؛ فإن هذا موضع يجد الشيطان في مثله الذّريعةَ إلى استفساد الصَّنائع[2] ، وتعطيل المكارم .

واعلم أنَّ استصغارك نِعَمك يكبّرها عند ذوي العقول ، وسترك لها نشرٌ لها عندهم ؛ فانشُرْها بسَتْرها ، وكبِّرها باستصغارها .

واعلم أنَّ من الفِعل[3] أفاعيلَ وإنْ عظمت منافعُها ، ومنافع أضدادها فلإيثارها فضيلةٌ على كلِّ حال . فاجعَلْ صمتَك أكثرَ من كلامك ؛ فإنّه أدلُّ على حكمتك . واجعل عَفْوكَ أكثر من عقوبتك ؛ فإنّ ذلك أدلُّ على كرمِك . ولا تُفْرطنَّ فيه كل الإفراط حتَّى تَطِرح الكلامَ في موضعه ، والتأديبَ في أوانه .

واعلم أنَّ لكلِّ امرئٍ سيِّداً من عمله ، قد ساهلته فيه نفسُه وسَلِسَ له فيه هواه ، فتحفَّظْ ذلك من نفسك ، وتقاضَها الزيادةَ فيه ، ورُضْها على تثميره والمواظبةِ عليه[4] .

واحذر الحذرَ كلَّه الاغترار بأمور ثلاثة ؛ فإنَّ من عَطِب بها كثير ، وتلافِيَها صعبٌ شديد :

---

(١) في الأصل : « الابعاض » ، وأثبت ما في د .

(٢) الصنائع : جمع صنيعة ، وهو ما أعطيته وأسديته من معروف أو يد إلى إنسان تصطنعه بها . وفي الأصل : « الطبائع » ، صوابه في د .

(٣) د : « الأفاعيل » .

(٤) انظر ما سبق من التنبيه في ص ١٢١ .

أحدُها : ألاَّ تولِّيَ جسائم تصرُّفك وتقلّدِ مُهِمَّ أمورك[١] ووثائق تدبيرك إلاّ امرأً صلاحُه موصولٌ بصلاحك ، وبقاء النِّعمة عليك هو بقاء النعمة عليه .

أو أن تأنس أو تغترّ[٢] بمن تعلم أنَّ بصلاحك فسادَه ، وبارتفاعك انحطاطَه ، وبسلامتك عطبَه ؛ فإنَّ من كان هكذا فأنت مَلَكُ مَوتِه[٣] . ٥٢ ظ
فبِحَسَب ذلك فليكن عندك .

أو أن تجعل مالَكَ كلَّه فى عُقدةٍ واحدة ، أو حيِّز واحد ، [أو وجهٍ منفرد[٤]] ، إن اجتاحَتْه جائحةٌ أو نابتْهُ نائبةٌ بقيتَ حسيرا . وقد قال بعض الحكماء : « فرِّقوا المنيّة » ، و « اطلبوا الأرباحَ بكلِّ شِعب » .

واعلم أنَّه ليس من الأخلاق التى ذمَّتْها الحكماء خُلقٌ إلاَّ وقد ينفعُ فى بعض الحالات ، ويردُّ بِهِ شَكْلُه ، ويقام بإزاء مثله ، ويُدافَع به نظيره[٥] .

إنَّك ستُمنَى بصُحبة السُّلطان الحازم العادل ، وبصحبة السُّلطان الأخرق الجهول الغَشُوم . فالحازم العادلُ يَسُوسه لك الأدبُ والنُّصح ، والأخرق تسوسُه لك الحِيلة والرِّفق . العادل يَعضُدك منه ثلاث ، وتَصبِر نفسُه لك على ثلاث :

---

(١) فى الأصل : « وتقليدهم أمورك » ، صوابه فى د .
(٢) فى الأصل : « وأن لا تأنس وتحتر » ، صوابه فى د .
(٣) د : « مالك موته » ، والوجه ما أثبت من الأصل .
(٤) التكملة من د .
(٥) الكلام بعده إلى كلمة « النصحاء » فى ص ١٣٣ ساقط من د .

فاللواتى يعضُدنك : تسليط العدل وإنفاذ الحكومة ــ وفى ذلك صلاحُ الرعيَّة ــ وإثابة المحسنين الذين إثابتُهم تحصينُ البَيضةِ والسُّبل ، والعفو ما بُلغ به الاستصلاحُ ، واكتُفِي به من البَسْط . واللَّواتى تصبر نفسُه لك عليهن : الهوى إلى ما وافق الرأى ، وأمضى الرأى الاَّ بعد التثبت حتَّى تعاونَه عليه النُّصحاء[1] .

ولكنِّى أوصيك برياضة نفسِك حتَّى تذلِّلها على الأمور المحمودة ؛ فإنَّ كلَّ[2] أمرٍ ممدوحٍ هو ممَّا تستثقل النُّفوس . [وممّا تسرُّ به وتنقلب إليه الأخلاق المذمومة[3]] . فإنْ أهملتها وإيّاها غلبَتْ عليك ، لأنّها فيها طبيعةٌ [مركّبة[3]] ، وجِبِلَّةٌ مفطورة .

فلتكن المساهلة فى أخلاقك أغلبَ عليك من المعاسَرة ، والحلمُ أولى بك من العَجَلة ، والصَّبرُ الحاكمَ عليك دون الجزع ، والعفوُ أسبقَ إليك من المجازاة بالذُّنوب ، والمكافأةِ بالسُّوء .

[وكذلك سائر الأخلاق المحمودة والمذمومة ، فلتكن محموداتُها غالبةً على أفعالك ، محكَّمة فى أمورك[3]] . فإنَّك إنْ ضبطت [ذلك ، وقوّمتَ عليه[3]] نفسَك ، عشتَ رخيَّ البال ، قليلَ الهموم ، كثير الصديق قليلَ

(١) كذا . ولعله : « وإمضاء الرأى بعد التثبت حتى تعاونه عليه معاونة النصحاء » . وهذا نهاية سقط د الذى نبهت عليه فى ص ١٣٢ .

(٢) فى الأصل : « وإن كان » صوابه فى د .

(٣) التكملة من د .

العدوّ ، [سليمَ الدين ، نقيَّ العِرض ، محمودَ الفِعال[١]] ، جميلَ الأُحدوثة في حياتِك وبعد وفاتك ، وكنت بموضع الرجاء أن يَصِل اللهُ لك السَّلامةَ الآجلةَ بالنِّعمة العاجلة ، [إن شاءالله عزّ وجلّ[٢]] .

٥٣ و أسأل الله المبتدئَ بكلِّ نِعمة ، والمتولِّيَ لـكلِّ إحسان ، أن يصلِّي على محمد خِيرتِه من خلقه ، وصفوتِه من بريَّته ، وأن يتمَّ[٣] عليك نعمتَه ، ويشفع لك ماخَوَّلك من نِعمته بالنِّعمة التي يُؤْمَن معها الزَّوال ، في جوارِه ومرافقةِ أنبيائه . والسلام عليك ورحمة الله .

* * *

تمت الرسالة في الأخلاق المحمودة والمذمومة بعون الله ومَنِّه . والله الموفق للصواب، والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامُه .

يتلو هذه الرسالة :

كتاب كتمان السر وحفظ اللسان من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أيضاً . والله سبحانه المستعان على ذلك برحمته[٤] .

---

(١) التكملة من د .

(٢) التكملة من د .

(٣) في الأصل : « يتمم » ، وأثبت ما في د .

(٤) وفي د : « تمت الرسالة في كتمان السر وحفظ اللسان من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله ، والله المحمود على ذلك كثيراً برحمته . يتلو هذه الرسالة إن شاء الله تعالى كتاب فخر السودان على البيضان من تأليفه أيضاً . والله الموفق للصواب ، والحمد لله أولا وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلامه » .

٣

كِتَابُ
كِتْمَانِ السِّرِّ وَحِفْظِ اللِّسَانِ

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هى الرسالة الثالثة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« كتمان السرّ وحفظ اللسان »

ومن هذه الرسالة نسختان :

١ — نسخة الأصل ، وهى نسخة مكتبة داماد ، فى ضمن مجموع رسائل الجاحظ .

٢ — نسخة بول كراوس وطه الحاجرى ، وهى مقابلة على نسخة داماد وعلى كتاب المختار من كلام الجاحظ ، لمجهول . ورمزها « ط » . وقد وقع فى هذه الأخيرة بعض السهو فى إيراد النص على وجهه ؛ فنبهت على ذلك فى الحواشى ، والعصمة لله وحده .

بسم الله الرحمن الرحيم

أمّا بعد فإنّى قد تصفّحتُ أخلاقَك ، وتدبّرت أعراقَك ، وتأمّلتُ شِيَمك ، ووزنتُك فعرفتُ مِقدارَك ، وقوّمتك فعلمتُ قيمتَك ، فوجدتُك قد ناهزتَ الكمالَ ، وأوفيتَ على التّمام ، وتوقّلتَ فى دَرَج الفضائل[1] ، وكدتَ تكون منقطعَ القرين ، وقاربتَ أن تُلْفَى عديمَ النّظير ، لا يطمعُ فاضلٌ أن يفُوتَك ، ولا يأنَف شريفٌ أن يَقصُرَ دونك ، ولا يخشع عالمٌ أن يأخذَ عنك . ٥٤ ظ

ووجدتُك فى خلال ذلك على سبيل تضييعٍ وإهمالٍ لأمرين هما القُطب الذى عليه مدارُ الفضائل ، فكنتَ أحقَّ بالعَذْل ، وأقمنَ بالتأنيبِ ممّن لم يسبقْ شأوَك ، ولم يتسنَّمْ رُتبتَك ؛ لأنه ليس مَلومًا على تضييع القليل مَن قد أضاعَ الكثير ، ولا يُسام[2] إصلاحَ يومه وتقويم ساعته من قد استحوذَ الفسادُ على دهره ، ولا يُحاسَب على الزّلّة الواحدةِ من لا يعدم منه الزلَلُ والعِثار ، ولا يُنكَرُ المنكَرُ على من ليس من أهل المعروف ؛ لأنّ المنكر إذا كثُر صار معروفًا ، وإذا صار المنكرُ معروفًا صار المعروف منكرا .

وكيف يُعجَب ممن أمره كلُّه عجب ، وإنّما الإنكار والتعجُّب ممن خرج عن مَجرى العادة ، وفارق السُّنّة والسجيّة ، كما قال الأول : « خالِفْ تُذْكر » .

---

(١) التوقل : الصعود ، والإسراع فيه .

(٢) سامه الشىء : كلفه إياه وجشمه . وفى الأصل : « ولا يسم » ، وفى ط : « لا يهتم بإصلاح يومه » . وما أثبت أوفق بسياق النص .

وقيل : « الكامل من عُدَّت سَقَطاته » ، وقيل : « من استوى يوماه فهو مغبون ، ومن كان يومُه خيراً من غدِه فهو مفتون ، ومن كان غدُه خيراً من يومه فذلك السعيدُ المغبوط » . وفى هذا المعنى قال الشاعر :

رأيتك أمسِ خيرَ بنى مَعَدٍّ ... وأنت اليومَ خيرٌ منك أمسِ
وأنت غداً تزيد الضعف خيراً ... كذاكَ تزيد سادة عبد شمس

وقال آخر فى مَعن[1] :

أنت امرؤٌ همُّك المعالى ... ودَلوُ معروفِكَ الربيعُ
وأنت من وائلٍ صميمٌ ... كالقلب تُحنَى له الضلوع[2]
فى كلِّ عام تزيد خيراً ... يُشيعه عنك من يُشيعُ ٥٥ و

والأمران اللذان نَقَمتهما عليك[3] : وضْعُ القولِ فى غير موضعه ، وإضاعة السِّرّ بإذاعته .

وليس الخطرُ فيما أسُومك وأحاولُ حملَك عليه بسهلٍ ولا يسير . وكيف وأنا لا أعرف فى دهرى ـ على كثير عددِ أهله ـ رجلاً واحداً ممن ينتحل الخاصَّة ، ويُنسَب إلى العِلْية ، ويَطلُب الرياسة ويخطُب السِّيادة ، ويتحلّى

(١) معن بن زائدة الشيبانى ، كان مضرب المثل فى الجود والشجاعة ، وكان ممدحاً مقصوداً . وكان من ولاة بنى أمية ، وغضب عليه بنو العباس فى أوائل دولتهم ، ثم أبلى بلاء حسنا مع المنصور ، فأكرمه وقدمه وصار من خواصه . وقتل سنة ١٥١ ، أو ١٥٢ وقيل سنة ١٥٨ . وفيات الأعيان وتاريخ بغداد ١٣ : ٢٣٥ — ٢٤٤ .

(٢) فى الأصل : « تحيى به » ، والوجه ما أثبت .

(٣) يقال نقم ينقم كضرب يضرب ، ونقم ينقم كفرح يفرح .

بالأدب ويديم الثَّخانة والزَّمَاتة[1] ، والحلمَ والفَخامة ، أرضَى ضبطَه للسانه ، وأحمَدُ حياطتَه لسرِّه . وذلك أنَّه لا شيء أصعبُ من مكابدة الطبائع[2] ، ومغالبة الأهواء ؛ فإن الدَّولةَ لم تَزل للهوى على الرأى طُولَ الدهر . والهَوى هو الدَّاعية إلى إذاعة السرّ ، وإطلاقِ اللسانِ بفضل القَول .

وإنَّما سمِّى العقل عقلاً وحِجراً ، قال تعالى ـ ﴿ هَلْ فى ذلكَ قَسَمٌ لذى حِجْر[3] ﴾ ـ لأنّه يزمُّ اللسان ويَخطِمه ، ويشكُلُه ويَربُثُه[4] ، ويقيِّد الفضل ويعقله عن أن يمضىَ فُرُطاً فى سبيل الجهل والخطأ والمضرّة ، كما يُعقَل البعير ، ويُحجَر على اليتيم .

وإنَّما اللسان تَرجُمان القلب ، والقلب خزانة مستحفَظة للخواطر والأسرار ، وكلّ ما يعيه [من[5]] ذلك عن الحواسّ من خير وشرّ ، وما تولِّده الشَّهوات والأهواء ، وتنتجه الحكمة والعلم .

ومن شأن الصدر ـ على أنه ليس وعاء للأجرام ، وإنَّما يعى بقدرةٍ [من[5]] الله لا يعرف العبادُ كيف هى ـ أن يضيق بما فيه ، ويستثقل ما حمل

---

(١) الثخانة ، من قولهم رجل ثخين ، أى رزين ثقيل فى مجلسه .

(٢) مكابدة الأمر : معاناة مشقته ، ومقاساة شدته . ووقع فى ط : « مكايدة » خلافاً لما فى الأصل .

(٣) الآية ٥ سورة الفجر .

(٤) يشكله ، من شكل الدابة : شد قوائمها بحبل ، واسم ذلك الحبل الشكال ككتاب . الربث : الحبس . وفى الأصل : « ويزبنه » ، والوجه ما أثبت . وانظر الحيوان ٥ : ٢٦٣ .

(٥) تكملة ضرورية .

منه ، فيستريح إلى نبذه ، ويلذّ إلقاءه على اللسان . ثم لا يكاد أن يشفيه أن يخاطب به نفسَه فى خلواته حتّى يفضيَ به إلى غيره ممن لا يرعاه ولا يحوطه . كلّ ذلك ما دام الهوى مستولياً على اللّسان ، واستعمَلَ فضولَ النَّظر فدعَتْ إلى فضول القول .

فإذا قهر الرأيُ الهوى فاستولى على اللسان ، منعَه من تلك العادة ، وردَّه عن تلك الدُّربة ، وجشَّمه مؤونة الصَّبر على ستر الحلم والحكمة .

٥٥ ظ ولا شيء أعجب من أنَّ المنطق أحد مواهب الله العظام ، ونعِمه الجسام ، وأن صاحبها مسؤولٌ عنها ، ومُحاسَب على ماخوِّل منها ، أوجبَ الله عليه استعمالها فى ذكره وطاعته ، والقيامَ بقسطه وحجّته ، ووضْعَها مواضعَ النَّفع فى الدين والدنيا ، والإنفاق منها بالمعروف لفظةً لفظة ، وصرفَها عن أضدادها .

فلم يرضَ الإنسانُ أنْ عطَّلها عمّا خُلقت له مما ينفعُه حتَّى استعمَلها فى ضدِّ ذلك مما يضرُّه ، فاجتمع عليه الإثمانِ اللذان اجتمعا على صاحب المالِ الذى كنزَه ومنَعه من حقِّه ، فوجَب عليه إثم المَنْع وإن كان لم يصرفْه فى معصية ، ثم صرفِهِ فى أبواب الباطل والفسق فوجب عليه إثم الإنفاق فيها[1] . وهذه غاية الغَبن والخُسران . نعوذ بالله منها .

فاللسانُ أداةٌ مستعمَلة ، لا حَمد له ولا ذمَّ عليه ، وإنما الحمد للحلم واللَّوم على الجهل . فالحلمُ هو الاسمُ الجامع لكلِّ فضل ، وهو سلطان العقل القامع للهوى . فليس قمع الغضب وتسكين قوة الشِّرَّة ، وإسقاط طائر الخُرق بأحقَّ بهذا الاسم ، ولا أولى بهذا الرسم ، من[2] قمع فرط الرضا وغلبة الشهوات ،

(١) فى الأصل : « منها » . والمراد به فى أبواب الباطل .
(٢) فى الأصل : « مع » ، صوابه من ط .

والمنع من سوء الفرح والبطَر ، ومن سوء الجزع والهلع ، وسرعة الحمد والذم ، وسوء الطَّمع والجشَع ، وسوء مناهزة الفُرصة ، وفرط الحرص على الطَّلِبة ، وشدَّة الحنين والرقَّة ، وكثرة الشكوى والأسَف ، وقرب وقت الرضا من وقت السُّخط ، ووقت السُّخط من وقت الرضا ؛ ومن اتِّفاق حركات اللسان والبدن على غير وزن معلوم ولا تقدير موصوف ، وفى غير نفع ولا جَدًى[1] .

واعلمْ يقيناً أنّ الصَّمت سَرمداً أبداً ، أسهل مَراماً ـ على ما فيه من المشقَّة ـ من إطلاق اللسان بالقول على جهة التحصيل والتمييز ، والقَصد للصَّواب ، لما قدّمنا ذكره من علة مجاذبة الطِّباع ؛ ولأنّ من طبع الإنسان محبة الإخبار والاستخبار . وبهذه الجِبلَّة التى جُبل عليها الناس نُقلت الأخبار ٥٦ و
عن الماضين إلى الباقين ، عن الغائب إلى الشاهد[2] ، وأحبّ الناس أن ينقَل عنهم[3] ، ونَقَشوا خواطرهم فى الصُّخور ، واحتالوا لنشر كلامهم بصنوف الحيل . وبذلك ثبتت حجّة الله على من لم يشاهد مخارج الأنبياء ، ولم يحضر آياتِ الرُّسُل ، وقام مجىء الأخبار عن غير تشاعر[4] ولا تواطؤ مقامَ العِيان ؛ وعرفت البلدان والأقطار والأمم والتجارات والتدبيرات والعلامات ؛

(١) الجدى : الجدوى والغناء والنفع . يكتب بالألف والياء ، ويقال بالمد أيضاً « الجداء » ، ومنه قوله :

لقلّ جــداءً على مالك   إذا الحرب شبت بأجَــذالها

(٢) الشاهد : الحاضر ، والمراد به الباقى المعاصر .

(٣) فى الأصل : « أن يعقل عنهم » ، صوابه من ط .

(٤) المراد بالتشاعر المخالطة والملابسة والمعاشرة . انظر العثمانية ص ٣ س ١٥ و ٢٦٣ س ٢ . وأساس البلاغة (شعر) ولسان العرب (شعر ٨١) .

وصار ما ينقله الناس بعضهم عن بعض ذريعة إلى قبول الإخبار عن الرسل ، وسلَّما إلى التصديق ، وعوناً على الرضا بالتقليد .

ولولا حلاوة الإخبار والاستخبار عند الناس لما انتقلت الأخبار وحلَّت هذا المحلّ . ولكن الله عزّ وجلّ حبَّبَهَا إليهم لهذا السبب ، كما جعل عشق النِّساء داعيةً للجماع ، ولذَّةَ الجماع سبيلاً للنَّسل ، والرّقة على الولد عوناً على التربية والحضانة ــ وبهما كان النشوّ والنماء ــ وحُبَّ الطعامِ والشراب سبباً للغذاء ، والغذاء سبباً للبقاء وعمارة الدنيا .

فعسُر على الإنسان الكتمان لإيثار هذه الشهوة ، والانقيادِ لهذه الطبيعة ؛ وكانت مزاولة الجبال الراسيات عن قواعدها أسهلَ من مُجاذبة الطباعْ . فاعتراهُ الكربُ لكتمان السرّ ، وغشِيَه لذلك سُقم وكمد يحسُّ به فى سُويداء قلبه بمثل دبيب النمل ، وحِكَّة الجرب ، ومثل لسع الدَّبْر ووخْز الأشافِى[١] ، على قدر اختلاف مقادير الحلوم والرّزانة والخفَّة . فإذا باح بسرّه فكأنه أنشِطَ من عِقال[٢] . ولذلك قيل : « الصَّدر إذا نفث برأ » مثلاً مضروباً لهذه الحال . وقيل :

* ولا بدَّ من من شكوى إذا لم يكن صبرُ[٣] *

---

(١) الدَّبر: جماعة النحل . والأشافى : جمع الإشفى ، وهو المثقب يخرز به .

(٢) أى حل من عقال ، والعقال : الرباط الذى يعقل به .

(٣) لمالك بن حذيفة كما فى حماسة البحترى ١٩٧ . وأنشد هذا العجز فى الحيوان ١ : ٣٠٢ وصدره كما فى البيان ٣ : ٢٢٠ و ٤ : ٦٣ :

* وما كثرة الشكوى بأمر حزامة *

ويرى : « بحد حزامة » . ويروى : « لعمرك ما الشكوى بأمر حزامة » .

وليس قولنا « طُبع الإنسانُ على حبّ الإخبار والاستخبار » حجّةً له على الله ، لأنّه طبع على حُبِّ النِّساء ومُنِع الزِّنى ، وحُبِّب إليه الطعامُ ومُنع من الحرام . وكذلك حُبِّب إليه أن يُخبِر بالحقّ النافع ويَستخبر عنه ، وجُعلت فيه استطاعةُ هذا وذاك ، فاختار الهوى على الرأْى . ٥٦ ظ

وممّا يؤكّد هذا المعنى فى كَرْب الكتمان وصُعوبته على العقلاء فضلًا عن غيرهم ، ما رووه[١] عن بعض فقهائهم أنه كان يحمل أخباراً مستورة لا يحتملها العوامّ ، فضاق صدرُه بها ، فكان يبرُز إلى العَرَاء[٢] فيحتفر بها حَفِيرةً يُودِعها دنًّا ، ثم ينكبُّ على ذلك الدّنّ فيحدِّثه بما سمع ، فيروِّحُ عن قلبه ، ويَرَى أنْ قد نَقل سرَّه من وِعاء إلى وعاء .

وكان الأعمش[٣] سيِّئَ الخلق غَلِقًا ، وكان أصحاب الحديث يُضجرونه ويَسُومونه نشرَ ما يحبُّ طيَّه عنهم ، وتَكرارَ ما يحدِّثهم به ، ويتعنَّتونه ، فيحلف لا يحدِّثهم الشهرَ والأكثر والأقلّ ، فإذا فعلَ ذلك ضاق صدرُه بما فيه ، وتطلَّعت الأخبار إلى الخروج منه ، فيقبل على شاةٍ كانت له[٤] فيحدِّثها بالأخبار والفقه ، حتى كان بعض أصحاب الحديث يقول : « ليت أنّى كنت شاةَ الأعمش » .

---

(١) فى الأصل : « رواه » .

(٢) العراء : الأرض الواسعة المستوية المصحرة ، وأنث الضمير بعدها لمعناها . وفى الأصل : « العرى » ، تحريف كتابى .

(٣) هو سليمان بن مهران الأعمش ، المحدث المعروف . ولد سنة ٦١ يوم عاشوراء ، وهو يوم مقتل الحسين ، وتوفى سنة ١٨٨ .

(٤) فى ثمار القلوب للثعالبى ١٣٤ أنها عنز . والشاة : الواحدة من الغنم ، وقيل الشاة تكون من الضأن والمعز والظباء والبقر والنعام وحمر الوحش .

وشكا هشامُ بن عبد الملك ما يجدُ من فقد الأنيسِ المأمونِ على سرِّه فقال : أكلت الحامضَ والحلوَ حتَّى ما أجد لهما طعما ، وأتيتُ النساءَ حتى ما أبالى أَمرأةً لقيتُ أم حائطاً ، فما بقيت لى لذّة إلّا وجود أخٍ أضع بينى وبينه مَؤونة التحفُّظ .

وقال معاوية لعمرو بن العاص : ما اللذة ؟ قال : تأمر شبابَ قريش أن يخرجوا عنا . ففعل ، فقال : اللّذّةُ طرح المروءة .

وقد صدَقَ عمرو ، ما تكون الزَّماتة والوقار إلا بحملٍ على النفس شديد ، ورياضةٍ مُتعبة .

وقال بعض الشعراء[1] :

ألم ترَ أنّ وُشاة الرجا   لِ لا يتركون أديماً صحيحا
فلا تُفش سِرَّكَ إلّا إليك   فإنّ لكلّ نصيحٍ نصيحا

والسرُّ – أبقاكَ اللهُ – إذا تجاوز صدرَ صاحبه وأفلتَ من لسانه إلى أذنٍ واحدةٍ فليس حينئذ بسرٍّ ، بل ذاك أولى بالإذاعة ، ومفتاحُ النَّشر[2] والشُّهرة . وإنّما بينه وبين أن يَشيع ويستطير أن يُدفع إلى أذنٍ ثانية . وهو مع قلّة المأمونين عليه ، وكَرْب الكتمان ، حَرِيٌّ بالانتقال إليها فى طرفة عين . ٥٧ و

(١) هو أنس بن أسيد ، كما فى أدب الدنيا والدين ٢٧٩ . وفى الكامل ٤٢٤ : « وأحسن ما سمع فى هذا ما يعزى إلى على بن أبى طالب ، فقائل يقول : هو له ، ويقول آخرون : قاله متمثلا . ولم يختلف فى أنه كان يكثر إنشاده » . وانظر الحيوان ٥ : ١٨١ وما فى حواشيه من تخريج .

(٢) فى ط : « الشر » ، خلافاً لما هو واضح فى الأصل .

وصَدْر صاحب الأذن الثانية أضيق ، وهو إلى إفشائه أسرع ، وبه أسخى وفى الحديث به أعذر ، والحجَّةُ عنه أدحض .

ثم هكذا منزلة الثالث من الثانى ، والرابع من الثالث أبداً إلى حيث انتهى .

هذا أيضاً إذا استُعهِد المحدَّث واستُكتِم ، وكان عاقلا حليماً ، وناصحاً وادًّا ، فكيف إذا أخبِر ولم يؤمَر بالكتمان ، وكان ممن يمشِى بالنَّمائم ويحبُّ إفشاءَ المعايب ، وكان ممن ينطوى على غشٍّ أو شَحناء ، أو كان له فى إظهاره اجتلابُ نفعٍ أو دفع ضرر .

فاللَّوم إذ ذاك على صاحب السرّ أوجب ، وعمّن أفضى به إليه أنزل[١] ؛ لأنه كان مالِكاً لسرِّه فأطلق عقالَه ، وفتح أقفاله ، وسرَّحه فأفلتَ من قيده ووَثاقه ، وصار هو العبدَ القِنَّ المملوكَ لمن ائتمنه على سرِّه ، وملَّكه رقّ رقبته ؛ فإن شاء أحسن مَلَكته لحفظ ذلك السّرّ فجزّ ناصيتَه ، وجعله رهينةً ليوم عَتْبه عليه . وقلَّ من يُحسن المَلَكة ، ويحرس الُحرِّيَّة أو يضبط نفسه ؛ فإنه ربَّما لم يُخرجه غِشًّا فأخرجه سُخفًا وضعْفا . وإن أساء المَلَكة وخَتَر الأمانة[٢] فأطلقَ السرَّ واسترعاه من هو أشدُّ له إضاعة ، فسفكَ الدمَ وأزالَ النعمَ وكشف العَورة وفرّق بين الجميع ، وإن كان المضيع لسرِّه ألْوَم[٣] . قال الشاعر :

---

(١) أى أقل . وفى الأصل : « أدل » ، ولا وجه له .

(٢) الختر : شبيه بالغدر والخديعة . يقال خَتره فهو ختار ؛ والمراد : خانها .

(٣) فى الأصل : « اليوم » .

إذا ضاق صـــــدرُ المرء عن سرٍّ نفسه

فصدر الذى يَستودِع السرَّ أضْـــيَقُ (١)

فمَن أسوأ حالا ، وأخسر مكاناً ، وأبعد من الحزم ، ممن كان حرًّا مالـكاً لنفسه فصيَّر نفسَه عبداً مملوكًا لغيره ، مختاراً للرِّق ، من غير أسرٍ ولا قَسر ! والعبيد لم يَصبروا على الرقّ إلا بذلّ الأسر والسِّباء .

ومن كان سِرُّه مصوناً فى قلبه يُطلَب إليه فى الحديث به فأخرجه عن يده ، صار(٢) هو الطالبَ الراغب إلى من لا يوجب له طاعة ، ولا يفكِّر له فى عاقبة ، ولا يتحرَّز له من مُصيبة(٣) . وكلَّما كانت إذاعتُه لأسراره أكثر
٥٧ ظ كان عدد مواليه أكثر ، وشَقاؤه بخدمتهم أدْوَم . فإذا كان أصل السرّ معلومًا عند عِدّةٍ أو أقلَّ من العدّة ، فما أعسرَ استتاره . غير أنّه لا لومَ على صاحب الخيانة فيه إذا كان ليس هو الذى أفشاه ، ولا مِن قِبَله عُلِم .

ولو أنّ أوزنَ الناس حِلمًا مَلكَ لسانَه وحصَّن سرَّه وقلَّل لفظَه ، ما قدَر على أن يملك لحظ عينيه ، وسَحنةَ وجهه ، وتغيُّرلونه ، وتبسُّمَه أو قطوبه ، عند ما يجرى بلبِّه(٤) من ذكر ذلك السرّ ، أو يخطر(٥) بباله منه ، فيبدو فى وجهه

(١) البيت من أبيات ستة رواها المبرد فى الكامل ٤٢٥ .

(٢) فى الأصل : « وصار » .

(٣) فى الأصل : « ولا يتحرز له بمعصية » .

(٤) فى الأصل : « به » .

(٥) فى الأصل : « خطر » .

ومخايله إذا عرّض بذكره[١] ، أو سنَح له نظيرٌ أو مَثيل[٢] ، أو حضَر مَن له فيه سببٌ ـ إلّا بعد التصنُّع الشديد ، والتحفُّظ المُفْرط .

فإذا كان يُعرف من هذه الجهات وما أشبهها ، ويُطَّلع عليه بتظَنُّنِ المرجِّمين[٣] ، والمتعقِّبين للأفعال والأقوال ، والنظر فى مصادر التدبير ومخايل الأمور ، فيفشو من هذه الجهات أكثر مما تفشيه ألسُن المذاييع البُذُر[٤] . فكيف إذا أُطلق به اللسان ، وعوِّد إذاعتَه القلبُ . والعادة أملك بالأدَب .

وربَّما أدركه الحدْس ، وقيَّضه الظنّ[٥] ، فنالتْ صاحبَه فيه خُدعة ، بأن يُذكر له طرَفٌ منه ، ويُوهَمَ أنه قد فشا وشاع ، فيصدِّق الظنَّ فيجعله يقيناً ، ويفسِّر الجملة فيصيِّرها تفصيلا ، فيُهلك نفسه ويُوبقها .

وربَّ كلامٍ قد ملأ بطونَ الطَّوامير[٦] قد عُرف جملتُه وما فيه الضَّررُ

---

(١) ط : «عرض ذكره » خلافاً لما فى الأصل .

(٢) فى الأصل : « مثل » ، وأثبت ما تقتضيه لغة الجاحظ .

(٣) الرجم : القول بالظن والحدس . ومنه قوله تعالى : « رجماً بالغيب » . والترجيم تفعيل منه .

(٤) البذر : جمع بذور ، كصبور وصبر . وفى حديث على فى صفة الأولياء : « ليسوا بالمذاييع البذر » . والمذاييع : جمع مذياع ، وهو من يذيع السر ويفشيه . انظر اللسان (بذر ، ذيع) . وفى الأصل : « المبذر » ، صوابه ما أثبت .

(٥) قيضه : هيأه وسببه من حيث لا يحتسب . وفى الحديث : « ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه » .

(٦) جمع طومار ، وهو الصحيفة ، عربى أو دخيل .

منه ، بسَحاءة[١] أو طابَع[٢] ، أو لحظةِ مطّلعٍ فى الـكتاب ، أو حرفٍ تبيَّن من ظهره .

فاستيقظْ عند هذه الأحوال ، واستعملْ سوءَ الظّنّ بجميع الأنام ؛ فإنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الحزم سوء الظنّ » . وقيل لثقيف : بم بلغتم ما بلغتم من الشّرف والسؤدد ؟ قالوا : بسوء الظنّ .

فلا تعتمد على رجل فى سرِّك تحمدُ عقلَه دون أن تحمد ودَّه ونصحه ؛ فإن الأمر فى ذلك كما قال الشاعر[٣] :

وما كلُّ ذى لبٍّ بمؤتيك نُصحَه ولا كلُّ مؤتٍ نُصـحَه بلبيبِ

ولقد استحسن الناسُ من بعض رجال العراق أنَّه دخل على عبد الملك
٥٨ و ابن مروان فأوقعَ بالحجّاج عنده وسبّه ، فلمّا خرج من عنده خبّر بما كان منه لبعض أصحابه ، فلامَه وأنّبه وقال : ما يُؤمِنك أن يُخبِر أمير المؤمنين عبدُ الملك الحجاجَ بما قلتَ فيه ـ ومرجِعُك إلى العراق ـ فيضغَنه عليك ؟ قال : كلّا ، والله إنّى ما رَطَلتُ بيدى قطُّ أحداً أرزنَ منه[٤] .

وهذا واللهِ ـ أبقاكَ الله ـ الغَلط البيِّن ، والعُذْر الملفَّق[٥] ، وتحسين فارط

---

(١) سحاءة القرطاس : ما انقشر منه .

(٢) الطابع ، بفتح الباء وكسرها : الخاتم الذى يختم به الـكتاب . وفى الأصل : « طائر » ، صوابه فى ط .

(٣) هو أبو الأسود الدؤلى . الأغانى ١١ : ١٠٥ ونوادر المخطوطات ١ : ١٦٧ .

(٤) رطل الشىء يرطله رطلا : رازه بيده ليعرف وزنه ، كما فى اللسان . وأرزن من الرزانة ، وأصل الرزانة الثقل .

(٥) فى الأصل : « والغدر المصلق » ، تحريف .

الخطأ ؛ لأنّه ليس كُلّ راجحٍ وعاقل بناصحٍ لصاحب السرّ ، ولو كان أخوه كذلك كان أمره إليه أهمّ ، وشأنه أولى . والأعلى من الناس لا يكلِّف الأدنى هذه المؤونة ، وإنَّما يفعلها الأدنَونَ بالأعلَيْنَ رغبةً ورهَبًا ، وتحشُّنًا عندهم بحاجتهم إليهم .

وأكثر ما يذيع أسرارَ الناس أهلوهم وعبيدُهم ، وحاشيتهم وصبيانهم ، و [من[1]] لهم عليهم اليدُ والسلطان . فالسرُّ الذى يودعه خليفةٌ فى عاملٍ له يَلحقُه زَينه وشَيْنه ، أحرى ألَّا يكتمه . وهذا سبيل كل سِرٍّ يستودعه الجِلّة والعظماء ، ومن لا تبلغه العقوبة ولا تلحقُه اللائمة .

وقال سليمان بن داود فى حكمته : ليكن أصدقاؤك كثيراً ، وصاحب سرّك واحداً من ألف .

وليس معنى الحديث أن تعدَّ ممن تعرف ألفاً وتُفضِىَ إلى واحد بسرّك[2] إنْ لم يكن ذلك الواحد موضعًا للأمانة فى السرّ . لكنه قيل : رجلٌ يساوى ألفَ رجل ، ورجلٌ لايساوى رجلًا . وكقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس كإبلٍ مائةٍ لا يوجد فيها راحلةٌ[3] » .

فكُلُّ ذلك يراد به أنَّ الفضلَ قليل والنقص قليل لا على نِسَب ما يتلقَّاه الاجتماع من هذه الأعداد ؛ لأنَّا قد نجد الرجلَ يُوزن بالأمّة ، ونجد الأمّة لا تساوى قُلامةَ ظُفرِ ذلك الرجل .

---

(١) ليست فى الأصل .

(٢) ط : « بسر » خلافاً للأصل .

(٣) ويروى : « تجدون الناس بعدى كإبل مائةليس فيها راحلة » . الراحلة : البعير القوى على الأسفار . أراد أن الكامل الزاهد فى الدنيا قليل كما أن الراحلة النجيبة نادرة فى الإبل الكثيرة . رواه ابن ماجه ٣٩٩٠ بإسناد صحيح .

فإذا كان مَن تقع عليه الشَّريطة معدوماً ـ سيَّما من يُوثَق بحلمه وعقله ، وأمانته ونُصحه ، ومن لا ضررَ عليه ولا نفعَ له فى السِّرّ الذى يُضمر ولا يحرَّم عليه كتمانه ، ومن قد وأى على نفسه بالسِّرِّ والحفظ[١] ؛ فإنه ليس كلُّ من
٥٨ ظ
ضمِّن فلم يضمَن ضامناً ، ولا من استُودع فلم يقبل مستحفَظاً ، ولا من استُخلِف فلم يَخلُف خائناً ، وإنما يلحقه الحمدُ والذمّ ؛ والأجر والإثم إذا ضُمِّن الأمانةَ ثم خَتَرها[٢] ـ فكأنّ القوم قالوا : لا تودعنّ سرّك أحداً . وإلاّ فمتى تجد رجلاً فيه الصفة التى وصَف بها مسكينٌ الدَّارمىُّ نفسه حيث يقول :

إنِّى امرؤ منِّى الحياء الذى ترى أنوءِ بأخلاقٍ قليـل خداعُها[٣]
أُواخِى رجالاً لست أُطلِعُ بعضَهم على سِرِّ بعضٍ غير أنِّى جِماعُها[٤]
يَظَلُّون شتَّى فى البـلاد وسرُّهم إلى صخرةٍ أعيا الرجالَ انصداعُها[٥]

وقيل لرجلٍ : كيف كتمانُك للسِّرّ ؟ قال : أجعلُ قلبى له قبراً أدفنه فيه إلى يوم النُّشور .

---

(١) وأى على نفسه : أى جعل عليها وعداً . وفى حديث وهب : « قرأت فى الحكمة أن الله تعالى يقول : قد وأيت على نفسى أن أذكر من ذكرنى » . عداه بعلى لأنه أعطاه معنى جعلت على نفسى .

(٢) أى خانها . وانظر ما سبق فى ص ١٤٧ .

(٣) القطوعة فى حماسة أبى تمام فى أول باب الأدب . انظر شرح المرزوقى ١١١٥ — ١١١٦ والحيوان ٥ : ١٨٢ وعيون الأخبار ١ : ٣٩ والكامل ٤٢٥ وأمالى القالى ٢ : ٦٢ والمرتضى ١ : ٣٩٩ .

(٤) الجماع : اسم لما يجمع به الشىء ، كما أن النظام اسم لما ينظم به الشىء .

(٥) أى أن يصدعوها فتنصدع . ويروى : « أعيا الجبال اتضاعها » .

وقال الآخر[١] :

* وأكتمُ السِّرَّ فيه ضربةُ العُنُقِ[٢] *

وهذه صفاتٌ موجودةٌ بالأقوال ، معدومة بالأفعال . والمغرورُ من اغترّ بما يعِدُه الواعدُ منها دون أن يَبلُوَ الخَبر .

والذى جرّبناهُ ووجدناه : أنّ من يُفضَى إليه بالشىء ، يَبلغ من إذاعته ونشرِه ما لا يبلغُه الرسولُ المستحفَظ المْعنىّ بتبليغ الرسالة ، المحمودُ المجازَى على أدائها ؛ حتّى ربّما كان يبلغ[٣] فى الإذاعة لمن أرادها أن يقصد للبلاّغة من الرجال[٤] ، المعروف بالنّميمة والتقتيت[٥] ، فيوهمه أنه قد استحفظه السرَّ ، فيشيع على لسانه كما يشيع الضوء فى الظُّلمة .

وهذا فِعلُ عمر بن الخطّاب رضى الله عنه حين أحبَّ أن يُشيع إسلامَه فقال : مَن أنمُّ أهلِ مكة ؟ قيل له : جميل بن النُّحَيت . فأتاه فأخبره بإسلامه وسأله أن يكتمَه عليه ، فلم يُمسِ وبمكّة أحدٌ لم يعلم بإسلام عمر ، رضى الله عنه .

---

(١) هو أبو محجن الثقفى . ديوانه ٦ والحيوان ٥ : ١٨٢ والأغانى ٢ : ١٤٢ .

(٢) صدره فى ديوانه :

* وأكشف المأزق المكروب غمته *

وفى الحيوان :

* وقد أجــود وما مالى بذى فنع *

وفى الأغانى :

* وأطعن الطعنة النجلاء عن عرض *

(٣) فى الأصل : « لا يبلغ » وكلمة « لا » مقحمة .

(٤) البلاغة : الكثير التبليغ ، عنى به ذلك وإن لم يكن مذكوراً فى المعاجم المتداولة .

(٥) التقتيت : مبالغة من القت ، وهو النميمة .

ثم يكون من أكثر الأعوانِ على إظهار السرِّ الاستعهادُ له ، والتَّحذير من نَشرِه ؛ فإنَّ النَّهىَ أغْرَى ؛ لأنَّه تكليف مشقّة ، والصبر على التكليف شديد ، وهو حَظْرٌ ، والنفسُ طيَّارة متقلِّبة ، تَعشَق الإباحة وتُغرَم بالإطلاق .

ولعلَّ رجلاً لو قيل له : لا تمسحْ يدكَ بهذا الجدار ـ وهو لم يمسَحْها به قطُّ ـ غَرِىَ بأن يفعَل .[1]

وكذلك ما حُدِّث به من السرّ فلم يؤمَر بستره ، لعلَّه ألاَّ يخطر بباله ؛
٥٩ و لأنَّه موجود فى طبائع الناس الوَلوعُ بكلِّ ممنوع ، والضَّجر بكل محصول .

فنريد أن نعلم : لِمَ صار الإنسانُ على ما منع ـ وإن كان لا ينفعُه ـ أحرَصَ منه على ما أبيحَ من غير علَّة ولا سبب إلاَّ امتهانَ ما كثر عَلَيْه[2] ، واستطرافَ ما قلَّ عنده ؟ ولمَ أقبلَ على مَن ولَّى عنه وولَّى عمّن أقبلَ عليه ؟ ولِمَ قالوا : إذا جدَّت المسألة جَدَّ المنع ؟ وقال الشاعر[3] :

الحرُّ يُلحَى والعصــا للعبدِ وليس للمُلْحِف مثــلُ الرَّدِّ

ولِمَ صار يتَمَنَّى الشَّىءَ ويَنذُر فيه النُّذورَ ، ويتقطَّع إليه شوقاً ، فإذا ظَفِر به صدَّ عنه وأخلقَ عنده ؟ ولِمَ زهِد الملوكُ فيما فى أيديهم ورغِبوا فيما فى أيدى الناس ؟

فنقول : إنّ الله تبــارك وتعالى جَعل لـكلِّ نفسٍ مَبلغاً من الوُسع لا يمكنُها تجاوزُه ، ولا تتَّسع لأكثرَ منه . فـكان معها فيما دونَ الوُسع الفقرُ

---

(١) غَرِى بالشىء غَراً وغَراء : أُولع به وأُغرى .

(٢) فى الأصل : « ولا امتهان بما كثر عليه » ، صوابه فى ط .

(٣) هو بشار بن برد . البيان ٣ : ٣٧ .

وخوفُ الإخوان ، وفيما تجاوَزه عزُّ الغنى وأمنُ العُدْم . وبهذا وبمثله من البُخل والحرص استخفَّت من احتاجَ إليها ، وأعظمَتْ من استغنَى عنها . وجَعلَها توّاقة مشتاقة ، متَطرِّفة ملاّلة[١] ، كثيرة النزاع والتقلب ، تستحكم عليها الفتنة[٢] ، ويُبلَى خيرها [من شرِّها[٣]] وصبرها من جزعها . ولولا هذه الخلالُ سقطت المِحَن ، فهى تعظِّم القليلَ بالضَّرورة إليه إن كان من أقواتها ، أو لشدَّة النِّزاع والشوق إن كان من طُرَف شهواتها ؛ فإنَّ صنوف الشهوات كثيرة ، ولكلِّ صنفٍ منها أهل لا يَحفلون بما سواه . وتتعجّب من الغريب النادر ، ويضحكها البديعُ الطارئ . إلا أنَّه إذا كثُر الغريب صار قريباً ، وإذا تجاوز المطلوبُ مقدارَ وُسعها وحاجتها فصار ظِهريًّا وفضلاً استخفَّتْ به وقلَّ فى أعينها كثيرُه . وأعظم الأشياء عندها قدراً ما اشتدَّ إليه الفقرُ والحاجة وإنْ قلَّ قدره[٤] ، وأهونها عليها ما استُغنِيَ عنه وإن عظُم خطره . وجَعل لما تتوق إليه وتشتاقه مكاناً مِن قواها ، له[٥] . فإذا امتلأ ذلك المكانُ سروراً ، وقَضَى ذلك الأربُ وطراً مما كان طمَح إليه ، ورِوىَ مما كان ظامئا إليه ، انصرفَ عنه وقَلاه ، وحالَ عشقُه بُغضاً ، وشوقُه مَلالاً .

والعلّةُ فى ذلك : أنّ الدُّنيا دارُ زوالٍ ومَلال ، ليس فى كيانها أن تثبت ٥٩ ظ

(١) التطرف والمستطرف : الذى لا يثبت على أمر وفى الأصل : « مطرفة » . والملالة : الكثيرة الملل .

(٢) فى الأصل : « تستحكم عليها العنته » .

(٣) ليست فى الأصل .

(٤) فى الأصل : « ضرره » .

(٥) أى مكاناً له من قواها .

هى ولا شىء مما فيها على حالٍ واحدة ، وإنَّما الثُّبوت الدائم لدارِ القرار .
فالسآمة تلحقها فى محبوبها ، كما يصيب المنتهىَ من الطعام والشراب والباه ، فإنه ليس شىء أبغضَ إلى من يتناهى فيه إلى غايته ، من النَّظر إلى ناحيتِه ، فضلاً عن ملابسته ، إلى وقت عَودة السبب الأوّل .

فإذا كانت الطبائع تتشابه ، ولكلّ حاسّة قوة ، فإذا امتلأت تلك القُوّة من محسوسها لم تجد لها وراءه طعماً ولا ريحاً ، وعاد عليها الضَّرر . فبعضُ النظر يُعمِى ، والصَّوت الشديد يُصِمّ ، والرائحة المُنتنةُ تُبطل المَشَمّ ، والأطعمةُ الحارّة المُحرقة تبطل حاسَّة اللسان .

وتتطرّف كلٌّ واحدةٍ منها ؛ فبَين الطِّيبِ عند مَنْ بُعد عهدُه [به] ، والجماعِ والسَّماع ، وبين من هو مغموسٌ فيه بونٌ بعيدٌ جدًّا ، فى الحلاوة وحُسن الموقع . كلّ ذلك ما لم يأت المالُ والعلم ؛ فإنّه كلّما كُثر كان أشهَى وأعجب ؛ لأنّ قَصْدَ الناس له ليس لطلبِ مقدار الحاجة وسدِّ الخَلّة كما يُريده أهل القَناعة والزَّهادة ، وإنّما يراد لقمع الحِرص ، والحرصُ لا حدَّ له ولا نهاية ؛ لأنه سعىٌ لا لحاجة ، وإيضاعٌ لا لبُغية .

وهكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أنّ لابن آدمَ واديِينِ من ذهبٍ لا بتغَى إليهما ثالثاً . ولا يملأ جوفَ ابن آدم إلاّ التُّراب[1] » .

وقال بعض الحكماء :

من كان لا يَغنَى بمـا يُغنيه فـكلٌّ ما فى الأرض لا يُغْنيه

(١) حديث صحيح ، أخرجه فى الجامع الصغير ٧٤٧٦ بلفظ: « لو كان لابن آدم واد من مال لابتغى إليه ثانيا ، ولو كان له واديان لا بتغى لهما ثالثاً » .

قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وتُحبُّون المالَ حُبًّا جَمًّا[١] ﴾ . وقال : ﴿ وإنّه لحبِّ الخير لشديد[٢] ﴾ . وقال الشاعر :

والناسُ إن شبِعتْ بطونهمُ فعيونهم فى ذاك لا تشبعْ

فأمّا الحديث الذى جاء : « لا يشبع أربعٌ من أربعة : أرضٌ من مطر ، وعين من نَظَر ، وأنثى من ذكر ، وعالمٌ من علم[٣] » . فإنّ العين لا تشبع فى الجملة كما لا يشبع الخيشوم من الاستنشاق . فأمّا مِن صنفٍ مما يراه دون صِنفٍ ، فإنه يَشبَع ويَروى ، ويصدُّ ويصدِف إلى غيره . ٦٠ و

وأمّا العلمُ فإنّه أوسعُ من أن يُحاطَ به ، فمَن طلبَه لشرفه ونحره فإنه لا حدَّ له ولا نهاية ، ولم يزدد له طلباً إلّا ازداد فيه رغبة . ومن طلب منه مقدار كفايته وحاجته كفاه منه اليسير . على أنه لا يملك من كثُر علمه أن يَرى فيه الغنى والكبرياء أيضاً . وقد يُمَلّ كما يمَلّ كلُّ شىء . وتملُّ العين أيضاً منه ومن المال .

وقيل : اثنان منهومان : طالب علم وطالب دُنيا . وهذه القضيّة[٤] تدلّ على الخروج عن العقل ؛ لأن النَّهَم تجاوُز القَدْر .

---

(١) الآية ٢٠ من سورة الفجر .

(٢) الآية ٨ من سورة العاديات .

(٣) حديث ضعيف ، أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير٩٢٢ بلفظ : « أربع لا يشبعن من أربع » .

(٤) فى الأصل : « القصة » والقضية : الحكم .

وأمّا[١] الحرص على الممنوع الذى لاينتفع به ، والعجب مما يتعجَّب من مثله ، فليس من أخلاق العقلاء . وما لم يكن فى أخلاقهم فلا نظر فيه ولا قياس عليه ، وإنما ذلك فِعلُ من استوحش من الحجّة ، وشرد عن علم العلل والأسباب .

وإفشاء السرّ إنما يوكَّل بالخبر الرائع ، والخطب الجليل ، والدفين المغمور ، والأشنَع الأبلق ، مثل سرّ الأديان[٢] لغَلَبة الهوى عليها ، وتضاغن أهلها بالاختلاف والتضادّ ، والولاية والعداوة . ومثل سرّ الملوك فى كيد أعدائهم ومكنون شهواتهم ومستور تدبيراتهم ، ثم من يليهم من العظماء والجِلّة ؛ لنَفاسة العوامّ على الملوك[٣] ، وأنّهم سماء مُظِلّة عليهم ، أعينُهم إليها سامية ، وقلوبهم بها معلَّقة ، ورغَباتهم ورهَباتهم إليها مصروفة . ثم عداوات الإخوان ؛ فإنّما صارت العداوة بعد المودّة أشدّ لاطّلاع الصديق على سرّ صديقه ، وإحصائه معايبَه ، وربّما كان فى حال الصَّداقة يجمَع عليه السَّقطات ويُحصِى العيوب ، ويحتفِظ بالرِّقاع ؛ إرصاداً ليوم النَّبوة ، وإعداداً لحال الصَّريمة .

وقد شكا بعض الملوك تنقيب[٤] العوامّ عن أسرار الملوك فقال :

ما ينام الناس عنّا ما يريد الناسُ منّا ٦٠ ظ

---

(١) فى الأصل : «وإنما» .

(٢) فى الأصل : « الأدمان » ، صوابه فى ط .

(٣) النفاسة : الحسد ، يقال نفس عليه ينفس نفساً ، بالتحريك ، ونفاسة كسحابة .

(٤) فى الأصل : « تنقب » .

لو سكَنّا باطن الأر ضِ لكانوا حيثُ كُنّا
إنما همُّهمُ أنْ ينشُروا ما قد دفَنّا

ولِمَ نرى حُبَّ الطعن على الملوك[١] ، والتجسُّسَ على أخبارهم ، وعشقَ نشرِ المعايب ، واستحلال الغِيبة ، ظاهراً فى طباع الناسِ لا يكاد ينجو منه أحدٌ منهم إلَّا من رجَح حلمُه وعظُمتْ مروءته ، وظهر سُودَده ، واشتدَّ ورعُه ، حتى قال بعضهم : « الغِيبةُ فاكهةُ النُّسَّاك » .

ورووْا عن بعضهم أنه قال : « الفاسقُ لا غِيبةَ له » .

وقال آخر : « أترِعون من ذكر الفاسق[٢] ؟ اذكروه يعرفه الناس » .

ولَمْ نر الله جلّ ثناؤه رخَّص فى اغتياب مؤمن ، بل ضربَ المثلَ فى الغِيبة بأكره ما تكرهه النُّفوس ، وما تختار منْه الموت على الحياة ، فقال : ﴿ ولا تجسَّسُوا ولا يغتب بعضُكم بعضاً أيحبُّ أحدُكم أن يأكلَ لحمَ أخيه مَيْتاً فكرِهتُمُوه[٣] ﴾ .

واغتياب الناس جميعاً خُطَّةُ جَورٍ فى الحكم ، وسقوطٌ فى الهّمة ، وسَخافة فى الرأى ، ودناءةٌ[٤] فى القيمة ، وكُلفة عريضة ، وحسَد ونفاسة ، قد

---

(١) فى الأصل : « ولم نوجب الطعن على الملوك » وفى ط : « ولم نرحب الطعن على الملوك » والوجه ما أثبت . انظر لتأييد هذا الأسلوب ما سبق فى ص ١٥٤ س ٨ وما بعده .

(٢) يقال ورع من الشىء يرع بكسر الراء فيهما ويورع ، كيوجل ، أى تحرج وتأثم . وفى ط عن نسخة المختار : « أتراعون » .

(٣) الآية ١٢ من سورة الحجرات .

(٤) فى الأصل : « ودناء » .

استحوذت على هذا العالَم وغلبَت على طبائعهم ، وتوكّدت لسوء العادةِ عندهم ، ولعلوٍّ الشرِّ على الخير ، وكثرة الدَّغَل والنَّغَل والحسدِ فى القلوب . فلستَ ترى منها ناجياً . إمّا ناظرٌ بعين عدلٍ وإنصاف ، فهو يَرى ما يُنكِر فيبدو فى وجهه ولسانه . وإما ناظرٌ بعين البغضاء والعداوة فهو كثيراً ما يجد من العيوب فى عدوّه ما يُعينُه على التخرُّص عليه[1] فيقوِّيها ويزيد فيها . وإنْ عَدِمِ الحقَّ تقوّلَ وقبّح الحسَن ، وزاد فى قبح القبيح .

والحديث كلُّه ــ إلاّ مالا بالَ به ــ ذكرُ الناس ، ولغوٌ وخطَل ، وهُجر وهُذاء ، وغِيبةٌ وهَمزٌ ولمز .

وقال بعض الحكماء لابنه : يا بُنَيَّ ، إنّما الإنسانُ حديث ، فإن استطعتَ أن تكون حديثاً حسناً فافعلْ .

وكلُّ سِرٍّ فى الأرض إنّما هو خبرٌ عن إنسان ، أو طيٌّ عن إنسان ، فله
٦١ و فى الغِيبة أكثر الحظّ ، وجُلُّها كُلفةٌ لا ضرورة ، يُرَى صاحبها أنه قد أهمل محاسبة نفسهِ ، وغَفر ذنوبَها وألغى عيوبَها ، وقَصَدَ قَصْدَ غيره ، فتشاغل عمّا يعنيه بما لا يَعنيه ، فأنكر أقوالَه وأفعاله ، وهجر تدبيره ، وتعجّب من مَقابحه ، وجَهَد نفْسَه فى تفقُّد أموره . ليس ذلك عن عِنايةٍ بصلاحه ، ولا محبّة لتقويمه وتهذيبه ، ولا أنّه مسيطرٌ عليه ولا محمودٌ عنده على ماعُنِى به من شأنه ، بل هو عنده عين المذموم .

وهذا جُلّ حديثِ البشَر وشُغلِهم فى الليل والنهار .

---

(١) فى الأصل : « عن التخرص » تحريف . والتخرص : التقول والكذب .

قال بعض الحكماء : فضول النظر تدعو إلى فَضْل القول ، وفضول الخواطر تبعث على اللَّهو والخطَل .

ولو كان الرجلُ لا يتكلَّم إلَّا بما يعنيه ، ولا يتكلَّف ما قد كُفِيَه ، قلَّ كلامُه . ولو حكَّم العَدْل[١] فى أموره ، وفيما بينه وبين خالقه ، وبينه وبين إخوانه ومعامليه ، لطاب عيشُه وخفَّت مؤونته والمؤونة عليه ؛ فإنّ الله تبارك وتعالى لم يَخلُق مذاقًا أحلى من العدل ، ولا أروحَ على القلوب من الإنصاف ، ولا أمرَّ من الظُّلم ، ولا أبشعَ من الجور .

وقال بعض المتقدِّمين : « إنما يَعرف الظُّلمَ من حُكم به عليه » . ومن استعمل العدل دلَّه على أنَّ النَّاس يجدون من طعمه وطعم الظلم إذا فعلَه بهم مثلَ الذى يجد إذا ظُلِم ، فكرِه لهم ما كره لنفسه ، فأنصفَ ولم يَظلِم .

ويتظالم الناس فيما بينهم بالشَّرَه والحِرص المركَّب فى أخلاقهم ، فلذلك احتاجوا إلى الحكَّام ــ وقد أُطلِقَ لهم تصريف أخلاقهم وأماناتهم[٢] ــ التى ردّت إليهم بالأحكام فيها[٣] ، ما جنايتُه عليهم أكثرُ مما يطالبهم به الخصوم[٤] .

---

(١) فى الأصل : « العدى » .

(٢) فى الأصل : « تصريفها وأخلاقهم وأماناتهم » .

(٣) فى الأصل : « الأحكام فيها » .

(٤) المراد بالجناية جزاء الجناية ، كما فى قوله تعالى : « يلق أثاما » أى يلق جزاء الأثام ، وهو الإثم . وكما فى قول بشر بن أبى خازم :

وكان مقامنا ندعو عليهم بأبطح ذى المجاز له أثام

وقال بعض الحكماء : إنّ من أصعب الأعمال إنصافَك فى نفسك ، ومواساتَك أخاك فى مالك ، وذِكرَ الله . أمَا إنّى لا أعنى قول سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ـ وإنَّ ذلك لمن ذكر الله ـ ولكنْ ذكرَه عند ما يعرض من الأمور ، فإن كان طاعةً لله فعلتَه ، وإن كان معصيةً لله اجتنبتَه .

٦١ ظ وروى عن بعضهم أنه قال : « ثلاثة فى ظلّ عرش الله يومَ لا ظلَّ إلّا ظلُّه : رجلٌ لم يعب أخاه بعيبٍ فيه مثله حتّى يُصلحَ ذلك العيبَ من نفسه ؛ فإنّه لا يُصلحه حتى يهجُمَ على آخَر[1] ، فتشغله عيوبُه عن عيوب الناس . ورجلٌ لم يقدِّم يداً ولا رِجْلًا حتى يَعلم : أفى طاعة الله هو أم فى معصيته ؟ ورجلٌ لم يلتمس من الناس إلّا مثلَ ما يعطيهم من نفسه . أما تحبُّون أن تُنصِفوا » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله عبداً أنفقَ الفضلَ من ماله وأمسكَ الفضلَ من قوله ، وشغله عيبُه عن عيوب الناس » .

وقال عيسى بن مريم[2] : « يا بنى إسرائيل أيرى أحدكم القَذاةَ فى عين أخيه ويَغبَى عن الجذع المعترضِ فى عَينه » .

وقيل لعيسى بن مريم : ما أفضل أعمالك ؟ قال : تركى ما لا يَعنينى .

وقال عمرو بن عبيد : أعيَتْنى ثلاثُ خلال : تركى ما لا يَعنينى ، ودِرهمٌ من حِلّه ، وأخ إذا احتجت إلى ما فى يديه بذَلَه لى .

---

(١) أى على عيب آخر فى نفسه .

(٢) انظر إنجيل متى ٧ : ٣ — ٤ .

وما أَحَقَّ من أُحصيت ألفاظُه وليس مِن قولٍ يبدُر منه إلّا لديه رقيبٌ عتيدٌ ، ومَن أحصيت عليه مَثاقيلُ الذَّرّ واستُشهِدَ عليه جلدُه وجوارحه ـ أن يضبِط لسانه .

وقد جاء في بعض الآثار : مَن عَدَّ كلامَه من عمله قَلّ كلامُه إلّا فيما لا يَعنيه .

وكلُّ امرئٍ لحسيبُ نفسِه ، غير مأخوذ بغيره ، وهو الوحيد دون الأهل والولد والقرابة . وقال الله جلّ ثناؤه ـ وقوله الحقّ ـ ﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ[1] ﴾ . وقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُم لَا يَضُرُّكُم مَنْ ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ[2] ﴾ .

وليس الأمر بالمعروف والنَّهيُ عن المنكر إلّا مع السَّيف والسَّوط .

وقال بعض الحكماء : شيئانِ لا صلاحَ لأحدهما إلّا بالآخر : اللسان والسَّيف .

وأنت إذا تأمّلتَ أكثر مايتناجَى به المتحدِّثون وجدتَ أكثر السائلين يسألُ عما لا يعنيه ، ويكترث لما لا يكرُثه ، ويُعنَى بما لا ينفعه ولا يضرّه ؛ وأكثر المجيبين يُجيب ولم يُسأل ، ويتكلّف ما لا يعلم ، ولو قال له قائل : من سألك لافتضح ، ولو حاجَّه فيما ادَّعى ووقّفه لانقطع . قال الله عز وجلّ : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ[3] ﴾ . ٦٢ و

(١) الآية ٢١ من سورة الطور .
(٢) الآية ١٠٥ من سورة المائدة .
(٣) الآية ٨٦ من سورة ص .

ومرّ هشامُ بن عبد الملك ببعض أهل الكُلفة والفضول، وعليه حُلّة ذَيَّالة[١] يسحبُها فى التُّراب، فقال له المتكلف: ياهذا، إنّك قد أفسدتَ ثوبك. قال: وما يضرُّك من ذلك؟ قال: ليتك ألقيتَه فى النار. قال: وما ينفعُك من ذلك؟ فأفحمه غايةَ الإفحام.

ولو تهيّأ للمتكلِّفين فى كل وقتٍ مثلُ صَرامة هشام لازدجر مَن به حياءٌ منهم، ولقلَّت الفضول والكُلَف والغِيبة.

قالوا: وليس من أحد أذلَّ من مغتاب؛ لأنّه يُخفى شخصَه، ويُطامن حِسَّه، ويغضّ من صوته؛ ولا يَزيدُ[٢] بما يناله من ذلك إلّا بأن يرفعَ من قَدر خَصمه ويعظِّم من شأنه.

قال معاوية: أتدرى مَن النبيل؟ هو الذى إذا رأيتَه هبتَه، وإذا غابَ عنك اغتبتَه.

وهى لعمرى سبيلُ العظماء عند العوامّ، والملوكِ عند الرعيَّة، والسَّادة عند العبيد.

فلم يأخذ المغتاب ممن اغتابه شيئاً بعضيهته إيَّاهُ[٣] إلّا والذى أعطى من الهَيبة عند حضوره أكثر منه.

ولو كان المغتاب لا يستتر من الغِيبة إلا ممَّن يخاف سطوته، كان أعذَر. ولكن اللُّؤم المتمكِّن منه يحمله على اغتياب عَبدِه وأَمَته، فضلًا عن كفئه ونظيره.

(١) الذيالة: الطويلة الذيل.
(٢) فى الأصل: «ولا يريد».
(٣) العضيهة: الإفك والبهتان والكذب.

ويغتاب الرجلَ عند عدوّه والمشاحِنِ له ، مساعدةً له بالسُّخف ، وتقُرّبًا إليه بالمهانة والضَّعف ، من غير أن يكون له عليه طَول ، أو يلتمس منه على ما تقرَّب به إليه جزاءً أو شُكورا .

ثم لعلَّه ينكفئ إلى الذى اغتابه وقصَبَه[1] من ساعته ويومه ، فيعطيه فى عدوّه الذى اغتابه عنده أيضاً مثلَ ذلك وأكثر منه ، لا لعـلّةٍ أيضاً ولا مرفق ولا ربحٍ أكثرَ من الذِّلَّة التى يجدُها فى نفسه ، والضَّعف فى مُنَّته ، كما يعظِّم الغنىَّ بغير ثمن ، ويحتقر الفقير بغير سبب ، فمتى كُوشِف أو عُوتبَ لبِسَتْه ذِلّةٌ أُخرى من الـكِظّة بالمعاذرِ الـكاذبة ، والاعتصام بالأيمان الفاجرة . ومن كانت هذه دُربتَه فهو حرىٌّ أن يُطَّلَعَ على دِخْلة أمره ، فلا يُقبَل منه عذر ، ولا يُصدَّق فى قولٍ ولا حلف ، وقد تَسربلَ الذِّلّة ، وتدرَّع الخضوع . ٦٢ ظ

وليس من سُوس النفسِ الـكريمة الشَّهمة[2] ، أن تَلقى الناسَ بخلاف ما يتخلَّقون به[3] ما لم تأت ضرورة يحتاج فيها إلى كيد وغِيلة ، أو مكر وحيلة ، ويثار بالغِيبة فيهـا الرأىُ الأصيل من مكانه ، فيفعل ذلك العاقلُ فيما يحلّ له ويحسُن به ، بعد أن تُعيِيَه الحيلةُ فى استصلاح ذلك العدوّ بالرِّفق والملاينة .

وإنّما قيل : « قلَّ من اعتذرَ إلاّ كذب » ، لـكثرة النَّطَف فى الناس[4] ،

---

(١) قصبه قصبا : شتمه وعابه ووقع فيه .
(٢) السوس : الطبع ، والخلق ، والسجية .
(٣) فى الأصل : « يخلفون به » .
(٤) النطف ، بالتحريك : التلطخ بالعيب .

وضعف أنفسهم على الإقرار بالذّنب ، فلا ذِلّة الضّعف الثانى فى الاعتذار نهت عن كُلفة الضّعف الأوّل فى الاغتياب ، ولا كُلفة الضّعف الأوّل صانت عن ذِلّة الضّعف الثانى .

وعلى أنّ أكثر من يُعتَذر إليه ليس بقابلٍ للعذر على حقيقةٍ وإن أظهر القبول ، لما جرّب من سخاء النّاس[١] بالأيمان ، وبعدهم من الإقرار بالذنب ما لم تأت حجة واضحة ، ودليلٌ شاهد عدل .

وإذا كانت هذه سبيلَ المعتذَر إليه فيحقُّ على المعتذِر ــ إن كانت فى نفسه قيمة ــ أن لا يعتذر إلّا إلى من يحبُّ أن يجد له عُذرا ، ولا يعجل إلى المَيْن[٢] وهو لا يجد للحجّة مكانا .

وأكثر من يُعتذر إليه إنما يُفعل ذلك به خوفاً من سقطته ، وإبقاءً لسلطانه .

والمتفقّهون يتأوّلون فى الأيمان السّلطانية ما يُلحق بها عند السّلطان التُّهمة ، ويُلزِمهم الظّنّة ، سيّما[٤] فى الأمور التى فى الإقرار بها إباحةُ الدّم والمال ، وهَتكُ السِّتْر .

ولا حسمَ لهذا الداء إلّا باطّراح الفضول ، وسلامة اللسان من أن يَلغ فى الأعراض[٣] ، ويستسرّ بالعَضِيهة والبَهْت .

---

(١) فى الأصل : « النفس » .

(٢) المين : الكذب ، مان يمين . وفى الأصل : « الهين » .

(٣) أصل الولوغ شرب الماء أو الدم . ومنه ولغ السبع . وفى أساس البلاغة : « ومن المجاز : فلان يأكل لحوم الناس ويلغ فى دمائهم » . والفعل من باب نفع ، ووعد ، وورث ، ووجل . وفى الأصل : « يبلغ » .

(٤) كذا وردت بدون « لا » وأجازه بعض النحاة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده[١] » . ومن لم يسلم الناس منه فليس سالماً من نفسه .

وقال القائل : احرسْ أخاكَ إلاّ من نفْسه .

وقالوا : مقتل المرء بين فكّيه .

وكُتب على بعض أبواب المُدن بالسِّنْد[٢] : احفظ رأسَك .

وقال الأوّل : قد تَصِل النِّصال إلى الإخوان فتُستخرَج ، وأمثالُ النِّصال من القول إذا وصلت إلى القلب لم تُستخرَج أبدا .

٦٣ و وقال بَهْرام[٣] ، وسَمِعَ في اللَّيل صوتَ طائر فتحدَّاه بسهم وهو لا يراه ، إلاّ أنَّه تتبَّع الصَّوتَ فصرعَه ، فلما صار بين يديه قال : والطَّير أيضاً لو سكتَ كان خيراً له !

وقيل : ماشيء أحقّ بطول سَجْنٍ من لسان[٤] .

وقيل : يَسأَلُ اللسانُ الأعضاء في كلِّ يوم فيقول : كيف أنتنّ ؟ فيقُلن : بخيرٍ إن تركتنا !

---

(١) حديث صحيح . أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ٩٢٠٦ ، ٩٢٠٧ ، ٩٢٠٨ . وانظر الترغيب والترهيب ٥ : ١٦٠ .

(٢) في ط رواية عن كتاب المختار : « بالمسند » ، أي بالخط المسند ، وهو خط حمير باليمن .

(٣) بهرام : اسم لعدة ملوك من الفرس ، أشهرهم بهرام جور بن يزدجرد ، ملك ثلاثا وعشرين سنة ، ونشأ عند ملوك الحيرة وبنى له الخورنق . قال المسعودي في التنبيه والإشراف ٨٨ : « وكان فصيحاً بالعربية ، وله بها شعر صالح » . وذكره الجاحظ في الحيوان ١ : ١٤٠ .

(٤) حديث موقوف رواه الطبراني من كلام عبد الله بن مسعود . الترغيب والترهيب ٥ : ١٦٣ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمُعاذ بن جبل : « وهَلْ يكبُّ الناسَ على مناخرهم فى النّار إلاَّ حصائدُ ألسنتهم[١] » .

وقال عيسى عليه السلام[٢] : « أعمال البّر ثلاثة : المنطق ، والنظر ، والصَّمت . فمن كان منطقُه فى غير ذكر الله فقد لغَا ، ومن كان نظره فى غير اعتبارٍ فقد سَها ، ومن كان صَمتُه فى غير تفكّر فقد لها » .

فانظر بأىِّ الأمرين قطعتَ عمركَ ؟ أبالحكمة أم باللَّغو ؟ وانظر كيف وصف الله تعالى من أثنى عليه بخير من عباده فقال : ﴿ والذين هم عَنِ اللَّغو مُعْرِضُون[٣] ﴾ ، وقال : ﴿ وإذَا سَمِعُوا اللَّغوَ أعرَضُوا عَنْه[٤] ﴾ ، وقال : ﴿ وإذا مَرُّوا باللَّغو مَرُّوا كراماً[٥] ﴾ . وصانَ عنه أسماع أهل الجنَّة وألسنَتَهم فقال : ﴿ لا يَسْمَعُون فيها لغواً ولا تأثيماً . إلاَّ قِيلاً سَلاماً سَلاما[٦] ﴾ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العبادة عشرة أجزاء ، تسعةٌ منها فى الصَّمت » .

وقال على بن أبى طالب : « أفضل العبادة الصبر وانتظار الفرج[٧] » .

---

(١) فى اللسان (حصد) : « أى ما قالته الألسنة ، وهو ما يقتطعونه من الكلام الذى لاخير فيه ، واحدتها حصيدة ، تشبها بما يحصد من الزرع إذا جذ » . وتكلم عليه فى الترغيب والترهيب ٥ : ١٦٥ — ١٦٦ .

(٢) انظر البيان ١ : ٢٩٧ .

(٣) الآية ٣ من سورة المؤمنون .

(٤) الآية ٥٥ من سورة القصص .

(٥) الآية ٨٢ من سورة الفرقان .

(٦) الآية ٢٥ ، ٢٦ من سورة الواقعة .

(٧) انظر البيان ١ : ٢٩٧ .

وقال بعض الحكماء : لو لم يكن للصَّامت فى صَمته إلاّ الكفايةُ لأن يَتكلَّم بكلام ويُحكى عنه محرَّفا فيُضطرّ إلى أن يقول : ليس هكذا قلتُ ، إنَّما قلتُ كذا وكذا . فيكون إنكاره إقراراً ، واعترافه بما حُكى عنه شاهداً لمن وشَى به ، وادّعاءً لتحريفٍ غير مقبول منه إلاّ أن يأتى ببيّنة له[1] — لكان ذلك من أكثر فضائل الصَّمت .

وربَّما ذكر رجلٌ الله تبارك وتعالى ، فكان ذلك الذِّكر إثماً له ، لأنه قد يُدخله فى باب تفخيم الذنب الحقير والإغراء والتَّحريض ، فيسفِك الدمَ الحرامَ ، أو يعظِّم الجرح الصغير . بل ربَّما ضحك وتبسَّم ، فأغْرَى وحَرَّض ، وأثِم وأوبق . قال بعض الشعراء[2] :

فإن شئتُ أدلَى فيكما غير واحدٍ مجاهرةً أو قال عندى فى سِرِّ

فإنْ أنا لم آمُرْ ولم أنه عنكما ضحكتُ له حتى يَلَجَّ ويستشرى ٦٣ ظ

وقالت العرب[3] : « من كُفِيَ شرَّ لَقلقهِ وذَبذَبهِ وقَبقَبهِ فقد كُفِيَ الشرّ » .

وهذا بابٌ لولا أن نَشغلَ القارئَ لهذا الكتاب بغير ما قصدنا إليه وعزمْنا عليه لأتينا عليه . وهو كثير موجودٌ لمن طَلبه ، وجملةٌ واحدة فيها

(١) فى الأصل : « بها » .

(٢) هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود . الحيوان ١ : ١٤ — ١٥ ومجالس ثعلب ١٧ —١٨ وأمالى المرتضى ١ : ٣٩٨ والأغانى ٨ : ٩١و ١٣ : ١٠ وجمع الجواهر ٣ والمحبر ٢٩٧ — ٢٩٨ .

(٣) هو حديث ضعيف ، أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير ٩٠٧٣ . وانظر البيان ٣ : ٢٧٢ ومجالس ثعلب ٥٤٠ .

كفاية ؛ فإنّما تختلف الألفاظ التى تُجعَل كسوةً لتلك المعانى . وإلاَّ فإنّك إذا نظرتَ إلى جميع شُرور الدُّنيا وجدت أوّلها كلمة عَارت فجَنَتْ حرباً عواناً[١] ، كحرب بكر وتغلب ابنَىْ وائل ، وعَبسٍ وذُبيان ابنى بَغيض ، والأوس والخزرج ابنى قَيْلَة ، والفِجار الأوّل والثانى ، وعامّة حروب العرب والعجم .

وإذا تأمّلتَ أخبارَ الماضين لم تُحصِ عددَ من قتَلهُ لسانُه وكان هلاكُه فى كلمةٍ بدرَتْ منه .

وليس العجب ممن أفضَى بسرِّه إلى من ليس له بموضعٍ ، ممَّن تقدَّمت معرفته وزالت الشُّكوك عنه فى أمره ؛ ولكنَّ العجبَ عينَ العجب ممن استنام بسرِّه إلى من لم تَقدُم معرفتُه ومن أنس إليه عن اللِّقاءة واللِّقاءتين[٢] ، دونَ معرفة العَين والاسم ، والسَّبب والنَّسب ، فانخدعَ فى أوّل وهلة وغُبن عقلَه قبل أن يُغبَن دينه وماله ، وتضاعفت عليه البليّة بطول الحسرة ؛ فإنَّ البلاءَ عارضٌ ومكتسب ، فكانَ العارضُ السَّماوىّ وما خوَّلته الأقدار سرًّا بعد اجتهاد صاحبه رأيَه ، وحيلته فى طلب الخير . وصوابُ تدبيره فيه أسهلُ وأيسر على العاقل المعتاد للصواب ، وإن كان كل مكروه مرًّا بشِعاً . وإنّما الكربُ اللازم والداء العَياء ما اجتمع على صاحبه مع الفجيعة والحاجة ، والنَّقص والذِّلّة ، غمُّ النَّدامة والأسفُ على مافرط منه ؛ إذ كان الجانىَ على نفسه بيده .

---

(١) الحرب العوان : التى قوتل فيها مرة بعد مرة . عارت : أفلتت وذهبت على وجهها . « غارت » ، تصحيف .

(٢) فى الأصل: «اللغاة واللغاتين» . وفى ط : « عن اللقاء واللقائين » ، والوجه ما أثبت . وانظر لكلمة « اللقاءة » شرح الرضى للشافية ١ : ١٨٧ — ١٧٩ .

ولهذا الكلام نظرٌ نَكره التطويلَ به ، والمعنى واحدٌ ، وإنّما نحتاج من هذا ومثلِه ـ ممّا قدّمنا ذكره فى الكتاب ـ إلى حفظ السرّ ووزن القول. وإلى هذا أجرَينا ، وله قصدْنا .

ولو اقتصرنا فى هذا الكتاب على حرفٍ مما فيه ، لكان بإذن الله كافياً لمن له لُبٌّ وعقل ، لكنّ الاحتجاج أوكَد ، والإيضاحَ أبلغ ، والحظَّ فى هذا القول كلِّه لمن عقَله والآخِذِ به ، أوفرُ [منه[1]] لمن قاله ولم يعمل بقوله ؛ لأنّه إنما يجتنى ثمرة الصواب ، ويَختْلِف برَفَقِهِ[2] من صدَّق قولَه بفعله ؛ فإنّ الحكمة قول وعمل ، وإنّما حظُّ القائل ما لم يستعمل علمه وقولَه حظُّ الواصفين ؛ وحُسنُ الصِّفة يزول بزوالها ، وينقطع بانقطاعها ؛ ومدَّتُها ـ إلى أن يملَّها القائل والسامع ـ يَسيرة . ٦٤ و

والأفعال المحمودة متَّصلة النفع والشَّرف والفضيلة فى الحياة وبعد الوفاة ، ومذخورٌ[3] للأعقاب ، وحديثٌ جميلٌ ، ونشرٌ باقٍ على مرِّ الجديدَين . وأكثر من ذلك كلِّه توفيقُ الله وتسديده ؛ فإنّ القلوبَ فى يده ، والخيراتِ مقسوماتٌ من عنده . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

* * *

---

(١) ليست فى الأصل .

(٢) الاختلاف : الاستقاء . والرفق ، بالتحريك : الماء القصير الرشاء السهل المطلب .

(٣) ط : « ومذخورة » ، خلافاً لما فى الأصل

تم كتاب كتمان السر من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، بعون الله وتأييده ، ومشيئته وتوفيقه . والله الموفِّق للصَّواب برحمته .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامُه .

٤

كِتَابُ

فَخْرِ السُّودَانِ عَلَى البِيضَانِ

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هى الرسالة الرابعة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« كتاب فخر السودان على البيضان »

ومن هذه الرسالة نسخ :

١ — نسخة الأصل ، وهى نسخة مكتبة داماد ، فى ضمن مجموعة رسائل الجاحظ .

٢ — نسخة ڤان ڤلوتن المنشورة فى ليدن ١٩٠٣ ، ورمزها « ن » .

٣ — نسخة الساسى ، ورمزها « س » .

وقد سبق التنبيه على أن هذه الرسالة فى الأصل هى الرسالة الخامسة ، ولكن تكرار الرسالة الثانية بجعلها الرابعة فى الأصل كان سببا فى تغيير أرقام الرسائل بالنقص ، كما اضطرنا إلى أن نتخطى أرقام الأصل فى الرسالة المكررة ، ونثبت الأرقام التى بعدها على جوانب النسخة ، فتبدأ هذه الرسالة بصفحة (٧٨ ظ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

تولاك الله وحفظك ، وأسعدك بطاعته ، وجعلك من الفائزين برحمته . ٧٨ ظ

ذكرت ـ أعاذك اللهُ من الغشِّ ـ أنَّك قرأتَ كتابى فى مُحاجَّة[1] الصُّرحاء للهُجَناء ، وردِّ الهُجَناء ، وجواب أخوال الهجناء ، وأنِّى لم أذكر فيه شيئاً من مفاخر السُّودان[2] . فاعلمْ حفِظَك الله أنِّى إنَّما أخَّرت ذلك متعمِّداً .

وذكرتَ أنَّكَ أحببتَ أن أكتب لك مفاخرَ السُّودان ، فقد كتبتُ لك ما حضَرنى من مفاخرهم .

قال الأصمعىّ : قال الفِزْرُ عبدُ فزارة[3] وكانت فى أذنه خُرَبَة[4] : إنَّ الوِئام[5] يتـترَّع فى جميع الطَّمْش[6] : لا يَقرب العنز الضَّأن ما وجدت

---

(١) فى ن ، س : « محاكمة » .

(٢) الكلام بعده إلى كلمة « السودان » التالية ساقط من ن ، س .

(٣) النص فى الحيوان ٢ : ٢٤٠ ـ ٣٤١ محرفاً . وفيه « الغرير عبد بنى فزارة » .

(٤) الخربة بالباء : ثقب شحمة الأذن؛ يقال عبد أخرب وأمة خرباء . وفى قول ذى الرمة :

كأنه حبشى يبتغى أثراً أو من معاشر فى آذانها الخرب

وفى ن ، س : « خرتة » ، والخرتة بالتاء تكون فى الحديد من الفأس والإبرة. وانظر ما سيأتى فى ص ١٩٨ .

(٥) فى جميع الأصول : « الأوام » ، صوابه ما أثبت . وانظر ما سيأتى من الكلام على الرجز التالى . والوئام : الوفاق .

(٦) الطمش : الناس ، يقال ما أدرى أى الطمش هو ، أى الناس . وقد =

الماعز[١] ، وتنفر الشّاءُ من المِخلب ولا تأنس بالخُفّ[٢]

وأنشد أبو زَيدٍ النَّحويُّ :

* لولا الوِئامُ هلكَ الإنسانُ[٣] *

وقال شدّادٌ الحارثيُّ[٤] ـ وكان خطيباً عالماً ـ : قلتُ لأمةٍ سوداءَ بالبادية : لمن أنتِ ياسوداء ؟ قالت : لسيِّد الحَضَر يا أصلع . قال : قلت أو لستِ سوداءَ ؟ قالت : أو لستَ أصلع ؟ قلت : ما أغضبكِ مِن الحق . قالت : الحقُّ أغضبَك ، لا تشتُمْ حتّى تُرهَب[٥] ، ولَأَنْ تتركَه أمثلُ .

وقال شدّاد : لقد كلَّمتها وأنا أظنُّ أنِّى أفِى بأهل نجد[٦] ، وما نَزَعَتْ عنِّى إلاَّ وأنا عِندَ نفسى لا أفى بأَمَتِى .

وقال الأصمعيّ : قال عيسى بن عمر : قال ذو الرُّمَّة : قاتل اللهُ أمةَ آلِ فلانٍ السَّوداء ، ما كان أفصحَها وأبلغَها ! سألتُها كيف كان المطر عندكم ؟ قالت : غِثْنا ما شئنا[٧] .

= عنى بالطمش هاهنا الخلق من إنسى ووحشى . والترع : التسرع . وفى الحيوان : « يسرع » وفى ن ، س : « ينتزع » .

(١) فى الأصل : «ماوجبت» ، صوابه من الحيوان ، وبذلك صححت فى س ، ن .

(٢) فى الحيوان : « ولا تتأنس » .

(٣) فى الأصل : « الأوام » تحريف . صوابه فى المخصص ١٢ : ١٥١ والغريب المصنف ٣٨٨ . وانظر للمثل أساس البلاغة (وأم) وأمثال الميدانى ٢ : ١١١ .

(٤) فى الأصل : « وكان» ، صوابه فى البيان ٢ : ٧١ حيث الخبر .

(٥) فى البيان : « لا تسبب » ، من السبب .

(٦) أى فى الفصاحة ، ويقال وفى به ، أى عادله ووازنه .

(٧) البيان ٢ : ٧١ ومجالس ثعلب ٣٤٨ .

مناقب السودان

أنّ لقمانَ الحكيمَ منهم ، وهو الذى يقول : ثلاثة لا تعرفهم إلاّ عند ثلاثة : الحليم عند الغَضَب ، و الشُّجاع عند الخوف ، والأخُ عند حاجتك .

وقال لابنه : إذا أردتَ أن تخالطَ رجلاً فأغضِبْه قبل ذلك ، فإنْ أنصفَك وإلاَّ فاحْذَره .

ولم يَرْوُوا ذلك عنه إلاَّ وله أشياء كثيرة[١] . وأكثرُ من هذا مَدْحُ الله إيّاه وتسميتُه الحكيمَ ، وما أوصى به ابنَه .

ومنهم : سعيد بن جُبَير[٢] ، قتله الحجَّاج قبل موته بستّة أشهر وهو ٧٩ و
ابن تسعٍ وأربعين سنة ، ومات الحجّاج وهو ابن ثلاث وخمسين سنة . وكان سعيدٌ أوْرعَ الخَلْق وأتقاهم ، وكان أعظمَ أصحابِ ابن عبَّاس . وأصحابُ الحديث يطعنون فى الذى يجىء من قِبَل أصحاب ابن عباس حتى يَجِىء [من[٣]] سعيدِ بن جُبير . وأبوه مولَى بنى أسد ، وهو مولى بنى أميّة ، وقُتِل يومَ قُتِلَ والناسُ يقولون : كلُّنا محتاجٌ إليه .

ومنهم : بلالٌ الحبشىُّ رضى الله عنه ، الذى يقول فيه عمر بن الخطاب

---

(١) انظر أقواله بتتبع فهارس البيان ، والحيوان ، وعيون الأخبار ، والتمثيل والمحاضرة وغيرها .

(٢) كان من موالى والبة ، وهم بطن من أسد بن خزيمة ، ولذا يقال فى نسبه : الأسدى الوالبى ، وهى نسبة ولاء . قتله الحجاج صبرا سنة ٩٥ . تهذيب التهذيب .

(٣) ليست فى الأصل .

رضى الله عنه : إن أبا بكرٍ سيِّدُنا وأعتَق سيِّدَنا[١] ، وهو ثُلث الإسلام .

ومنهم : مِهْجَع[٢] ، وهو أوّل قتيلٍ قُتِل بين الصَّفّين فى سبيل الله .

ومنهم : المقداد[٣] ، وهو أوّلُ من عدا به فرسُه فى سَبيل الله .

ومنهم : وحشىٌّ[٤] قاتلُ مُسيلمةَ الكذّاب . وكان يقول : قتلتُ خيرَ الناس – يعنى حمزةَ بنَ عبد المطّلب رضى الله عنه – وقتلتُ شرَّ الناس – يعنى مُسيلِمةَ الكذّاب .

ومنهم : مكحولٌ الفقيه[٥] .

ومنهم : الحَيقُطان الشّاعر[٦] ، الذى كان يَفضُل فى رأيه وعقله وهِمّته . وهو الذى يقول فى الإخوان : لا تعرفُ الأخَ حتّى ترافقَه فى الحضَر ، وتُزامِلَه فى السَّفَر .

---

(١) العثمانية للجاحظ ٣٢ ، ١٨٠ .

(٢) فى الأصل : « عفجع » ، صوابه فى السيرة ٤٩٠ والإصابة ٨٢٥٥ ومحاضرة الأوائل للسيوطى ٤٨ . وهو مولى عمر ، قال ابن هشام : « وكان أول قتيل من المسلمين بين الصفين يوم بدر » .

(٣) المقداد بن الأسود الكندى ، كان أبوه عمرو بن ثعلبة حليفا لكندة فتزوج منهم امرأة فولدت له المقداد ، فلما كبر المقداد وقع شر بينه وبين أبى شمر الكندى فضرب رجله بالسيف وهرب إلى مكة فحالف الأسود بن عبد يغوث الزهرى ، وتبناه الأسود فعرف به أولا ، فلما نزلت « ادعوهم لآبائهم » رجع إلى نسبه فقيل المقداد بن عمرو . توفى فى خلافة عثمان سنة ٣٣ . الإصابة ٨١٧٩ .

(٤) وحشى بن حرب الحبشى ، مولى بنى نوفل .

(٥) يبدو أنه من سودان النوبة ، ففى تهذيب التهذيب أنه كان لرجل من هذيل من أهل مصر فأعتقه . ويقال كان من الفرس ، واسم أبيه سهراب . توفى سنة ١١٢ .

(٦) ذكره فى البيان ١ : ١٣٠ ، ٣٢٨ . قال الجاحظ : « وكان خطيباً لا يبارى » . وأصل معنى الحيقطان طائر الدرّاج ، أو الذكر منه .

ومنهم : جُليبيبٌ(١) الذى تحدَّثت الرُّواةُ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجَ فى غزاةٍ فقال لأصحابه : هل تَفقِدونَ من أحد ؟ قالوا : نفقد فلاناً وفلاناً . ثم خرج فقال : هل تَفقِدون من أحد ؟ قالوا : نفقد فلاناً وفلاناً . ثم خرج فقال : هل تَفقدون من أحدٍ ؟ قالوا فى الثالثة : لا . قال : لـكنِّى أفقد جُليبيبًا ، اطلبوه . فطلبوه فوجدوه بين سبعةٍ قد قَتَلَهُمْ ثمَّ قُتِل . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « قَتَلَ سبعةً ثمَّ قتلوه . هذا منِّى وأنا منه » . قال : ثمَّ حمَلَه على ساعدَيهِ حتَّى حفَروا له ، ماله سَريرٌ غير ساعدَىْ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم . قال : ولم يذكروا غُسْلًا .

ومنهم : فرجٌ الحجَّام(٢) وكان من أهل العَدالة ، والمقدَّمين فى الشَّهادة . ٧٩ ظ
أعتقه جَعفر بن سُليمان ؛ وذلك أنَّه خدَمه دهرًا يُصلح شاربَه ولحيتَه ويهيِّئه ، فلم يره أخطأَ فى قولٍ ولا عمل ، فقال : واللهِ لأمتحننَّه ، فإنْ كان ما أرى منه عن تدبيرٍ وقصدٍ لَأُعتِقنَّه ولَأُزوِّجنَّه ولَأُغنِينَّه . وإن كان على غير ذلك عرفتُ الصُّنعَ فيه . فقال له ذاتَ يوم وهو يحجمه : يا غلامُ ، أتحتجم ؟ قال : نَعم . قال : ومتى ؟ قال : عند الحاجة . قال : وتعرفُ ذلك ؟ قال : أعرفُ أكثرَه وربَّما غلِطت . قال : فأىَّ شىء تأكل ؟ قال : أمَّا فى الشتاء

---

(١) تصغير جلباب . ذكر ابن حجر فى الإصابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجه أنصارية ، ونزل فى قصته قوله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » . الأحزاب ٣٦ . وكانت أمها أبت أن تزوجها من جليبيب بعد خطبة الرسول إياها لجليبيب . تفسير ابن كثير ٣ : ٤٨٩ — ٤٩٠ .

(٢) الخبر فى الحيوان ٧ : ٢٦١ — ٢٦٢ .

فدا كبراه[١] خاثرة حلوة . وأمّا فى الصّيف فسِكباجةٌ حامضة عذبة[٢] . فبلغ به جعفر بن سليمانَ ما قال . وهو الذى يقول فيه أبو فرعون[٣] :

خــلُّوا الطَّريقَ زوجتى أمامى   أنا حميمُ فرجِ الحجّــــامِ[٤]

قال : وبلغ من عدالته ونُبله فى نفسه وتوقِّيه ووَرَعه ، أنّ مواليَه من ولد جعفرٍ وكبارَ أهلِ المِربد ، كانوا لا يطمعون أن يُشْهدوه إلّا على أمرٍ صَحيح لا اختلاف فيه .

وأمّا الحَيقُطان فقالَ قصيدةً تحتجُّ بها اليمانية على قُريش ومضر ، ويحتجُّ بها العجم والحَبشُ على العرب ، وكان جريرٌ رآه يومَ عيدٍ فى قميص أبيضَ وهو أسود ، فقال :

---

(١) كذا . وفى الحيوان : « فديجبريجة » . وفى كتاب الطبيخ للبغدادى ١٢ « ديكبريكة » . قال : «وصنعتها أن يقطع اللحم وسطاً ، ويترك فى القدر، ويلقى عليه يسير ملح وكف حمص مقشور ، وكسفرة يابسة ورطبة ، وبصل مقطع ، وكراث ، ويطرح عليه غمره ماء ويغلى ، ثم تؤخذ رغوته ويلقى عليه خل خمر ومرى ، ويلقى فيه فلفل مسحوق ناعما ويطبخ حتى يبين طعمه . ومن الناس من يحليه بقليل سكر » . وقل محققه داود الجلبي أن اسمه مأخوذ من الآرامية ومعناه الديك المبارك .

(٢) السكباج ، ويقال له الخلية ، والمخللة ، والصفصافة ، وهو لحم يعالج بالخل والتوابل ونحوها ويضاف إليه أحيانا الزعفران والسذاب . انظر صنعته فى كتاب الطبيخ للبغدادى ص ٩ — ١٠ ومحاضرات الراغب ١ : ٢٩٢ .

(٣) ذكره الجاحظ أيضا فى الحيوان ٦ : ٧٨ . وذكره ابن النديم فى الفهرست ٢٣٣ فى جماعة من الشعراء المقلين وقال « أبو فرعون الشاشى . ثلاثون ورقة » يعنى أن شعره فى ثلاثين ورقة . وانظر بعض أخباره وشعره فى طبقات الشعراء لابن المعتز ٣٧٦ — ٣٧٩

(٤) فى الأصل : « أنا حمام » ، صوابه فى الحيوان ٧ : ٢٦٢ .

كأنه لما بدا للنـــــاسِ أيرُ حمـــارٍ لُفَّ في قرطاسِ[١]

فلما سمعَ بذلك الحيقطانُ وكان باليمامة ، دخل الى منزله فقال هذا الشعر :

لئن كنتُ جَعـدَ الرَّأسِ والجلدُ فاحمٌ
فإنِّى لَسَبْطُ الـكفِّ والعـرضُ أزهرُ[٢]

وإنَّ ســــوادَ اللَّون ليس بضائرى
إذا كنتُ يومَ الرَّوع بالسَّيف أخطِرُ

فإن كنتَ تبغى الفخرَ فى غـير كنهه
فرهطُ النَّجاشى منـك فى الناس أفخرُ[٣]

تأبَّى الُجلَنْـدَى وابنُ كسرى وحارثٌ ٨٠ و
وهَـــوذةُ والقِبطىُّ والشيخُ قيصرُ

وفاز بهـا دونَ الملوك سعادةً
فـدامَ له الملكُ المنيعُ المـوفّرُ

ولقمان منهم وابنـه وابنُ أمِّه
وأبرهـةُ المَلْكُ الذى ليس يُنكَرُ

غزاكم أبو يكســومَ فى أمِّ داركم
وأنتم كقِبْصِ الرَّملِ أو هو أكثرُ[٤]

---

(١) لم يرد البيت فى ديوان جرير .

(٢) أزهر : أبيض نقى . (٣) كنه الشىء : حقيقته .

(٤) القبص : العدد الكثير ، يقال : إنهم لفى قبص الحصى . وقال الكميت :
لكم مسجدا الله المزوران والحصى لكم قبصه من بين أثرى وأقترا
وفى الأصل : « فيض » ، تحريف .

وأنتم كطَيرِ المـاءِ لمَّا هوى لها ... ببلقعةٍ ، حُجنُ المخالبِ أكدرُ(١)
فلو كان غيرُ الله رامَ دفاعه ... علمتَ وذوالتَّجريب بالناس أخبرُ(٢)
وما الفخرُ إلَّا أن تبيتوا إزاءه ... وأنتم قريبٌ ناركم تتسـعَّرُ
وَيدلُف منـكم قائد ذو حفيظة ... نُـكافحه طورًا وطـورا يدبَّر
فأما التى قُلتم فتلـكم نُبـوَّة ... وليس بكم صُونَ الحرامُ المستَّرُ(٣)
وقلتم لَقَـاحٌ لا نؤدِّى إتاوةً ... فإعطاء أَريانٍ من الفَرِّ أيسرُ(٤)
ولو كان فيها رغبـةٌ لمتوَّجٍ ... إذًا لأتتها بالمقَاول حمـيرُ(٥)
وليس بها مشتًى ولا متصيَّف ... ولا كجُؤاثَا ماؤها يتفجَّـرُ(٦)

---

(١) حجن المخالب ، أى حجن مخالبه . و«أل» بدل من الضمير والحجن : جمع أحجن ، وهو المعوج . وفى الأصل : « حجر » تحريف .

(٢) أى هم قوم لايستطيع أحد دفاع فخرهم ومجدهم فأنت لو حاولت هذا الدفاع علمت عاقبة ذلك .

(٣) أى صين البيت الحرام ذو الستور . وصون : لغة فى صين ، وهى لغة بنى فقعس وبنى دبير ، كما فى قوله :

* ليت شبابا بوع فاشتريت *

وقلتم ، لعلها « نلتم » .

(٤) اللقاح ، كسحاب : القوم لم يدينوا للملوك ولم يصبهم فى الجاهلية سباء والأريان ، بالفتح : الخراج والإتاوة . كما فى اللسان (أرى) . وفى ن ، س : « أربان » بالباء ، وليس بشىء ، فإنه بمعنى العربون . وأراد : أيسر من الفر .

(٥) فى الأصل « لانها » بهذا الإهمال . والمقاول : جمع مقول ، بالكسر ، وهو القيل الملك من ملوك حمير .

(٦) جؤاثا ، ويقال جؤاثاء أيضا : حصن لعبد القيس بالبحرين .

ولا مرتعٌ للعين أو متقنَّص ولـكنَّ تَجرًا ، والتجارةُ تُحقَر
ألستَ كُليبيًّا وأمُّك نعجــةً لـكم فى سِمان الضَّأن عارٌ ومَفخرُ

أما قوله :

تأبَّى الُجلنــدَى وابنُ كسرى وحارثٌ
وهـــــوذةُ والقبطىّ والشيخُ قَيصرُ

فإنّه يقول : كتبَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم إلى بَنى الُجلندَى[1] فلم يُؤمنوا وكذلك كسرى ، وكذلك الحارث بن أبى شَمِر ، وكذلك هَوذة بن على الحَنَفىّ ، وكذلك المقوقس عظيم القبطِ صاحبُ الإسكندرية ، وكذلك قيصرُ ملك الرُّوم. على أنَّ بنى الجُلَندَى قد أسلموا من بعد ذلك الـكتابِ ، ولـكنَّ النَّجاشىَّ أسلمَ قبل الفتح ، فدام له ملـكُه ونزع الله من هؤلاء النِّعمة . وقيصر إنْ كانَ قد بقى من ملـكه شىء فقد أخرجوه من كلِّ مكانٍ يبلغُه ظِلْفٌ أو حافر ، ٨٠ ظ
وصار لا يتمنَّع إلَّا بالخليج وبالعِقاب والحصون[2] وبالشِّتاء والثُّلوج والأمطار .

ونَخرَ بلقمان وابنه .

وأمّا قوله :

غــــزاكم أبو يكسومَ فى أمِّ داركم
وأنتم كقِبْص الرَّمل أو هــو أكثر[3]

(١) وكذا ورد فى أصول الحيوان ١ : ٩٨ ، والمعروف أنهما ابنا الجلندى ، ففى السيرة ٩٧١ : « وبعث عمرو بن العاص السهمى إلى جيفر وعياذ ، ابنى الجلندى الأزديين ملـكى عمان . ومثله فى الإصابة ١٣٠٥ .

(٢) العقاب : جمع عقبة وهى الجبل الطويل يعرض للطريق فيأخذ فيه .

(٣) فى الأصل : « كقيض الرمل » . وانظر ماسبق فى حواشى ١٨٣ .

فإنّه يَعنى صاحب الفيل حين أتى مكّةَ ليهدم الكعبة . يقول : كنتم في عدد الرّمل ، فلِمَ فررتمْ منه ولم يلقَه أحدٌ منكم حتّى أفضى إلى مكّة ، ومكّةُ أمّ القُرى ، ودارُ العربِ ، هي جزيرةُ العرب ، ومكة قريةٌ من قراها ، ولكنْ لما كانت أقدمَها قِدَما ، وأعظمَها خطرًا ، جُعلت لها أمًّا . ولذلك قيل لفَتْح مكّة : فَتْحُ الفُتوح . وعلى مثل ذلك سمِّيت فاتحةُ الكتاب : أمَّ الكتاب .

والعرب قد تجعل الشيءَ أمَّ مالم يَلِدْ . من ذلك قولهم : ضرَبه على أمِّ رأسه ، وكذلك أمّ الهاوية[1] . والضَّيف يسمى ربّةَ منزلِهِ أمَّ مَثواىَ .

وقال أعرابيٌّ وقد أصابته براغيثُ عند امرأةٍ كان نزل بها[2] :

يا أمَّ مثواىَ عدِمتُ وجهكِ   أنقذَنى ربُّ العُلَا من مصركِ

ولذعِ بُرغوثٍ أُراه مُهلكِي   أبيتُ ليلى دائبَ التحكّكِ[3]

* تحكّكَ الأجربِ عند المبركِ *

وقد أبان الله تعالى مكةَ والبيتَ حين قال : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ[4] ﴾ .

---

(١) كذا . وفى الكتاب العزيز : « فأمه هاوية » . وهاوية والهاوية اسم من أسماء جهنم . وقيل معنى فأمه هاوية ، أى أم رأسه تهوى فى النار ، قال ابن برى : لو كانت هاوية اسما علما للنار لم ينصرف .

(٢) الرجز التالى فى الحيوان ٥ : ٣٩١ .

(٣) فى الحيوان : « دائم التحكك » .

(٤) الآية ٩٦ من سورة آل عمران ،

يقول : فإذا غُزِيت ـ وهى أمُّ القرى وفيها البيتُ الحرام الذى هو شرفُكم ـ فقد غُزِى جميعُكم[١] .

وأمّا قوله :

وأما التى قُلتم فتلكم نبــوّةٌ   وليس بكم صُونَ الحرامُ المستَّرُ

[وقلتم لَقَاحٌ لا نؤدّى إتاوةً   فإعطاء أريانٍ من الفرِّ أيسرُ[٢]]

فاللَّقاح : البلد الذى لا يُؤدِّى إلى الملوك الأَريان[٣] . والأَريان : هو الخراج ، وهو الإتاوة . وفى ذلك يقول عَبيد بن الأبرص :

أبَوْا دِينَ المُلوك فهــم لَقَاحٌ   إذا نُدِبوا إلى حــربٍ أجابوا

قال : فقلتم إنَّا لَقاحٌ ولسنا نؤدّى الَخراج والأَريان . ٨١ و

قال : فإعطاء الخراج أهونُ من الفِرار وإسلامِ الدار وأنتم مثلُ عددِ مَنْ جاءكم المرارَ الكثيرة .

وأمّا قوله :

وليس بها مَشْتًى ولا متصيَّف   ولا كجُــؤاثَا ماؤُها يتفجَّرُ

يقول : ليس فى الغَلَبة على مكَّة رغبة ، ولولا ذلك لغزاها أهلُ اليمن وغيرُهم . وليس بها مشتًى ولا متصيَّف ؛ لأنهم يتبرَّدون بالطائف ويتدفَّوْن بجُدَّة . وجُؤاثا : عينٌ بالبحرين . وليس بمكّة شيء يدانى ذلك .

---

(١) فى الأصل : « غزا جميعكم » .

(٢) لم يرد هذا البيت فى الأصل ، والكلام التالى يتعلق به .

(٣) انظر ماسبق فى الحاشية الرابعة من ص١٨٤ . والكلمة واضحة فى الأصل بالياء المثناة .

وقال :

ولا مرتعٌ للعَين أو متقنَّص ولـكنَّ تَجراً والتِّجارة تُحقَرُ

يقول : ليس بها متنزَّهات ، وصَيدُها حرام ، وإنَّما بها تُجَّار والتُّجَّار يُحقَرون . يقول : هم عند الناس فى حدِّ الضعف ولا يستجيز ملِكٌ أَخْذَ الذى به يتعيَّشون ، ولا يكون ما يُؤخذ منهم يقوم بنوائب الملوك[1] ، وهم قومٌ ليس عندهم امتناعٌ . ولذلك يقول الشاعر معاوية بن أوس ، وهو جاهلىٌّ[2] :

وزِقٍّ سـبأتُ لدَى مَتجرٍ أُسَيوِدَ كالرَّجـل الأسحَمِ[3]

ضربتُ بفيـــهِ على نحره وقائمُهُ كـيدِ الأجذَمِ

إلى التَّــاجر العربىّ الشحيـ ـح أو خَمرِ ذى النَّطَف الطِّمطِمِ[4]

أراد بهذا كلِّه قريشاً[5] . يقول : هم تُجّار وقد اعتصموا بالبيت ، وإذا خَرجوا علَّقوا عليهم المُقْل ولحاء الشَّجر[6] حتَّى يُعرفوا فلا يقتلهم أحد .

---

(١) يعنى حاجاتهم ونفقاتهم . وأصل النائبة ماينوب الإنسان أى ينزل به من المهمات والحوادث .

(٢) هو معاوية بن أوس بن خلف التميمى ، وهو ابن أبى حارثة المرى . ترجم له المرزبانى فى معجمه ٣٩٢ وذكر له أبياتا أخرى من هذه القصيدة .

(٣) وقع فى ن ، س : « ورزق » ، تحريف . والزق : السقاء ، وهو أيضا ماتنقل فيه الخمر . وسبأ الخمر : اشتراها ، أو حملها من بلد إلى آخر .

(٤) الشحيح : البخيل ، يعنى أنه يغالى فى ثمن الخمر . والنطف ، بالتحريك: جمع نطفة وهى القرط . قال الأعشى :

يسعى بها ذو زجاجات له نطف مقلص أسفل السربال معتمل

والطمطم : الأعجمى الذى لايفصح .

(٥) فى الأصل ، و ن ، س : « قريش » .

(٦) أشير فى الأصل إلى أنها فى نسخة « السمر » . هذا وليس فى نص الشعر المتقدم مايقتضى هذا التفسير من تعليق المقل ولحاء الشجر .

وأما قوله :

ألستَ كليبيًّا وأمُّك نعجةٌ لكم في سِمان الضَّأن عارٌ ومفخرُ

فإنّ بني كُليبٍ يُرمَون بإتيان الضَّأن ، وكذلك بنو الأعرج ، وسُليم . وأشجعُ تُرمَى بإتيان المَعْز .

وقال النَّجاشيّ : ٨١ ظ

ولو شتمتني من قُريشٍ قبيلةٌ سِوى ناكةِ المِعزى سُليمٌ وأشجعُ

وقال الفرزدق :

ولستُ مضَحِّيًا ما دمتُ حيًّا بشاةٍ من حَلوبةِ أعرجيٍّ(١)

فما أدرى إذا أنفقتُ مالى لعلَّ الشاةَ تُبقَر عن صبيٍّ(٢)

وقال الآخر :

إذا أحببت أن تُغْلِي أتانًا فدُلَّ الدارمىَّ على شِراها

يُقبِّل ظهرَها ويكاد لولا فُحول الظَّهر يدنو من قفاها

ووَدَّ الدارِمىُّ لوَ أنَّ فاه إذا نال الحمارَةَ نال فاها(٣)

وقال عبد بن رشيد :

قبيلةُ سَوءٍ خَيرهم مثلُ شرِّهم ترى منهمُ للضأن خلاً وراعيا

إذا جُلِيتْ فيهم عروسٌ لبعلها ترى النَّعجةَ البَقعاءَ أبكى البواكيا(٤)

(١) البيتان مما لم يرو فى ديوان الفرزدق .

(٢) تبقر : يشق بطنها . وفى الأصل : « تبعر » .

(٣) فى الأصل ، س «الحمار ينال» . وفى ن : «تنال فاها» ، والوجه ماأثبت .

(٤) فى الأصل : « عروسا » .

ولذلك قال الأخطل :

فانعَقْ بضأنك ياجريرُ فإنّما منّتكَ نفسُكَ فى الخَلاء ضلالا[١]

ولذلك قال الحَيقُطان :

ألستَ كليبيًّا وأمُّك نعجةٌ لها فى سِمان الضَّأن عارٌ ومفخرُ

أمَّا العار فالذى شاع عليهم من ذِكر النِّعاج . وأما المْفخر يقول : إذا فَخَروا فخروا بالشَّاء ، ولا يبلغون إلى حدِّ الإبل .

ومن مفاخر السُّودانِ والزِّنج والحبَش مع ما ذكرنا من قصيدة الحيقطان ، أنَّ جرير بن الخطَفَى لمّا هجا بنى تَغلبَ [و[٢]] قال :

لا تَطلُبَنَّ خُؤولةً فى تَغلبٍ فالزِّنجُ أكرمُ منهمُ أخوالا[٣]

غَضِب سنيح بن رَباح[٤] شار[٥] ، فهجا جريراً ، وفخر عليه بالزِّنج فقال :

ما بالُ كلبٍ من كُليبٍ سبَّنا أن لم يُوازن حاجباً وعِقالا[٦]

(١) ديوان الأخطل ٥٠ وابن سلام ٤٢٩ واللسان (نعق) . وفى الأصل « فانعم » ، تحريف .

(٢) ليست فى الأصل .

(٣) ديوان جرير ٤٥٣ والبيان ٤ : ٨٢ والكامل ٥١٤ .

(٤) فى الكامل ٥١٤ : « رياح بن سنيح الزنجى مولى بنى ناجية » . ويقال أيضا رباح بن سبيح، وسبيح بن رباح ، كما فى اللسان (طول) . وقال ابن الأثير فى الكامل ٤ : ١٦١ فى ذكر فتنة الزنج أيام مصعب بن الزبير : « وجعلوا عليهم رجلا اسمه رباح ، ويلقب شيرزنجى ، يعنى أسد الزنج » .

(٥) فى الأصل « سار » ، وإعجامه مما سيأتى . وفى الحيوان ١ : ٢٧٠ : « السارنجى » . وفى ٧ : ٢٠٥ : « الشارزنجى » .

(٦) فى الأصل : « توازن » ، صوابه فى الكامل واللسان . يعنى جريرا =

إنَّ امرأً جَعلَ المراغةَ وابنَها ... مثـلَ الفرزدق جائر قد فالا[١]

والزِّنجُ لو لاقيتَهم فى صفِّهم ... لاقيتَ ثَمَّ جَحاجحاً أبطالا ٨٢ و

فسلِ ابنَ عمرٍو حين رامَ رماحهم ... أرأى رماح الزِّنج ثَمَّ طِوالا

فجعــوا زياداً بابنِهِ وتنـازلوا ... لمـا دُعُوا لنِزَالِ ثَمَّ نِزالاَ[٢]

ومربِّطين خيولَهم بفِنـائهم ... ورَبطتَ حولَكَ شيِّها وسِخالا[٣]

كان ابن نَدبَة فيكمُ من نجلنا ... وخُفافٌ المتحمِّلُ الأثقالا

وابنَا زُبَيبةَ : عَنترٌ وهَراسـةٌ ... ما إن نرى فيكمْ لهم أمثـالا

سَلْ ابنَ جَيفر حين رام بلادنا ... فرأى بغزوتهم عليه خَبـالا

وسُلَيكٌ اللَّيثُ الهِزَبرُ إذا عَدا ... والقَرْمُ عَبّـاسٌ عَلوكَ فَعـالا

هذا ابن خازمٍ ابنُ عَجْلَى منهمُ ... غلبَ القبـائل نجـدةً ونَوالا

أبنـاء كلِّ نجيبـةٍ لنجيبـة ... أُسْدٌ تُربِّب عنــدَها الأشبالا

فلَنحنُ أنجبُ من كُليبَ خُؤولةً ... ولَأنت ألأمُ منهم أخـوالا

وبنو الحُبَابِ مَطَاعن ومَطاعم ... عند الشِّتاء إذا تَهبُّ شَمَالا[٤]

= وجاء فى قول الأخطل (ديوانه ٥٠ وابن سلام ٤٢٩) مخاطباً لجرير :

منتك نفسك أن تـكون كدارم ... أو أن توازن حاجباً وعقالا

وحاجب هو حاجب بن زرارة بن عدس بن زيد بن عبـد الله بن دارم ، من رهط الفرزدق ، وكثيراً ما افتخر به . وأما عقال فهو جد الفرزدق ، فإن اسمه همام ابن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم .

(١) المراغة : الأتان ، وهو لقب لقبها به الفرزدق ، كما فى القاموس . فال ، بالفاء : أخطأ رأيه وضعف . وفى الأصل : « قالا » تصحيف .

(٢) زياد ، هو والد حفص بن زياد بن عمرو .

(٣) الشيه ، كسيد : جمع شاة . وفى الأصل : « اشا ا » تحريف .

(٤) فى الأصل : « الختات » ، ولـكن تعقيب الجاحظ فيما بعد ، يعين أنه « الحباب » .

أما ابن عمرٍو الذى ذَكَر ، فهو حَفْص بن زياد بن عمرٍو العَتَكىّ ، كان خليفةَ أبيه على شُرطة الحجاج ، فغَلبَ رَباح شار الزِّنجى[1] على الفُرات ، فتوجَّه إليه حفص بن زيادٍ فقتلَه رَباحٌ وقتلَ أصحابه واستباح عسكره .

وأمّا ابنُ جيفر فهو النُّعمان بن جَيفر بن عُباد بن جَيفر بن الجُلنَدى . كان غزا بلادَ الزِّنج فقتلُوهُ وغَنِموا عسكره .

ثم ذكر أبناءَ الزِّنجيات حين نَزَعوا إلى الزِّنج فى البَسالة والأنفة[2] . فذكر خُفافَ بن نَدبة ، وعبّاسَ بن مِرداس ، وابنَىْ شدّادٍ : عنترةَ الفوارسِ وأخاه هَرَاسة ، وسُليكَ بن السُّلَكة . فهؤلاء أُسدُ الرجال ، وأشدُّهم قلوباً وأشجعهم بأساً ، وبهم يُضرب المثل .

ومنهم: عبدالله بن خازمٍ السُّلَمى، وبنو الُحباب : عُمير بن الُحبابِ وإخوتُه[3] .

٨٢ ظ وكان أيضاً منهم : الجَحَّاف بن حَكيم[4] .

وهم أيضاً يفخرون بَرَباحٍ أخى بلال وحالِه وصلاحِه .

ويفخرون بعامر بن فُهيرة[5] ، بدرىٌّ استُشهِد يومَ بئر مَعُونة ، فرآه الناسُ قد رفعه اللهُ بين السَّماء والأرض ، فليس له فى الأرض قبر .

---

(١) انظر ما سبق فى حواشى ص ١٩٠ .

(٢) فى الأصل : « فى الأصالة والأنفس » ، والوجه ما أثبت .

(٣) انظر الاشتقاق ٣٠٨ ، ٣٣٩ . وجمهرة ابن حزم ٣٦٤ ، ٣٠٥ .

(٤) الاشتقاق ٣٠٨ ، وجمهرة ابن حزم ٢٦٤ .

(٥) كان مولى لأبى بكر الصديق ، ولذا جاء فى نسبته التيمى . انظر الإصابة ٤٤٠٨ ، وقال ابن هشام : عامر بن فهيرة مولى من موالى الأسد ، أسود ، اشتراه أبو بكر رضى الله عنه منهم . السيرة ١٦٤ . فكأنه أزدى وتيمى .

أما ابن عمرٍو الذى ذَكَر ، فهو حَفْص بن زياد بن عمرٍو العَتَكىّ ، كان خليفةَ أبيه على شُرطة الحجاج ، فغَلبَ رَباح شار الزِّنجى[١] على الفُرات ، فتوجَّه إليه حفص بن زيادٍ فقتلَه رَباحٌ وقتلَ أصحابه واستباح عسكره .

وأمّا ابنُ جيفر فهو النُّعمان بن جَيفر بن عُباد بن جَيفر بن الجُلنَدى . كان غزا بلادَ الزِّنج فقتلُوهُ وغَنِموا عسكره .

ثم ذكر أبناءَ الزِّنجيات حين نَزعوا إلى الزِّنج فى البَسالة والأنفة[٢] . فذكر خُفافَ بن نَدبة ، وعبَّاسَ بن مِردَاس ، وابنَىْ شدّادٍ : عنترةَ الفوارسِ وأخاه هَرَاسة ، وسُليكَ بن السُّلَكة . فهؤلاء أُسدُ الرجال ، وأشدُّهم قلوباً وأشجعهم بأساً ، وبهم يُضرب المثل .

ومنهم: عبدالله بن خازمٍ السُّلَمى، وبنو الحُباب : عُمير بن الحُبابِ وإخوتُه[٣] .

٨٢ ظ وكان أيضاً منهم : الجَحَّاف بن حَكيم[٤] .

وهم أيضاً يفخرون بَرَباحٍ أخى بلال وحالِه وصلاحِه .

ويفخرون بعامر بن فُهيرة[٥] ، بدرىٌّ استُشهِد يومَ بئر مَعُونة ، فرآه الناسُ قد رفعه اللهُ بين السَّماء والأرض ، فليس له فى الأرض قبر .

(١) انظر ما سبق فى حواشى ص ١٩٠ .

(٢) فى الأصل : « فى الأصالة والأنفس » ، والوجه ما أثبت .

(٣) انظر الاشتقاق ٣٠٨ ، ٣٣٩ . وجمهرة ابن حزم ٣٦٤ ، ٣٠٥ .

(٤) الاشتقاق ٣٠٨ ، وجمهرة ابن حزم ٢٦٤ .

(٥) كان مولى لأبى بكر الصديق ، ولذا جاء فى نسبته التيمى . انظر الإصابة ٤٤٠٨ ، وقال ابن هشام : عامر بن فهيرة مولى من موالى الأسد ، أسود ، اشتراه أبو بكر رضى الله عنه منهم . السيرة ١٦٤ . فكأنه أزدى وتيمى .

وجَرَتْ[١] أحكامُنا فى ذلك أجمع . وهزمْنا ذا نُوَاسٍ ، وقَتَلْنا أقيالَ حمير . وأنتم لم تملكوا بلادنا . وقد قال شاعركم :

وخـــــرّب غُمدانًا وهـــدَّم سَقفَه
رِيَاطٌ بأجنادٍ وصولتُــــــهُ هَصْرُ[٢]

أطافت به الأُحبـــوش ليلًا فقوّضوا
بِنًا شدَّهُ الأقيـــالُ فى سالفِ الدَّهرِ[٣]

بجَمعٍ من اليَـكسومِ سُــودٍ كأنّهم
أُسودُ الشَّرَى اجتابتْ جلودًا من النُّمرِ[٤]

قالوا : ومنا كباجلا ، لم يصعد نهر سليمان ولا قاتلَ فى المخارجات[٥] أحدٌ قطُّ يشبهُه .

---

(١) ن ، س : « ومرت » .

(٢) رياط ، يعنى به أرياط الحبشى . وفى السيرة ٢٦ : « وبينون وسلحين وغمدان من حصون اليمن التى هدم أرياط ، ولم يكن فى الناس مثلها » . وانظر الإكليل للهمدانى ٨ : ٣٩٥ . وفى الأصل وسائر النسخ : « رباط » ، تحريف . وفى البيت إقواء ظاهر .

(٣) الأحبوش : الحبش . والبنا : مقصور البناء . وفى ن ، س : « بنا شدة » تحريف .

(٤) اليكسوم ، أراد بهم الحبشة . والأصل فى ذلك كنية أبرهة الأشرم ، إذ كان يكنى أبا يكسوم ، ويكسوم اسم ابنه كما فى التنبيه والإشراف ص ٢٢٦ والسيرة ٤٢ . وفى ذلك يقول لبيد ، وهو يعنى أبرهة ، كما فى اللسان (كسم) :

لو كان حى فى الحياة مخلدا فى الدهر ألفاه أبو يكسوم

(٥) يعنى بها المبارزات ، وهو أن يخرج كل من الفارسين لصاحبه فيبارزه .

قالوا : ومنَّا الأربعون الذين خَرجوا بالفُرات أيَّام سَوَّار بن عبد الله القاضى ، فأجلَوْا أهلَ الفُرات عن منازلهم، وقتلوا من أهل الأُبُلَّة مقتلةً عظيمة . ٨٣ و

قالوا : ومنَّا الذى ضربَ عنقَ عيسى بن جعفر بعُمَان ، بمنجلٍ بَحرانىّ[1] ، بعدَ أن لم يَجسُر عليه أحد .

قالوا : والناسُ مجمِعون على أنَّه ليس فى الأرض أمّةٌ السَّخاء فيها أعمٌّ ، وعليها أغلب من الزِّنج . وهاتان الخلَّتانِ لم تُوجدا قطُّ إلَّا فى كريم .

وهى أطبع الخَلْق على الرَّقص الموقَّع الموزون ، والضَّرب بالطَّبل على الإيقاع الموزون ، من غير تأديبٍ ولا تعليم .

وليس فى الأرض أحسنُ حُلوقًا منهم . وليس فى الأرض لغةٌ أخفُّ على اللِّسان من لغتهم ، ولا فى الأرض قومٌ أذربُ ألسنةً ، ولا أقلُّ تمطيطًا منهم .

وليس فى الأرض قومٌ إلَّا وأنت تصيب فيهم الأرَتَّ والفَأفاء والعَيِيّ[2]، ومَن فى لسانه حُبسة ، غيرهم .

والرجل منهم يخطُب عنـد الملِك بالزِّنج من لدنْ طلوع الشَّمس إلى غروبها ، فلا يستعينُ بالتفاتةٍ ولا بسَكتةٍ حتَّى يفرغ من كلامه .

وليس فى الأرض أمّةٌ فى شِدّة الأبدان وقُوّة الأسرِ أعمُّ منهم فيهما[3] . وإنّ الرّجلَ ليرفعُ الحجرَ الثَّقيل الذى تَعجِز عنه الجماعة من الأعراب وغيرهم. وهم شجعاء أشداء الأبدان أسخياء . وهذه هى خصال الشرف .

---

(١) البحرانى : نسبة إلى البحرين .

(٢) الأرت : الذى فى لسانه عقدة وحبسة ، يعجل فى كلامه فلا يطاوعه لسانه .

(٣) فى الأصل : « فـيها » .

[والزنجىّ[1]] مع حُسن الُخلق وقلّة الأذى ، لا تراه أبدًا إلّا طيّب النفس ، ضَحوكَ السّنّ ، حسنَ الظّنّ . وهذا هو الشرف .

وقد قال ناسٌ : إنَّهم صاروا أسخياءَ لضعف عُقولهم ، ولقصر رَويَّاتهم ، ولجهلهم بالعواقب .

فقلنا لهم : بئس ما أثنيتم على السَّخاء والأُثَرة ، وينبغى فى هذا القياسِ أن يكونَ أوفرُ النّاسِ عقلًا وأكثرُ النّاس علمًا أبخلَ النّاس بُخلًا وأقلَّهم خيرا .

وقد رأينا الصَّقالبةَ أبخلَ من الرُّوم ، والرُّوم أبعد رويّةً وأشدُّ عقولا . وعلى قياس قولكم أنْ قد كان ينبغى أن تكون الصَّقالبةُ أسخَى أنفُسًا وأسمحَ أكُفًّا منهم .

وقد رأينا النِّساء أضعفَ من الرّجال عُقولًا ، والصِّبيانَ أضعفَ عقولا منهم ، وهم أبخلُ من النِّساء ، والنِّساء أضعفُ عقولًا من الرجال . ولو كان ٨٣ ظ العقل كلّما كان أشدَّ كان صاحبُه أبخل ، كان ينبغى أن يكون الصبىُّ أكرمَ الناس خصالًا[2] . ولا نعلم فى الأرض شرًّا من صبىّ[3] : هو أكذبُ النّاسِ وأنمُّ النّاسِ ، وأشرهُ النَّاسِ وأبخَل النّاس ، وأقلُّ الناس خيرًا وأقسى الناسِ قَسوة .

وإنَّما يخرج الصبىُّ من هذه الخلال أوّلًا فأوّلًا ، على قدر ما يزداد من العقل فيزداد من الأفعال الجميلة .

(١) ليست فى الأصل .

(٢) ن : « خصلا » خلافا لما فى الأصل .

(٣) انظر البيان ١ : ٢٤٧ والحيوان ٣ : ٤٧١ .

فكيف صار قلّةُ العقل هو سببَ سخاء الزّنج ، وقد أقررتم لهم بالسّخاء ثم ادّعيتم ما لا يُعرف . وقد وقّفناكم على إدحاض حجتكم فى ذلك بالقياس الصّحيح .

وهذا القول يوجب أن يكون الجبانُ أعقلَ من الشُّجاع ، والغادر أعقلَ من الوفىّ . وينبغى أن يكونَ الجزوعُ أعقلَ من الصّبور . فهذا ما لا حُجّةَ فيه لكم ، بل ذلك هبةٌ فى النّاس من الله . والعقلُ هبةٌ ، وحسن الخلق هِبة ، والسّخاء والشجاعة كذلك .

وقد قالت الزّنج للعرب : من جهلكم أنّكم رأيتمونا لكم أكفاء فى الجاهلية فى نسائكم ، فلمّا جاء عَدلُ الإسلام رأيْتمُ ذلك فاسداً ، و [ما][1] بنا الرّغبة عنكم[2] . مع أنّ الباديةَ منّا ملأى[3] ممّن قد تزوّج ورأس وساد ، ومَنَع الذّمار ، وكَنَفكم من العدوّ .

قال : وقد ضَربتُم بنا الأمثالَ وعظّمتم أمرَ ملوكنا ، وقدّمتموهم فى كثيرٍ من المواضع على ملوككم . ولو لم تَرَوُا الفضلَ لنا فى ذلك عليكم لَمَا فعلتم .

وقال النّمر بن تولب :

أتى ملكَه ماأتَى تُبّعًا وأبرهةَ الملكَ الأعظما[4]

فرفَعه على ملوك قومه .

---

(١) ليست فى الأصل .

(٢) فى ن : « وبنا الرغبة عنكم » ، وفى س : « ونبت الرغبة عنا »

(٣) فى الأصل و ن : « ملاء » ، والوجه ماأثبت مطابقا لتصرف ناشر س .

(٤) العينى ١ : ٥٧٥ وشرح شواهد المغنى للسيوطى ٧٦ والخزانة ٤ : ٤٣٨ .
ويروى : « فأدركه » .

وقال لبيد بن ربيعة :

لو كان حيٌّ فى الحيــاة مخلَّدًا فى الدَّهر أدركَه أبو يَــكْسُومِ[١]

وهذا شىءٌ من وصف الفضل لم يوصف أحدٌ بمثله .

قالوا : وممـا[٢] قدَّمتم به ملوكَنا على ملوككم قوله[٣] :

٨٤ و غَلبَ الليالى خلفَ آلِ مُحرِّق وكما فعلنَ بتُبّع وبهــــرْقَلِ

وغلبنَ أبرهة الذى ألفيتَـــه قد كان خُلِّد فوق غُرْفةِ مَوْكَلِ[٤]

فقدَّم أبرهة وأراد التَّسوية[٥] .

قالوا : ومن الحَبَشة عُــكَيمٌ الحبشىّ[٦] ، وكان أفصح من العجَّاج . وكان علماء أهلِ الشام يأخذون عنه كما أخذَ علماء أهل العراق من المنتجع بن نَبْهان . وكان المنتجعُ سِنديًّا فى أذنه خُرْبة[٧] ، وقع إلى البادية وهو صبىٌّ ، فخرجَ أفصحَ من رُؤْبة .

---

(١) أبو يكسوم : كنية أبرهة الأشرم الحبشى . انظر ماسبق فى حواشى ص ١٩٤ ديوان لبيد ٨٣ . أدركه أى أدرك التخليد .

(٢) فى الأصل : « وما » .

(٣) يعنى قول لبيد . انظر ديوانه والإكليل ٨ : ١٠٨ ، ٢١٦ والتيجان ٧٦ . وفى الأصل : « قولكم » ، تحريف

(٤) موكل ، كمرحب : موضع باليمن ، كما فى معجم البلدان . وانظر صفته فى الإكليل ٨ : ١٠٦ .

(٥) يعنى التسوية بين العرب والعجم . وبعد البيت :

والحارث الحراب أمسى قاطنا دارا أقام بها ولم يتحلحل

(٦) انظر القاموس (عكم) .

(٧) انظر ماسبق فى ص ١٧٧

ولما[1] قال حَكِيم بن عيّاشٍ الكلبيّ[2] :

لا تفخرَنَّ بخالٍ من بنى أسد فإنَّ أكرمَ منها الزِّنج والنُّوبُ

اعترضَ عليه[3] عُكَيمٌ الحبشيّ ، فقال :

ويوم غُمْدانَ كنَّا الأُسدَ قد علموا
ويومَ يثربَ كنَّا فِحْلةَ العربِ
وليلةَ الفيل إذْ طارت قلوبهمُ
وكلُّهم هاربٌ مُوفٍ على قَتبِ
منّا النَّجاشِي وذو العقصين صهركمُ
وجدُّ أبرهةَ الحامى أبى طَلَبِ[4]
هَبْنِى غفرتُ لعدنانٍ تَهكُّمهمْ
فَمَا لحميرَ والقوال فى النسب
حَمَّارة جُمعت من كلِّ محربةٍ
جَمْعَ الشُّبيكة نُونَ الزَّاخر اللَّجِبِ[5]

---

(١) فى الأصل : « فلما » .

(٢) ترجم له ياقوت فى معجمه ١٠ : ٢٤٧ وذكر أنه كان بينه وبين الكميت ابن زيد الأسدى مفاخرة

(٣) اعترض عليه ، ى دخل معه فى الشعر متمما ماقاله .

(٤) ذو العقصين . نعى به الإسكندر المقدونى الملقب بذى القرنين ، كان له فى رأسه شبه قرنين ، أى عقصتين . والعقص : ضرب من ضفر الشعر . وكان الروم أصهارا للعرب .

(٥) سيأتى فى تفسير حاحظ أن حمير كانت حمارة . ومحربه ، كذا وردت فى الأصل ، وستأتى فى ص٢٠٢ سم « محزوة » والنون : السمك ، واحدته نونة . وهو الحوت أيضا

غُمدان : حصنٌ كانَ ينزلهُ الملكُ الذى يكون على اليَمَن ، وكان عجَميًّا ، فلما ملكت الحبشةُ اليمنَ أخربتْهُ إلّا بقايا هدمَها عثمان بنُ عفّانَ رضى الله عنه فى الإسلام . وقال : « ينبغى لمآثر الجاهليّة أن تُمحَى » . وكان فى الحصن مَصنعةٌ عليها قُبّةٌ من طَلْق، وفيها يقول خلَفٌ الأحمر :

ومَصنعة الطِّلْق أودَى بهـــا عَوادى الأحابيش بالصَّيدنِ[1]

وفيها يقول قُدامة حكيمُ المشرق[2] ، وكان صاحبَ كيمياء :

فأوقد فيهـــا نارَه ولوَ انّها أقامت كعمر الدهر لم تتصرَّمِ

لأنَّ الطِّلْق لو أُوقِدَ عليه ألفَ عامٍ لم يسخُن . وبه يتطلَّى النّفّاطُون إذا أرادوا الدُّخول فى النار . ٨٤ ظ

وقال لبيد :

أصاحِ ترَى بُرَيقًا هبَّ وهنًـا كمِصباح الشَّـــعِيلة فى الذُّبالِ

أرِقتُ له وأنجدَ بعــــد هَدءٍ وأصحــابى على شُعَب الرِّحال

يُضىء رَبابُه فى المزن حُبشًـــا قياماً بالِحـراب وبالإلالِ[3]

---

(١) المصنعة : شبه صهريج يتخذ للماء . والطلق ، بالكسر وبالفتح : حجر براق يتشظى صفائح إذا دق . والصيدن : الملك . قال رؤبة :

إنى إذا استغلق باب الصيدن لم أنسه إذ قلتَ يوما وصنى

(٢) فى الأصل وسائر النسخ : «قدامة بن حكيم المشرقى » ، وأثبت مافى الحيوان ٥ : ٩٥ . وقد يكون قدامة هذا جدا لقدامة بن جعفر بن قدامة .

(٣) فى الأصل : « رباوة » تحريف ، صوابه فى ديوان لبيد ١٢٤ . والرباب : السحاب الذى تراه كأنه متدل ، كأنه أعناق النعام . والإلال : جمع أَلَّة ، وهى الحربة . وفى الأصل : « وباللآلى » ، صوابه فى الديوان .

وقال ذلك لبيدٌ لأنَّهم إذا أقبلوا بحرابهم ورماحهم وقِسِيِّهم وسيوفهم ، وراياتهم ، وخيولهم وفيولهم ، مع سَواد ألوانهم وضِخَم أبدانهم ـ رأيتَ هَؤْلَا لم ترَ مثلَه ولم تسمعْ به ، ولم تتوهَّمْه .

وأمّا قوله :

* ويومَ يثربَ كنَّا فِحلةَ العربِ *

فإنَّ مُسرفَ بن عُقْبة المرّيَّ[1] ، حين كانَ أباحَ المدينَة ، زعموا أنَّه قد كان هناك أمرٌ قبيحٌ من السودان والجند، وفى ذلك يقول شاعر من شعراء مُضر :

فسائلْ مُسرفَ المُـرِّيَّ عنكم غداةَ أباحَ للجند العَــذارِي[2]
فمـازَجَـكم على حَنَــق زنوجٌ وفَزَّ الشَّامُ كالأُسد الضَّوارى[3]
ودَافَعَ وَهْرِزٌ والفــرسُ عنكم ورأسُ الحُبْش يحكُم فى ذَمارِ[4]
فأفسدَ نسلَـكم بسوادِ لونٍ وأيرٍ مثلِ غُرمولِ الحمــارِ

---

(١) مسرف لقب له ، لقب به لما كان من إسرافه فى سفك الدماء وانتهاك حرمة المدينة وانتهابها فى وقعة الحرة سنة ٦٣ حين بعثه بجيش إلى المدينة يزيد بن معاوية وأمره بهتك حرمتها . واسمه مسلم بن عقبة ، وبهذه الصورة ورد فى البيان ٢ : ١٣١ . وانظر الطبرى ٧ : ٥ — ١٢ والنجوم الزاهرة ١ : ١٦٠ — ١٦٢ . توفى مسرف أو مسلم سنة ٦٤ . وذكر الذهبي أنه أدرك النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) فى النجوم الزاهرة أنه قد افتض فى وقعة الحرة ألف عذراء . والعذارى بكسر الراء ، كما يقتضيه الشعر ، وهى لغة فى جمع عذراء ، ومثلها العذارى بفتح الراء .

(٣) فز الرجل يفز فزازة وفزوزة : توقد .

(٤) وهرز : قائد فارسى أرسله كسرى أنو شروان مع سيف بن ذى يزن الحميرى ، منجدا له على الحبشة حين غلبت على اليمن . وذمار ، كقطام وسحاب : بلد باليمن على مرحلتين من صنعاء .

فذكر إباحةَ الحَبَش لليمن كما ذكر إباحةَ مسرفٍ للمدينة .

وأمّا قوله :

حَمّارة جُمعت من كلّ محـزوة   جمع الشُّبيكة نون الزاخر اللَّجبِ[1]

فإنّه ذهبَ إلى ما تقول الرُّواة أنَّ حِميرَ كانت حَمّارة .

وأمّا الشُّبيكة فأراد الشبكة .

وقال السُّودان : فهذا الفضلُ فينا ، ولم يصلِّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم قطُّ إلّا على جنازةٍ أو قبر ، إلّا النّجاشيّ فإنّه صلَّى عليه وهو بالمدينة وقبرُ النَّجاشيّ بالحبشة .

قالوا : والنجاشيُّ هو كان زوّجَ أمَّ حَبيبة بنتَ أبي سفيان من النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ودعا خالدَ بن سعيدٍ[2] فجعله وليَّها ، وأصدقَ عن النبيِّ
٨٥ و صلّى الله عليه وسلّم أربعمائة دينار[3] .

قالوا : وثلاثة أشياءَ جاءتـكم مِنْ قِبَلنا . منها الغاليةُ ، وهي أطيبُ الطِّيب وأفخرُه وأكرمُه . ومنها النَّعْش وهو أسترُ للنِّساء وأصْوَنُ للحُرَم . ومنها المصحف ، وهو أوقَى لما فيه وأحصَنُ له ، وأبهى وأهيأ .

---

(١) في الأصل : « خمارة » : وكذا في التفسير بعده . وانظر ما سبق في ص ١٩٩ .

(٢) هو خالد بن سعيد بن العاصي ، رابع المسلمين أو خامسهم ، بعثه رسول الله إلى ملك الحبشة في رهط من قريش . السيرة ٢٠٩ والإصابة ٢١٦٣ .

(٣) كانت أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ــ واسمها رملة ــ زوجاً لعبيد الله ابن جحش ، ولدت منه حبيبة وهاجرت معه إلى الحبشة ، فتنصر زوجها عبيد الله=

قالوا : ونحن أَهوَلُ في الصُّدور وأملا للعيون ، كما أنَّ المسوِّدة أهْوَلُ في العُيون وأملا للصُّدور من المبيِّضة[١] ، وكما أنَّ الليلَ أهولُ من النهار .

قالوا : والسَّوادُ أبداً أهول . وإنَّ العربَ لتَصِفُ الإبل فتقول : الصُّهب سُرع ، والحُمْر غُزْر ، والسُّود بُهْى[٢] . فهذا في الإبل .

قالوا : ودُهم الخَيل أبهى وأقوى ، والبَقَر السُّود أحسَنُ وأبهى ، وجلودُها أثمن وأنفع وأبقى . والحُمُر السُّود أثمَنُ وأحسَنُ وأقوى . وسُود الشَّاءِ أدسَمُ ألباناً وأكثَر زُبداً، والدُّبْس أغْزر من الحُمْر[٣] .

وكلُّ جَبلٍ وكلُّ حجرٍ إذا كانَ أسودَ كان أصلبَ صلابةً وأشدَّ يُبوسة . والأَسَد الأسود لا يقوم له شيء .

وليس من التَّمر شيءٌ أحلى حلاوةً من الأسْوَد ، ولا أعمَّ منفعة ولا أبقى على الدَّهر . والنَّخِيل أقوى ما تكونُ إذا كانت سُودَ الجذوع .

= وارتد عن الإسلام . فبعث فيها رسول الله إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري فخطبها عليه النجاشي . الإصابة ٤٣٢ من قسم النساء والسيرة ١٤٤ ، ٨٨٣ .

(١) كان السواد شعار العباسيين السياسي ، وقد بدأ التسويد في سنة ١٢٩ أي قبل قيام الدولة العباسية بثلاث سنوات . الطبري ٩ : ٨٢ . وفي سنة ٢٠٢ جعل المأمون علي بن موسى بن جعفر ولي عهده وأمر جنده وأصحابه بطرح السواد ولبس الخضرة في الأقبية والقلانس والأعلام . الطبري ١٠ : ٢٤٣ . وكان هذا الأمر من أسباب الثورة على المأمون والانقسام في طوائف الموالين للعباسيين . وفي تلك السنة أيضاً وثب أخو أبي السرايا بالكوفة فبيض ، فهم المبيضة . الطبري ١٠ : ٢٤٥ . ومن المبيضة أيضاً أصحاب المقنع الكندي انظر صحاح الجوهري (بيض) .

(٢) انظر مثل هذا القول لحنيف الحناتم ، وكان من آبل الناس أي أحذقهم برعية الإبل ، في اللسان (بها ١٠٧) .

(٣) الدبس : جمع أدبس ودبساء ، وهو مالونه الدبسة : حمرة مشربة سوادا .

وجاء : « عليكم بالسَّوادِ الأعظَم[١] » . وقال الأنصاريّ :

أَدِينُ وما دَينى علىَّ بمغْــــــرَمٍ
ولـكنْ على الشُّمِّ الطِّوال القَــراوِحِ[٢]

على كلِّ خَــــوّارٍ كأنَّ جذوعَهـا
طُلِينَ بقـارٍ أو بدمٍّ ذبائح[٤]

قالوا : وأحسَنُ[٥] الخُضرة ماضارَع السَّواد . قال الله جلّ وعلا : ﴿ ومِنْ دُونِهما جَنّتانِ[٦] ﴾ ، ثم قال لمَّا وصَفَهما وشوّق إليهما : ﴿ مُدهامَّتانِ[٧] ﴾ قال ابن عباس : خَضراوانِ من الرّىّ سوْدَاوان .

وليس فى الأرض عودٌ أحسنَ خَشباً ولا أغلى ثمنًا ، ولا أثقلَ وزنًا ولا أسلمَ من القَوادح[٨] ، ولا أجدرَ أن ينشَب فيه الخطُّ من الآبنوس[٩] . ولقد بلغ من اكتنازه والتئامه ومُلوسته وشدّة تداخُلِه ، أنه يرسُب فى الماء

(١) فى اللسان (سود ٢١١) . « وفى الحديث : إذا رأيتم الاختلاف فعليكم بالسواد الأعظم » .

(٢) وكذا فى اللسان (خور) : وهو سويد بن الصامت الصحابى الجليل . انظر اللآلئ ٣٦١ والاقتضاب ٣٧٥ واللسان (قرح) والإصابة ٣٥٩٢ .

(٣) الشم : العاليات ، يعنى النخل . والقراوح : جمع قرواح ، وهو الأجرد الذى قد شذب كربه .

(٤) فى اللسان : « ونخلة خوارة : غزيرة الحمل » . ويروى : « أو بحمأة مائح » .

(٥) فى الأصل : « وحسن » .

(٦) الآية ٦٢ من سورة الرحمن . (٧) الآية ٦٤ من سورة الرحمن .

(٨) جمع قادح ، وهو أكال يقع فى الشجرة أو تصدع .

(٩) الآبنوس ، بضم الباء وكسرها : شجر ينبت فى الحبشة والهند ، خشبه أسود صلب . دخيل انظر المعجم الوسيط .

دونَ جميعِ العِيدان والخَشب . ولقد غَلب بذلك بعضَ الحجارة ؛ إذْ صار يرسُب وذلك الحجرُ لا يرسُب .

والإنسانُ أحسنُ مايكون فى العَين مادام أسودَ الشعر . وكذلك شعورُهم فى الجنّة . ٨٥ ظ

وأكرمُ مافى الإنسان حَدَقتاه ؛ وهما سوْداوان . وأكرم الأكحال الإثمِد ، وهو أسود . ولذلك جاء أنَّ الله يُدخل جميعَ المؤمنين الجنة جُردًا مُردًا مكحّلين .

وأنفع مافى الإنسان له كبدُه التى بها تَصلُح مَعِدته ، وينهضم طعامُه ، وبصلاح ذلك قامَ بدنُه ؛ والكبدُ سوداء .

وأنفسُ مافى الإنسان وأعزُّه سَويداء قلبه ، وهى عَلَقةٌ سوداء تكونُ فى جوف فؤاده ، تقوم فى القَلب مقامَ الدِّماغ من الرأس .

ومن أطيب ما فى المرأة وأشهاه شَفَتاها للتقبيل ، وأحسن ما يكونان إذا ضارعتَا السَّواد .

وقال ذو الرُّمّة :

لَمياءُ فى شَفَتيها حُوّةٌ لَعَسٌ وفى اللِّثاتِ وفى أنيابها شَنَبُ[1]

وأطيبُ الظِّلِّ وأبردُه ما كانَ أسود . وقال الراجز :

* سود غرابيب كأظلالِ الحجرْ *

---

(١) ديوان ذى الرمة ٥ واللسان (شنب) .

وقال حُميد بن ثور[١] :

ظَلِلنـــا إلى كهفٍ وظَلّت ركابُنا
إلى مستكِفّاتٍ لهنَّ غروبُ
إلى شجرٍ ألمى الظِّلالِ كأنّه
رواهبُ أحرَمْنَ الشَّرابَ عُذوبُ[٢]

وجعل الله اللّيلَ سكناً وجَماما ، والنَّهارَ للكسب والكدّ .

والذى يدلُّ على أنَّ السّوادَ فى وجهٍ آخرَ مقرونٌ بالشدّة والصَّرامة ، والهَيْج والحركة ، انتشار الحيّاتِ والعقارب وشدّةُ سُمومها باللّيل ، وهَيجُ السِّباع واستكلابُها باللّيل . وتحرُّكُ الأوجاعِ وظهورُ الغِيلان ، هذه كلُّها بالليل .

قال : وأشبْهنا اللَّيلَ من هذا الوجه .

قالوا : وأبلغ ما تكون القائلةُ وأشفاها للنَّفس ، وأسرع لمجيئها إذا أردتَها ، وأبطأ لذهابها إذا كرهتها ، ما كان منها فى الظُّلمة ، عند إسبال السُّتور وإغلاق الأبواب .

قالوا : وليس لونٌ أرسخَ فى جوهره وأثبتَ فى حُسنه من سَواد .

وقد جرى المَثَل فى تبعيد الشيء : « لا ترَى ذلك حتَّى يبيضَّ القار ، وحتّى يَشِيبَ الغُراب[٣] » .

---

(١) فى ديوانه ٥٧ واللسان (كفف ، حرم ، لما) والحيوان ٥ : ٥٩٤ .
(٢) عذوب : جمع عاذب ، وهو الذى لا يأكل ولا يشرب .
(٣) الحيوان ٥ : ٥٢٨ .

وهو العَرَض المَلاَّء[١] عند الحكماء .

وأكرمُ العِطر المِسك والعَنبر ، وهما أسودان .

وأصلبُ الأحجارِ سُودها . وقال أبو دَهبلٍ الجمحىُّ يمدح الأزرقَ ٨٦ و
المخزومىَّ ، وهو عبد الله بن عبد شمس بن المغيرة[٢] :

فإنَّ شكرك عندى لا انقضاء له   مادامَ بالجَزْع من لُبنانَ جُلمودُ
أنت المَدَّحُ والمُغلَى بِهِ ثمناً   إذْ لايعاتب صخرُ الجَندلِ السُّود[٣]

والعرب تَفخر بسواد اللَّون . فإنْ قال : فَعلامَ ذلك وهى تقول : فلانٌ هِجانٌ ، وأزهرُ وأبيض ، وأغرُّ ؟ قلنا : ليس تريد بهذا بياضَ الجلد ، إنَّما تريد به كرمَ الجوهر ونقاءه . وقد فخرَتْ خُضر محاربٍ بأنَّها سُود ، والسُّود عند العرب الخُضْر[٤] . وقال الشَّماخ بن ضرار :

وراحتْ رَوَاحًا من زَرُودَ فنازعَتْ
زُبالةَ جِلباباً من اللَّيـــــــل أخضرَا[٥]

(١) فى الأصل : « الملاه » ، صوابه من تصحيح ن ، س .

(٢) فى جمهرة ابن حزم ١٤٨ — ١٤٩ أنه عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله ابن الوليدبن عبدشمس بن المغيرة. ونحوه فى الشعراء ٥٩٦. وسماه فى الأغانى ٦ : ١٥٧ «ابن الأزرق» ، وهو عنده عبد الله بن عبد الرحمن بن الوليدبن عبد شمس بن المغيرة .

(٣) كذا . وفى الأغانى ٦ : ١٥٨ : « إذ لا تمدح صم الجندل » .

(٤) الحيوان ٣ : ٢٤٧ .

(٥) ديوان الشماخ ٣١ والحيوان ٣ : ٢٤٦

وقال الراجز :

حتَّى انتضانِي الصُّبح من ليــلٍ خَضِرْ
مثــلَ انتضاء البطل السيفَ الذَّكَرْ[١]

وهم يسمُّون الحديدَ أخضر لأنَّه صُلب[٢] ؛ لأن الأخضر أسود[٣] .

وقال الحارث بن حِلِّزَة :

إذْ رفَعنا الجمالَ من سَعَف البحـ ـرينِ سيراً حتّى نَهاها الحِساءْ
فهزمنا جمــعَ ابنَ أمٍّ قَطَام وله فارســيّةٌ خضراءْ[٤]

وقال المُحاربيّ وهو يفخر بأنَّه من الُخضْر :

فى خُضر قيسٍ نمانى كُلُّ ذى فَخَـــرٍ
صعبِ المقـــــادة آبى الضَّيم شعشاعِ

وبنو المغيرة خُضْر بنى مخزوم . قال عُمر بن عبد الله بن أبى ربيعةَ بنِ المغيرة المخزومىّ ـ ويقال إنّها للفضل بن العبّاس اللِّهْبى[٥] :

وأنا الأخضرُ مَن يَعرِفُنى أخضرُ الجلدةِ فى بَيت العربْ
مَن يساجلْنى يُساجِلْ ماجــداً يملأُ الدَّلوَ إلى عَقْد الـكَرَبْ

---

(١) فى الحيوان ٣ : ٢٤٦ : « حتى انتضاه » .

(٢) وجه الـكلام « مع أنه صلب » . وفى الحيوان ٣ : ٢٤٦ « وأصل الخضرة إنما هولون الريحان والبقول ، ثم جعلوا بعدُ الحديدَ أخضر والسماء خضراء » .

(٣) فى الأصل : « لأنه » . والوجه ما أثبت .

(٤) فى الأصل : « ابن أم قضاع » . وانظر المعلقات ٤٩٦ بشرح ابن الأنبارى . وابن أم قطام هو حجر بن الحارث والد امرىء القيس

(٥) انظر الحيوان ٣ . ٢٤٧ .

وخُضر غسّانَ بنو جفنةَ الملوكُ ؛ قال الغسّانىّ :

إنَّ الخضارمةَ الُخضر الذيْن وَدَوْا أهلَ البَريِص ثمانى منهمُ الحكمُ[(١)] ٨٦ ظ

وقد ذكر حسانٌ أو غيره الُخضْرَ من بنى عُكيم[(٢)] حين قال :

ولستَ من بنى هاشمٍ فى بيتِ مكرمةٍ
ولا بنى جُمَح الُخضْرِ الجلاعيدِ[(٣)]

قالوا : وكان ولد عبد المطلب العَشَرة السّادةَ دُلْمًا[(٤)] ضُخْمًا[(٥)] ، نظر إليهم عامرُ بن الطُّفيل يَطُوفون كأنّهم جمالٌ جُونٌ ، فقال : بهؤلاء تُمنع السِّدانة .

وكان عبد الله بن عباس أدلَمَ ضخما . وآلُ أبى طالبٍ أشرفُ الخلق ، وهم سُودٌ وأُدمٌ ودُلْم .

---

(١) الخضارمة : جمع خضرم ، بكسر الخاء والراء ، وهو السيد الحمول . وفى الحيوان: « الذين غدوا » . والبريص : اسم نهر دمشق حيث ملك الغساسنة . وفى الحيوان : « ثمان » .

(٢) فى القاموس (عكم) : « وكزبير : اسم » .

(٣) البيت من أبيات فى ديوان حسان ١٢٣ — ١٣٧ يهجو بها مسافع بن عياض التيمى ، أولها :

لو كنت من هاشم أو من بنى أسد أو عبد شمس أو اصحاب اللوا الصيد

وصدره فيه :

* أو فى السرارة من تيم رضيت بهم *

(٤) الدلم : جمع أدلم ، وهو الشديد السواد .

(٥) الضخم : جمع الأضخم . وفى اللسان : « قال ابن سيده : وأما قول أهل اللغة أضخم ، فالذى أتصوره فى ذلك أنهم لم يشعروا بالمفاضلة فى هذا البيت فجعلوه من باب أحمر . قال : ويدلك على المفاضلة أنهم لم يجيئوا به فى بيت ولا مثل مجرداً من اللام، فما علمناه من مشهور أشعارهم . على أن الذى حكاه أهل اللغة لا يمتنع » .

قالوا : وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بُعِثت إلى الأحمر والأسود » .

وقد علمتَ أنّه لا يُقال للزّنج والحبشة والنُّوبة بِيضٌ ولا حُمر ، وليس لهم اسمٌ إلّا السُّود .

وقد علمنا أنّ الله عزّ وجل بعث نبيَّه [إلى الناس(١)] كافة ، وإلى العرب والعجم جميعًا . فإذا قال : « بُعثت إلى الأحمرِ والأسود » ولسنا عنده حُمرٌ ولا بِيض ، فقد بُعث إلينا ؛ فإنما عنانا(٢) بقوله « الأسود » . ولا يَخرج الناسُ من هذين الاسمين ، فإن كانت العرب من الأحمر ، فقد دخلت فى عِداد الرُّوم والصَّقالبة ، وفارسَ وخُراسان . وإن كانت من السُّود ، فقد اشتقَّ لها هذا الاسم من اسمنا . وإنما قيل لهم وهم أدم وسمرٌ سودٌ ، حين دخلوا معنا فى جُملتنا ، كما يَجعلَ العربُ الإناثَ من الذكور ذكورا .

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أنّ الزِّنج والحبشةَ والنُّوبة ليسوا بحمرٍ ولا بِيض ، وأنّهم سُود ، وقد بعثه الله تعالى إلى الأسود والأحمر ، فقد جَعَلَنا والعربَ سواءً ، ونكونُ نحن السُّودَ دونهم . فإنْ كان اسمُ أسودَ وقع علينا فنحن السُّودان الخُلَّص ، والعربُ أشباهُ الخُلَّص . فنحن المتقدِّمون فى الدَّعوة . وإذًا كان اسمُهم محمولًا على اسمنا ؛ إذْ كنَّا وحدنا يقال لنا سُودٌ ، ولا يقال لهم سُودٌ إلّا أن يكونوا معنا .

قالوا : وأنتم ترون كثرةَ العدد مجدًا ، ونحن أكثر النّاس عددًا وولدا .

---

(١) موضع التكملة بياض فى الأصل .

(٢) فى الأصل : « عنا » . ووجهه ما أثبت من ن ، س .

قالوا : ونحنُ صِنفان : النَّمل والـكِلاب[١] .

قالوا : ولو عدلْتم بالنَّمل العرب كلَّها لأربَتْ عليها . فـكيف إذا قُرنت إليها الـكلاب ؟ ثم كيفَ إذا ضممتم إليها الحبشةَ والنُّـوبة وفَزَّان ومرو وزُغاوة[٢] وغيرَ ذلك من أنواع السُّودان ؟ ٨٧ و

وليست قَحطانُ من عدنانَ فى شيء . ونحن بالحبشة أشبَه ، وأرحامنا بهم أمسُّ مِن عدنانَ بقحطان . وإنْ ذكرتم اختلافَ اللُّغات ؛ فإنَّ لغةَ عَجُز هوازن[٣] ، وقد تختلف اللُّغاتُ والأصل واحد ، وقد تتَّفق والنَّجْر مختلف . ومَن دخَل أوائل خراسان وأواخرَها ، وأوائل الجبالِ وفارسَ وأواخرَها ، علِمَ أنَّ اللُّغاتِ قد تختلف لاختلاف طبائع البلدان والأصلُ واحد .

قالوا : وأنتم لم تَرَوُا الزَّنج الذين هم الزنجُ قطُّ ، وإنَّما رأيتُمُ السَّبْىَ يجىء من سواحل قنبلة[٤] وغياضِها وأوديتها ، ومن مهنتنا وسَفِلتنا وعبيدِنا ، وليس لأهل قنبلة جَمالٌ ولا عقول . وقنبلة : اسمُ الموضع الذى تُرفُون منه سُفُنَكم إلى ساحله . لأنَّ الزَّنج ضربانِ : قنبلة ولنجوية[٥] ، كما أنَّ العرب ضربان :

(١) انظر الحيوان ٤ : ٣٥ والبيان ٣ : ٥١ .

(٢) فى القاموس : « وزغاوة ، بالضم : جنس من السودان » . وانظر التنبيه والإشراف ١٩١ .

(٣) فى الـكلام نقص ، ولعل تتمته : « على خلاف لغة فصحاء الحجاز » . وانظر ما سبق فى مناقب الترك ص ١٠ .

(٤) فى التنبيه والإشراف ٥١ : « ويقرب من جبل القمر هذا كثير من أحواز الزنج ومساكنهم ، إلى أن يتصل ذلك ببلاد سفالة الزنج وجزيرة قنبلو ، وأهلها مسلمون » .

(٥) انظر البيان ٣ : ٥١ .

قَحطان وعدنان . وأنتم لم تَرَوا من أهل لنجوية أحدًا قطُّ ، لا من السَّواحل ولا من أهل الجوف[١] ، ولو رأيتموهم نسيتم الجمال والكمال .

فإنْ قلتم : وكيف ونحن لم نر زنجيًّا قطُّ له عقلُ صبيٍّ أو امرأة ؟

قلنا لكم : ومتى رأيتم من سَبْي السِّند والهند قومًا لهم عقول وعلم وأدب وأخلاق حتَّى تطلُبوا ذلك فيما سقط إليكم من الزنج . وقد تعلمون ما فى الهِنْد من الحساب وعلم النجوم وأسرار الطّبّ ، والخَرط والنَّجر ، والتَّصاوير والصناعات الكثيرة العجيبة ، فكيف لم يتَّفق لكم مع كثرة ما سَبيتم منهم واحدٌ على هذه الصِّفة ، أو بعُشْر هذه الصِّفة ؟

فإنْ قلتم : أهلُ الشَّرف والعَقْل والعلم إنَّما ينزلون الواسطة ، وبقرب دار الملك ، وهؤلاء حاشيةٌ[٢] وأعلاجٌ وأكَرَة ، ونُزَّال السَّواحِل والآجام والفيوض[٣] والجزائر ، من أكارٍ ومن صيّاد .

قلنا : وذلك مَن رأيتم ومن لم[٤] تَرَوْا منا . وجوابُنا هو جوابُكم لنا .

٨٧ ظ قالوا : ولو أنَّ الزِّنجيَّ والزنجيَّةَ إذا تناكحا بقيت أولادهما بعد الحيض والاحتلام ببلاد العراق ، كانوا قد غلبوا على الدَّار بالعدد والجَلَد ، والعلم والتدبير ، ولكنّ ولد الهنديِّ والهنديّة ، والروميِّ والروميّة ، والخراسانيّ والخراسانيّة ، يبقون فيكم وفى بلادكم كبقاء آبائهم وأمَّهاتهم ، ولا يبقى ولد

---

(١) فى الأصل : « الحوف » ، صوابه بالجيم كما صحح فى ن ، س .

(٢) فى الأصل : « حاشيته » .

(٣) فى الأصل : « والنفوض » .

(٤) فى الأصل : « ومالم» .

الزِّنجيّين بعد الحيض والاحتلام . على أنّا لا نُصيبُ فى عشرة آلافٍ ، واحدٌ يبلغ ما ذكرنا ، إلّا أن يَضرِبَ الزنجىُّ فى غير الزِّنجيات ، والزِّنجية فى غير الزِّنج . ولولا أنّ الزّنجىّ والزِّنجيّة قليلًا ما يريدان[1] من الغرائب والغرباء ، لكنّا على حالٍ[2] سنَرى لرجال الزِّنج نسلًا كثيرا . ولكنَّ الزنجية لا تكاد تنشَط لغير الزنجىّ .

قالوا : وكذلك البِيضانُ منكم ، لا يكادون ينشطون لطلب النَّسل من الزِّنجيات . والزِّنجية أيضاً من الزِّنجىّ[3] أسرعُ لِقاحًا منها من الأبيض .

قالوا : وأنتم لا تكادون تعدُّون ممَّن وُلِد له من صلبه مائةُ ولدٍ إلّا أن يكون خليفةً[4] ، فيكون ذلك لكثرة الطَّروقة[5] ، ولا تجدون ذلك فى سائركم . والزِّنج لا تستكثر هذا ولا تستعظمه ؛ لكثرته فى بلادهم ، لأنّ الزنجية تلد نحوًا من خمسين بطنًا فى نحو من خمسين عاما ، فى كلّ بطنٍ اثنين ، فيكون ذلك أكثر من تسعين . لأنّه يقال إنّ النساءَ لا يلدن إذا بلغن السِّتّين إلّا ما يحكى عن نساء قريشٍ خاصّة .

والزِّنج أحرص مَنْ خَلَقَ اللهُ على نسائهم ، ونساؤهم لهم كذلك ، وهنَّ أطيب من غيرهنّ .

قالوا : فتأمّلوا قولَنا واحتجاجنا ؛ فإنّا قد رَوينا الأخبار وقُلنا الأشعار ، وعرفناكم وعرفنا الأمم .

---

(١) حورت فى ن ، س إلى : « يلدان » .
(٢) ن ، س : « على كل حال » .
(٣) فى الأصل وسائر النسخ : « من الزنج » .
(٤) انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤٠ ، ٩٨ .
(٥) طروقة الفحل : أنثاه . والطروقة : الزوجة أيضاً .

وقد كان الفرزدقُ أعلمَ النَّاس بالنِّساء ، وكان قد جَرّب الأجناسَ كلَّها فلم يجدْ مثلهنّ ، ولذلك تزوج أم مكّيّة الزّنجيّة وأقامَ عليها ، وتركَ النِّساء ، للذى وجَد عندها . وفى ذلك يقول :

يا رُبَّ خَـوْدٍ من بنات الزِّنج   تَمشى بتنُّــورٍ شديدِ الوَهجِ
* أخثمَ مثلِ القَــدح الخَلَنْج *

وكانت دنانيرُ بنت كعبوية الزِّنجى عند أعشى سُليم ، وكانت شديدةَ السَّواد ، فرآها يومًا وقد خضبت يَدَيْها بالحنّاء ، واكتحلتْ بالإثمد ، فقال :

تخضب كفًّا بتكتْ من زندها   فتخضب الحِنّاء من مسوَدِّها(٢) ٨٨ و
كأنَّها والكُحلُ فى مِرودِّها(٣)   تكحلُ عينيها ببعضِ جِلدها

فلما سمعَتْ ذلك قالت :

وأقبَحُ من لونى سَـوادُ محِانِهِ   على بَشَرٍ كالقَلْب أو هو أنصع(٤)

فسمَّوه أسودَ ، وصاح به الصِّبيانُ فطلَّقها . وقد كان صبيحةَ عُرسها قال :

* إنَّ الدَّنانيرَ تـكون سُودا(٥) *

---

(١) ديوانه ١٤٣ والأغانى ١٩ : ٢١ .

(٢) نسب هذا الرجز فى الأغانى ١٨ : ٣٦ إلى دعبل الخزاعى . وفى الأغانى : « قطعت » بدل « بتكت » ، وكلاهما بمعنى .

(٣) المرود ، بتشديد الدال للشعر هو المرود الذى يكتحل به . وانظر لأمثال هذا التشديد مجالس ثعلب ٦٠٢ — ٦٠٤ .

(٤) البشر : جمع بشرة ، وهو ظاهر الجلد . والقلب ، بالفتح : جمار النخلة .

(٥) فى ن ، س : « سوداء » ، ولكن هكذا ضبطت « سودا » فى الأصل بضم السين وبدون الهمزة ، وهو شطر من الأرجاز .

فقالت :

بياضُ الرأس أقبح من سوادى وشَيب الحاجبَين هو الفُضوحُ

فأمسكَ عنها حينًا ثم عاودَها ، فلما فضحَتْه طلَّقها .

قالوا : وإنْ نَظر البِيضانُ إلى نساء السُّودان بغير عين الشهوة فكذلك السُّودان فى نِساء البيضان . على أنَّ الشَّهواتِ عاداتٌ وأكثرها تقليد . من ذلك أنَّ أهل البصرة أشهى النِّساء عندهم الهندِيَّات وبناتُ الهندِيّات والأغوار . واليمن أشهى النِّساء عندهم الحبشيّاتُ وبنات الحبشيات . وأهل الشَّام أشهى النِّساء عندهم الرُّوميَّات وبناتُ الروميَّات . وكلُّ قومٍ فإنَّما يشتهون جَلَبهم وسَبْيَهم . إلَّا الشاذّ ، وليس على الشاذّ قياس .

قالوا : وأطيبُ[١] الأفواه نَكهةً ، وأشدُّها عذوبةً ، وأكثرها ريقاً ، أفواهُ الزنج . والكِلاب من بين السِّباع أطيبُ أفواهاً منها[٢] .

قالوا : والسواد مُلاومٌ للعين[٣] ، وإذا اعتلَّت لخِفيف عليها لم يكن لها دواءٌ خيرٌ من القعود فى الظُّلمة وفى يد صاحبها خرقةٌ سوداء . فالسَّوادُ للإبصار ، وخيرُ ما فى الإنسان البصر .

وقالوا : والسُّودان أكثر من البيضان ، لأنَّ أكثَرَ ما يُعُدُّ البِيضانُ فارسَ والجبالَ وخراسان ، والرُّوم والصَّقالبة وفرنجة[٤] والأبر ، وشيئاً

(١) سقطت الواو فى كل من ن ، س ، خلافاً لما فى الأصل .

(٢) انظر الحيوان ٢ : ١٥٤ ، ١٧٦ و ٥ : ٣٣٧ .

(٣) كذا فى أصل ون ، س . ويبدو أنه من اللغة المولدة التى شاعت قديماً . وفى اللسان : « ومنه قولهم هذا طعام لا يلائمنى ، ولا تقل يلاومنى »

(٤) انظر مروج الذهب ٢ : ٣٤ والفهرست ٣٠ ، ٣٤ والقاموس (فرنج) .

بعد ذلك قليلاً غير كثير . والسُّودان يُعَدُّونَ الزِّنج والحبشة ، وفزّان وبربر ، والقبط والنُّوبة ، وزَغاوة ومَرْو ، والسِّند والهند ، والقَمار[١] والدَّبيلا[٢] ،
٨٨ ظ والصِّين وماصِين . والبحر أكثر من البّر ، وجزائر البحر ما بين الصِّين والزِّنج مملوءةٌ سُودانًا ، كسرنديب ، وكَلَهَ[٤] ،وأمل ، وزابج[٥]وجزائرها إلى الهند إلى الصين إلى كابُل وتلك السواحل .

قالوا : وكان الأعمى الاشتيام[٦] يقول : السُّودان أكثر من البيضان ، والصَّخر أكثر من الوحل ، والرَّمل أكثر من التُّراب ، والماء المالح أكثر من العذب .

قالوا : ومنّا العربُ لا من البيضان ؛ لقرب ألوانهم من ألواننا . والهندُ أسفرُ ألوانًا من العرب ، وهم من السُّودان. ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بُعثت إلى الأحمر والأسود » . وقد علم النّاسُ أنَّ العرب ليست بحُمر كما ذكرنا قبل هذا[٧] .

---

(١) قمار بفتح القاف وكسرها : موضع بالهند ينسب إليه العود القماري .
(٢) الذى فى ياقوت « ديبل » بفتح الدال وضم الباء ، وقال : « مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند » . وانظر التنبيه والإشراف للمسعودى ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٩ .
(٣) فى الأصل و ن ، س : « سودان » .
(٤) فى معجم البلدان : « كله : فرضة بالهند ، وهى منتصف الطريق بين عمان والصين ، وموقعها من المعمورة فى طرف خط الاستواء » .
(٥) زابج قال فيها ياقوت : « وقيل هى بلاد الزنج ، وبها سكان شبه الآدميين إلا أن أخلاقهم بالوحش أشبه » . وفى الأصل : « وتربج » . وانظر ماسيأتى . والباء تفتح وتكسر .
(٦) الاشتيام : رئيس الركاب ، كما فى اللسان (شتم) .
(٧) انظر ص ٢١٠ .

قال : فهذا المَفْخرُ لنا وللعربِ على جميع البِيضان إنْ أحبَّتْ ذلك العربُ ؛ وإن كرهَتْه فإنّ المفخر لنا بالذى ذكرنا على الجميع .

قالوا : ولو لم نكثُركم إلاّ بالزابج وحَدها لفضَلناكم بهم فضلاً مبيناً ؛ وذلك أنّ ملك الزابج إنْ غضِب على أهل مملكة ولم يتّقوه بالخَراج بعث ألفَ سُنبوقة(١) فى كلّ سُنبوقة ألفُ رجل على أن [لا(٢)] يجلدونهم ولا يقاتلونهم ، ولكن يأمرهم أن يقيموا أبداً فيهم حتّى يتّقوهم بالخراج ، فيكون ما يأكلون ويشربون ويُغْذَون ويلبَسون ، أضرَّ عليهم من مقدار الخراج المرارَ الكثيرة . فإن اتّقَوهم بالخَراج وإلاّ أرسلَ إليهم ألفَ سُنبوقة أخرى ، فلا يجد ذلك الملكُ بدًّا من أن يتّقيَه بكلّ ما طلب ، ولا يأمن أن يغضبَ فيأتىَ عليه وعلى أهل مملكته .

قالوا : ولقد نزل ملك الزابج على خليجٍ مَرّةً والخليجُ فراسخُ فى فراسخ ، فبينا هو على مائدته وفى سُرادقِهِ على شاطئ الخليج ، إذْ سمع صارخةً فقال : ما هذا ؟ وقطع الأكل(٣) . قالوا : امرأةٌ سقط ابنُها فى هذا الخليج فأكله التمساح . قال : وفى مكانٍ أنا فيه شئ يشاركنى فى قتل النّاس ! ثم وثب فإذا هو فى الخليج . فلما رأوه الناسُ سقطوا عن آخرهم ، فخضخضوه(٤) وهو فراسخ فى فراسخ ، حتّى أخذوا كلَّ تمساحٍ فيه أخذَ يدٍ .

(١) الذى فى القاموس « السنبوق » ، وقال : « السنبوق كعصفور : زورق صغير » .
(٢) تكملة يستقيم بها الكلام .
(٣) فى الأصل : « وقع الأكل » .
(٤) خضخض الماء ونحوه : حركه . وفى الأصل : « فحضحضوه » .

فيقال : إنّ أهلَ الزابج وأغبابها[١] أكثر من شَطر أهل الأرض .

قالوا : وآخرُ العُمرانِ كلُّه سودانٌ ، وما استدار من أقاصى العُمران

٨٩ و أكثر من أهل الواسطة ، كطوق الرَّحَى الذى يلى الهواء ، الذى هو أوسع وأكثر ذرعاً مما قَصر عنه من فَلَك الرَّحى[٢] ولنعتبر ذلك بالجناح المُطيف ، لا يرى أحد ذَرْعَه مع قلّة عرضه ، ونجده أكثر ذرعاً من نفس الدار .

وليس خلف الزابج بيضانٌ ، وكذلك جميعُ بلاد السودان السّاكنةِ فى الأطراف وفى آخر أطواق العمران .

قالوا : فهذا دليل على أنّا أكثر ، وإذا كنّا أكثرَ كنّا أفخر . وقد قال شاعركم[٣] :

ولستَ بالأكثر منهُ حصًى وإنّما العِزّةُ للكاثرِ[٤]

قالوا : والقبط جنسٌ من السودان وقد طَلب منهم خليلُ الرحمن [الولد[٥]] فوُلِد له منهم نبيٌّ عظيم الشأن ، وهو أبو العرب إسماعيلُ عليه السلام . وطلب النبيُّ صلى الله عليه وسلم منهم الولد ، ووُلد له إبراهيم ، وكنّاه به جبريل .

---

(١) الكلمة مهملة النقط فى الأصل . والأغباب : جمع غب ، بالضم ، وهو الغامض من الأرض . قال :

كأنها فى الغب ذى الغيطان ذئاب دجن دائم التهتان

(٢) فلك الرحى : مدارها . وفى الأصل ون ، س : « ذلك الرحى » .

(٣) هو الأعشى ، ديوانه ١٠٦ .

(٤) يخاطب علقمة بن علاثة مفضلا عامر بن الطفيل عليه . والرواية المشهورة : « منهم حصى » .

(٥) ليست بالأصل ، والكلام يقتضيها .

قالوا : والحجر الأسود من الجنَّة . والنُّحاس إذا اشتدَّ سوادُه كان أثمنَ وأجود . فمن استنكرَ لونَ السواد فما فى فِرنجة(١) والرُّوم والصَّقالبة من إفراط سُبوطة الشَّعر والرِّقّة والصُّهوبة ، والحُمرة فى شعر الرَّأس واللِّحية ، وبياضِ الحواجب والأشفار ، أقبح وأسمج . وليس فى السُّودان مُغْرَب(٢) ، ليس المُغْرب إلاَّ فيكم . ولا سواءٌ من لم تنضجه الأرحام وما جازتْ به حدَّ التمام .

قالوا : ولنا بعدُ معرفةٌ بالتفلسُف(٣) والنَّظَر ، ونحن أثقفُ النّاس . ولنا فى الأسرار حجة . ونحن نقول : إنَّ الله تعالى لم يجعلنا سُودًا تشويهاً بخلقنا ، ولكنَّ البلدَ فعل ذلك بنا . والحجّة فى ذلك أنَّ فى العرب قبائل سُودًا كبنى سُليم بن منصور . وكلُّ مَن نزل الحَرَّةَ من غير بنى سُلَيمٍ كلُّهم سود . وإنَّهم ليتخذون المماليكَ للرعى والسّقاء ، والمهنة والخدمة ، من الأشبانيِّين(٤) ومن الرُّوم نسائهم ، فما يتوالدون ثلاثةَ أبطنٍ حتّى تنقلهم الحرّةُ إلى ألوان بنى سُلَيم(٥) . ولقد بلغ مِن أمر تلك الحرَّة أنّ ظِباءها ونعامَها ، وهوامَّها وذُبابها، وثعالبها وشاءها وحميرَها ، وخيلها ، وطيرَها كلَّها سودٌ . والسَّواد والبياض إنّما هما من قِبَل خلقة البلدة ، وما طبع الله عليه الماء

---

(١) انظر ما سبق فى ص ٢١٥

(٢) المغرب ، بفتح الراء : الأبيض أشفار العينين .

(٣) لعل هذا من أقدم النصوص التى ورد فيها لفظ التفلسف . وفى اللسان : « الفلسفة : الحكمة ، أعجمى . وهو الفيلسوف ، وقد تفلسف » .

(٤) فى الأصل : « الاشبانين » بهذا الإهمال .

(٥) انظر الحيوان ٤ : ٧١ و ٥ : ٣٧٠ .

٨٩ ظ والتُّربة ، ومن قِبَل قُرب الشَّمس وبعدها ، وشدّة حَرّها وليْنها . وليس ذلك من قبل مسخٍ ولا عقوبة ، ولا تشويه ولا تقصير [1] .

على أنَّ بلاد بنى سُلَيم تجرى مَجرى بلادِ التُّرك . ومَن رأى إبلَهم ودوابَّهم وكلَّ شيء لهم تركىٌّ رآه شيئاً واحداً . وكلُّ شيء لهم تركىُّ المنظر . وربَّما رأى الغُزاةُ دون العواصم أخلاطَ غَنَم الرُّوم فلا يخفى عليهم غَنَم الرُّوم من غَنَم الشَّام ، للرُّوميَّة التى يرونها فيها .

وقد نرى الناسَ أبناءَ الأعراب والأعرابيات الذين وقَعوا إلى خراسان فلا نشُكُّ أنّهم علوجُ القُرى . وهذا موجودٌ فى كل شىء . وقد نرى جَرَادَ[2] البَقل والرَّيحان وديدانَهما خُضراً[3] ، ونرى قَمل رأس الشّابّ سُوداً ، ونراها إذا ابيضَّ رأسُه بِيضًا ، ونراها إذا خُضِبت حُمراً .

فليس سوادُنا ، معشَرَ الزِّنج ، إلاَّ كسواد بنى سُلَيم ومَن عددنا عليكم من قبائل العرب فى صدر هذا الكلام .

وما إفراط سوادِ من اسودَّ من الناس إلاّ[4] كإفراط بياض من ابيضَّ من الناس . وكذلك السُّمرة المتولِّدة من بينهما ، وكذلك الزِّىّ والهيئات ، وكذلك الصِّناعات ، وكذلك المطاعم والشَّهوات .

---

(١) فى جميع النسخ : « ولا تفضيل » .

(٢) فى الأصل : « جزاز » ، صوابه فى الحيوان ٤ : ٧١ . وقد صحح بذلك فى ن و س .

(٣) فى الأصل : « خضر » .

(٤) فى الأصل : « ولا » .

وقد ذكر الشاعر، حين مدح أُسيلِمَ بنَ الأحنف الأسديَّ ، سوادَ اليمانيَة فقال[١] :

أُسيلِمُ ذاكم لا خَفَا بمكانه
لعينٍ تداحى أو لأذنٍ تَسَمَّعَ[٢]
من النَّفَر الشُّمِّ الذين إذا انتَمَوْا
وهابَ الرِّجالُ حَلْقةَ البابِ قعقعوا
جلاَ الأذفرُ الأحوَى من المسك فرقَه
وطيبُ الدِّهان رأسَه وهو أنزعُ[٣]
إذا النَّفَرُ السُّود اليَمانونَ حاولوا
له حَوكَ بُرديه أرقُّوا وأوسعوا

وقد عابَ بعضُ البيضانِ عبدَ بنى جَعدَةَ بلونه ، فقال :

قد عابَ لونىَ أقوامٌ فقلتُ لهم
ما عابَ لونىَ إلاَّ مُفرِطُ الحُمُقِ
إنْ كان لونىَ فيهُ دُعجةٌ كَلَفٌ
حَزْنَ الإهابِ فإنِّى أبيضُ الخُلقِ

---

(١) الأبيات فى الحيوان ٣ : ٤٨٦ والبيان ١ : ٣٩٦ و ٣ : ٣٠٥ والبخلاء ٢١٣ والعقد ٥ : ٣٤٣ .

(٢) فى معظم المراجع : « لعين ترجى » .

(٣) فى الأصل : « جرى الأذفر . . . فوقه » ، صوابه من البيان والحيوان والبخلاء . والأذفر : الشديد سطوع الرائحة . والأنزع : الذى انحسر الشعر عن جانبى جبهته .

أُرضِي الصَّديقَ وأَحمِى الظُّعنَ معترضاً
صَدرَ القناةِ وأكنى كنه السَّرَقِ[1]

٩٠و وكانت امرأةُ عمرِو بن شأسٍ تجفو عِرَاراً[2] بنَ عمرو، وكان ابنَ سوداء، فقال عمرو بن شأسٍ فى ذلك، وفى صفةِ أبناء الحبشيَّات والزِّنجيات:

أَلم يأتِها أنِّى صحوتُ وأنَّنى
تخشَّعتُ حتّى ما أعارِم من عَرَمْ
وأُطرِقُ إطراقَ الشُّجاعِ، ولو يرى
مَساغاً لنابيه الشُّجاع لقد أزَم[3]
أرادت عِرَاراً بالهوان ومن يُرِدْ
عِرَارًا لعمرى بالهوان فقد ظَلَمْ
وإنّ عِراراً إن يكن غيرَ واضحٍ
فإنّى أحبُّ الجَونَ ذا المنكِبِ العَمَمْ[4]
فإن كنتِ منِّى أو تُحبِّينَ شيمتى
فكونى له كالسَّمْنِ رُبَّت له الأدَمْ[5]

---

(١) كذا ورد عجز هذا البيت .

(٢) فى الأصل : « عزار » أو « غراز » ، صوابه من الحماسة ٢٨٠ – ٢٨٢ بشرح المرزوقى وماأثبت فى حواشيها من المراجع ، والأغانى ١٠ . ٥٩ — ٦٠ .

(٣) أزم : عض شديداً . وفى الأصل : « أرم » ، صوابه فى الأغانى .

(٤) فى الأصل : « لم يكن » ، صوابه من المراجع المتقدمة . والعمم : الطويل التام من كل شىء .

(٥) فى الأصل : « كالشمس » تحريف . قال المرزوقى : والسمن إذا رب نحيه لم يتغير . يريد فلا تتغيرى أنت أيضاً » . والأدم : جمع أديم ، وهو الجلد .

وإلاّ فبِينى مثـــل ما بانَ راكبٌ
تزوّد خِمساً ليس فى سَيره أَتَمْ[١]

وأمّا الهند فوجدناهم يُقدّمون فى النُّجوم والحساب ،ولهم الخطُّ الهِندىُّ خاصّة ، ويقدّمون فى الطبِّ ، ولهم أسرارُ الطبِّ وعلاجُ فاحشِ الأدواء خاصّة . ولهم خَرط التماثيل ونَحتُ الصُّور بالأصباغ تُتَّخذ فى المحاريب[٢] وأشباهِ ذلك . ولهم الشِّطرنجُ ، وهى أشرفُ لُعبةٍ وأكثرُها تدبيراً وفطنة . ولهم السُّيوف القَلْعيّة[٣] ،وهم ألعبُ النّاس بها وأحذقُهم[٤] ضرباً بها . ولهم الرُّقَى النّافذةُ فى السُّموم وفى الأوجاع . ولهم غناءٌ مُعجِب . ولهم الكنكلة[٥] ، وهى وترٌ واحدٌ يمدُّ[٦] على قرعةٍ فيقوم مقامَ أوتار العُود والصَّنج . ولهم ضروبُ الرّقص والخِفّة ، ولهم الثّقافة عند الثِّقاف خاصّة ، ولهم معرفةُ المناصفة ، ولهم السِّحر والتّدخين والدمازكية[٧] . ولهم خطٌّ جامعٌ لحروف اللُّغات ، وخطوطٌ أيضاً كثيرة ، ولهم شعرٌ كثير وخُطَب طوال ، وطبٌّ فى الفلسفة

(١) الأتم : الإبطاء .

(٢) فى الأصل : « بجد من المحارب » .

(٣) القلعية : نسبة إلى القلعة ، وهى قلعة عظيمة ببلدة تسمى « كله » ، وهى أول بلاد الهند من جهة الصين ، وفيها تضرب السيوف القلعية . انظر معجم البلدان والحيوان ٣ : ١٤٣ .

(٤) ن ، س : « وأحذقها » .

(٥) انظر نوادر المخطوطات ٢ : ٣٢٤ .

(٦) فى الأصل و ن ، س : « يمر » ، صوابه ما أثبت .

(٧) كذا ولعله « النرماذكية » ، وهو ضرب من اللعوق الطبي . كما فى معجم استينجاس ١٣٩٥ .

والأدب . وعنهم أُخِذ كتابُ كليلة ودمنة . ولهم رأىٌ ونجدةٌ ، وليس لأحدٍ من أهل الصَّبر ما لهم . ولهم من الزِّىّ[١] الحسَنِ والأخلاق المحمودة مثل الأخِلَّة والقَرن والسِّواك ، والاحتباء ، والفَرق والخضاب . وفيهم جمال ومِلحٌ[٢] واعتدال وطيب عَرَق . وإلى نسائهم يضرب الأمثال . ومِن عندهم جاءوا الملوكَ بالعُود الهندىّ الذى لا يَعدِلُه عود . ومن عندهم خرج علم الفكر ، ٩٠ ظ
وما إذا تُكلِّم به على السّمّ لم يضرّ . وأصلُ حسابِ النُّجوم من عندهم أخذه النَّاسُ خاصَّةً . وآدم عليه السلام إنَّما هبط من الجنَّة فصار ببلادهم[٣] .

قالوا : ومن مفاخر الزنج حُسن الخُلْق ، وجودةُ الصَّوت . وإنَّك لتجد ذلك فى القِيان إذا كنَّ من بنات السِّنْد .

وخَصلةٌ أخرى : أنَّه لا يوجد فى العبيد أطبَخُ من السِّندىّ ، هو أطبع على طيِّب الطَّبخ كلِّه[٤] .

ومن مفاخرهم أنَّ الصَّيارفة لا يولُّون أكيِسَتَهم وبيوتَ صُروفهم إلَّا السِّندَ وأولادَ السِّند ؛ لأنَّهم وجدوهم أنفَذَ فى أمور الصَّرف ، وأحفَظَ وآمَن . ولا يكادُ أحدٌ أن يجد صاحبَ كيسِ صَيرفىٍّ ومفاتيحِهِ ابنَ رومىٍّ ولا ابنَ خُراسانىّ

---

(١) فى الأصل : « الرأى ».

(٢) الملح ، بالكسر : الملاحة .

(٣) فى تفسير أبى حيان ١ : ١٦٣ عند الكلام على هبوط آدم : «وآدم بالهند ، وقيل بسرنديب بجبل يقال له واسم » .

(٤) فى الأصل : « هو أطبخ على طيب الطبع كله » .

ولقد بلغ من تبرُّك التجار بهم أنَّ صَيارفة البصرة وبنادرة البَرْبَهارات[١] ، لمَّا رأوا ما كَسَبَ فرجٌ أبو رَوحٍ السِّنديُّ لمولاه[٢] من المال والأرَضِينَ اشترى كلُّ امرئٍ منهم غلامًا سنديًّا ، طمعًا فيما كسبَ أبو رَوْحٍ لمولاه .

قال : وكان عبد الملك بنُ مروانَ يقول : « الأدغم سيِّد أهلِ المشرق[٣] » يعني عُبَيدَ الله بنَ أبي بَكْرة . وكان أشدَّ السُّودان سواداً . وإيّاه يعني عبدُ الله بن خازمٍ[٤] حيث يقول :

* حَبشيٌّ حَبشتُهُ حَبشَـــــهْ *

فهذا جملة ما حَضرنا من مفاخر السُّودان . وقد قلنا قبل هذا فى مفاخر قحطان ، وسنقول فى فخر عدنان على قحطان فى كثير ممـا قالوا إن شاء الله .

* * *

---

(١) البنادرة : جمع بندار ، بضم الباء ، وهم التجار الذين يلزمون المعادن ، أو الذين يخزنون البضائع للغلاء . والبربهار : الأدوية التى تجلب من الهند من الحشيش والعقاقير ، والقلوس وغيرها ، يقول البحرية وأهل البصرة لها : البربهار . أنساب السمعانى ٧١ . وقال الأب أنستاس مارى : المراد بها توابل بر الهند . حواشى الحيوان ٣ : ٤٣٥ .

(٢) اسم مولاه محمد بن السكن ، كما فى الحيوان ٣ : ٤٣٥ .

(٣) فى المعارف ١٢٦ : « سيد أهـــل الشرق » . وفيه : ويقال الأدغم الدابة الديزج ، شبه به » .

(٤) هو عبد الله بن خازم بن أسماء السلمى البصرى ، أمير خراسان . ولى إمرتها لبنى أمية ، فلما ظهر ابن الزبير كتب إليه ابن خازم بطاعته فأقره على خراسان ، ثم ثار به أهل خراسان فقتلوه وأرسلوا رأسه إلى عبد الملك سنة ٧٢ . انظر الطبرى فى حوادث هذه السنة ، وتهذيب التهذيب والإصابة ٤٦٣٢ .

تم كتاب فخر السودان على البيضان ٩١ و

من تأليف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، بعون الله تعالى وتوفيقه ، ومشيئته وتأييده . يتلوه إن شاء تعالى رسالة له أيضاً إلى محمد بن عبد الملك في الجد والهزل . والله الموفق للصواب .

والحمد لله أولًا وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلامه .

٥

رسالة

فى الجد والهزل

من تصنيف أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

إلى محمد بن عبد الملك الزيات

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هى الرسالة الخامسة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« رسالة فى الجـــد والهزل »

من تصنيف أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك الزيات

ومن هذه الرسالة نسخ :

١ — نسخة الأصل ، وهى نسخة مكتبة داماد ، فى ضمن مجموعة رسائل الجاحظ .

٢ — مختارات فصول الجاحظ ، وهى نسخة المتحف البريطانى المودعة صورتها فى مكتبة جامعة القاهرة ، ورمزها « م » .

٣ — نسخة بول كراوس وطه الحاجرى ، وهى مقابلة على نسخة داماد ، والمتحف البريطانى ، ورمزها « ط » .

بسم الله الرحمن الرحيم

جُعلتُ فِداكَ . ليس من أجل[1] اختيارى النَّخلَ على الزَّرع[2] ٩٢ ظ
أقصيتَنِي ، ولا على ميل إلى الصَّدقة دون إعطائى الخراجَ عاقبتَنِي ، ولا لبُغضى دفعَ الإتاوة والرضا بالجِزية حَرمتَنى .

ولستُ أدرى لِمَ كرِهتَ قُربى وهَوِيت بُعدى ، واستثقلتَ روحى ونَفْسى واستطلتَ عُمرى وأيامَ مُقامى . ولِمَ سرَّتك سيِّئتى ومصيبتى وساءتك حسنتى وسلامتى ، حتّى ساءكَ تجمُّلى بقدر ما سَرَّكَ جزَعى وتضجُّرى ، وحتى تمنَّيتَ أنْ أخطئَ عليك فتجعل خطئى حجّة لك فى إبعادى ، وكرِهتَ صوابى فيك خوفاً من أن تجعله ذريعةً لك إلى تقريبى .

[فإن كان ذلك هو الذى أغضبكَ ، وكان هو السببَ لموجِدتك[3]] فليس ـ جُعلتُ فداكَ ـ هذا الحقدُ فى طبقة هذا الذَّنب ، ولا هذه المطالبة من شكل هذه الجريمة .

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من م

(٢) ألف الجاحظ كتاب : (الزرع والنخل) لإبراهيم بن العباس الصولى المتوفى سنة ٢٤٣ . فمنحه خمسة آلاف دينار ، كما ألف كتاب : (الحيوان) لمحمد بن عبد الملك الزيات فمنحة مثلها ، وكتاب : (البيان) للقاضى أحمد بن أبى دواد فمنحه كذلك . معجم الأدباء ١٦ : ١٠٦ . وجاء فى الحيوان ١ : ٤ نظير هذا النص موجها إلى محمد بن عبد الملك الزيات : « وعبتنى بكتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب » .

(٣) التكملة من م .

ولو كان إذ لم يكن فى وزنه وقَع قريباً ، وإذْ لم يكن عِدلَه وقعَ مُشْبِها كانَ أهونَ فى موضع الضَّرر ، وأسهلَ فى مخرج السَّماع .

فأىَّ شىءٍ بقَّيتَ للعدوّ المكاشِف والمنافق[١] الملاطف ، وللمعتمد المصرّ وللقادر المدِلّ .

ومَن عاقبَ على الصَّغير بعقوبة الكبير ، وعلى الهفوة بعقوبة الإصرار ، وعلى الخطأ بعقوبة العمد ، وعلى معصية المتَستِّر[٢] بعقوبة معصية المعلن[٣] ، ومن لم يفرق بين الأعالى والأسافل ، وبين الأقاصى والأدانى، عاقبَ على الزّنى بعقوبة السَّرَق[٤] ، وعلى القتل بعقوبة القَذْف . ومن خرج إلى ذلك فى باب العقاب خرج إلى مثله فى باب الثَّواب . ومن خَرجَ من جميع الأوزان وخالف جميعَ التعديل ، كان بغاية العقاب أحقَّ ، وبه أولى[٥] .

والدَّليل على شدّة غيظك وغلَيان صدرِك قُوّةُ حركتك وإبطاء فترتك ، وبُعد الغاية فى احتيالك . ومن البرهان على ثبات الغضَب ، وعلى كظم الذنب[٦] تمكُّن الحقد ورسوخ الغيظ ، وبُعد الوثبة وشدّة الصَّولة .

وهذا البرهان صحيحٌ ما صحّ النظم ، وقام التعديل ، واستوت الأسباب .

ولا أعلم ناراً أبلغَ فى إحراق أهلها من نار الغيظ ، ولا حركةً أنقضَ

(١) م : « وللموافق » .
(٢) فى الأصل : «المستتر» ، وأثبت ما فى م . وفى ط نقلا عن ب : «المسر» .
(٣) فى الأصل : « المعاند » صوابه فى م ، ب .
(٤) السرق كسبب وكتف : السرقة . وفى م . « السرقة » .
(٥) فى الأصل : « أحق به وأولى» ، وما أثبت من م أشبه بأسلوب الجاحظ .
(٦) م : « عظم الذنب » .

لقوّة الأبدان من طلب الطوائل[١] مع قلة الهدوء والجهل بمنافع الجَمَام[٢] ، وإعطاء الحالات أقسامَها من التدبير .

٩٣ و

ولا أعلم تجارة أكثرَ خُسراناً ولا أخفَّ ميزاناً من عَداوة العاقل [العالم][٣] ، وإطلاقِ لسان الجليس المُداخِل ، والشِّعارِ دونَ الدِّثار[٤] ، والخاصِّ دون العامّ .

والطالبُ — جُعلتُ فداك — بعُرْض ظَفَرٍ ما لم يَخرج المطلوب ، وإليه الخيار ما لم تقع المنازلة . ومن الحزم ألّا تخرج إلى العدوّ إلّا ومعك من القُوى ما يغمر[٥] الفَضْلة التى ينتجها له الإخراج . ولا بدّ أيضاً من حزمٍ يحذّرك مَصارعَ البغى ، ويخوّفك ناصر المطلوب[٦] .

وبَعدُ — أبقاك الله — فأنت على يقينٍ من موضع ألم الغيظ من نفسك ، والغيظُ عذاب . ولربّما زاد التشفِّى فى الغيظ ولم ينقص منه . ولستُ على يقين من نفوذ سهمك فى صَيْدك[٧] [كما أيقنت بموضع الغيظ من صدرك] .

---

(١) الطوائل : جمع طائلة ، وهى الوتر والذحل ، يقال: طلب بنى فلان بطائلة، أى بوتر كان له فيهم .

(٢) الجمام ، كسحاب : الراحة : م « الحمام » تصحيف .

(٣) التكملة من م .

(٤) الشعار : ما ولى شعر جسد الإنسان دون ما سواه من الثياب . والدثار : ما كان من الثياب فوق الشعار . وفى المثل : « هم الشعار دون الدثار » ، يصفهم بالمودة والقرب . وفى حديث الأنصار : « أنتم الشعار والناس الدثار » .

(٥) فى الأصل : « مالا يغمر » ، صوابه من م .

(٦) أى من تطلبه . وفى الأصل : « ويحرك ناصر المظلوم » ، صوابه فى م .

(٧) فى الأصل : «صدك» ، صوابه من ط رواية عن ب والتكملة بعده من ب .

والحازم لا يلتمس شفاءَ غيظِه باجتلاب ضَعْفِه ، ولا يطفئُ نارَ غضبه تأخُّرُ عقوبةِ من أغضبَه ، ولا يسدِّد سهمَه إلَّا والفرضُ ممكن ، والغاية قريبة ، ولا يهرب إلّا والمهرب مَعجزة .

إنّ سلطان الفيظ غَشوم ، وإنّ حكم الغضَب جائر ، وأضعف ما يكون العزم عن التصرُّف أضعفَ ما يكون الحزم . والغضب فى طِباع شيطان ، والهوى يتصوَّر فى صورة امرأة ، فلا يبصر مَساقط العيب ومواقعَ الشَّرف إلاّ كلُّ معتدلِ الطباع ، ومعتدلِ الأخلاط مستوِى الأسباب .

والله لقد كنت أكره لك سرفَ الرضا مخافةَ جواذبِهِ إلى سرف الهوى . فما ظنُّك بسرف الغضب ، وبغلَبة الغيظ ، ولا سيّما ممّن قد تعوّدَ إهمالَ النَّفس ولم يعوِّدها الصبر ، ولم يعرِّفْها موضعَ الحظّ فى تجرُّع مرارة العفو ، وأن المراد من الأمور عواقبها لا عواجلها[١] .

ولقد كنت أشفِق عليك من إفراط السُّرور فما ظنُّك بإفراط الغيظ . وقد قال بعض الناس : لا خير فى طول الرَّاحة إذا كان يُورث الغفلة ، ولا فى الكفاية إذا كان يؤدِّى إلى المَعجَزة ، ولا فى كثرة الغِنى إذا كان يخرج إلى البلدة[٢] .

جُعلتُ فداك . إنّ دَاء الحزنَ وإن كان قاتلاً فإنه داءٌ مُماطِل ، وسقمه سقم مُطاوِل ، ومعه من التمهُّل بقدر قسطه من أناة المِرَّة السوداء . وداء

(١) فى الأصل : « عواملها » ، صوابه فى م .

(٢) فى الأصل : « كثرة العى » ، صوابه فى م . والبلدة ، بالفتح وبالضم أيضاً : البلادة ، ضد النفاذ والذكاء والمضاء فى الأمور .

الغيْظ سفيهٌ طيّاش ، وعَجولٌ فحّاش ، يُعجِل عن التوبة ، ويقطع دون الوصيّة ، ومعه من الخُرْق بقدر قسطِه من التهاب المِرّة الحمراء . [والعجول ٩٣ ظ يخطئُ وإن ظفِر ، فكيف به إذا أخفق . على أنّ إخفاقه يزيد فى حقيقة خطئه كما أنّ ظفره لا ينتقص من مقدار زلله[1]]. وأنت روحٌ كما أنت وحشىّ من قرنك إلى قدمك . وعمل الآفة فى الدِّقاق والعتاق أسرع ، وحدُّها عن الغلاظ الجُفاة أكَلُّ ؛ فلذلك اشتدَّ جزعى لك من سُلطان الغيظ وغَلَبته .

والله لو كنتُ ابتلعتُ مزار بابك ، وأبطلت بمر الباطل[2] ، ووردت[3] الفظائع كلَّها ، ونقضت الشُّروط بأسرها ، وأفسدت نتاجك ، وقتلت كلَّ شِطر نجىٍّ لك ، ورفعتُ من الدنيا فراهة الخيل ، وجعلتُ المروجَ كلَّها حمًى ، وكنت صداق المرادين[4] ، وبِرسام الأولاد ، ومسخت جميع الجوارى فى صورة أبى رملة[5] ووردت شَطاط خَلْقك إلى جُعودة أبى حنّة[6] وكنت أول من سنَّ بَيع الرجال فى النخّاسين ، وفتَحَ باب الظُّلم لأصحاب المظالم ، وحوّلت إليك عقل أبى دينار ، وطُبعت على بيان ما نَويه ، وأعنت على موت المعتصم ، وغضبت لمصرع الأفشين[7] ، واستجبت للديك الأبيض

---

(١) التكملة من ب .

(٢) كذا وردت العبارة .

(٣) فى الأصل : « ورددت » .

(٤) كذا . وجعلت فى ط : « جذم المردان » .

(٥) لم أجد له ذكراً فى كتب الجاحظ ، كما لم أجد ذلك لأبى حنة التالى .

(٦) الشطاط ، كسحاب وكتاب : الطول وحسن القوام . والجعودة : القصر .

(٧) الأفشين ، بفتح الهمزة وكسرها ، كما فى وفيات الأعيان ٢ : ٦٥. واسمه =

الأفرق[١] وأحببت صالح بن حنين[٢] ، وأحوجتك إلى حاتم الرِّيش[٣] ، وكان أبو الشَّمّاخ صديق ، والفارسيُّ من شيعتى ـ لـكان ما تركبُنى به سرفا ، ولـكنتَ فى هذا العِتاب[٤] متعدِّيا .

جُعلتُ فداكَ ، لا تتعرضْ لعداوة عُقلاء الرُّواة ، ولضغينة حُفّاظ المثالب ، ولِلسانِ من قد عُرف بالصِّدق والتوخِّى ، وبقلّه الخطل والتنكُّب[٥] ، ما وجدتَ عن ذلك مندوحة ، ووجدت المذْهَبَ عنه واسعاً . ولا تعاقبْ وادًّا وإن اضطرّكَ الوادّ ، ولا تجعلْ طُولَ الصُّحبة سبباً للتضجُّر ، واصبرْ على خَلَقه فإنّ خَلَقَه خيرٌ من جديد غيره . وصَداقة المُتطرِّف غَرُور[٦] ،

= خيذر بن كاوس ، وكان مقدم قواد المعتصم ، ثم غضب عليه المعتصم فصلبه هو وبابك ومازريار فى سنة٢٢٦.

(١) الأفرق : المفروق العرف . وفى الأصل : « للدين » صوابه فى ب كما فى حواشى ط . وكلمة « الأبيض » ساقطة من ب كما أن كلمة « الأفرق » ساقطة من الأصل وثابتة فى ت . وكان العامة فى زمن الجاحظ يتبركون بالديك الأبيض الأفرق يزعمون أنه يطرد الشيطان من البيت . الحيوان ٢ : ٢٠٧ ، ٢٥٩ ولـكنهم أيضاً كانوا يقضون على من كان فى داره ديك أبيض أفرق بالزندقة . الحيوان ٢:٢٠٧ .

(٢) يبدو أنه كان أحد البغضاء الثقلاء ، ذكره أيضاً فى البخلاء ٦. قال الجاحظ: « ولو ولد نادرة حارة فى نفسها مليحة فى معناها ، ثم أضافها إلى صالح بن حنين وإلى ابن النواء وإلى بعض البغضاء ، لعادت باردة ، ولصارت فاترة » .

(٣) كان حاتم هذا من ندماء صالح بن هارون الرشيد ، قرينا لأبى الواسع ، وقنينة ، وحسين بن الضحاك . الأغانى ٦ : ١٠٤ . وسماه أبو الفرج فى ٦ : ١٩٥ « حاتم الريش الضراط » .

(٤) ط : « العقاب » خلافا لما فى الأصل .

(٥) التنكب ، أراد به العدول عن الصواب والحق . وفى الأصل : «التكسب»

(٦) جعلت فى ط : « غرر » بمعنى الخطر .

وملالة الصَّديق أفْن ، والعلم بأقدار[١] الذُّنوبِ غامض ، وحدودُ الذنوب فى العقاب خفيّة . ولن يعرف العقابَ من يجهل قَدر الذَّنب . والأجرام كثيرة الأشكال ، ومتفاوتة فى الأقدار[٢] . وإذا أردت أن تعرف مقدار الذنب إليك من مقدار عقابك عليه فانظر فى علَّته وسببه ، وإلى معدنه الذى منه نَجَم ، وعُشِّه الذى منه دَرج ، ومغرِسه الذى منه نبت ، وإلى جهة صاحبه فى التَّتابُع والتَّترُّع[٣] ، وفى النزوع والثَّبات ، وإلى قِحَته عند التقريع ، وإلى حيائه عند التعريض ، وإلى فِطنته عند الرشق والتورية[٤] ؛ فإنّ فَضْل ٩٤ و
الفطنة ربّما دلّ على فرط الاكتراث ، وعلى قدر الاكتراث يكون الإقدام والإحجام . فكلُّ ذنبٍ كان سببه الدالَّة وضيق صدرٍ وغلظ طباعٍ وحدّة مِرارٍ ، من جهة تأويل أو من جهة غلط فى المقادير ، أو من طريق [فرط[٥]] الأنفة وغلبة طباع الحِميّة من بعض الجَفْوةِ أو لبعض الأَثرة ، أو من جهة استحقاقه عند نفسه وفيما زيّن له من عمله ، وأنَّه مقصَّر به مؤخَّر عن مرتبته ، أو كان مبلَّغاً عنه أو مكذوباً عليه ، وكان ذلك جائزاً عليه غير ممتنع فيه —

(١) فى الأصل : « باقرار » .

(٢) فى الأصل : « الأقدام » .

(٣) التتابع فى الشيء : التهافت فيه والإسراع إليه . والترع : التسرع إلى الشيء . وفى الأصل : « التتابع والتبرع » والوجه ما أثبت .

(٤) المراد بالرشق الإصابة بالقليل من الكلام . والتورية : الكناية التى لايفهمها إلا الفطن . ومنه التورية البلاغية التى يراد باللفظ فيها غير المتبادر من معناه . وفى الحديث : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد سفرا ورى بغيره ، أى ستره وكنى عنه وأوهم أنه يريد غيره . وفى الأصل : « التودية » تحريف .

(٥) التكملة من ب .

فإذا كانت ذنوبه من هذا الشكل وعلى هذه الأسباب ، وفى هذه المجارى ، فليس يقف عليها كريم ،[ولا يلتفت لها حليم[١]] .

ولست أسمِّيه بكثرة معروفه كريماً حتى يكون عقله غامراً لعلمه ، وعلمه غالباً لطبعه ، وحتى يكون عالماً بما ترك ، وعارفاً بما أخذ . واسم الحليم جامع للكظم ، والقدرة ، والفهم .

فإذا وجدتَ الذنبَ بعد ذلك لا سببَ له إلاَّ البغضة فلو لم ترض لصاحبه بعقابٍ دون قَعْر جهنم لَعذَرك كثيرٌ من العُقلاء ، ولصوّبَ رأيك عالَمٌ من الأشراف .

ومتى كانت علَّتَه طبيعةَ البَذاء[٢] ، وخُلقه الشَّرارة والتسرُّع[٣] ، فاقتلْه قتلَ العقارب ، وادمغْه دمغَ رءوس الحيات .

وإذا كان ممن لا يسيء فيك القول ، ولا يرصُدك بالمكروه إلاّ لتعطيَه على الخوف ، وتمنع عِرضك من جهة التقيَّة فامنعه جميلَ رفدك ، واحتلْ فى منعه من قِبَل غيرك ؛ فإنَّك إن أعطيتَه على هذه الشريطة ، وأعظَمْتَه من هذه الحكومة فقد شاركته فى سبِّ نفسك ، واستدعيت الألسنةَ البذيّة إلى عرضك ، وكنتَ عوناً لهم عليك .

وكيف تعاقبه على ذنبٍ لك شطره ، وأنت فيه قَسيمُه[٤] ، إلا أنّ عليك غُرمه ولك غُنمه .

---

(١) التكملة من ب .

(٢) فى الأصل : « البدا » ، والوجه ما أثبت . وقد قرئت فى ط : « الداء » خطأ .

(٣) الشرارة : مصدر شر يشر شرا وشرارة ، بضم شين المضارع وكسرها .

(٤) فى الأصل : « قسمه » .

ومن العدل المحض والإنصاف الصحيح أن تحطَّ عن الحسود نصفَ عقابه ، وأن تقتصر على [بعض[١]] مقداره ، لأنّ ألم حسدِه لك قد كفاك مؤونة شَطْر غيظك عليه .

وأما الوادُّ فلا تعرِضْ له البتة ، [ولا تلتفِتْ لِفتَه[٢]] ، ولو أتى على الحرث والنسل ، وحتى على الرُّوح والقلب . ولا تغتر بقوله إنّى وادٌّ ، ولا تحكم له بدعواه بأنى جدّ وامق . وانظر أنت فى حديثه وإلى مَخارج لفظه ، ٩٤ ظ
وإلى لحن قوله ، وإلى طريقته وطبيعته ، وإلى خلقه وخليقته ، وإلى تصرُّفه وتصميمه[٣] وإلى توقُّفه وتهوُّرِه . وتأمَّلْ مقدارَ جزعه من قلة اكتراثه ، وانظر إلى غضبه فيك ولك ، وإلى انصرافه عمن انصرفَ عنك وميله إلى من مال إليك ، وإلى تسلُّمه من الشر وتعرُّضه له ، وإلى مُداهنته وكَشْف قناعه . بل لا تَقضِ[٤] له بجماع ذلك ما كان ذلك فى أيام دولتك ومع إقبالٍ من أمرك ، وإن طالت الأيامُ وكثرت الشهور ، حتى تنتظم الحالاتُ ، وتستوىَ فيه الأزمان .

نعم ، ثمَّ لا تحكم له بذلك حتى تكون حالُه مقصورةً على محبَّتك ، ومحنوَّة على نصيحتك ، بالعلل التى توجب الأفعال . والأسبابُ التى تسخّر القلوب للمودَّات ، كالعلل الثابتة فى الصنيعة ، والأسباب الموجودة مع مولى

---

(١) ليست فى الأصل .

(٢) التكملة من ب .

(٣) التصميم : المضى فى الأمر بعد إرادته . وفى الأصل : « تصميه » .

(٤) فى الأصل : « لايقضى » .

العَتَاقة ؛ فإنَّ علَلهما خلافُ عِلل مولى الكَلالة[١] ، وخلاف علل الصَّديق الذى لم يزل يرى أنَّه مثلك ، وأنه يستوجب منك استيجابك ، ولا سيما إذا كانت الصنيعة أنت ابتدأتَها ، وأنت أبو عُذْرتها .

فإن أنت لم تحكم له بالغاية مع اجتماع هذه العلل فيه ، ومع توافيها إليه ، ولم تقضِ له بأقصى الغاية مع ترادفِ هذه الأسباب وتكامُل هذه الدلائل ، وتعاون هذه البرهانات ، فكل خبرٍ بيِّنَه زُور ، وكلُّ دلالةٍ فاسدةٌ . وقد قال الأول : « دلائل الأمور أشد تثبيتًا من شهادات الرجال» . إلاَّ أن يكون فى الخبر دليل ، ومع الشَّهادة برهان ؛ لأنَّ الدليل لا يكذب ولا ينافق ولا يزيد ولا يبدِّل ، وشهادة الإنسان لا تمتنع من ذلك ، وليس معها أمانٌ من فسادٍ ما كانَ الإمكانُ قائماً .

وبعد متى صار اختيار النَّخل على الزرع يُحقد الإخوان ، ومتى صار تفضيل الحَبّ وتقريظ الثَّمر يورث الهِجران ، ومتى تَميَّزوا هذا التميُّز[٢] وتهالكوا هذا التهالك ؟ ومتى صار تقديم النخلة ملّة ، وتفضيل السنبلة نِحْلة[٣] ؟ ومتى صار الحكم للنَّعجة نسباً وللكَرْمة صِهراً ، ومتى[٤] تكون فيها ديانة وتَستحكم فيها بَصِيرة ، ويحدُث عنها حَمِيَّة .

---

(١) الكلالة من القرابة : ما خلا الوالد والولد .

(٢) فى الأصل : « التميز » .

(٣) فى الأصل : « منحة » .

(٤) فى الأصل : « وحتى » .

وقد كنا نَعجب من حرب البسوس فى ضَرع نابٍ[1] ، ومن حرب بُعاثٍ فى مِخرفِ تمْرٍ[2] ، ومن حرب غَطَفان فى سَبَق دابّة[3] . فجئتنا أنت بنوع من العجَب أبطلَ كلَّ عجب ، وآنسَنا بكل غريب ، وحسَّن عندنا كلّ قبيح ، وقرّبَ عندنا كلَّ بعيد . ٩٥ و

فإنْ جهلتُ ـ أعزَّكَ الله ـ غضبَك فمثلى جَهِلَ مالاعلّة له ، وإنْ عَجَزتُ عن احتمال عقابك فمثلى ضجَّ مما لا يطيق حمله . ولا عارَ على جازعٍ إلاّ فيما يمكن فى مثله الصبر ، ولا لومَ على جاهل فيما لا ينجح فى مثله الفكر .

وليس هذا أوّلَ شَرَكٍ نصبتَه ، ولا أوّلَ كيد أرغْتَه ، ولا هى بأول زُبْيَة غطّيتَها وسَترتَها ، وحيلةٍ أكمنتها ورَبَصتها .

وقد كانت التقيَّة والاقتصاد أسلم ، بل كان العَفْو أرحم ، والتغافلُ أكرم .

---

(١) كانت للبسوس بنت منقذ التميمية ، خالة جساس بن مرة ، ناقة يقال لها «سراب» ، فرمى كليب ضرع تلك الناقة بسهم وقد رآها غريبة فى إبله ، فاستغاثت البسوس بخالها جساس ، فطعن جساس كليبا فقتل ، فوقع الشر بينهم لذلك . العقد ٥ : ٢١٣ وما بعدها .

(٢) المخرف بكسر الميم : زبيل صغير يخترف فيه أطايب الرطب . وبفتحها : الحائط من النخل . وانظر لحرب بعاث الأغانى ١٥ : ١٥٤ — ١٥٨ وكامل ابن الأثير ١ : ٤١٧ ووفاء الوفاء ١ : ٢١٥ حيث تتضح لك إشارة الجاحظ إلى المخرف بفتح الميم وكسرها معا .

(٣) السبق ، بالتحريك : الذى يوضع بين أهل السباق ، فمن سبق أخذه . يشير بذلك إلى حرب داحس والغبراء ، حين صد أتباع حمل بن بدر صاحب الفرس التى تسمى الغبراء ، فرسَ قيس بن زهير وكان يسمى « داحسا » . فثارت الحرب بين عبس وذبيان ابنى بغيض بن ريث بن غطفان أربعين سنة . العقد ٥ : ١٥٠ =

ولا خير فى عقوبة تشمت العدوَّ المتقادم[1] ، ويُنادى بها العدوُّ الحادث . والأناة أبلغ فى الحزم ، وأبعد من الذمّ ، وأحمد مَغَبّةً وأبعد من خُرق العَجَلة . وقد قال الأول : « عليك بالأناة ؛ فإنك على إيقاع ما أنت مُوقِعُه أقدر منك على ردّ ما قد أوقعته » . فقد أخطأ من قال[2] :

قد يُدركُ المتأنِّى بعضَ حاجته وقد يكون مع المستعجل الزللُ

بل لو قال : والمتأنِّى يدركُ حاجاته أحقّ ، والمستعجل بفَوت حاجاته أخلَق ، لكان قد وفّى المعنى حقّه ، وأعطى اللّفظ حَظّه ، و [إن[3]] كان القول الأوّل موزوناً والثانى منثُوراً[4] . ولولا أنه اشتقّ المستعجل من العجلة لما قرنَه بالمتأنّى . وينبغى أن يكون الذى غلَّطه قولُهم : « ربّ عَجلة تَهَب ريثاً » . فجعل الكلام الذى خرجَ جواباً عند ما يعرض من السبب ، كالكلام الذى خرج ارتجالا ، وجعله صاحبه مثلاً عاماً . فإذا سمَّيتَ العمل عجلةً وريثاً فاقضِ على الريث بكثرة الفوت ، وبقدر ذلك من العجز ، وعلى العجلة بِقلّة النُّجح ، وبقدر ذلك من الخرق .

والرّيثُ والأناة فى بلوغ الأمل وإدراكِ النّعمة كانتهاز الفرصة واهتبال

= والأغانى ٧ : ٣٤٣ وكامل ابن الأثير ١ : ٣٤٣ ، وجمهرة أنساب العرب ٢٥٠ ، ٢٥١ .

(١) فى الأصل : « القادم » . والمتقادم : القديم .

(٢) هو القطامى . ديوانه ص ٢ ونوادر المخطوطات ١ : ١٦٧ . وانظر مجالس ثعلب ٤٣٧ والمحاسن للبيهقى ٢ : ١٣٣ .

(٣) ليست فى الأصل .

(٤) فى الأصل : « مبتورا » .

الغِرّة . والأناة وإن طالت [فليستْ من جنس الريث[١]] ، وانتهاز الفرصة وإن كانَ فى غاية السُّرعة فليس من جنس العجلة .

وربّتَ كلمة لا توضع إلّا على معناها الذى جُعلَتْ حظّه ، وصارت هى حقّه والدالَّةَ عليه دون غيره ، كالحزم والعلم ، والحلم والرِّفق ، والأناة والمداراة ، ٩٥ ظ
والقصد والعدل والاهتبال ، وكاليأس والأمَل[٢] ، وكالُخرْق والعَجَلة ، والمداهنة والتسرُّع ، والغلوّ والتقصير .

وربّت كلمةٍ تدور مع خُلَّتها ، وتتقلّب مع جاراتها[٣] ، وإزاءَ صاحبتها[٤] ، وعلى قدر ما تُقابل من الحالات ، وتُلاقِى من الأسباب ، كالحبِّ والبُغض ، والغضب والرِّضا ، والعزم والإرادة ، والإقبال والإدبار ، والجِدّ والفتور[٥] ؛ لأن هذا الباب الأخير يكون فى الخير والشرّ ، ويكون محموداً ويكون مذموما .

وصاحب العَجَلة ــ أعزّكَ الله ــ صاحب تغريرٍ ومخاطرة ، إن ظفر لم يحمده عالِمٌ ، وإن لم يظفر قطعَتْه الملاوم . والرَّيث أخو المَعجَزة ، ومقرون بالحسرة ، وعلى مَدرَجة اللائمة . وصاحب الأناة إن ظفر نفع غيره بالغُنم ، ونفع نفسَه بثمرة العلم ، وأطاب ذكره دوامُ شكره[٦] ، وحُفظ فيه ولدُه . وإن حُرِم

(١) هذه التكملة مساوقة لأسلوب الجاحظ ، وهى من مقترحات ناشر ط .
(٢) فى الأصل : « البأس والأمن » . وفى م : « اليأس والأمن » .
(٣) فى الأصل : « جاراتها » ، وأثبت ما فى م .
(٤) فى الأصل و م : «وإرادة صاحبتها» . وما أثبت أشبه بأسلوب الجاحظ .
(٥) فى الأصل : « والفتوة » ، صوابه فى م .
(٦) م : « وطاب ذكره ، ودام شكره » .

فمبسوطٌ عذرُه ، ومصوَّب رأيه مع انتفاعه بعلمه وما يجد من عزِّ حزمه ونبل صوابه[١] ، ومع علمه بالذى له عند العقلاء ، وبعذرِه عند الأولياء والأعداء .

وما عندى لك إلَّا ما قال الدِّهقان[٢] لأسد بن عبد الله[٣] وهو على خراسان ، حين مرّ به وهو يُدهَق فى حَبْسِه[٤] :

إن كنت تعطى من تَرحم فارحم من تَظلِم[٥] . إنَّ السموات تنفرج لدعوة المظلوم ، فاحذر من ليس له ناصر إلَّا الله ، ولا جُنَّةٌ إلا الثِّقة بنزول الغِيَر[٦] ، ولا سلاحٌ إلّا الابتهال إلى مولًى لا يُعجزه شىء .

يا أسدُ ، إنَّ البغىَ يصرع أهله ، وإنَّ الظُّلم مرتعه وخيم ، فلا تغترّ بإبطاء العقاب[٧] من ناصرٍ متى شاء أن يغيث أغاث . وقد أملَى لِقومٍ كى يزدادوا

---

(١) فى الأصل : « وقبل صوابه » ، صوابه فى م .

(٢) الدهقان ، بالكسر : زعيم فلاحى العجم ، فارسى معرب .

(٣) هو أسد بن عبد الله القسرى ، أخو خالد بن عبد الله ، كان خالد على العراق وما يليه من الأهواز وفارس والجبال ، وأخوه أسد على خراسان . وكان بدء ولايتهما فى سنة ١٠٦ وعزلا سنة ١٢٠ . تاريخ الطبرى .

(٤) الدهق : التعذيب بالدهق ، وهو بالتحريك : خشبتان يغمز بهما الساق ، وهو بالفارسية « أشكنجه » . وفى الأصل : « فى حبه » تحريف . وفى العقد ٢ : ١٦١ : « ومر أسد بن عبد الله القسرى ، وهو والى خراسان ، بدار من دور الاستخراج ، ودهقان يعذب فى حبسه ، وحول أسد مساكين يستجدونه ، فأمر لهم بدراهم تقسم فيهم ، فقال الدهقان ... » .

(٥) فى العقد : «إن كنت تعطى من يرحم فارحم من يظلم» الفعلان « يرحم» ، و «يظلم» بالبناء للمفعول .

(٦) الغير : اسم بمعنى تغير الحال . وفى الأصل : «التغير» .

(٧) فى العقد : «الغيثات» .

إثماً[١] . وجميعُ أهل السَّعادة إمَّا سالمٌ من ذنب ، وإما تاركٌ لإصرار[٢] . ومن رغب عن التمادى فقد نال أحد الغُنمين ، ومن خَرج من السعادة فلا غايةَ له إلا دار الندوة[٣] . وسواءٌ ـ جُعلت فداكَ ـ ظَلمتَ بالبطش والغَشْم ، أو ظلمت بالدَّحس والدَّسّ[٤] . فشاورْ لبَّك ، وناظر حزمك ، وقِفْ قبلَ الوثبة ، واحذر زَلَّة العالم .

٩٦ و وقد قال صاحبكم : من استشار الملالة وقلَّد طبيعتَهُ الاستطرافَ ، وجعل الخَطْرة ذنبا[٥] ، والذنب ذنوباً ، ومقدار الطَّرفة إصرارا ، والصَّغيرَ كبيرا ، والقليل كثيرا ، عاقَبَ[٦] على المتروك الذى لا يُعبأ به ، وبَلغ بالبطش إلى حيث لا بقيَّةَ معه[٧] ، ورأى أن القطيعة التى لا صلة معها ، والتخليج الذى لا تجمُّل معه ، الحزمُ المحمود ؛ وأنَّ الاعتزامَ فى كلّ موضعٍ هو الرأى الأصيل .

وقال أيضاً : من كانت طبيعته مأمونة عليه عند نفسه ، وكان هواه رائده الذى لا يكذبه ، والمتأمِّر عليه دون عقــله ، ولم يتوكَّل لمــا لا يهواه على

---

(١) إلى هنا ينتهى نص العقد . وفيه : « وقد أملى لقوم ليزدادوا إثما . فأمر أسد بالكف عنه » .

(٢) فى الأصل : « الإصرار » .

(٣) كذا فى الأصل ، وجعلت فى ط : « الشقوة » .

(٤) الدحس : التدسيس للأمور تستبطنها وتطلبها أخفى ما تقدر عليه .

(٥) الخطرة : ما يقع بالبال والوهم .

(٦) فى الأصل : « وعاقب » ، والواو مقحمة .

(٧) البقية : الإبقاء وعدم المبالغة فى الإفساد .

ما يهواه[١] ، ولم ينصر تالدَ الإخوان على الطارف ، ولم ينصف الملول المبعَد من المستطرف المقرَّب ، ولم يخَفْ أن تجتذبه العادة ، وتتحكم عليه الطبيعة ، فليرسم حُججَهما ، ويصوّرْ صورَهما ، في كتابٍ مفرد أو لفظ مسموع ، ثم يعرضْهما على جهابذة المعاني وأطباء أدواء العقول ، على ألا يختار إلَّا مَن لا يدرى أيَّ النوعين يبغى ، وعلى أيِّهما يحامى ، وأيُّهما دواؤه وأيُّهما داؤه . فإن لم يستعمل ذلك بما فضَل له من سكر سوء العادة ، لم يزل متورِّطًا في الخطاء مغموراً بالذمّ[٢] .

سمعتُك وأنت تريدنى وكأنَّك تريد غيرى ، وكأنَّك تشير علىَّ من غير أن تنصَّنى . وتقول : إنّى لأعجب ممَّن تركَ دفاتر علمه متفرِّقة مبثوثة ، وكراريسَ درسِه غير مجموعة ولا منظومة ، كيف يعرّضها للتجرُّم[٣] ، وكيف لا يمنعها من التفرُّق[٤] . وعلى أنَّ الدفتر إذا انقطعت حِزامته[٥] ، وانحلَّ شِداده ، وتخرَّمَت رُبُطه ، ولم يكن دونه وقاية ولا جُنَّة ، تفرّقَ ورقُه ؛ وإذا تفرّق ورقه اشتدَّ جمْعُه ، وعسُر نظمه ، وامتنع تأليفه ، وربَّما ضاع أكثره . والدَّفتانِ أجمع ، وضَمُّ الجلود إليها أصْوَن ، والحزم[٦] لها أصلح . وينبغى للأشكال أن تُنظم وللأشباه أن تؤلَّف ؛ فإنَّ التأليف يزيد الأجزاء الحسنة حسنا ، والاجتماع

(١) في الأصل : « ولم يتوكل لما يهواه » فقط ، وأثبت نص م .
(٢) م : « بالذنب » .
(٣) التجرم ، من الجرم وهو القطع . وفي م : « للتخرم » من الخرم .
(٤) م : « التخرق » .
(٥) الحزامة والحزام : اسم لما شد به .
(٦) الأصل : « والخرز » ، صوابه من م .

يحدث للمتساوى[1] فى الضعف قوة . فإذا فعلتَ ذلك صرتَ متى وجدت بعضَها فقد وجدتَ كلَّها ، ومتى رأيت أدناها فقد رأيت أقصاها ؛ فإن نشِطت لقراءة جميعها مضيتَ فيها .

وإذا كانت منظومةً ، ومعروفةَ المواضع معلومة ، لم تحتج إلى تقليب ٩٦ ظ
القماطر على كثرتها ، ولا تفتيش الصناديق مع تفاوت مواضعها ، وخفّت عليك مؤونتها وقلت فكرتك فيها ، وصرفت تلك العناية إلى بعض أمرك ، وادّخرتَ تلك القوّةَ لنوائب غدك .

وعلى أن ذلك أدلّ على حبّك للعلم ، واصطناعك للكتب ، وعلى حسن السياسة ، والتقدم فى إحكام الصناعة .

وقلت : لأمرٍ ما جمعوا أسباع القرآن[2] وسُورَه فى مصحف ، ولم يدَعوا ما فيه مفرّقاً فى الصُّدور ، ولا مبدّداً فى الدفاتر ، ومفرّقاً فى القماطر . على ذلك أجمع المسلمون ، والسابقون الأولون ، والأئمة الرشيدة ، والجماعة المحمودة ، فتوارثه خلفٌ عن سلف ، وتابعٌ عن سابق ، وصغير عن كبير ، وحديثٌ عن قديم .

ولم أشكَّ فى أنها نَصيحة حازم ، ومشورةُ وامق ، أو رأيٌ حَضَر أو حكمة

(١) فى الأصل : « للمساوى » ، وأثبت ما فى م .

(٢) تكفل أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب قديماً فى أماليه ٦٣ — ٧٠ ببيان نصفى القرآن وأثلاثه وأرباعه وأخماسه وأسداسه وأسباعه وأثمانه وأتساعه وأعشاره . رواية عن حميد الأعرج . وكذا فعل السجستانى بعده فى المصاحف ١٢٥ — ١٣٠ رواية عن حميد أيضا .

نبغَتْ ، أو صدرٌ جاش فلم يُملَك ، أو علمٌ فاضَ فلم يُرَدّ ، استعملَه من استعمله ، وتركه من تركه .

فلما أخذتُ بقولك ، وصرتُ إلى مشورتك وأكثرتُ حمدَ الله على إفادتك من العلم وحَظِّ عنايتك من النَّقْل[1] ، وجمعتُ البعض إلى البعض[2] ، والشَّكل إلى الشَّكل ، وتقدَّمتُ فى استجادة الجلود ، وفى تمييز الصنَّاع ، وفى تخيُّر البِياعات[3] ، وغرِمت المال ، وشَغَلت البال ، وجعلتها مصحفًا مصحفا ، وأجملتها صِنفًا صِنفا ؛ ورأيت أنِّى قد أحكمت شأنى ، وجمعت إلىَّ أقطارى ، رأيتُ أن أنظر فيها وأنا مستلقٍ ولا أنظر فيها وأنا منتصبٌ ، استظهاراً على تَعب البدن ؛ إذْ كانتِ الأسافل مُثْقلة بالأعالى ، وإذ كان الانتصاب يُسرع فى إدخال الوهَن على الأصلاب ؛ ولأنَّ ذلك أبقى على نور البصر ، وأصلَح لقوَّة الناظر ؛ إذْ كلُّ واحدٍ من هذه المصاحف قد أعجزَ يدِى بثِقَل جِرْمه ، وضيَّق صدرى بجفاء حجمه . وإذا ثقُل أنْكأَ الصدرَ ، وأوهنَ العظمَ .

---

(١) فى الأصل : « وحط عناية » .

(٢) هذا من شواهد استعمال « بعض » مقرونة بأل فى قديم الآثار . وإن كان الأصمعى قد أنكره أشد الإنكار حين سئل عن قول ابن المقفع : « العلم كثير ولكن أخذ البعض خير من ترك الكل » . وأنكره أبو حاتم أيضاً وقال : « ولا تقول العرب الكل ولا البعض ، وقد استعمله الناس حتى سيبويه والأخفش فى كتبهما لقلة علمهما بهذا النحو ، فاجتنب ذلك فإنه ليس من كلام العرب » . وقال الأزهرى : « النحويون أجازوا الألف واللام فى بعض وكل وإن أباه الأصمعى » . اللسان (بعض) .

(٣) فى الأصل : « الساعات » ، وليس لها وجه ، والوجه ما أثبت . والبياعات : الأشياء التى يتبايع بها فى التجارة . وانظر الحيوان ٤ : ٣٦٩ . وفى اللسان : « والبياعة : السلعة » .

وإذا أنا نظرت فيها وأنا جالسٌ سدِرَتْ عينى[1] ، وتقوَّس ظهرى ، واجتمع الدمُ فى وجهى ، وأكرهتُ بصَرى على غير جهته ، وأجريت شُعاع ناظرى فى غير مجراه . ٩٧ و

وقد علمتَ – أبقاك الله – مع خِبرتك بمقابح الأمور ، ومواقع المنافع والمضارّ ، ثم بمصالح العباد والبلاد ، أنَّ من كان على مَقْطَع جبل ، أو على شُرُفات قصر ، فأراد رؤية السماء على بُعدها ، وجَد ذلك على العين سَهلا خفيفاً ، وإن أراد أنْ يرى الأرضَ على قُربها ، وجد ذلك على العين عِبئًا ثقيلا . فإن بدا لى أن يُقابل عينى به العبدُ ، أو تُواجِهَنى به الأمة ، كلّفتُ أخرقَ النَّاس كفًّا ، وأقلَّهم وَفْقا[2] ، وأكثرهم التفاتا ، وأحضرَهم نعاسا ، وأقلَّهم على حالٍ واحدة ثَباتا ، وأجهلَهم بمقدار الموافقة ، ولِمقادير المقابلة ، وبحطِّ اليد ورفعها ، وإمالتها ونصبها . ثم رأيتُ فى تضجُّرهم وتكرُّههم وفِرارهم منه ، ماصيَّر تجشُّمى لثقَل وزنه ، ومُقاساتى لجفاء حَجْمه ، أهونَ على يدى ، وأخفَّ على قلبى . فإن تعاطيتُه عند ذلك بنفسى فشقاءٌ حاضر ، وإن ألزمتُه غيرى فغيظٌ قاتل . وحتَّى صارت الحال فيها داعيةً إلى ترك دَرْسها والمعاودة لقراءتها ، مع ما كان فيها من الفائدة الحسنة ، والمنافع الجامعة ، ومِن شَحْذ الطبيعة ، وتمكين حُسن العادة .

ولو لم يكن فى ذلك إلا الشُّغلَ عن خَوض الخائضين ، والبُعد عن لهو اللَّاهين ، ومن الغِيبة للناس والتمنِّى لما فى أيديهم ، لقد كان نفعُ ذلك كثيراً ، وموقعُه من الدِّين والفرض عظيما .

---

(١) سدر بصره سدراً : تحير فلم يكد يبصر . (٢) الوفق ، بالفتح : الموافقة .

ومتى ثقُل الدرس تثاقلت النفس ، وتقاعست الطبيعة . ومتى دام الاستثقال أحدثَ الهجران . وإذا تطاولَ الكدّ رسَخ الزُّهد . وفى ترك النَّظر عَمى البَصر ، وفى إهمال الطبيعة كلال حدّ الطبيعة . وعلى قدر الحاجات تكون الخواطر ، كما أنَّه على قدر غريزة العقل تصحُّ الحوائج[١] وتسقَم ، وعلى قدر كثرة الحاجة تتحرَّك الجارحة ويتصرَّف اللسان ، ومع قلة الحركة وبُعد العهد بالتصرُّف يَحدُث العى ويَظهر العجز ويُبطئُ الخاطر . ومع ذهاب البيان[٢] يفسد البرهان ، وفى فساد البرهان هلاكُ الدُّنيا وفساد الدِّين .

٩٧ ظ فقد بلغتَ ما أردتَ ، ونِلتَ ما حاولت . فحسُبك الآن من شَجّ من يأسوك ، ومن قَتْل من يُقتَل فيك .

جُعِلت فداك . إنّه ليس يومى منك بواجد ، وأنا على عقابك أوجَد . وليس يُنْجينى منك مَعقِل وَعِل ، ولا مَفازة سبُع ، ولا قَعر بحر ، ولا رأسُ طَود ، ولا دَغَل ولا دَحْل[٣] ، ولا نَفقٌ ولا مغارة ولا مطمورة . وليس ينجينى منك إلاَّ مفازة المهلَّب[٤] . فإن أعرتنى قلبَه وعلّمتَنى حيلته ، وأمكنتَنى من سِكِّينه . وإلاَّ فأنا أوّل من ابتلعته تلك الحيّة . ولا والله إنْ لى

---

(١) فى الأصل : « الجوانح » . والجوانح : الضلوع ، أو القصار منها . والوجه ما أثبت . وانظر ما قبله وما بعده .

(٢) بذا صححها ناشر ط . وفى الأصل : « البرهان » .

(٣) الدغل بالتحريك : الشجر الكثير الملتف . والدحل ، بالفتح : هوة تكون فى الأرض وفى أسافل الأودية يكون فى رأسها ضيق ثم يتسع أسفلها . وفى الأصل : « دخل » تصحيف .

(٤) كذا فى الأصل .

قوةٌ على الثُّعبان[١] ، فكيف التِّنِّين . أعفِنى من حيّة المهلّب ثم اقتلْنى أىّ قتلةٍ شئت .

إن احترستُ منك ألفيت لنفسى كدًّا شديداً ، وغمًّا طويلاً ، وطال اغترابى وافتراقُ ألاّفى ، وتعرَّضت للعدوّ ، وتحرَّشْت بالسباع . فإن استرسلتُ إليك لم ترَ أن تقتلنى إلاَّ شرَّ قتلةٍ وآلمها ، ولمْ تعذِّبنى إلا بأشدّ النِّقم وأطولها . ولو أردتَ ذبحى لاخترتَ الكليل على المُرهَف ، والتَّطويل على التذْفيف[٢] ، حتى كأنّى علَّمت عليك : « شاه مات[٣] » ، أو أكلت سبعةً وأطعَمْتُك واحدة .

ولقد تقدَّمتَ فى المكر واستظهرتَ علىَّ فى الكيد ، حتى تولّيت ذلك فى صغار كتبى وفيما لا تحفِل به من دوام أمرى ، وعلمتَ أن الدَّرس لليل وأن الا . . . . . .[٤] للنهار ، وأنَّ الكتاب لا يقرأ إلاَّ ليلاً والنِّيرانُ زاهرة ، والمصابيح مُقرَّبة . وعلمتَ أنَّ كلَّ من ضعُف بصره وكلَّ نظره ، فإنّه أبداً أقربُ مصباحاً وأعظم ناراً . وأنَّ[٥] المحرور المحترق ، والممرور الملتهب ، والبائس المتهافت ، إذا كان صاحبَ كتب ودرس ، أنّه لا يجد

(١) أى ما بى قوة عليه .

(٢) التذفيف بالذال المعجمة : الإسراع فى القتل .

(٣) أى لحقك من الغيظ ما يلحق اللاعب بالشطرنج من قول صاحبه له : « شاه مات » .

(٤) بياض فى الأصل . وإزاءه فى هامش النسخة « حراوبه » .

(٥) فى الأصل : « فإن » .

بدًّا من الصبر على ما يُحرقه ويُعميه ، أو الترك للقراءة فيها والتعرُّض لها . فخيّرتَنى بين العمى والجهل . وما فيهما حظٌّ لمختار .

وقلتَ : إذا سَخُن[٢] بدنه سُجِن بوله ، وإذا سُجِن بوله جَرحَ مثانتَه وأحرق كُليته ، وطبَخ فضول غِذائه ، وجَفّف ما فضل عن استمرائه فأحاله حصًى قاتلاً وصخراً جامداً ، وهو دقيق القضيب ضيِّق الإحليل ، فإذا حصاه يورثه الأُسْر[٣] ، وفى ذلك الأُسر تلفُ النفس أو غاية التعذيب .

وقلتَ : فإن ابتليتُ بطول عمره أقام فينا مشغولاً بنفْسه ، وإن ذهبَ ٩٨ و
عنّا فقد كفانا مؤونة الحيلة فى أمره .

جُعلتُ فِداك ، ما هذا الاستقصاء وما هذا البلاء ؟ ! وما هذا التتبُّع لغوامض المسألة ، والتعرُّض لدقائق المكروه ؟ ! وما هذا التغلغل فى كل شىء يُخْمل ذكرى ؟ ! وما هذا الترقّى إلى كلّ ما يحطُّ من قدرى ؟ !

وما عليك أن تكون كتبي كلها من الورق الصِّينىّ ، ومن الكاغَد الخُراسانىّ ؟ !

قل لى : لِمَ زيّنتَ النَّسخَ فى الجلود ، ولمَ حثثتنى على الأَدَم ، وأنت تعلم أنّ الجلودَ جافية الحجم ، ثقيلة الوزن ، إن أصابها الماء بَطَلت ، وإن كان يومٌ لَثَقٍ استرخت . ولو لم يكن فيها إلاّ أنّها تبغّض إلى أربابها نزولَ الغيث ، وتكرّه إلى مالكيها الحَيا ، لكان فى ذلك ما كفَى ومنعَ منها .

---

(١) فى الأصل : « سجن » .

(٢) الأسر ، بالضم : احتباس البول . فى الأصل : « فأرى حصاه » .

قد علمتَ أنّ الورّاق لا يخطُّ فى تلك الأيام سطرا ، ولا يقطع فيها جلدا . وإن نَديت ـ فضلاً على أن تُمطَر ، وفضلاً على أن تَغرق ـ استرسلَتْ فامتدَّت . ومتى جفّت لم تَعُد إلى حالها إلاَّ مع تقبُّض شديد ، وتشنُّج قبيح . وهى أنتن ريحًا وأكثر ثمنًا ، وأحملُ للغش : يُغَشُّ الكوفىّ بالواسطىّ ، والواسطىّ بالبصرىِّ ، وتعتَّق لكى يذهب ريحها وينجابَ شعرها[(١)] . وهى أكثر عُقداً وعُجَراً ، وأكثر خباطاً وأسقاطاً ، والصُّفرة إليها أسرع ، وسُرعة انسحاقِ الخطِّ فيها أعمّ . ولو أرادَ صاحبُ علم أن يحمل منها قدرَ ما يكفيه فى سَفَره لما كفاه حِملُ بعير . ولو أراد مثل ذلك من القُطْنىّ[(٢)] لكفاه ما يحمل مع زاده .

وقلت لى : عليك بها فإنها أحمل للحكِّ والتغيير ، وأبقَى[(٣)] على تعاور العاريّة وعلى تقليب الأيدى ، ولرَدِيدِها ثمن ، ولطرسها مَرجوع ، والمعاد منها ينوب عن الجُدُد . وليس لدفاتر القطنىّ أثمانٌ فى السُّوق وإن كان فيها كلُّ حديث طريف ، ولَطَفٍ مليح ، وعلم نفيس . ولو عرضتَ عليهم عِدْلها فى عدد الورق جلوداً ثم كان فيها كلُّ شِعر بارد وكلُّ حديث غثّ ، لكانت أثمنَ ، ولكانوا عليها أسرع .

وقلت : وعلى الجلود يعتمد فى حساب الدواوين ، وفى الصِّكاك ٩٨ ظ
والعهود ، وفى الشُّروط وصُوَر العقارات . وفيها تكون نَموذجات النقوش ،

---

(١) فى الأصل : « شعره » .

(٢) أى المصنوع من القطن .

(٣) فى الأصل : « وأبقاه » .

ومنها تكون خرائط البُرُد[١] . وهنَّ أصلح للجُرُب ولعِفاص الجَرَّة وسِداد القارورة . وزعمَّت أنَّ الأَرَضة إلى الكاغَد أسرع ، وأنكرت أن تكون الفأرة إلى الجلود أسرع ، بل زعمت أنها إلى الكاغد أسرع وله أفسد ، فكنتَ سببَ المضرَّة فى اتِّخاذ الجلود والاستبدال بالكاغد ، وكنتَ سببَ البليّة فى تحويل الدفاتر الخِفاف فى المَحمل ، إلى المصاحف التى تُثقل الأيدىَ وتحطِّم الصدور ، وتقوِّس الظهور ، وتُعمى الأبصار .

وقد كان فى الواجب أن يدع النـاس اسم المصحف للشىء الذى جمع القرآن دونَ كل مجلَّد[٢] ، وألاَّ يَرُوموا جمع شىء من أبواب التعلُّم بين الدَّفَّتين ، فيُلحقوا بما جعله السَّلفُ للقرآن غيرَ ذلك من العلوم .

دعْ عنك كلَّ شىء . ما كان عليك أن يكون لى ولدٌ يُحيِي ذكرى ويَحوى ميراثى ، ولا أخرجَ من الدنيا بحسرتى ، ولا يأكلَه مُراءٍ يرصُدنى ، وابن عمٍّ يحسُدنى ، ولا يرتع فيه المعدِّلون فى زمان السَّوء[٣] ، ولا تُصطنع فيه الرجال ، ويُقضَى به الذِّمام . فقد رأيتَ صنيعَهُم فى مال المفقود والمناسخة[٤] والوارثِ الضعيف ، ومن مات بغير وصية .

---

(١) الخريطة : هنة مثل الكيس تكون من الخرق أو الأدم تشرج على مافيها. والبرد : جمع بريد .

(٢) الجاحظ استعمل كلة « المصحف » للدلالة على المجلد فى نهاية كل جزء من أجزاء الحيوان . انظر مقدمة الحيوان ص ٢٨ .

(٣) المعدلون : الذين يقيمون الأحكام .

(٤) التناسخ والمناسخة فى الميراث : موت ورثة بعد ورثة وأصل الميراث قائم لم يقسم .

من تدبيرهم نادراً [بديعًا(١)] ، ولـكان فى مكايدهم شاذًّا غريبا . وإنَّها لترتفع عن قَصِيرٍ فى كيد الزَّبّاء ، وعن جَذيمةَ فى مشاورة قَصير . وما إخالُها إلَّا ستدقُّ على ابن العاص ، وتغمُض على ابن هِنْـــد(٢) ، ويكلُّ عنها أخو ثَقِيف(٣) ، ويستسلم لها ابن سُمَيَّة(٤) .

٩٩ ظ هذا والله التَّدبير لا مَخَاريق العَرَّاف ، وتزاويق الـكاهن ، وتهاويل الحاوى(٥) ، ولا ما ينتحلها صاحب الرَّئِىّ(٦) ؛ بل تضلُّ فيها رُقَى الهند ، وتقرُّ بها سحرة بابل .

فلو كنتَ إذْ أردتَ ما أردتَ ، وحاولتَ ماحاولت ، رفعتَ قبل كلِّ شىء المؤانسة ، ثم أبيتَ المؤاكلة ، ثم قطعت البرّ(٧) ، ثم أذنت مع العامَّة ، ثم أعملتَ الحرمان ، ثم صرَّحت بالجفوة ، ثم أمرت بالحجاب ، ثم صرمت الحبل ، ثم عاديتَ واقتصدت، ثم من بعد ذلك كلِّه أسرفتَ واعتديت ، لـكنتُ

(١) التـكملة من ب .

(٢) هو عمرو بن هند .

(٣) يعنى الحجاج بن يوسف .

(٤) يعنى زياد بن أبيه

(٥) انظر الحيوان ٤ : ٣٧٠ .

(٦) الرئى : جنى يتعرض للرجل يريه كهانة وطبا ، يقال مع فلان رئى وقد أرأى الرجل ، إذا صار له رئى من الجن . فى الأصل : « صاحب الرى » وفى ب : « ينتجها صاحب الدين » ، والصواب ما أثبت . انظر الحيوان ٤ : ٣٧٠ ، ٦ : ٢٠٣ .

(٧) فى الأصل : « الستر » .

واحداً ممّن يصبر أو يجزع ، فلعلِّى كنت أعيش بالرَّفَق[١] ، وأتبلّغ بحُشاشة النفس ، وأعلِّل نفسى بالطمع الكاذب . ولكن لجاءات الحوادث وبَغتَات البلاءِ لا يَقُوم لها الحجر القاسى ، ولا الجبل الراسى . فلم تَدَعْ غايةً فى صرف ما بين طبقات التعذيب إلّا أتيت عليها ، ولا فضولَ ما بين قواصم الظهر إلّا بلغتها . فقد مِتُّ الآن فمع مَن تعيش ؟ [بل قد قتلتنى فمَن الآن تعاشر[٢] !] ، كما قال ديوست المغنِّى لكسرى حين أمَر بقتله لِقتْله تلميذَه بلهبذ[٣] : قتلتُ أنا بلهبذ ، وتقتلنى ، فمن يُطرِبُك ؟ قال : خلُّوا سبيلَه ؛ فإنّ الذى بقى من عمره هو الذى أنطقَه بهذه الحجّة .

ولكنِّى أقول : قد قتلتَنى فمع من تعيش ؟ أمَع الشِّطرنجيِّين ؟ ! فقد قال جالينوس : إيّاك والاستمتاع بشىء لا يعمّ نفعه[٤] .

إنّ الكلامَ إنما صار أفضلَ من الصَّمت ؛ لأنّ نفع الصمت لا يكاد يعدو الصَّامت ، ونفع الكلام يعمُّ القائل والسامع ، والغائب والشاهد ، والراهن والغابر .

وقالوا : ومما يدلُّ من فضل الكلام على الصمت ، أنّك بالكلام تخبر عن الصَّمت وفَضْله ، ولا تخبر بالصَّمت عن فضل الكلام . ولو كان

---

(١) الرفق ، بالتحريك : قلة المال . ولعل صوابها « الرمق » .

(٢) التكملة من ب .

(٣) فى الأصل « بلهند » فى هذا الموضع وتاليه .

(٤) الكلام بعده إلى قوله « من سلم » يبدو أنه دخيل من رسالة أخرى ، كما تنبه لذلك ناشرا ط .

الصمتُ أفضلَ لـكانت الرسالةُ صمتًا ، ولـكان عدمُ القرآن أفضلَ من القرآن .

وقد فرّق بينهما رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وفصَّل وميَّز وحصَّل ، حيث قال : « رحم الله امرأً قال خيراً فغنم ، أو سكتَ فَسِلِم » . فجعل حظَّ السكوت السلامةَ وحدها ، وجعل حظَّ القول الجمعَ بين الغنيمة والسلامة . وقد يسلم من لا يغنم ، ولا يغنم إلَّا من سلم .

فأمَّا الدوابُّ فمن يضع المركبَ الـكريم إلى الصَّاحب الـكريم ؟ ومن يَعدل إمتاع بهيمة بإمتاع أديب .

قالت ابنة النُّعمان : لم نر فيما جرّبنا من جميع الأصناف أبلغَ فى خير وشرٍّ ١٠٠ و
من صاحب .

ولمَّا عزمَ ابن زياد على الُحقنة بعد أن كان تفَحَّشها قال له حارثةُ بن بدر : ما أجِد أولى بتولِّى ذلك من الطبيب . قال عُبيد الله : كلّا ، فأين الصاحب .

والله أَنْ لو نُتجتَ فى كلِّ عام ألفَ شَبْديز[١] ، وأحبلت[٢] فى كل ليلة أربعة آلاف ربرب ، وصار لك كلُّ نهر المبارك[٣] بدلًا من بعض بابَك[٤] .

---

(١) الشبديز : ضرب من الخيل قاتم اللون أصدأ ، ولفظه فارسى . معجم استينجاس ٧٣١ . وفى الأصل : « سبدين » ، صوابه فى ب .

(٢) فى الأصل : « وقمرت » وأثبت ما فى ب .

(٣) اسم نهر بالبصرة احتفره خالد بن عبد الله القسرى لهشام بن عبد الملك . وفى الأصل : « المبرك » .

(٤) بابك ، بفتح الباء الثانية : نهر فى بغداد منسوب إلى بابك بن بهرام بن بابك. معجم البلدان (نهر الطابق) .

وأكلتَ رأس الجُنَيد بن حاق الأشيم[1]، وأحبَلتَ ابنَ ألْغزَ[2] من إفراط الشَّبَق، لما كان ينبغي لك أن تعاملنا بهذه المعاملة، ولا كان ينبغي أن تقتلنا هذه القِتلة، ولو اقتصرتَ من العقوبة على شيء دون شيء لكان أعدلَ، ولو عفوتَ البتّة لكان أمثل.

إنَّ الاعتزام على قليل العقاب يدعو إلى كثيره، ومبتدئُ العقاب بعرَض لَجَاج. وليس يُعاقب إلَّا غضبان.

والغضب يغلب العزمَ على قدر ما مُكّن، ويحيِّر اللُّبَّ بقدر ما سُلِّط.

والغضب يصوِّر لصاحبه مثلَ ما يصوِّر السُّكر لأهله.

والغضبان يُشعله الغَضَب، ويَغلى به الغيظ، وتستفرغه الحركة، ويمتلئُ بَدنُهُ رعدة، وتتزايل أخلاطه، وتنحلُّ عُقَده، ولا يعتريه من الخواطر إلَّا ما يزيده فى دائه، ولا يسمع من جليسه إلَّا ما يكون مادّةً لفساده. وعلى أنّه ربَّما استُفرِغ حتَّى لا يسمع، واحترق حتَّى لا يفهم.

ولولا أَنَّ الشيطان يريد ألَّا يخلوَ من عمله، ولا يقصِّرَ فى عادته، لما وَسوَس إلى الغَضْبان ولا زَيَّنَ له، ولما أغراه ولا فَتَحَ عليه؛ إذْ كان قد كفاه، وبلغَ أقصى مُناه.

وليس يُصارع الغضبَ أيامَ شبابه وغَربِ نابِه شىءٌ إلَّا صَرَعه، ولا يُنازعه قبل انتهائه وإدباره شىءٌ إلَّا قَهَره. وإنَّما يُحتال له قبل هَيْجه،

---

(١) كذا ورد هذا العلم.

(٢) ابن ألغز: رجل من إياد يزعمون أنه كان أعظم الناس عضواً وأشدهم نكاحا. ثمار القلوب ١١١ – ١١٢ وأمثال الميدانى ٢: ٢٧٣ فى قولهم (أنكح من ابن ألغز) واللسان (لغز). وفى الأصل: « واحتلت بين الغر »، صوابه فى ب.

وَيتُوثَّق منه قبل حركته ، ويُتقدَّم فى حَسْم أسبابه وفى قطع علله . فإمَّا إذا تمسكّن واستفحل ، وأذكى ناره واشتعل ، ثم لاقَى ذلك من صاحبه قُدرة ، ومن أعوانه سمعًا وطاعة ، فلو سَعَطته بالتوراة ، ووجَرتَه بالإنجيل ، ولدَدْتَه بالزَّبور[1] ، وأفرغت على رأسه القرآن إفراغا ، وأتيتَه بآدم عليه السلامُ شفيعًا لما قصَّر دون أقصى قوَّته ، ولتمنَّى أن يُعارَ أضعاف قدرته .

وقد جاء فى الأثر : أن أقربَ ما يكون العبدُ مِن غضب الله إذا غضب .

قال قتادة : ليس يُسكِن الغضبَ إلَّا ذِكر غضب الرحمن عزّ وجلّ .

وقال عمرو بن عبيد : ذكر غضب الربّ يمنع من الغضب . إلّا أن يريد الذكر باللسان[2] .

ويسمَّى المتوجِّد غضبان ، والذَّكور حقودا .

فلا تقفْ ـ حفظك الله ـ بعد مضيِّك فى عقابى التماسًا للعفو عنِّى ، ولا تقصِّر عن إفراطك من طريق الرحمة لى ؛ ولكن قِفْ وقفة من يتَّهم الغضبَ على عقله ، والشيطانَ على دِينه ، ويعلم أنَّ للعقل خصومًا ، وللكرم أعداء .

وإنَّ من التِّصف أن تنتصف لعقلك من خَصمه ، [illegible] لكرمك من عدوّه ، وتُمسك إمساكَ من لا يبرّئ نفسَه من [illegible] ، ولا يبرّئ الهوى من الخطأ .

---

(١) سَعطه الدواء : أدخله فى أنفه بالمسعط . [illegible] الدواء : أدخله فى فمه بالميجر . ولده باللدود : صبه بالمسعط فى أحد شقى [illegible]

(٢) أى إن ذكر غضب الرحمن باللسان لا يصح [illegible] إنما مراده ذكر [illegible] بالقلب والفكر .

ولا تُنكر لنفسك أن تزلّ ، ولعقلك أن يهفو ؛ فقد زلّ آدمُ عليه السلامُ وهفَا ، وعصَى ربَّه وغَوى ، وغرّهُ عدوُّه وخدعَه خصمُه ، وعيب باختلال عزمه وسكون قلبه إلى خلاف ثقته[١] . هذا وقد خلقَه الله بيده ، وأسكنَه فى دار أمنه ، وأسجَدَ له ملائكتَه ، ورفع فوق العالمِين درجته ، وعلَّمه جميع الأسماء بجميع المعانى . ولا يجوز أن يعلِّمه الاسَم ويدعَ المعنى ، ويعلِّمه الدلالة ولا يضع له المدلول عليه . والاسم بلا معنًى لغوٌ ، كالظَّرف الخالى . والأسماء[٢] فى معنى الأبدان والمعانى فى معنى الأرواح . اللَّفظ للمعنى بدَنٌ ، والمعنى للَّفظ روح . ولو أعطاه الأسماء بلا معانٍ لكان كمن وهبَ شيئاً جامداً لا حركة له ، وشيئاً لا حسَّ فيه ، وشيئاً لا منفعة عنده .

ولا يكون اللفظ اسماً إلاّ وهو مضمَّن بمعنى ، وقد يكون المعنى ولا اسم له ، ولا يكون اسمٌ إلاّ وله معنًى .

فى قوله جلّ ذكره : ﴿ وعَلَّمَ آدمَ الأسماء كلَّها[٣] ﴾ إخبارٌ أنّه قد علَّمه المعانىَ كلَّها . ولسنا نعنى معانىَ تراكيبِ الألوان والطُّعوم والأراييح ، وتضاعيف الأعداد التى لا تنتهى ولا تتناهى . وليس لما فضلَ عن مقدار المصلحة ونهاية الرسم اسمٌ إلاّ أن تدخله فى باب العلم فتقول : شىء ، ومعنًى .

الأسماء التى تدور بين الناس إنّما وُضِعتْ علاماتٍ لخصائص الحالات ،

---

(١) فى الأصل : « نعته » ، وأثبت ما فى ب .

(٢) فى الأصل : « والاسم » .

(٣) الآية ٣١ من سورة البقرة .

لا لنتائج التركيبات. وكذلك خاصّ الخاصّ لا اسمَ له إلاّ أن تجعل الإشارة المقرونة باللفظ اسماً.

وإنما تقع الأسماء على العلوم المقصورة، ولعمرى إنّها لتُحيط بها وتشتمل. فأما العلوم المبسوطة فإنّها تبلغ مبالغ الحاجات ثم تنتهى. ١٠١ و

فإذا زعمتَ أنّ الله تبارك وتعالى علّمَ آدمَ الأسماءَ كلَّها بمعانيها، فإنّما تعنى نهاية المصلحة لا غير ذلك. هذا وآدم هو الشجرة وأنت ثمرة، وهو سماوىٌّ وأنت أرضىّ، وهو الأصل وأنت الفرع، والأصل أحقُّ بالقوّة والفرعُ أولى بالضَّعف.

فلست أسالك أن تمسك إلاّ ريثما تَسكُنُ إليك نفسُك، ويرتدُّ إليك ذهنُك، وحتّى توازنَ بين شِفاء الغيظ والانتفاع بثواب العفو، وترى الحِلمَ وما يَجلب من السلامة وطيبِ الأحدوثة، وترى تضرُّم الغضب(١) وما يفضى لأهله من فضل القوّة.

على أنّ العقل إذا تخلَّص من سُكر الغضب أصابه ما يُصيب المخمورَ إذا خرج من سكر شرابه، والمنهزمَ إذا عاد إلى أهله، والمُبرسَم إذا أفاقَ من برسامه(٢).

وما أشكُّ أنّ العقلَ حين يُطلَق من إساره كالمقيَّد حين يفكُّ من قيوده؛ يمشى كالنَّزيف، ويَحجِل كالغراب. فإذا وجبَ عليك أن تحذر على عقلك مُخامَرة داء الغضب بعد تخلُّصه، وأن تتعمَّده بالعلاج بعد مباينته له وتخلُّصه

---

(١) فى الأصل: «الغرض».

(٢) البرسام: ذات الجنب، وهو التهاب فى الغشاء المحيط بالرئة. المعجم الوسيط.

من يده ، فما ظنُّك به وهو أسيرٌ في مُلكه ، وصريع تحت كلكله ، وقد غطَّه في بحره ، وغمَره بفضل قوّته .

وقد زعموا أنّ الحسَنَ حضر أميراً قد أفرطَ في عقوبة بعض المُذْنبين ، فكلَّمه فلم يَحفِل بكلامه ، وخوّفه فلم يتّعظ بزجره ، فقال : إنّك إنما تضرب نفسَك ، فإن شئتَ الآن فأقِلّ ، وإن شئتَ فأكثِرْ .

ومَعاذ الله أن أقول لك كما قال الحسنُ لذلك الظالم المعتدى ، والمصمِّم القاسى ، ولكنّى أقول : اعلم أنّك تضرب من قد جعَلك مِن قتلِه فى حِلٍّ . وإن كان القتل يَحلّ بإحلال المقتول ، ويسقط عنه عِقابُه بهبة المظلوم ؛ ولو أمكن فى الدين تواهُبُ قِصاص الآخرة فى الدُّنيا ؛ وإن كان ذلك مما تجود به النفس يومَ الحاجة إلى الثواب وإلى رفع العقاب ، وكان الوفاء مضموناً — لكنتُ أوّلَ من أسمحَتْ بذلك[1] نفسُه ، وانشرحَ به صدرُه .

١٠٠ ظ جُعلت فداك ، إنّى قد أحصيتُ جميعَ أسباب التعادى ، وحصَّلت جميع عِلل التضاغُن ، إلاّ علّة عداوة الشيطانِ للإنسان ؛ فإنّى لا أعرف إلاّ مجازَها فى الجملة ولا أحقُّ خاصّتها على التحصيل . وعلى حالٍ[2] فقد عرفتها من طريق الجملة وإنْ جهلتُها من طريق التفصيل . فأما هذا التجنّى فلم أعرفه فى خاصٍّ ولا عامّ .

فمن أسباب العداوات تنافسُ الجيران والقرابات ، وتحاسُد الأشكال فى الصناعات . ومن أمتن أسبابهم إلى الشرّ وأسرعها إلى المروءة والعقل ،

---

(١) فى الأصل : « ذلك » . أسمحت : أطاعت وانقادت .

(٢) كذا فى الأصل وب . وإخالها من لغة الجاحظ ، وليس ما يدعو إلى أن تجعل « وعلى كل حال » .

وأقدحها فى العِرض وأحطبِها على الدين[١] ، التشاحُّ على المواريث ، والتنازع فى تخوم الأرَضين . فإن اتَّفق أن يكون بين المتشاكلين فى القرابة كان السببُ أقوى ، والداءُ أدوَى . وعلى حساب ذلك إن جمعتَ هذه الخصومةَ مع الجوار والقرابة واستواء الحظّ فى الصناعة . ولذلك كتب عمر رضى الله عنه إلى قضاته : أن ردُّوا القرابات عن حَرَا القضاء[٢] فإن ذلك يورث التضاغن .

ولم أعجب من دوام ظلمك ، وثباتك على غضبك ، وغِلَظ قلبك ، ودُورُنا بالعسكر متجاورة ، ومنازلنا بمدينة السَّلام متقابلة ، ونحن ننظر فى علمٍ واحد ، ونرجع فى النحلة إلى مذهب واحد ؛ ولكن اشتدَّ عجبى منك اليومَ وأنا بفَرْغانة وأنت بالأندلس[٣] ، وأنا صاحب كلام وأنت صاحب نِتاج ، وصِناعتك جودة الخطّ وصناعتى جَودة المحو[٤] ، وأنت كاتبٌ وأنا أمّىّ ، وأنت خَراجىٌّ وأنا عُشرىّ ، وأنت زرعىٌّ وأنا نخلىّ . فلو كنت إذ كنتَ من بكر كنتُ من تميم ، كان ذلك[٥] إلى العداوة سبباً ، وإلى المنافسة سُلَّما .

أنت أبقاك الله شاعر وأنا راوية ، وأنت طويلٌ وأنا قصير ، وأنت أصلَعُ وأنا أنزع ، وأنت صاحب براذينَ وأنا صاحب حمير ، وأنت ركينٌ وأنا عَجُول ، وأنت تدبّر لنفسك وتُقيم أَوَدَ غيرك ، وتتّسع لجميع الرعيّة ، وتبلغ

---

(١) الحطب : الجمع للجيد والردىء ، والمراد الإفساد .

(٢) الحرا : الساحة والناحية . وفى الأصل : « حر القضاء » ، مع ضبط الحاء بالفتح .

(٣) فرغانة ، بالفتح : مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر ، متاخمة لتركستان .

(٤) كذا فى ب وفى الأصل : « النجوم » .

(٥) فى الأصل « كان لك » .

بتدبيرك أقصى الأمة ، وأنا أعجز عن نفسى وعن تدبير أَمَتى وعبدى . وأنت منعم وأنا شاكر ، وأنت ملك وأنا سُوقة ، وأنت مصطنِع وأنا صنيعة ، وأنت تفعل وأنا أصِف ، وأنت مقدَّم وأنا تابع ، وأنت إذا نازعتَ الرجالَ وناهضتَ الأكفاء لم تقل بعد فراغك وانقطاع كلامك : لو كنت قلتُ كذا كان أجود ، ولو تركت قول كذا لكان أحسن ؛ وأمضيتَ ١٠٢ و
الأمور على حقائقها ، وسلّمت إليها أقساطها على مقادير حقوقها ؛ فلم تندم بعد قول ، ولم تأسف بعد سكوت . وأنا إن تكلّمت[1] ندمتُ ، [وإن جاريت أبدعت[2]] ورأيِي كلّه دَبَرِيّ . وأنت تُعدُّ فى الشطرنج زبرب ، وأنا فى الشِّطرنج لا أحد[3] .

وما أعرف ها هنا اجتماعاً على مشاكلة إلا فى الإيثار بخُبز الخُشْكار على الحُوَّارَى[4] ، والباقلّى على الجَوْزينج[5] ، وأنّا جميعاً ندّعى الهندسة .

---

(١) م : « حلمت » .

(٢) التكملة من م وفيها : « جازيت » ، وفى ب : « وإن حاريت هربت » . أبدع ، بالبناء للمجهول وللمعلوم أيضا : كلت راحلته أو عطبت .

(٣) ب : « لا جد » .

(٤) فى الألفاظ الفارسية ٥٥ : « الخشكر : ماخشن من الطحن ، فارسيته خشكار ، وهو القصرى » . وانظر استينجاس ٤٠٢ والبخلاء ٨٤ . والقصرى ، كبشرى : ما يبقى فى المنخل بعد الانتخال ، أو القشرة العليا من الحبة والحوارى بضم الحاء وتشديد الواو وفتح الراء : الدقيق الأبيض ، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه .

(٥) الباقلى : بتشديد اللام مقصورة ، ومثله الباقلاء بتخفيف اللام مع المد : الحب المعروف بالفول والجِرجر ، وهو الباقلاء النبطية ، أما الباقلاء المصرية فهى الترمس . اللسان ، وتذكرة داود . والجوزينج : ضرب من الحلوى يصنع من الجوز . ويقال له جوزنيق أيضاً ، فارسيته « كوزينه » . الألفاظ الفارسية ٤٨ .

فقد بلغ الآن من جُرمى فى مساواتك فى خبز الخُشكار، وإيثارى الباقلّى، والمعرفة بتقدير المدُن وإجراء القُنىّ، أن أُنفَى من جميع الأرض، وأن تجمل فى دمى الجعائل[1]؛ فإنّى قد هجرت الخُبزَ البتّةَ إلى مواصلة التّمر، ونزلت الوبرَ بدلاً من المدر.

دعْنا الآن فإنّك فارغ. إن الله يعلم - وكفى به عليماً، وكفى به شهيداً، وكفى به حفيظاً ووكيلاً، وكفى بجرأة من يعلّمه مالا يعلم جُرأةً وتعرُّضاً، وكفى بحاله عند الله بُعداً ومقتاً - لقد أردتُ أن أفديك بنفسى فى بعض كتبى، وكنت عند نفسى فى عِداد الموتى وفى حيِّز الهلكى، فرأيت أنّ من الخيانة لك ومن اللؤم فى معاملتك، أن أَفديك بنفسى ميتة، وأن أُرِيَك أنّى قد جُدتُ لك بأنفس عِلْق والعِلق معدوم. ليس أنّ من قد فدّاك فقد جُعل فِداك، ولكنّها نهايةٌ من نهايات التعظيم، ودليل من دلائل الاجتهاد. ومن أعلنَ الاجتهاد لك واستسرَّ خلافَ ذلك فقد نافق وخان، وغشَّ وألَامَ[2]. وأخلِقْ بمن أخلَّ بهذه ألاّ يرعَى حقّا، ولا يرجع إلى صحّة ولا إلى حقيقة.

ثم أنت لا يَشفيك منّى السمُّ المجْهِز، ولا السمُّ السارى؛ فإنه أبعد غايةً فى التطويل وأبلغ فى التعذيب. لا ولا لُعاب الأفاعى وداهيةُ الدَّواهى، فإنّه يُعجز الرُّقَى ويفُوت ذَرع الأطبّاء. لا ولا نارُ الدُّنيا، بل لا يشفيك من نار الآخرة إلاّ الجحيم، ولا يَشفيك من الجحيم ألا أن أُرى فى سَوائه[3] وفى

(١) الجعائل: جمع جعالة، وهى بتثليث الجيم ما يجعل فى مقابل العمل.

(٢) ألام: أتى بما يلام عليه.

(٣) سواء الشىء وسطه.

أُصطمَّة ناره[١] ، وفى معظم حريقِه ، وفى موضع الصَّميم من لهيبهِ . بل لا تكتفى بذلك دون الدَّرَك الأسفل ، بل لا يُرضيك شىء سوى الهاوية ،
١٠٣ ظ بل لا تَرضَى إلاّ بعذاب آل فرعون ، أشدّ العذاب ، بل لا يرضيك إلاّ عذاب إبليس الذى زيَّن الخَتْر للعباد ، وبثّه فى البلاد ، والذى خطّأ الربّ وعاندَه وردَّ قولَه ، وغيَّر عليه تدبيره ، ولم يزده إلاّ شكّاً ولجاجة ، وتمادياً[٢] وإصراراً . ثم لم يرضَ من الجدّ فى مخالفة أمره ، وخَلْع العذار فى شدّة الخلاف عليه إلاّ بأن يحلفَ على شدّة اجتهاده فى ذلك بعزّته ، فجعلَ العزّةَ المانعة من إسخاطه سبيلاً إلى إسخاطه ، والقسَمَ الحاجز دون إغضابه وسيلةً إلى إغضابه ، حيث قال : ﴿ فبعزّتكَ لأُغوينَّهم أجمعين[٣] ﴾ .

فعليك عافاك الله بإبليس إن كنتَ لله تغضب ، أو عليك بالأكفاء إنْ كنت لنفسك تتشفَّى .

لا ولكنَّك استغمرتنى واستضعفتنى ، وجعلتنى فَرُّوجَ الرفّاء[٤] ، وتريد أن تتعلَّم فىَّ معاقبةَ الأعداء . فإن كنت إلى هذا تذهب فجعفر بن معروف أضعفُ منى ، وعبد الله بن عيسى أسوأ خبراً منّى .

سبحان الله ، يَسلَم عليك حَيدر الأفشين[٥] ، ويهلك عليك عمرٌو الجاحظ ،

---

(١) الأصطمة والأسطمة : الوسط والمجتمع .
(٢) فى الأصل : « تباينا » ، صوابه فى ب .
(٣) الآية ٨٠ من سورة صٓ .
(٤) الفروج ، لعل المراد به الدجاجة ، وهى كبة الغزل .
(٥) يذكر ابن خلكان ٢ : ٦٥ أنه بفتح الخاء المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها . قال: «وإنما قيدته لأنه ينصحف على كثير من الناس بحيدر بالحاء المهملة» واسم أبيه كاوس ، كما فى الأغانى ٧ : ١٤٧ ، ١٢ : ٦٤ .

ويسعد[١] بك أبعدُ البعداء ويشقى بك أقرب القرباء . وتتغافل عن مثل الجبال التماساً للتسلُّم وحبًّا للسلامة ، وتَغَلْغَلُ إلى المحقَّرات طلباً للتمرُّض وحبًّا للشرّ .

ومتى قدرتَ على عدوّك فلم تجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه ، ومتى لم تتغافل عنه تكرُّما أو تدعْه احتقاراً ، ومتى اكترثت لكبير وضاقَ صدرُك عن شيء عظيم فهأنذا بين يديك ، فكُلْنى بخلّ وخردل ؛ فوالله إنَّك لتأكله غَثًّا غير مرىء ، وخبيثاً غير شهىّ .

لا والله ، لكأنَّك وقعتَ على مطمورة ، وظفرت برأس خاقان . كنت أظنّ أنّ الرشاقة والحلم لا يجتمعان ، وأنّ ظَرْف الإنسان وأصالة الرأى لا يفترقان[٢] ، وأنّ النَّزَق والخفّة مقرونان بخفّة البدن ، وأنّ الرَّكانة والأناة مجموعان لصاحب السِّمَن ، حتى رأيتُك فاعتقدت بك خلاف ذلك الرأى ، واستبدلت فيك ضدَّ ذلك الظَّنّ . فتركتنى حتى إذا نازعتُ الرجال ، وتعرّضت للشَّجَى ، وشغلتُ نفسى بثلبِ الخِصام[٣] ، وانقطعتُ إلى أصحاب القُدود ، وجعلت عُدَوائِى[٤] فى تقديم القِضاف[٥] ، وطال لِسانى ، وأظهرت الاستبصار فى فضلك ، وجعلت مِزاج أخلاطك هو الحجة ، واعتدالك هو النهاية ، وطبيعتَك ١٠٣ و

(١) فى الأصل : « ويسود » .

(٢) فى الأصل : « وإطالة الرأى لايعترفان » .

(٣) لعل صوابها : « القصار » .

(٤) العدواء : الشغل . وفى الأصل : « عداوتى » .

(٥) جمع قضيف ، وهو المشوق الجسم .

هى المُسْكة[١] ؛ وزعمتُ أنّ منظرك يغنى عن مخبرك ، وأنّ أوّلك يُجلّى عن آخرك ـ شددتَ علىّ شَدّة المُهر الأرِن ، وتسرّعتَ إلى تسرُّع الغِرّ النَّزِق ، وألححت [علىّ[٢]] إلحاحَ اللَّجوج الحنِق . كأنّك لم تحفل بما يشيع لك من اسم المتسرّع ، وبما تضاف إليه من سُخف المَترّع[٣] ، بعد أن تكذّب قولى وتفنِّد خبرى[٤] .

وقد تقدمتِ التجربةُ أن الحديد لا يكون حقوداً[٥] ، وأن المصطنع لا يكون للصنيعة حاسداً ، فقصدتَ على رأسٍ[٦] إلى القياس الممتحَن فأفسدته ، وإلى الطبائع المعتدلة فنقضْتها ، وإلى القضايا الصحيحة فرددتَها .

وقالوا بأجمعهم : حالان لا تقبلان الحسد ، ولا يخلوان من الرَّشَد : حال الصَّنيعةِ لمصطنِعه[٧] ، وحال المولى لمُعْتقه . فكيف إذا كان الصَّنيعة صديقاً ، وكان للخاصّة محتملا .

وإنما صارت — أبقاك الله — أجزاء النفس وأعضاء الجسد مع كثرة عددها ، واختلاف أخلاطها ، وتباعُد أماكنها ، نفسًا واحدة وجسدًا واحدا ،

---

(١) المسكة ، بالضم : القوة ، والعقل . وفى الأصل : « المسكتة » .

(٢) التكملة من ب .

(٣) المترع : الشرير المسارع إلى مالا ينبغى له . وفى الأصل : « المتبرع » .

(٤) التفنيد : التكذيب . وفى الأصل : « وتفسد » .

(٥) الحديد : ذو الحدة ، وهى الغضب والنشاط والسرعة فى الأمور ولكن الحجاج بن يوسف كان يقول : « أنا حديد حقود » . الحيوان ٣ : ٤٧٠ / ٥ : ٥٩٢ والبيان ٣ : ٢٥٥ .

(٦) فى الأصل « على رأسى » .

(٧) يقال فلان صنيعة فلان ، إذا اصطنعه وأدبه وخرجه ورباه .

لاستواء الخواطر ، ولاتّفاقها على الإرادة . فأنت وصديقُك الموافق ، وخليلك ذو الشكل المطابق ، مستويان فى المَحَابّ ، متّفقان فى الهوى ، متشاكلان فى الشّهوة ؛ وتعاونـكما كتعاون جوارح أحدكما ، وتسالمكما كتسالم المتّفق من طبائعكما . فإذا بانَ منك صديقُك فقد بانَ منك شَطرُك ، وإذا اعتلّ خليلك فقد اعتَلّ نصفك ، بل النفوس المضمّنة كالمعانى المضمَّنة ، فذهاب بعضها هو ذهابُ جميعها . فموتى هو موتُ صديقى ، وحياتى هى حياة صديقى . فلا تبعدنَّه من قلبك بُعدَ بدنه من بدنك ؛ فقد يقرُب البغيض وينأى الحبيب . ولعلّ بعضَ طبائعك المخالط لروحك ، أن يكون أعدى من كلّ عدو ، وأقطعَ من كلّ سيف ، وأخوفَ عليك من الأسَد الضارى ، ومن السمّ السارى .

ثم اعلم أنَّ الموثَّق بمودَّته قليل ، وقد صار اليومَ المعتمدُ عليه فى صحةّ العُقدة ، وفى كرم الغَيب والعِشرة ، عنقاءَ مُغْرِبٍ[1] . ولا أعلم الكبريت الأحمرَ إلاّ أوجَدَ منه . وإنى لأظنُّ القناعةَ أكثرَ منه . وما أكثرَمَن جعل انقطاع سببه وضعف طمعه لانقِطاع سببه قناعةً . ١٠٣ ظ

وقيل ليحيى بن خالد : أى شىء أقل ؟ قال : قناعة ذى الهمّة البعيدة بالعيش الدُّون ، وصديقٌ قليـل الآفات كثير الإمتاع ، شكور النفس ، يصيب مواضع المَدْح[2] .

---

(١) عنقاء مغرب ، بالوصف ، وبالإضافة أيضاً ، مثلٌ للندرة أو لما لا يكون ، قال فى القاموس : « طائر معروف الاسم لا الجسم ، أو طائر عظيم يبعد فى طيرانه ، أو من الألفاظ الدالة على غير معنى » .

(٢) جعلت فى ط « السَمرح » .

لا والله إنْ تعرفُ[1] على ظهرها موضعًا للسرّ ، ولا مكانًا للشكوى ، ولا روحًا تأنس بها ، ولا نفسًا تسكن إليها . ولو أردتَ أن تعرّفنى من جميع العالَمين رجلًا لَمَا قدرت على أحدٍ يحتمل الغنى . ومحتمل الفقر قليل ، ومحتمل الغنى عديم .

إنّ الخير — أبقاك الله — فى أيام كثرته كان قليلًا فما ظنُّك به فى أيام قلَّته ، وإن الشرَّ فى أيام قلّته كان كثيراً فما ظنُّك به فى أيّام كثرته ، وأنت غَريبٌ فى المصطَنِعين . وأنا غَريبٌ فى الصنائع ، والغريب للغريب نسيب ، ونسب المشاكلة وقرابة الطبيعة الموافِقة ، أقربُ من نَسَب الرحِم ؛ لأنّ الأرحامَ مُولعةٌ بالتحاسد ، لهِجة بالتقاطع ، وأن التحابَّ على طبع المشاكلة . والتلاقى على وفاقٍ من الطبيعة ، أبعد من التفاسد ، وأبعد من التعادى . وسببُ التعادى عَرَض فى طبائع الغرباء ، وجوهرٌ فى طبائع الأقرباء .

واعلمْ أنّك لا تزال فى وحشة إلى وحشة ، وفى غربة إلى غُربة ، وفى تنكُّر العيش وتسخُّط الحال ، حتى تجدمن تشكو إليه بَثَّك ، وتُفضِىَ إليه بذاتِ نفسك . ومتى رأيت عجبًا لم تضحكك رؤيتك له بقدر ما يضحكك إخبارُك إياه . فمَنْ أغلبُ عليك ممَّن كانت هذه حالَه منك ، وموقعه من نفسك .

ولو أنَّ شيبتى التى بها استعطفتك ، وكَبرة سنّى التى بها استرحمتك ، اللتان لم يحدُثا علىّ إلاّ وأنا فى ذَراك ، ولم يحُلّا بى إلاّ وأنا فى ظلِّك ، لكان فى شفاعة الكَبرة ، واسترحام الضَّعف والوَهْنة ، ما يَردعُك عنّى أشدَّ الردع ،

(١) جعلت فى ط : « لن تعرف » .

ويؤثّر فى طباعك أبينَ الأثر . فكيف وقد أكرمتنى جديداً ، ثم تريد أن تُهيننى خَلَقًا ، وقوّيت عظمى أغلظَ ما كان ، ثم تريد أن توهنه أرقَّ ما كان . وهل هرِمتُ إلّا فى طاعتك ، وهل أخلَقنى إلّا معاناة خدمتك ! .

١٠٤ و قال على بن أبى طالب : رأى الشَّيخ الضَّعيف أحبُّ إلينا من جَلَد الشابّ القوىّ[1] .

وأنا أقول كما قال أخو ثقيف[2] : مودّة الأخ التالد وإن أخلَق خيرٌ من من مودَّة الطارف وإن ظَهرتْ بشاشته ، وراعتْك جدّته .

وقال عبد الملك بن مروان : رأى الشَّيخ أحبُّ إلينا من مَشهد الغلام .

وقال بعضهم : ليس بغائب من شَهِد رأيُه[3] ، وليس بفانٍ مَن بقىَ أثره .

وما كمَّل العقل ولا[4] وفّر التجربة شىء كنقصان البدن ، وكأخْذ الأيَّام من قوى الأعضاء .

وقال آخر : ما قبّح الرجال شىء كالوِكال ، ولا أفسد الكريمَ شىء كحبّ الاستطراف . وخيرُ الناس من أتْبَعَ الغضبَ مواقعَ الذنوب ، وأتْبَعَ العقابَ مواقعَ الغَضَب ، ولم يُتبع الغضبَ مواقع الهوى .

(١) البيان ٢ : ١٤ و فى أمثال الميدانى ١ : ٢٩٧ : « رأى الشيخ خير من مشهد الغلام » ، وأشار الميدانى إلى أن علياً قالها فى بعض حروبه .

(٢) يعنى الحجاج بن يوسف .

(٣) شهد : كان شاهداً ، أى حاضراً . وقوم شهود أى حضور .

(٤) فى الأصل : « إلا » .

ولقد منحتُك جَلَد شبابى كَمَلا ، وغَرْبَ نشاطى مقْتَبَلا ، وكان لك مَهناه(١) ، وثمرة قواه(٢) ، واحتملت دونك عُرامَه وغَربَه(٣) ، وكان لك غنمه وعلىَّ غُرمه ، وأعطيتك عند إدبار بدنى قوّةَ رأيى ، وعند تكامل معرفتى نتيجةَ تجربتى ، واحتملتُ دونك وَهْن الكِبَر وإسقامَ الهرم .

وخير شركائك مَن أعطاك ما صفا ، وأخَذ لنفسه ما كدُر . وأفضل خلطائك من كفاكَ مؤونتَه ، وأحضركَ معونتَه ، وكان كلاله عليه ، ونشاطه لك . وأكرم دخلائك وأشكر مؤمِّليك مَن لا يظنّ أنك تسمِّى جزيل ما تحتمل فى بَذْلك ومواساتك مَؤونة ، ولا تَتابُعَ إحسانِك إليه نعمة ، بل يرى أنَّ نعمة الشاكر فوقَ نعمة الواهب ، ونعمة الوادّ المخلص فوق نعمة الجواد المُغْنى ؛ وأنَّه لا يبلغ فى إعطاء المجهود من نفسه فى خلع جميع ماله إلى مؤمّليه والمتحرِّمين به ، حُسنَ نيّة الشاكر الوامق ، وحقَّ تمنّى الوادّ العارف .

ولو اقتضيتَ جميع حقوقك علىّ ، وأنكرتَ جميع حقوقى عليك ، أو جعلتَ حقِّى عليك حقًّا لك ، ثمّ زعمت أنّ حقّك لا يؤدّى إلى شكره ، وأنّ حقّى لا يلزم حكمه ، وأنّ إحسانى إساءة ، وأنَّ الصغير من ذنوبى كبير ،
١٠٤ ظ وأنّ اللَّمَم مِنّى إصرار ، وأنّ خطائى عمد ، وأنَّ عمدى كلَّه كفر ، وأنّ

(١) أى مهنأه . ولعلها : « مجناه » .

(٢) فى الأصل : « قوله » صوابه فى م .

(٣) فى الأصل وم : « غرامه » والوجه ما أثبت . وفى الأصل : « وعدمه » صوابه فى م . والعرام : بضم العين : الشدة والغرب : الحدة .

كفرى يوجب القمع[١] ويمنع من النُّزوع لِمَا كان عندك . وما اتَّسع قولى لأكثر من هذا العقاب ، ولا أشدّ من هذا الغضَب . وما ينبغى أن يكون هذا المقدار من النِّقم إلاّلبارى النَّسَم فى دار البقاء ، لا فى دار الفَناء . [و] الذى يجوز بين العباد إنّما هو تعزير أو حدٌّ ، أو قَوَد أو قصاص ، أو حبسٌ أو تغريب ، أو إغرام[٢] أو إسقاط عدالة ، أو إلزامُ اسم العداوة ، أو عقاب يجمع الألم والتَّقويم والتنكيل ، فيكون مَضَضُ الألم جزاءً له[٣] ومعدِّلاً أسبابه .

وربّما قصر الإيقاع على السُّخط وجاوزَ حدَّ الغضب . وربَّما كان مقصوراً على مقدارها ، ومحبوساً على نهاية حالها .

وليس كلُّ عقابٍ نتيجةَ سخط ، وقد لا يسمَّى ذلك المُوقِع والمعاقِب واجداً كما يسمَّى ساخطاً ، ولا يسمّى عاتباً كما يسمَّى غضبان ، فيخرج كما ترى من أن يسمَّى سُخطاً أو مَوجِدةً وَغضباً ، كما خرجَ عقابُ آدم عليه السلام من هاتين الصِّفتين ، ومن جميع القسمين . وعلى أنه كان إخراجاً من دار الخلد والكرامة إلى دار الابتلاء والمحنة ؛ ومع ما فى ذلك من إعراء الجلد ، والتَّسمية بالظلم ، مع الوصف له بضَعف العَزْم ، والاغترار بيمين الخصم .

والعجبُ أنك تضجر من طول مسألتنا لعفوك مع حاجتنا إلى عاجِل عفوك ، ولا تضجرُ بطول تشاغلك بظلْم صديقك مع استغنائك عن ظلم صديقك . فلو كنت إنّما تفعل ذلك لأنّك تلذُّ ضَربَ السِّياط ورضَّ العظام ،

(١) فى الأصل : « الطمع » .

(٢) الإغرام : التغريم ، وهو العقوبة المالية .

(٣) فى الأصل : « أجرا له » .

فَجنْب « دندن » أحمل ، والسَّوط فى ظهر قاسمٍ أحسن ، وأبدانهما تحت السِّياط أثبت ، وإنَّ أرواحهما أبقى ، وهى بأرواح الكلاب أشْبَه ، وإلى طبائع الضِّباب أقرب ، وأرحامهم بالحمير أمَسُّ ، ومَن يُشير فيهم بذلك أكثر ، والأجر فى ضَرْبهم أعظم . فاستدِمِ اللذَّة بطريق اللَّذّة ، وضع الأمورَ فى مواضعها يطُلْ سرورُك بها .

إنَّ عتاقَ الخيل وأحرار الطَّير أدقُّ حِسًّا ، وأشدُّ اكتراثًا .

١٠٥ و والكوادن الفلاظ والمحامر الثِّقال[1] ، أكلُّ حِسًّا وأقلُّ اكتراثًا . وليس الصَّبر بالصَّمت والسكوت ، ولا بقلّة الصِّياح والضُّموز[2] . وقد يصيح تحت السَّوط مَن لا يقرُّ على صاحبه ، ولا يدلُّ على عورة نفسه . والكلب المضروب يجمع الصِّياح والهرب ، والفرس العتيق يعدو ولا يصيح ، والحافر كلُّه كظومٌ ضامز[3] ، والمخلب كلُّه ضَجورٌ صيَّاح ، والضَّجر فى الخُفّ عامٌّ ، والبَخاتىُّ أضجر . فسِمن الظّلف عامّ ، وهو فى الضّأن أخفى ، وكلّ مضروب هارب صيّاح ، ومنها ما يجمع الخصال كالكلب والبعير . والهربُ من المكروه محمود ، والمقام عليه مذموم ؛ كالذى يعترى العير السقيم[4] وتجده فى الفرس الكريم ، من قلة الاكتراث وشدته .

---

(١) المحامر : جمع محمر ، يقال فرس محمر ، أى لئيم يشبه الحمار فى جريه من بطئه . ويقال للفرسَ الهجين محمر أيضاً ، فارسيته « پالانى » . والجمع المحامر والمحامير .

(٢) الضموز ، بالزاى : السكوت . وفى الأصل : « الضمور » ، تصحيف .

(٣) فى الأصل : « ضامن » . وانظر الحاشية السابقة .

(٤) فى الأصل : « عين السقم » وانظر ٢٧٨ س ٢ .

وصبرُ البدن غير صبر النفس . وليس بقاء الأرواح المنعقدة تحت الضرب الشديد من اعتزام النفس ، ولا يدلّ على الكرم .

وفى المثل : « ما رُوح فلانٍ إلّا رُوح كلب » . وتقول العرب : « الضَّبُّ أطول شىءٍ ذَماء[١] » . والكلب لئيم ، والضبُّ غير كريم .

والبازى أكرم من الصَّقر وأشدُّ وأكثر ثمنا ، وأجمل جمالًا ، وأعفى صيدًا[٢] ، وأنبل نبلا ؛ إن قبضَ عليه قتله ، وإن لم يُنَحَّ كُندُرته عن قربه أوهن نفسه[٣] . ثم بلغ من رقة طبعِ[٤] البازى وعِتقه أنه ينقطع برَدِّ البازيار له[٥] إلى مَسقطه من يده . والصَّقر يتعلّق بسِباقيه[٦] من رجل حمل بدرع[٧] فيضطرب منكّساً إلى الصُّبح ، ثم تجده وكأنّه لم يزل على كُندرته وعلى مسقطه الذى يؤتَى له .

---

(١) الذماء ، كسحاب : بقية الروح فى المذبوح . وانظر الحيوان ٢ . ١٧٥ و ٣ : ٥٠٨ و ٥ : ٢٥١ و ٦ : ٥٤ ، ٦٤ ، ١٣٧ و ٧ : ٢٥٤ .

(٢) من قولهم : عفا الشىء يعفو ، إذا كثر .

(٣) الكندرة ، بضم الكاف والدال كما فى اللسان ، وبفتحهما كما فى القاموس ، هى مجثم البازى الذى يهيأ له من خشب أو مدر . قال فى اللسان : « وهو دخيل ليس بعربى » . وأوهق نفسه : جعلها فى الوهق ، وهو حبل مغار يرمى ، فيه أنشوطة ، فتؤخذ به الدابة والإنسان . وفى الأصل : « أرهق » .

(٤) فى الأصل : « طمع » .

(٥) فى الأصل : « برده البازيارله » ، والبازيار ويقال له « البازدار » أيضاً لفظان فارسيان ، معناهما واحد ، وهو القائم بأمر البازى ويعرب فيقال له « البيزار » . انظر الحيوان ٤ : ٤٣٠ و ٦ : ٤٧٨ .

(٦) السباقان : قيدان فى رجل الجارح من الطير ، من سير أو غيره وفى ط : « بساقيه » ، خلافا لما فى الأصل .

(٧) كذا فى الأصل .

فليس بدنى من أبدان الاحتمال فأمتعك بطول ثباته لك ، ولا أثبت لك ثبات العَير الـكليل الحِسّ ، ولا أجعل الصِّياح دليلا على الإقرار ،فيكون ذلك أحَدَ ما تتمتّع به ، وتدرك به حاجاتِ نفسك .

وقد دللتك على ناسٍ يجمعون لك الخصال التى فيها دوامُ لذّتك ، وتمامُ شهوتك ؛ فإنْ زعمتَ أنَّ الذى يثبت روح دندن فى بدنه ، وروح القاسم فى جسمه ، سرورُهما بما قد احتَجنَا من كنوز الخلافة وأموال الرعيَّة ، وليس
١٠٥ ظ ذلك من رسوخ أرواحهما فى أبدانهما ، ومن شدة الاحتجان وقوة الاكتناز ، ففرِّقْ بينهما وبين تلك الأموال التى تمسك أرواحَهما بالحِيل اللَّطيفة ، والتدبير النافذ ، وبأن تمضىَ فيهما حكمَ الـكتاب والسُّنّة ؛ فإنّه سيحلُّ عُقدة أرواحهما عَقْداً عقداً ، فيعظمُ أجرك ، ويطيب ذكرك ، وتطيع الخليفة ، وتتحبّب به إلى الأمة ؛ فتـكون قد أحسنت فى صرف الضَّرب إلى أهله ، وأرحت منه غيرأهله .

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

* * *

تمت الرسالة بعون الله ومنّه وتوفيقه ، والله الموفّق للصواب برحمته ، والحمد لله أولا وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه ، وآله الطيبين الطاهرين وسلامُه .

٦

رسالة

إلى أبي الوليد محمّد بن أحمد بن أبي دُواد

في

نفي التشبيه

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هى الرسالة السادسة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« رسالة إلى أبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دواد ، فى نفى التشبيه »

وأبو الوليد هذا هو قاضى بغداد فى خلافة المتوكل ، ولاه القضاء بعد أن فلج أبوه أحمد بن أبى دواد ، ثم عزله المتوكل ومات فى حياة أبيه أحمد فى ذى الحجة سنة ٢٣٩ . وترجم له الخطيب فى تاريخ بغداد ١ : ٢٩٧ — ٣٠١ .

وليس لهذه الرسالة إلا نسخة مكتبة داماد ، وعليها اعتمادنا فى إخراج هذه الرسالة .

وقد كتبها الجاحظ فى أيام الخليفة المعتصم ، كما نص على ذلك فى أواخرها .

بسم الله الرحمن الرحيم

أطال الله بقاءك وحَفِظك ، وأتمَّ نعمتَه عليك ، وكرامتَه لك .

قد عَرَفتَ ـ أكرمك الله ـ ما كان النَّاسُ فيه من القَول بالتَّشبيه والتَّعاون عليه والمعاداة فيه ، وما كان فى ذلك من الإثم الكبير والفِرْية الفاحشة ، وما كان لأهله من الجماعات الكثيرة والقُوّة الظاهرة ، والسُّلطان المكين ، مع تقليد العوامِّ وميل السِّفلة والطَّغام .

وليست للخاصّة قوّة بالعامّة ، ولا للعِلية قوّة على الأراذل ؛ فقد قالت الأوائل فيهم ، وفى الاستعاذة بالله منهم :

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : نعوذ بالله من قومٍ إذا اجتمعوا لم يُملَكوا ، وإذا تفرّقوا لم يُعرَفوا .

وقال واصِل بن عطاء : «ما اجتمعوا إلَّا ضَرُّوا ، ولا تفَرَّقوا إلَّا نفعوا» فقيل له : قد عرفنا مضرّة الاجتماع ، فما منفعة الافتراق ؟ قال : يرجع الطَّيّان إلى تطيينه ، والحائك إلى حياكته ، والمَلَّاح إلى مِلاحته ، والصَّائغ إلى صياغته ، وكُلُّ إنسانٍ إلى صناعته . وكُلُّ ذلك مَرفقٌ للمسلمين ، ومَعُونة للمحتاجين .

وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إذا نظرَ إلى الطَّغام والحَشْو قال : « قَبَح اللهُ هذه الوجوهَ ، لا تُعرَف إلَّا عند الشرّ » .

وقال الخُرَيمىّ[١] عند ذكره إيَّاهم ، فى شعره ، بالتَّعاوِى مع المخلوع[٢] :

من البَوَارى تِراسُها ومن الـ ـخُوص إذا استلأَمَتْ مَغَافِرُها[٣]
لا الرِّزقَ تبغى ولا العطاءَ ولا يحشُرها بالفِنَـــاء حاشرُها[٤]

وقال شَبِيب بن شيبة : قاربُوا هذه السِّفلة وباعدوها ، وكونوا معها وفارقوها ، واعلموا أنَّ الغلبة لمن كانت معه ، وأنَّ المقهور من صارت عليه .

وقد وصفهم بعضُ العلماء فقال : يجتمعون من حيث يفترقون ، ويفترقون من حيث يجتمعون ، لا يُفَلُّ غربهم إذا صالوا ، ولا تَنجع فيهم الحيلةُ إذا هاجوا .

والعوامُّ ــ أبقاكَ الله ــ إذا كانت نَشَرًا[٥] فأمْرُها أيسر ، ومُدّة هَيجها أَقْصَر . فإذا كان لها رئيسٌ حاذق ومُطاع مدبِّر ، وإمام مقلَّد ، فعند ذلك

---

(١) هو إسحاق بن حسان بن قوهى . قال الخطيب : « وأصله من خراسان من بلاد السغد ، وكان متصلا بخريم بن ناعم المرى وآله ، فنسب إليه . وقيل : كان اتصاله بعثمان بن خريم . وأبوه خريم الموصوف بالناعم » . تاريخ بغداد ٦ : ٣٢٦ .

(٢) تعاووا معه : اجتمعوا . والمخلوع هو الخليفة الأمين أخو المأمون . وقصيدة خريم رواها الطبرى فى تاريخه ١٠ : ١٧٦ — ١٨١ فى حوادث سنة ١٩٧ وبعض أبياتها فى الحيوان ١ : ٢٢٥ .

(٣) البوارى : الحصير المنسوج ، واحده بورى وبورية ، وبارى وبارية . والتراس : جمع ترس . استلأمت : لبست اللأمة ، وهى الدرع . والمغافر : جمع مغفر ، وهو زرد يلبس تحت القلنسوة . والبيت وتاليه وبينهما ثالث فى الطبرى ١٠ : ١٧٨ .

(٤) فى الطبرى : « ولا يحشرها للقاء حاشرها » .

(٥) النشر بالتحريك : القوم المتفرقون لا يجمعهم رئيس .

يتقطع الطّمع ، ويموت الحقّ ويُقتل المُحِقّ . فلولا أنّ لهم متكلّمين ، وقُصّاصًا ١٠٧ و
متفقّهين ، وقومًا قد باينوهم فى المعرفة بعض المباينة ، لم يلحقوا بالخاصّة ، ولا بأهل المعرفة التّامّة . ولـكنا كما نخافهم نرجوهم ، وكما نُشفق منهم نطمع فيهم .

ثم قد علمت ما كنا فيـه من إسقاط شهادات الموحِّدين وإخافة علماء المتكلّمين . ولولا الـكلامُ لم يَقُم لله دِين ، ولم نَبِنْ من الملحدين ، ولم يكن بين الباطل والحقّ فرق ، ولا بين النبى والمتنبِّى فَصل ، ولا بانت الُحجّة من الحيلة ، والدليل من الشُّبهة .

ثم لصناعة الـكلام مع ذلك فضيلةٌ على كلِّ صناعة ، ومزِيّةٌ على كل أدب . ولذلك جعلوا الـكلام عيارًا على كلِّ نظر ، وزمامًا على كلِّ قياس . وإنّما جعلوا له الأمور وخصُّوه[1] بالفضيلة لحاجة كلِّ عالم إليه ، و[عدم[2]] استغنائه عنه .

فلم يزل ـ أكرمكَ الله ـ كذلك حتّى وضع الله من عزِّهم ، ونقصَ من قوّتهم . وليس لأمر الله مَردٌّ ، ولا لقضائه مدفع . وحتّى تحوّل إلينا رجالٌ من قادتهم ومن أعلامهم ، والمُطاعِينَ فيهم ، وارتاب قومٌ ونافَقَ آخرون . وحتّى تحوّلت المحنةُ عليهم ، والتّقيّة فيهم . وذلك كلُّه على يد شيخك وشيخنا بعدك ـ أعزّه الله ـ بما بذل من جُهده ، وعرّض من نفسه ، وتفرّد بمكروهه ، وغَرغرَ مُرارَه ، صابراً على جسِيمه ؛ يرى الـكثير فى ذلك قليلا ، والإغراقَ

(١) فى الأصل : « وخصوا » .
(٢) تـكملة يفتقر إليها الـكلام .

تقصيرا ، وبذلَ النَّفس يسيرا . على حين خار(١) كُلُّ بطل ، وحادَ كل مُقْدم ،
وعَرَّد كُلُّ رئيس ، وأضافَ كُلُّ مستبصِر(٢) ، وطاح كُلُّ نفّاج ، واستخفى كل
مُراءٍ . وحتَّى صاروا هم الذين يُشيرون عليه بالملاينة ، ويحسِّنون عنده المقاربة ،
ويخوِّفونه العاقبة ، ويزعمون أنَّ لـكلِّ زمانٍ تدبيراً ومصلحة ، وأنَّ إبعادهم
أتقر(٣) لطبائعهم ، وإن إطلاقهم أنجع فيما يراد منهم . وحتَّى سمَّوا المداهَنة
مداراة ، وإعطاء الرِّضا تقيّة ، والشِّدَّة عند الفُرصة خُرقا ، والانحياز مع صواب
الإقدام رفقا ، وموالاة المخالف مخالفة ، والمصافاة معاشرة ، والمهانة حلما ،
والضَّعف فى الدِّين احتمالا . كما سمَّى قومٌ الفِرار انحيازا ، والبُخْل اقتصادا ،
والجائر مستقصيا ، والبلاء عارضا ، والخَطَل بلاغة . فـكذلك كانوا وكان . ١٠٧ظ
وعلى هذا افترق أمرهم ؛ وذلك مشهور عنهم .

ثم يصُول أحدُهم على مَنْ شتمه ، ويسالم من شتم ربَّه ، ويَغضَب على
من شبَّه أباه بعبده ، ولا يَغضب على من شبَّه الله بخلقه ، ويزعم أنَّ [فى(٤)]
أحاديثِ المشبِّهة تأويلاً ومَجازاً ومخارج(٥) ، وأنَّها حقٌّ وصِـدق . فإذا
قيس . . . . . .(٦) طلب لهذا المجـاز ظلم ، وقال ما يليق بلفظ الحديث ،

---

(١) خار : ضعف . وفى الأصل : « خان » .

(٢) أضاف : أشفق وحذر . وفى الأصل : « أصاب » .

(٣) كذا فى الأصل .

(٤) ليست فى الأصل .

(٥) فى الأصل : « ومخارجا » .

(٦) بياض فى الأصل بمقدار كلمتين .

فيكون بشهادته[١] لصحة أحاديثهم مُقِرًّا ، فيصير فيما يدَّعى من خلاف تأويلهم مدَّعياً . ولو كانت هذه الأحاديثُ كلُّها حقًّا كان قولُ النبى صلى الله عليه وسلم : « سيفشو الكذبُ بعدى ، فما جاءكم من الحديث فاعرِضوه على كتاب الله » باطلاً .

وهذا المذهب لمَنْ ينتحل طريقتنا ، ويد زعمه سبيلَنا ، جَورٌ شديد ، ومذاهبُ قبيحة ، وتقرب[٢] فاحش .

وليس ينبغى لديَّانٍ أن يوادَّ من حادَّ اللهَ ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانَهم أو عشيرتهم .

فمتى إذن تزولُ التَّقيّة ، ويجبُ إظهار الحقّ والنُّصرة للدِّين ، والمباينة للمُخالفين ؟ ! أحين يموت الخَصم ويبيدُ أثره ويَهلِك عَقِبه ويقلُّ ناصره ، ويزول جميع الخوف ويكون على يقين من السّلامة . وكيف يكون القائم حينئذ بالحقِّ مطيعاً ، ولله معظِّماً ؟ !

فقد سقطت المِحنة وزالت البلوى والمشقَّة . وهل المعصيةُ إلاَّ ما مازجه الهوى والشهوة ، وهل الطّاعة إلاَّ ما شابَهُ المكروه والكُلفة[٣] ، وكيف يُتكلَّف مالا مؤونة فيه ، وكيف يُحمَد مالا مَرزِئة عليه . وكيف يكون شجاعاً مَن أقدمَ فى الأمن ، وتكمَّن فى الخوف . أوَ ليست النّارُ محفوفةً بالشهوات ، أوَ ليست الجنّةُ محفوفةً بالمكاره . وكيف صاروا فى باطلهم أيّامَ قُدرتهم أقوى منا فى حقنا أيام قُدرتنا .

---

(١) فى الأصل : « سهدته » .

(٢) كذا فى الأصل .

(٣) شابه ، من الشوب بمعنى الخلط والمزج .

وقد علمت ـ أرشدَ اللهُ أمرك ـ أنّ التشبيه وإن كان أهله مقموعين ومُهانين وممتحَنين، فإنّ عدد الجماجم على حاله، وضمير أكثرهم على ما كان عليه، والذين ماتوا قليلٌ من كثير. ونحن لا ننتفع بالمنافق، ولا نستعين بالمرتاب، ولا نثق بالجانح، وإن كانت المبادأه قد نقصت فإنّ القلوب أفسدُ ما كانت.

وقد كانوا يتّكلون على السُلطان والقدرة، وعلى العدد والثّروة، ١٠٨ و
وعلى طاعة الرّعاع والسِّفلة؛ فقد صاروا اليومَ إلى المنازعة[1] أمْيَل، وبها أكلف؛ لأنّهم حِينما يئسوا[2] من القهر بالحُشوة والسِّفلة، وبالباعة، وبالولاة الفَسَقة، وقلوبهم ممتلئة ونفوسهم هائجة. ولا بدّ لمن كانت هذه صفتَه، وهذا نَعْتَه، من أن يستعمل الحِيلة والحُجّة، إذْ أعجزه البطشُ والصَّولة. وكلُّ مَن كان غيظُه يفضُل عن حلمه، وحاجتُه تَفضل عن قناعته، فواجبٌ أن ينكشف قِناعه، ويظهر سِرُّه، ويبدوَ مكنونه.

وقد أطمعني فيهم مناظرتُهم لنا، ومقايستهم لأصحابنا. وقد صاروا بعد السّبّ يَحُفُّون[3]، وبعد تحريم الكلام يجالسون، وبعد التصامّ يستمعون، وبعد التجليح يداورون[4]؛ والعامة لا تفطن لتأويل كفِّها، ولا تعرف مقاربتَها. فقد مالت إلينا على قدر ما ظهر من مَيلها، وأصغت لما ترى من استماعها.

---

(١) فى الأصل: «على المنازعة».
(٢) فى الأصل: «ينبوا».
(٣) حفه يحفه: مدحه. وفى المثل: «من حفنا أورفنا فليقتصد» يقول: من مدحنا فلا يغلون فى ذلك ولكن ليتكلم بالحق منه.
(٤) التجليح: المكاشفة فى الكلام.

وقد كتبتُ ـ مدَّ الله فى عُمرك ـ فى الردِّ على المشبِّهة كتاباً لا يرتفع عنه الحاذق المستغنى ، ولا يرتفع عن الرَّيِّض المبتدئ . وأكثر ما يعتمد عليه العامّة ودَهماء أهل التشبيه من هذه الأمور ويَشْتمل عليه الفَضْل من حُشْوة الناس[1] ، ويُختَدع به المُحدِّثون من الجمهور الأعظم ، تحريف آيٍ كثيرةٍ إلى غير تأويلها ، وروايات كثيرة إلى غير معانيها . وقد بيَّنتُ ذلك بالوجوه القريبة ، والدِّلالات المختصرة ، وبالأشعار الصحيحة والأمثال السائرة ، واستشهدتُ الكلامَ المعروف ، والقياسَ على الموجود .

وهو مع ذلك كلِّه كتابٌ قَصْدٌ ، ومقدار عدلٌ ، لم يفضُلْ عن الحاجة ، ولم يقصِّر عن مقدار البُغية . على أنَّ الكلام لا ينبغى أن يكثر وإن كان حسناً كلُّه ، إذا كان السامع لا يَنْشَطُ له ، وجاز قدرَ احتماله ؛ لأنَّ غاية المتكلِّم انتفاعُ المستمع . وقد قال الأولون : « قليلُ الموعظة مع نشاط الموعوظ ، خيرٌ من كثيرٍ وافق من الأسماع[2] نبوةً ، ومن القلوب ملالةً » . ١٠٨ ظ

قال بكر بن عبد الله المزنىّ[3] : ليس الواعظ مَن جهل أقدارَ السامعين ، وإنابة المرتدِّين ، وملالة المستطرفين .

وقال على بن أبى طالب ، رضوان الله عليه : « إنّ هذه القلوبَ تَملُّ كما تملُّ الأبدان ، فابتغوا لها طُرَفَ الحكمة » .

---

(١) الفضل : الزيادة . والحشوة ، بالضم : رذال الناس .

(٢) فى الأصل : « الاستماع » .

(٣) هو أبو عبد الله ، نسبته إلى مزينة ، ثقة جليل توفى سنة ١٠٦ . تهذيب التهذيب وصفة الصفوة ٣ : ١٧١ .

وقد كان يقال : إنّ للقلوبِ شهوةً وإقبالا ، وفترة وإدباراً ؛ فأْتوها من حيث شهوتُها وإقبالُها .

وكان يقال : إذَا أُكْرِهَ القلبُ عَمِيَ .

وقال واصل بن عطاء : طول التحديق يُكِلُّ الناظر ، وناظر القلب أضعف منه .

وزعم عِمران بن حُدَير[١] قال : قال قَسامة بن زهير[٢] : روِّحوا هذه القلوبَ تَعِ الذِّكر[٣] .

وقال عبد الملك بن قُريب : قال أبو الدَّرداء : إنِّي لأستجمُّ نفسِي ببعض الباطل كراهةَ أنْ أحمِلَ عليها من الحقِّ فأُكِلَّها[٤] .

وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقّاص ، رضى الله عنهما ، وهو بالقادسيّة : أنْ جنِّبْهم حديث الجاهلية ؛ فإنّه يذكِّر الأَحقاد . وعِظْهم بأيَّام الله ما نشِطُوا لاستماعها .

وقالوا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوّلنا بالموعظة[٥] .

ولذلك أمروا بالجَمَام[٦] وزيارة الغِبّ .

---

(١) من رواة قسامة . تهذيب التهذيب ٨ : ١٢٥ ، ٣٧٨ . فى الأصل : « عمر بن أبي حدنه » .

(٢) قسامة بن زهير المازنى ، له إدراك ، وكان ممن افتتح الأبلة مع عتبة ابن غزوان ، وكان رأساً فى تلك الحروب . مات بعد الثمانين . الإصابة ٧٢٨٠ . وتهذيب التهذيب

(٣) فى الأصل : « يعنى من الذكر » ، صوابه من البيان ١ : ٣٢٧ .

(٤) فى الحيوان ٣ : ٧ : « من الحق ما يملها » .

(٥) يتخولنا : يتعهدنا ، وذلك مخافة السآمة علينا .

(٦) الجمام ، كسحاب : الراحة .

ورووا أنَّ شرَّ السَّيْر الحقحقة[١] .

ولَأَن ينقُصَ الـكتابُ عن مقدار الحاجة أحبُّ إلىَّ من أن يَفضُل عن مقدار القوّة ؛ لأنَّ الملالة تبغِّض [فى] الجميع ، وتزهِّد فى الـكُلّ .

فأنا أسألك ـ أكرمك الله ـ أن ترى هذا الـكتابَ وتقرأ ماخفَّ عليك منه . فإن يصلح الـكلامُ [و] كان كما وصفتُ وكما ضَمِنت ، حَثثتَ على قراءته وعلى اتِّخاذه ، وعلى تخليده وعلى تدوينه ، وأمرت مَن يحتاج إلى المادَّة ، وإلى حُسن المعونة من الموافقين والإخوان الصَّالحين ، أن ينظروا فيه ، وأن يبثّوه ويُشيعوه .

وقد كنتُ أنا على ذلك قادراً ، وبه مستوصيا ؛ ولـكنَّ الرجل الرفيع إذا رفَع الشىء ارتفع ، كما أنَّه إذا وضع الشَّىء اتَّضع .

وإن كنتَ فيه غَلِقًا[٢] أو لعلَّته مستكثرا ، كان لك بحُسن نيتك وصلاح مذهبك ، والذى رجوتُ عنده من المنفعة وصلاح قلوب العامّة ، الأجرُ الـكبير ، والثوابُ العظيم ، مع ماتقضى بذلك من ذِمام المتحرِّم بك ، والمتحلِّى من بيتك ؛ ومع اليد البيضاء والصَّنيع المشكور . ١٠٩ و

وحرامٌ على كلِّ متكلِّمٍ عالم ، وفقيه مطاعٍ ، وخطيب مفوّه إن كان[٣]

(١) الحقحقة : شدة السير . وهو فى حديث عبد الله بن مطرف بن الشخير حين تعبد فلم يقتصد ، فقال له أبوه : « يا عبد الله ، العلم أفضل العمل ، والحسنة بين السيئتين ، وخير الأمور أوساطها ، وشر السير الحقحقة » . أمثال الميدانى ١ : ٣٢٧ واللسان (حقق) والبيان ٣ : ٢٥٤ .

(٢) الغلق : الضجر . وفى الأصل : « غلطا » .

(٣) فى الأصل : « كلف » .

عنده من الأمر شيء ، إلّا أن يأتيكم به ، ويذكّركم بما عنده ، قلّ ذلك أو كثر ، وصادف منكم شُغلًا أو فراغا ، لأنّ ذلك من عندكم أنفق ، والناس إليه أسرع ، والقلوب إليه أسكن ، وهو فى العيون أعظم ، لِمَا جعل الله عندكم من حُسن الاختيار ، والعلم بمنافع العباد ، ومصالح البلاد ؛ إذْ كنتم المَفْزَع والمقنع ، والأئمة والمنزع . ولولا ما قُلِّدتم من أمر الجماعة ، والقيام بشأن الخاصّة والعامة ، وأنّ الشّغل برعاية حقّها والدّفاع عنها ، لم يُبقِ فى قُواكم فضلًا للدُّعاء والمنازعة ، ولوَضْع الكتب بالجواب والمسألة — لبدأ بكم الفَرْض ، ولكنتم أحقّ بهذا الأمر .

على أنّنا لم ننطِقْ إلّا بألسنتكم ، ولم نحتذِ إلّا على مثالكم ، ولم نَقْوَ إلّا بما أعرتمونا من فَضْل قوّتكم . وعلى الرُّواة من الأدباء ، وعلى أهل اللَّسَن من الخطباء ، معاونتُكم ومكاتفتكم ، والجلوس بين أيديكم والاستماع منكم ، وعلى أن يطيعوا أمركم ، وأن يَنفُذوا لطاعتكم ، وأن يخلصوا فى الدُّعاء ، وأن يَمحَضُوا النصيحة ، وأن يضمروا غايةَ المحبّة ، وأن يعملوا فى كفّ(١) الغِلّ والحسَد ، وأن لا يرضَوْا من أنفسهم بالنِّفاق ، وأن يعلموا أنّ الحسَد لا يقع إلّا بين الأشكال ، وأنّ التنافس لا يكون إلّا مع تقارب الحال .

وقد كان يقال : لا يزال الناس بخير ما تفاوتوا ، فإذا تقاربوا هَلكوا .

وكان يقال : ثلاثةٌ توجب الضِّغْن وتُكثر من الغِلّ : المجاورة فى المنزل ، والاستواء فى النَّسَب ، والمشاكلة فى الصِّناعة .

ولذلك قال شَبيب بن شَيبة لرجلٍ ادّعى محبّته ونصيحتَه : « وكيف

---

(١) فى الأصل : « كفى » .

لا يكون كما وصفتَ وكما ذكرتَ ، ولستَ بخطيبٍ ، ولا جارٍ قريبٍ ، ولا ابنِ عمٍّ نسيب » .

وقال بعض الحكماء : لو لم تعرفوا من لُؤم الحسَد إلاَّ أنَّه موكَّل بالأدنَى فالأدنى . وليس يقع ذلك بين المتباينَين ، ولا يجوز في المتقاربين .

١٠٩ ظ ولا يكون الطَّلبُ إلاَّ بالطمع ، ولا يكون الطمع إلاَّ بالسَّببُ . فإذا انقطع السَّببُ انقطع الطَّمع ، وفى عدم الطَّمع [عدمُ] الطلب . وكيف يتكلَّف الطَّيرانَ مَن لا جَناح له ، وكيف يرجو صلاحَ أمر العامّة وترتيبَ الخاصَّة من عَجَز عن تدبير بيته ، وقصَّر عن تدبير عَبْده ؟ !

وإنصاف اللِّسان قليل ، وإنصاف القلب أقلُّ منه .

ونحن نرغب إلى الله فى صَلاحهم ؛ فإنَّ فى صلاحهم صلاحَ قلوبنا لهم .

وقد جعل الله الشكرَ موصولاً بالمزيد ، ومِن الشُّكر على نعمة الله علينا بكم أن نعظِّم ما عظَّم الله من أمركم . ومن صغّر ما عظَّم الله فقد عظَّم ما صغَّر الله . ولا يفعل ذلك إلاَّ الصَّغير القَدْر ، والخامل الذِّكر ، والجاهل بالأمر .

وكيف لا تكونون[1] على ما خبَّرتُ وكما وصفت ، وقد أغنيتم من العَيلة ، وآنستم من الوحشة ، وجمعتم الشَّمل ، وأعدتم الألفة ، ورددتم الظُّلامة ، وأحييتم السُّنَّة ، وأبرزتم التوحيدَ بعد اكتتامه ، وأظهرتموه بعد استخفائه ، واحتملتم عداوةَ الجميع ، ووترتم المطاعنين فى تقويتنا .

ونحن لا نُطالَب ما كنتم قياماً ، ولا نُذكَر ما كنتم شهوداً . ونحنُ مع قلَّة علمنا لا نجد أبدًا عملَنا إلاَّ مقصِّراً عن علمنا . وأنتم مع اتِّساع قلوبكم ،

---

(١) فى الأصل : « يكونون » .

أعمالِـكم وَفوقُ علومكم ؛ لأنَّ كلَّ مَن بذل كلَّ مجهوده ، وخاطر بجميع نعمته ، وكانت الواحدة من نِعَمه كالجميع من نِعَم غيره ، مع خِذلان الموافق ونُـكوص المؤازر ، ثمَّ لم تزِدْه الشدائد إلاَّ شدَّة ، والوحدة [إلاّ] أنسَة ــ حقيقٌ بالتَّفضيل والتعظيم ، والإنابة له بالتقديم .

ولعلَّ قائلاً أن يقول : أدخَلَه فى جملة صفات أبيه ، وجِلَّة مشيختِه وأقربيه ، حيث خَصَّهم بالتَّقديم ، وأبانَهم بالتعظيم . بل كيف يقدَّم من صَغُرت سنُّه وقلَّت تجربته على من تقاربت سنُّه وكثرت تجربته . وكيف تمـكن الطاعة الـكثيرة فى الأيام القصيرة والشهور اليسيرة ؟ وهل يقول ذلك صاحبُ تحصيلٍ ومقايسة ، والبعيد من الملق والمخادعة .

وما قلتُ ذلك ــ حفظك اللهُ ــ ولا انتحلتُه ، إلاَّ وبرهانى حاضر ، وشاهدى شاهد . وذلك أنَّ للشَّباب[1] سَـكرة وطِماحاً ، وقِراعاً وصَولة . والهَرَمُ ١١٠ و
داخلٌ على جميع الأعضاء ، وآخِذ بقسطه من جميع الأجزاء . ألاَ ترى كيف يكلُّ ناظره وسامعه ، وذائقُه وشامُّه ، وهاشمه وعامله ؛ وكيف تُنتقصُ على مرور الأيام قوّته ، وكذلك قلبه وكلُّ ما بطَن من أمره ، على قدر ما نقص من قُوَى جسمه وتنقُّص من قُوَى شهوته . [و] يخفُّ عليه مخالفةُ هواه ، ومحاربة نَوازِعِه[2] . ومن حَمَل[3] على نفسه فى كمال شَبابه وأيَّام سكرته ، وفى سلطان حِدّته وكمال قوّته ، فَظَلفَها مرّةً[4] وكبحها

(١) فى الأصل : « للشارب » .
(٢) فى الأصل : « موادعه » .
(٣) فى الأصل : « لمن جعل » .
(٤) ظلف نفسه : منعها هواها

أخرى ، وعاين تلك التكاليف ، وغلبَ تلك الرِّيح كان أبرزَ طاعةً ؛ إذْ كان أحملَ للمشقة .

وعلى قدر المشقّة تكون المثوبة ، وتعظُم عند الله المنزلة ، وتقعُ له فى قلوب النَّاس المحبّة . ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لسعد ابن أبى وقّاص ، حين وجَّهه إلى العراق : « يا سعد بنى وُهَيب[١] ، إن الله إذا أحبَّ عبداً حبَّبَه إلى خلقه . فاعتبر منزلَتَك من الله بمنزلتك من النَّاس ، واعلمْ أنَّ مالكَ عند الله مثلُ مالله عندكَ[٢] . ونحن نعتبر حالكَ عند الله بالذى نَجِد لك فى قلوب عباده . وقد ملَّكَ اللهُ بعضَ الناس أبدانَ بعض ، ولم يملِّك القلوبَ أحداً غيره » .

وأمّا قولهم : إن الغرارة مقرونة بالحداثة ، والحَنَكة موصولةٌ بطُول التجربة ، فإنَّ الذِّهن الحديد والطّبعَ الصحيح ، والإرادة الوافرة ، ينال فى الأيّام اليسيرة ، ويُدرِك فى الدُّهور القصيرة ، مالا تدركه العقول المخدوجة[٣] ، ولا الطبائع المدخولة ، والإرادة الناقصة ، فى الأيام الكثيرة ، والدُّهور الطويلة .

---

(١) هم بنو وهيب بن عبد مناف بن زهرة . وهو سعد بن أبى وقاص بن وهيب . واسم أبى وقاص مالك . جمهرة أنساب العرب ١٢٩ والإصابة ٣١٨٩ وفى البيان ١ : ٢٦١ : « ياسعد ، سعد بنى أهيب » . وأهيب ووهيب لغتان .

(٢) إلى ينتهى الخبر فى البيان والتبيين .

(٣) المخدوجة : الناقصة ، من قولهم : خدجت الناقة : ألقت ولدها قبل أوانه لغير تمام . ويقال خدجت المرأة ولدها وأخدجته بمعنى واحد .

وربّما صادفَ القائل مع ذكائه وكثرة قراءته[١] وجودة اعتباره ، زماناً أكثر عجباً ، وأكثر معتبراً ، وإنْ كانت شهورهُ أقلّ ، وأيّامُه أقصر ، فينالُ مع قلّة الأيام مالا ينال سواه مع كثرتها ، ولا سيّما إذا أُعِينَ بحفظٍ ، وأحسّ من نفسه بفَضْلِ بيان . ١١٠ ظ

وليس من نَظَر فى العلم على الرّغبة والشهوة له كمن نظر فيه على المكسبة به والهرب إليه ؛ لأنّ النفس لا تُسمِح بكلّ قواها إلاّ مع النشاط والشّهوة ، وهى فى ذلك لنفسها مستكرِهة ولها مكابِدة . والسآمة إلى من كانت هذه صفتَه أقربُ ، وله أَلزم . ولولا ذلك لما ولّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مُعاذَ بن جبلٍ اليمنَ ، وجعل[٢] إليه قَبضَ الصّدَقات ، ومحاسبةَ العُمّال ، وقلّده الأحكامَ وتعليم[٣] الناس الإسلام ، وهو ابن ثمانى عشرة سنة . ولا يدفَعُ ذلك صاحبُ خَبَرٍ ولا حاملُ أثر .

وعلى مثل ذلك عَقَد لأُسامة بن زيدٍ الإمرةَ ، وأبَانه بالتّقدِمة على جِلّة الأنصار وكبار المهاجرين ، وخيار السّلَف المتقدّمين .

وعلى مثل ذلك ولّى عَتّابَ بن أَسِيدٍ[٤] مكّة ، وبها عظماء قريش وكبراء العرب وذَوُو الأخطارِ من كلّ قبيلة ، وذوو الأسنان من كلّ جيل .

---

(١) فى الأصل : « فوابله » بالإهمال .

(٢) فى الأصل : « وحمل » .

(٣) فى الأصل : « ويعلم » .

(٤) بفتح الهمزة ، كما فى الإصابة ٥٣٨٣ وقد أسلم عتاب يوم الفتح ، واستعمله رسول الله على مكة لما سار إلى حنين .

ومكّةُ فَتْح الفُتوح ، وأمُّ القُرى ، وخاتمة الهِجرة وقِبلة العرب ، وموضع الحرم والموسِم الأعظم والحجِّ الأكبر ، والأصلُ والمفخر .

وقد رأيتم مابلغ بخالد بن يزيد فى السُّودد والمحبَّة ، وقَوْد الجيوش والهَيْبة ، وهو ابن خمسَ عشرةَ سنة . وقد ذكر ذلك الكميتُ بن زيد فقال :

قاد الجيوش لخمَس عشرةَ حِجّةً ولِداتُه عن ذاك فى أشغال[١]
قَعَدت بهم همّاتُهم وسما به هِمَم الملوك وسَوْرةُ الأبطال[٢]

فأما ابن بِيضٍ[٣] فقال :

بَلغتَ لعشرٍ مَضتْ من سِنيـ ـكَ ما يبلغُ السيِّد الأشيَبُ
فهمُّك فيها جسامُ الأمور وهَمُّ لداتك أنْ يلعبوا

---

(١) البيت فى فتوح البلدان ٦١٩ برواية « ساس الرجال لسبع عشرة » . وفى الأصل هنا : « بخمس عشرة » ، تحريف .

(٢) فى الأصل : « قعدت بهم هماته » . وعند البلاذرى أن الشعر مقول فى محمد بن القاسم .

(٣) ابن بيض ، بكسر الباء ، وهو حمزة بن بيض الحنفى شاعر إسلامى من شعراء الدولة الأموية ، كوفى خليع ماجن كان منقطعا إلى المهلب بن أبى صفرة وولده ، ثم إلى أبان بن الوليد ، وبلال بن أبى بردة ، واكتسب بشعره مالا بلغ ألف ألف درهم . ولم يدرك الدولة العباسية . الأغانى ١٥ : ١٤ ـ ٢٥ والمؤتلف ١٠٠ وحواشى الحيوان ٥ : ٤٥٤ ـ ٤٥٥ . وفى عيون الأخبار ١ : ٢٢٩ أن حمزة ابن بيض قال البيتين لمخلد بن يزيد بن المهلب .

وعلى مثل ذلك قال الفرزدقُ فى يزيدَ بن المهلَّب :

مازال مُذْ عَقدَت يداه إزارَه ودنا وكان لخمسة الأشبارِ[١]

١١١ و وإذا الرِّجال رأَوا يَزيدَ رأيتهم خُضُعَ الرقاب نواكسَ الأبصارِ

وعلى هذا المجرى مَدح الشَّاعر مَنْ مدحَ فقال :

مازِلتَ فى عقل الكبيـ ـرِ وأنت فى سنِّ الصغيرِ

وقد رأيتم ما بلغ محمد بن القاسم[٢] من الفُتوح العظام والأيَّام الجسام ، والقهر للأعداء ، وبلوغ المحبَّة فى الأولياء ، وهو ابنُ خمسَ عشرةَ سنة . وقد ذكر ذلك زيادٌ الأعجمُ فقال :

ما إنْ سمعتُ ولا رأيت عجيبةً كمحمد بن القاسم بن محمد[٣]

قاد الجيوشَ لِخمْسَ عشرة حِجَّةً يا قُربَ ذلك سُوددًا من مَولدِ[٤]

---

(١) ديوان الفرزدق ٣٧٨ والخزانة ١ : ١٠٣ . والرواية فى الديوان : « فدنا فأدرك خمسة الأشبار » . وفى الخزانة : « وسما فأدرك خمسة الأشبار » .

(٢) هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبى عقيل ، أحد ولاة الحجاج ، غزا السند وفتحها فى أواخر أيام الحجاج : فتوح البلدان للبلاذرى ٦١٣ — ٦١٩ .

(٣) فى فتوح البلدان ٦١٩ وعيون الأخبار ١ : ٢٢٩ :

إن المروءة والسماحة والندى لمحمد بن القاسم بن محمد

(٤) فى الأصل : « بخمس عشرة » والوجه ما أثبت لكن فى فتوح البلدان « ساس الجيوش لسبع عشرة حجة » ، وفى عيون الأخبار : « قاد الجيوش لسبع عشرة » .

وقال الآخر[١] :

إذا المرء أعيته المروءةُ ناشئاً فمطلبُها كهلاً عليه عسيرُ[٢]

وقال آخر[٣] :

إذا ما ترعرعَ فينا الغلام فليس يقال له من هُوَه[٤]

إذا لم يَسُدْ قبلَ شَدِّ الإزار فذلك فينا الذى لا هُوَه

ولى صاحبٌ من بنى الشَّيْصَبان فطوراً أقولُ وطورا هُوَه[٥]

وزعموا أن عمرو بن سعيد[٦] قال له معاوية ـ وذلك قبل أن يَبلُغ ويحتلم ـ إلى مَن أَوْصَى بك أبوكَ ؟ قال: إنَّ أبى أوصَى إلىَّ ولم يوصِ بى . قال : فيم أوصاك ؟ قال : أوصانى ألاَّ يَفقد إخوانُه منه إلاَّ وجهه[٧] .

---

(١) هو المعلوط بن بدل القريعى ، كما فى التنبيه على الحماسة لابن جنى ، وعيون الأخبار ٣ : ١٨٩ . وفى الحماسة بشرح المرزوقى ١١٤٨ : « وقال رجل من بنى قريع » .

(٢) فى الأصل : « كهل » ، صوابه فى المراجع المتقدمة . وأما « عسير » فالرواية فيها : « شديد » ؛ فإن البيت من مقطوعة دالية فى الحماسة .

(٣) هو حسان بن ثابت ، كما فى ديوانه ٤٢٢ واللسان : (شصب) وثمار القلوب ٥٥ . وللأبيات قصة فى الديوان واللسان . ورويت فى الحيوان ٦ : ٢٣١ بدون نسبة .

(٤) فى الديوان واللسان : « فما إن يقال له » .

(٥) الشيصبان ، بفتح الشين والصاد : أبو حى من الجن ، زعموا .

(٦) هو أبو أمية عمرو بن سعيد بن العاصى بن سعيد بن العاصى بن أمية ، المعروف بالأشدق جمهرة أنساب العرب ٨١ وتهذيب التهذيب وتاريخ الطبرى ٧ : ١٧٨ — ١٨١ وحواشى البيان ٣ : ٣١٤ .

(٧) فى البيان ٣ : ٣١٦ : « إلا شخصه » . والخبر فى عيون الأخبار ١ : ٢٣٥ وأمالى المرتضى ١ : ٢٧٧ .

ولو لم يعرف ذلك إلاَّ بعبد الله بن العباس وَحْدَه كان ذلك كافياً ، وبرهاناً شافياً ، فإنَّ الأعجوبة فيه أربَتْ على كلِّ عجب ، وقطعَتْ كلَّ سبب . وقد رأيتم حاجةَ عُمر إليه ، واستشارتَه إيّاه ، وتقويمه لعثمان رضى الله عنهما وتغييره عليه . ولو لم يكن للفضيلة من بين أقرانه مستحقًّا ، وبها مَخصُوصاً ، ما خَصَّه الرسول صلى الله عليه وسلم بالدَّعوة المستجابة ، ولما ١١١ ظ
خصَّه بعِلم الكتابِ والسُّنَّة وهما أرفعُ العِلم ، وأشرف الفكر . ويدُلُّك على تقديمه للغاية ، وإيثاره للتعليم والاستبانة ، قوله حين قيل له فى حداثته وقبل البلوغ فى سنّه : ما الذى آتاك هذا العلمَ وهذا البيانَ والفهم ؟ قال : « قلبٌ عقولٌ ، ولسانٌ سَؤول » .

وقد عرفتم تحاكُم العرب فى الجاهليّة فى النُّفورة[1] ، وفى غير ذلك من المخايرة والمشاورة ، إلى أبى جهل بن هشام فى أيَّام حداثته وفتائه ؛ ولذلك أدخلوه دارَ الندوة ، ودُفِع [مع[2]] ذوى الأسنان والحَنَكة من بين جميع الشُّبَّان ، ومن بين جميع الفتيان .

ولذلك قال قُطبة بن سَيَّار[3] حكيمُ فَزارة حين تنافرَ إليه عامر ابن الطُّفيل وعلقمة بن عُلاثة : عليكم بالحديث الذِّهن ، الحديث السِّنّ . يعنى أبا جهل .

---

(١) النفورة : الحكومة . قال ابن هرمة (اللسان نفر) :

يبرقن فوق رواق أبيض ماجد يدعى ليوم نفورة ومعاقل

(٢) ليست فى الأصل . وفى عيون الأخبار ١ : ٢٣٠ : « فأدخلته مع الكهول دار الندوة » .

(٣) هو قطبة بن سيار بن عمرو ، من بنى مازن بن فزارة . الاشتقاق ٢٨٣ . وفى الأصل : « سنان » ، تحريف .

فهذا كلُّه دليلٌ واضح ، وبرهان بيِّن .

ولعلَّ قائلا أن يقول : إنَّما الفضل فى خشونة الملبس ؛ وليس ذلك لمن مدحتَ ، ولا هذه صفةُ من وصفت .

وهذا بابٌ ــ أبقاك الله ــ قد يغلط فيه العاقل مالم يكن بارعاً ، والفَطِن مالم يكن ثاقباً ، والأريب مالم يكن كاملاً . ولو كان الفضل والرِّياسة والقدر والنَّباهة على قدر قَشَفِ الجلدة وبذاذة الهيئة ، وكثرة الصَّوم ، وإيثار الوَحْشة والسِّياحة ــ لكان عثمانُ بن مظعونٍ متقدِّماً لأبى بكر الصديق رضوان الله عليه ، ولكان بِلال بن رَباحٍ غامراً لعثمان بن عفان رضى الله عنهما .

وقد قال ابن شهابٍ الزُّهرى : ليس الناسك[1] إلاَّ من غلب الحرامَ صَبرُه ، والحلالَ شكرُه .

فهذا ماحضرنا من القول ، وأمكنَنا من الاحتجاج . وما أشكُّ أنَّ مَن خَبَرَ أمركَ أكثرَ من اختبارى كان عنده أكثر من علمى . وعلى أنَّ منظرك

١١٢ و ــ أسعدك الله ــ يُغنى عن المخبر ، والفِراسة فيك تكفى مؤونة التجربة لك . وقد تقيَّلتَ بحمد الله أخلاقَ شيخك[2] ، واحتذيت على مِثاله كما احتذى على مثال مَن كان قبله . ولولم يتعقَّبوا أمركَ ، ويتصفَّحوا سيرتك فى نفسك ثم فى خاصَّتك و عامَّتك ، لكان فى صدق الفِراسة وظهور المحبّة ما تقضى به النُّفوس ، ويستدِلُّ به المجرِّب .

وظنُّ العاقل كيقين غيره .

---

(١) فى الأصل : « ليس الناس » . وفى البيان ٢ : ١٨٧ : « وقيل له أيضاً : ما الزهد فى الدنيا ؟ قال : ألا يغلب الحرام صبرك ، ولا الحلال شكرك » .

(٢) تقيله : تشبه به .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إنّك لن تنتفعَ بعقله حتّى تنتفع بظنّه .

وقال أوس بن حجر :

الألمعى الذى يظن لكَ الظَّـ ـنَّ كأنْ قد رأى وقد سَمِعا[١]

وقال وهو يمدح ابن كلَدَة بصِدق الحسّ ، وصواب الحَدْس ، وَجودَة الظن :

أريبٌ أديب أخو مأزِقٍ نِقــابًا يخـبِّر بالغـائبِ[٢]

وقال آخر[٣] يمدح بمثل ذلك عبدَ الملك بن مَرْوان :

رأيتُ أبا الوليـد غَداة جَمعٍ به شيبٌ وما فَقَدَ الشَّبـابا[٤]
ولـكنْ تَحتَ ذاكَ الشَّيبِ حزمٌ إذا ما ظنَّ أمرض أو أصـابا[٥]

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ ولقد صَدَّقَ عليهم إبليسُ ظَنَّه[٦] ﴾ . وقال : ﴿ إنَّ بعضَ الظَّنِّ إثم[٧] ﴾ . وفى ذكره البعضَ دليلٌ على أنَّ سائر ذلك صواب وطاعة .

---

(١) ديوان أوس بن حجر ٥٣ والكامل ٧٣١ والحيوان ٣ : ٩٥ والبيان ٤ : ٦٨ يرثى به فضالة بن كلدة . ويروى : « يظن بك الظن » .

(٢) ديوان أوس ١٢ والحيوان ٣ : ٦٠ . والنقاب الرجل العالم بالأشياء المبحث عنها الفطن الشديد الدخول فيها . وقد وردت «نقابا» فى الأصل منصوبة ، ويروى : « نقاب » .

(٣) هو كثير . كما فى الحيوان ٣ : ٦٠ والبيان ٤ : ٦٧ .

(٤) جمع ، بالفتح ، هو المزدلفة .

(٥) أمرض : قارب الصواب فى الرأى وإن لم يصب كل الصواب . وفى الأصل: « أعرض » ، صوابه من الحيوان والبيان واللسان (مرض) .

(٦) الآية ٢٠ من سورة سبأ .

(٧) الآية ١٢ من سورة الحجرات .

وكان من أسباب دَفْعى إليك هذا الكتابَ — أبقاك الله — دونَ أبى عبدِ اللهِ[١] أكرمه الله ، أنكما قد تجريان فى بعض الأمور مجرًى وحداً ، ولأنّك وإنْ كنتَ كثير الشُّغل فهو أقلّ فراغاً منك على كثرة شُغلك ، وفرط عنايتك بما استكفاك واسترعاك . وإنْ جعلتَ لى قسمًا من وقت فراغك ، ونصيبًا من ساعة نشاطك ، رجوتُ أن يصير إلى ما أمّلناه عندك من الإنعام علىّ ، والاسترهان لشكرى ؛ فإنّ العرب لم تعظِّم شيئاً قَطُّ كتعظيمها موقعَ الإنعام والشكر والأحدوثة الحسَنة ، والذكر والتميز ، والاستمداد للنعم ، والكفرُ حائل بين العَوْد والبَدْء . ١١٢ ظ

قال عنترة :

نُبِّيت بشرًا غير شاكرِ نعمتى والكُفر مَخبثةٌ لنفس المنعِمِ[٢]

وقال السِّنْدىُّ :

فلم أُجزَ بالُحسنى وعادت مَشاربى بلاقعَ يقروها الحمام المُقرقِرُ
تبدَّلتُ بالإحسان سوءًا وربّما تنكَّر للمعروف مَن كان يكفر

(١) هو أبو عبد الله أحمد بن أبى دواد القاضى ، والد من كتب إليه الجاحظ هذه الرسالة . وأبو دواد اسمه كنيته ، وقيل اسمه « دعمى » وقيل « طلحة » . ولى أحمد القضاء للمعتصم ثم للواثق ، وكان موصوفاً بالجود والسخاء وحسن الخلق ووفور الأدب ، وهو صاحب محنة القول بخلق القرآن فى أيام المعتصم والواثق . ولد سنة ١٦٠ بالبصرة وتوفى سنة ٢٤٠ فى بغداد . تاريخ بغداد ٤ : ١٤١ — ١٥٦ ووفيات الأعيان ١ : ٢٢ — ٢٦ .

(٢) البيت من معلقة عنترة . والرواية : « نبئت عمرا » . انظر شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنبارى ٣٥٥ .

ويدل على حبِّهم للثناء وجميل الذِّكر قولُ الأسديّ :

فإنِّى أحبُّ الخلدَ لو أستطيعه وكالخلد عندى أن أموتَ ولم أُلَمْ[١]

وقال :

فأثنُوا علينا لا أبا لأبيكم بمَسعاتنا إنَّ الثناء هو الُخلدُ[٢]

وقال الغَنَوىّ :

فإذا بلغتم أهلكم فتحدَّثوا إنَّ الحديث مَهالكٌ وخلود[٣]

فجعلوا الذكر بالجميل مثلَ الخلود فى النعيم .

وعلى هذا المعنى قال فى درك الثَّأر :

فَقَتْلاً بتقتيل وعقراً كعقركم جزاء العُطاس لا يموتُ من اثّأرْ[٤]

وقال حكيم الفرس حين بَلَغه موتُ الإسكندر ، وهو قاتل دارا بن دارا : ما ظننت أنَّ قاتل دارا يموت !

وهذا القولَ هو أمدح منه لقاتله . ولم أسمع للعجم كلمةً قطُّ أمدحَ منها . فأمَّا العرب فقد أصبتُ لهم من هذا الضَّرب كلاماً كثيراً .

---

(١) الحيوان ٣ : ٤٧٥ والبيان ٣ : ٣٢٠ .

(٢) الحيوان ٣ : ٤٧٥ والبيان ٣ : ٣٢٠ . والرواية فيهما « بإحساننا » .

(٣) فى بعض نسخ الحيوان : « بلغتم أرضكم » و « متالف وخلود » . انظر الحيوان ٤ : ٤٧٥ .

(٤) هو مهلهل ، كما فى البيان ٣ : ٣٢٠ . وهو بدون نسبة فى الحيوان ٣ : ٤٧٥ . تحريف . وفى الأصل : «وعفوا كعفوكم» تحريف . والعقر : القتل والإهلاك . جزاء العطاس ، هو تشميت العاطس والدعاء له بالخير ؛ أى نعجل بذلك كقدر ما بين العطاس والتشميت . وانظر اللسان (عقب ١١٠ جزى ١٥٩) . لا يموت من اثأر ، أى لا يموت ذكره . اثأر : أدرك ثأره .

ومما يدلُّ على قدر عِظَم الشُّكر عند الشاكر والمشكور له من العرب ، قولُ أوسِ بن حجرٍ فى حَليمة[١] :

سنجزيكِ أو يَجزيكِ عنَّا [مُثَوِّبٌ]

وحسبُكِ أن يُثْنَى عليكِ وتُحمَدِى[٢]

وقال بعض الشعراء[٣] :

فلم أجزِه إلاَّ التشكّرَ جاهدًا وحسبكَ منِّى أن أقولَ فأَحمَدا[٤] ١١٤ و

وكانوا يرون للذَّنب مالا يراه غيرهم . وقال امرؤ القيس بن حُجْر :

* وجُرح اللِّســـان كجرح اليَدِ[٥] *

(١) هى حليمة بنت فضالة بن كلدة . وكانت قد أسدت إليه صنيعا حين جالت به ناقته فصرعته ، فى قصة رواها أبو الفرج فى الأغانى ١٠ : ٧ .

(٢) المثوب : المجازى ، يقال أثابه وأثوبه وثوَّبه ، وفى الكتاب العزيز : « هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون » . وموضع الكلمة بياض فى الأصل ، وإثباتها من ديوان أوس ٢٧ والحيوان ٣ : ٧١ والبيان ٣ : ٣٢٠ . وروى : « عنى مثوب » وروى : « وقصرك » بدل « وحسبك » ؛ وهما بمعنى .

(٣) هو أبو يعقوب الأعور ، كما فى الحيوان ٣ : ٧٢ .

(٤) فى الحيوان :

فلم أجزه إلا المودة جاهدا وحسبك منى أن أود وأجهدا

وفى بعض نسخ الحيوان : « أن أود وأحمدا » .

(٥) صدره فى ديوان امرئ القيس ١٨٥ والبيان ١ : ١٥٦ :

* ولو عن نثا غيره جاءنى *

وقال جرير :

* وللسَّيفُ أَشْوَى وَقعةً من لسانيا[١] *

فى أشعار كثيرة .

ولست أمُتُّ إليك — أكرمك الله — بعدَ التوحيد ونَفْى التشبيه ، ونُصرتى للدِّين ، بأمرٍ أنا به أوثقُ من رغبتك فى شُكر الكرام والأُحدوثة الحسَنة . قال الله عز وجل : ﴿ ورفَعْنَا لكَ ذِكرَكَ[٢] ﴾ وقال : ﴿ وإنَّه لَذِكرٌ لكَ ولقومكَ[٣] ﴾ . فلو كان حبُّ الذكر خطيئةً لما رَغَّبَهم فيه ، ولا عُدَّ فى نِعَمه .

ولعل قائلًا أن يقول : وكيف لم تذكُر أميرَ المؤمنين ، والمعتصمَ بربِّ العالمين ، الذى حقَّق الله به الدِّين وسدَّد به الثُّغور ، وردَّ به المظالم ، وحَسَم به عِرق البَغْى ونواجمَ الفِتنة ؛ الذى لم يَزَلِ الله يَزيده فى كلِّ طَرفةٍ محبَّة ، ومع كلِّ محبَّة هَيْبة ، ومع كلِّ نِعمةٍ شُكراً ، ومع كل شُكرٍ فضلا . وهو المبتدئ بهذا الأمر والقائم به ، والقطب الذى عليه تَدُور الرَّحَى ، وعلى مِثاله احتَذَى من احتذى ، وبلسانه نَطَق ، وعن رأيه صَدَر . وبيُمن نقيبته ظهر ، وبفَضْل قُوَّته نَهَض . وهو أوّل هذا الأمرِ ووسَطُه ، به يتمّ إن شاء الله تعالى .

---

(١) صدره فى ديوان جرير ٦٠٦ والبيان ١ : ١٦٧ :

* وليس لسيفى فى العظام بقية *

أى هو يكسر العظم ويتجاوزه لا يغيب فيه أشوى ، من الشوى ، وهو إخطاء المقتل . يعنى أن لسانه أشد فتكا من سيفه ، على ما فى سيفه من قوة وفتك .

(٢) الآية ٤ من سورة الانشراح .

(٣) الآية ٣٤ من سورة الزخرف .

قلنا : إنَّ عقلَ الرَّسول يدلُّ على مُرسِله ، واعتدال القَناة يدلُّ على حِذْق المثقِّف ، ومَديحك الوزيرَ راجعٌ إلى مَن اختاره ، وإنَّ تصويبَ ظنِّ المتفرِّس فيه ومديحَنا له غيرُ راجعٍ إلى وزيره والمحتذِي على مثاله ، بل قد علم النّاسُ أنَّ الحظَّ الأكبرَ للآمرِ دونَ المطيع ، وللمعلِّم دون القائل ، ولأنَّ المسبِّب في عداله . . . . [1] وعند النَّظر والتحصيل ، أفضـلُ من المسبَّب ، والمتبوعَ خير من التابع . ألا تَرَى أنَّ مَن مَدح الأنصارَ فهو للنبيِّ صلى الله عليه وسلم والمهاجرين أمدَحُ ، وإن لم يُظهِر ذكرَهم في الوصف .

قال جرير : ١١٤ ظ

* تلـكم قُريشيَ والأنصـار أنصاري[2] *

وقال رؤبة :

* ومَنْ على المِنبر لي والمِنْبَرُ *

وربما كانت الـكناية أبلغَ في التعظيم ، وأدعى إلى التقديم ، من الإفصاح والشرح . وربَّما أتى من السكوت بما يَعجِز القولُ عنه وقد بلغ أقصى حاجته وغايةَ أمنيَّته بالإيماء والإشارة ، حتّى يكون تـكلُّف القولِ فضلًا ، والـكلامُ خَطَلا .

وما عسى أن أقولَ فيمن قد قوِيَ عقله بطبيعته ، وانتصف عزمُه من شهوته ، وكان عملُه وَفْقَ علمه ، وعملُه غامرًا لخصمه .

---

(١) بياض في الأصل بمقدار كلمتين .

(٢) صدره في ديوان جرير ٣١١ :

* إن الذين اجتنوا مجدا ومكرمة *

وفي الأصل : « نبيهم قرشي والأنصار الصابرين » .

وقد يجرى الملِكُ على عِرقٍ صالح ومنشأ سَوْء، فيقدح ذلك فى عِرقه وإنْ لم يستأصله ، وقد يكون له عِرقٌ صالحٌ ومنشأ صِدقٍ ، وتكون أداتُه تامّةً ويكون مُؤثِرًا لهواه ، فيكون فى الاسمِ وفى ظاهر الحكم كمن فسد عِرقُه وخَبُث منشؤه .

وقد جمع الله لأمير المؤمنين(١) مع كرم العُروق وصلاح المنشأ ، البُعدَ من إيثار الهوى . وهل رأيتَ أفعالًا أشبَه بأخلاقٍ ، ولا أخلاقًا أشبَه بأعراقٍ ، من أفعاله بأخلاقه ، وأخلاقه بأعراقه .

فنسأل الله الذى أسندنا بخلافته ، أن يمنَّ علينا بطُول بقائه ، وأن يَخصّنا بحسن نظرِهِ كما خصّنا بمعرفة حقّه ، والاحتجاج لمُلْكه ، والذبّ عن سُلطانه .

ولربّما كان اللّسانُ أنفذَ من السّنان ، وأقطعَ من السّيف اليمان .

أطال الله بقاءكَ وحَفِظَك ، وأتمّ نعمته عليك ، وكرامته لك .

* * *

تمت الرسالة بعون الله تعالى ومنه وتوفيقه وتأييده . والحمد لله أولاً وآخراً وصلواته على سيدنا محمد نبيه ، وآله وصحبه ، وسلامُه .

(١) يعنى الخليفة المعتصم .

٧

رسالة

إلى أبي عبد الله أحمد بن أبي دُواد

يخبره فيها بكتاب

الفُتيا

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هى الرسالة السابعة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« رسالة إلى أبى عبد الله أحمد بن أبى دؤاد الإيادى ، من كلام أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، كتبها إليه يخبره فيها بكتاب الفتيا » .

أما أبو عبد الله أحمد بن أبى دؤاد الإيادى فقد سبقت ترجمته فى أثناء الرسالة السابقة فأغنى ذلك عن إعادتها .

وقد أجرى الجاحظ ذكر كتاب الفتيا فى الحيوان ١ : ٩ قال : « وعبت كتابى فى القول فى أصول الفتيا والأحكام » .

وما هذه الرسالة إلا تقديم وعبارة إهداء لكتاب الفتيا ، وليست هى كتاب الفتيا بعينه .

ولم أجد لهذه الرسالة أصلا فى غير مجموعة مكتبة داماد ، وعليها اعتمادى فى إخراج هذه الرسالة .

بسم الله الرحمن الرحيم

أطال الله بقاءك وأعزّك ، وأصلح على يديك . ١١٥ ظ

كان يقال : السُّلطان سُوق ، وإنّما يُجلَب إلى كلِّ سوق ما يَنفُق فيها .

وأنت أيُّها العالم معلِّمُ الخير وطالبُه ، والدّاعى إليه ، وحامل الناس عليه ــ مِنْ موضع السُّلطان بأرفع المكان ؛ لأنَّ مَن جعل الله إليه مظالمَ العباد ، ومصالحَ البلاد ، وجعله متصفِّحًا على القضاة[1] ، وعَتاداً على الوُلاة ، ثمَّ جعله الله مَنزِعَ العُلماء ، ومَفزَع الضُّعفاء ، ومستراح الحكماء ، فقد وضَعَه بأرفع المنازل ، وأسنى المراتب .

وقد قال أهلُ العلم ، وأهل التَّجربة والفهم : « لَمَا يَزَعُ الله بالسُّلطان أكثرُ ممَّا يَزَع بالقرآن[2] » .

وقد كان يقال : شيئان متباينانِ ، إن صَلَح أحدُهما صلَح الآخر : السُّلطان والرعيَّة .

فقد صَلح السُّلطان ، وعلى الله تمامُ النِّعمة فى صلاح الرعية ، حتى يُحقق الأثر ، وتَصدُقَ الشَّهادة فى الخبَر .

---

(١) إشارة إلى أنه كان قاضى القضاة .

(٢) فى اللسان (وزع) : « وفى الحديث : من يزع السلطان أكثر ممن يزع القرآن » . قال : معناه أن من يكف عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان ممن تكفه مخافة القرآن والله تعالى . فمن يكفه السلطان عن المعاصى أكثر ممن يكفه القرآن بالأمر والنهى والإنذار .

فنسأل الذى مَنحك حُسن الرِّعاية أنْ يمنحنا حُسنَ الطَّاعة .

وقد نظرتُ فى التِّجارة التى اخترتَها ، والسُّوق التى أقمتَها ، فلم أر فيها شيئاً يَنفُق إلَّا العلمُ والبيانُ عنه ، وإلَّا العملُ الصالح والدُّعاء إليه ، وإلَّا التَّعاون على مصلحة العباد ، ونفْى الفساد عن البلاد .

وأنا — مدَّ الله فى عمرك — رجلٌ من أهل النَّظَر ، ومن جُمَّال الأثر ، ولا أكمُل لـكلِّ ذلك ولا أفِى ؛ إلَّا أنِّى فى سبيل أهله وعلى منهاج أصحابه . والمرء مع مَنْ أحبَّ ، وله ما اكتسب .

وعندى — أبقاك الله — كتابٌ جامعٌ لاختلاف النّاس فى أصول الفُتيا ، التى عليها اختلفت الفُروع وتضادَّت الأحكام ، وقد جمعتُ فيه جميعَ الدَّعاوى مع جميع العلل . وليس يكون الـكتابُ تامًّا ، ولحاجة الناس إليه جامعًا ، حتَّى تَحتجَّ لـكلِّ قولٍ بما لا يُصابُ عند صاحبه ، ولا يبلغُه أهله ؛ وحتَّى لا ترضى بكشف قناع الباطل دون تجريده ، ولا بتَوْهينه دون إبطاله . وقد قال رسولُ ربِّ العالمين وخاتَمُ النبيِّين ، محمدٌ صلى الله عليه وسلم : « تَهادَوْا تحابُّوا » .

١١٦ و فحثَّ على الهديّة وإن كان كراعًا وشيئاً يسيرا . وإذا دعَا إلى اليسير الحقير فهو إلى الثَّمين الخطير أدعَى ، وبه أرضى .

ولا أعلم شيئاً أدعَى إلى التحابِّ ، وأوجبَ فى التَّهادى ، وأعلَى منزلةً وأشرفَ مرتبة ، مِن العلم الذى جعلَ الله العملَ له تبعًا ، والجنَّةَ له ثوابا .

ولا عُذرَ لمن كتب كتاباً وقد غاب عنه خَصمُه ، وقد تـكفَّل بالإخبار عنه ، فى ترك الحِيطة له ، والقيام بكلِّ ما احتمله قولُه . كما أنَّه لا عُذر له فى التقصير عن فسادِ كلِّ قولٍ خالف عليه ، وضادَّ مذهبه ، عند من قرأ كتابَه

وتفهّم أدخاله[١] ، لأنَّ أقلَّ ما يُزيل[٢] عذره ويزيح عِلّته ، أنَّ قولَ خَصمه قد استهدف لخصمه ، وأَصحَرَ للسانه[٣] ومكّنه من نفسه ، وسلَّطه على إظهار عورته . فإذا استراحَ واضعُ الكتاب من شَغَب خصمه ومداراة جليسه ، فلم يبقَ إلّا أن يَقوى على كسر الباطل أو يعجزَ عنه[٤] .

ومن شُكر المعرفة بمَغَاوِى الناس ومَراشدهم ، ومضارِّهم ومنافعهم ، أنْ تحتمل ثِقل مؤونتهم فى تعريفهم[٥] ، وأن تتوخَّى إرشادهم ، وإن جَهِلوا فَضْلَ ما يُسدَى إليهم .

ولم يُصَنِ العلمُ بمثل بذله ، ولم يُسْتَبْقَ بمثل نشره . على أنَّ قراءة الكتب أبلغُ فى إرشادهم من تلاقيهم ، إذْ كان مع التلاقى يكثر التَّظالُم ، وتُفرِط النُّصرة ، وتشتدُّ الحميَّة . وعند المواجهة يُفرِط حبُّ الغلبة ، وشهوةُ المباهاةِ والرِّياسة ، مع الاستحياء من الرجوع ، والأَنَفَة من الخضوع . وعَن[٦] جميع ذلك تحدث الضَّغائن ، ويَظْهر التّباين . وإذا كانت القلوبُ على هذه الصِّفة وهذه الحِلْية ، امتنعت من المعرفة[٧] ، وعميَت عن الدَّلالة .

(١) الأدخال : جمع دخل بالتحريك ، وهو العيب والفساد .

(٢) فى الأصل : « يزيد » .

(٣) أصحر : ظهر وبرز .

(٤) الكلام بعده إلى « وقامت سوق العلم والبيان » فى ص ٢١٧ تجده مع خلاف يسير فى الحيوان ١ : ٨٤ – ٨٧ .

(٥) فى الحيوان : « فى تقويمهم » .

(٦) فى الأصل « وعند » ، ووجهه من الحيوان .

(٧) فى الأصل : « الفرقة » ، وفى الحيوان : « التعرف » .

وليست في الكتب عِلّةٌ تمنع من دَرْك البُغية ، وإصابة الحُجّة ؛ لأنّ المتوحِّد بقراءتها ، والمتفرِّد بفهم معانيها ، لا يُباهى نفسَه ، ولا يغالب عَقْله .

والكتاب قد يفضُل صاحبَه ، ويرجُح على واضعه بأمور :

منها أنه يوجَدُ(١) مع كل زمانٍ على تفاوت الأعصار ، وبُعد ما بين الأمصار . وذلك أمرٌ يستحيل في واضع الكتاب ، والمنازِع بالمسألة والجواب . ١١٦ ظ
وقد يذهب العالم وتبقى كتبه ، ويَفْنَى المعقِّب(٢) ويبقى أثره . ولولا ما رسمَتْ لنا الأوائل في كتبها ، وخلَّدت من عجيب حِكَمها ، ودوّنَتْ من أنواع سِيَرها ؛ حتَّى شاهدنا بها ما غابَ عنا ، وفتحنا بها المستغْلِق علينا ، فجَمَعْنا إلى قليلنا كثيرَهم ، وأدركنا ما لم نكن ندركُه إلَّا بهم ـ لقد خَسَّ حظُّنا في الحكمة ، وانقطع سببُنا من المعرفة ، وقَصُرت الهِمّة ، وضعفت النيَّة ، فاعتقَم الرّأىُ وماتت الخواطر ، ونبا العقل(٣) .

وأكثر مِن كتبهم نفعاً ، وأحسنُ ما تكلّموا به موقعاً ، كتبُ الله التى فيها الهُدى والرحمة ، والإخبار عن كلّ عِبرة ، وتعريفُ كلِّ سيِّئة وحسنة .

فينبغى أن يكون سبيلُنا فيمن بعدنا كسبيل مَن قبلنا فينا . على أنّا قد وجَدنا من العبرة أكثرَ ممَّا وجدوا ، كما أنَّ مَن بعدنا يَجِد من العِبرة أكثرَ مما وجدنا .

فما ينتظر العالمُ بإظهار ما عنده ، والنَّاشر(٤) للحقِّ من القيام بما يلزمه .

(١) في الأصل : « يوخذ » .
(٢) في الأصل : « العقب » ، وفي الحيوان « العقل » .
(٣) في الحيوان : « وتبلد العقل » .
(٤) في الحيوان : « والناصر » .

فقد أمكن القولُ وصلَح الدهر ، وخَوى نجم التَّقيَّة[1] ، وهبَّت ريح العلماء ، وكَسَدَ الجهل والعيّ[2] وقلمت سوق العلم والبيان[3] .

وهذا الكتاب ـ أرشدك الله ـ وإن حَسُن في عيني ، وحَلَا في صدري ، فلستُ آمَنُ أن يعتريَني فيه من الغلطِ ما يعتري الأبَ في ابنه ، والشّاعرَ في قريضه .

والذي دعاني إلى وَضْعه مع إشفاقي منه ، وهيبتي لتصفُّحك له ، أنِّي حين علمتُ أنَّ الغالبَ على إرادتك ، والمستوليَ على مذهبك ، تقريب العالم وإقصاء الجاهل ، وأنَّك متَى قرأتَ كتاباً أو سمعتَ كلاما ، كنتَ من وراءِ ما فيه من نقصٍ أو فضل ، باتِّساع الفهم ، وصحة العلم ؛ وأنَّك متى رأيتَ زللًا غَفَرته وقوَّمتَ صاحبه ، ولم تُقرِّعْه به ، ولم تَخرِمْه له . ومتى رأيتَ صواباً أعلنتَه ورعيته ، فدعوتَ إليه وأثَبْتَ عليه . ولأنِّي حين أمنتُ عقابَ الإساءة ، [و] وثقت بثواب الإحسان ، كان ذلك موجباً لوضعه ، ولم أستكرِهْ نفسى عليه ، وصار ذلك موجباً لنَظْمه وموحيًا للتقرُّب به . والسَّبب أحقُّ بالتَّفضيل ١١٧ و
من المسبَّب ؛ لأنَّ الفعل محمول على سببه ، ومضافٌ إليه ، وعِيالٌ عليه ، ومضمَّن به .

وإحساني ـ مَدَّ الله في عمرك ـ في كتابي هذا إن كنت محسناً ، صغيرٌ

---

(١) خوى : اختفى وذهب .

(٢) في الأصل : « والعمل » ، صوابه من الحيوان .

(٣) في الحيوان : « سوق البيان والعلم » . وإلى هنا ينتهي النص المقارب لنص الحيوان ، الذي أشرت إليه في ص ٢١٥ .

فى جنب إحسانك ، إذْ كنتَ المثيرَ له من مَرَاقِبه ، والباعثَ له من مراقده . فلذلك صارَ أوفرُ النصيبَينِ لك ، وأمتنُ السببين مضافاً إليك . وإنْ كنتُ قد قصَّرت عن الغاية ، فأنا المضيّع دونك . وإن كنت قد بلغتُها ففضلُك أظهر وحظُّك أوفر . لأنّى لم أنشِط له إلَّا بك ، ولا اعتمدت فيه إلَّا عليك .

ولولا سوقُك التى لا ينفُق فيها إلَّا إقامة السنّة ، وإماتة البدعة ، ودَفع الظُّلامة ، والنظر فى صلاح الأمَّة — لـكانت هذه السِّلعة بائرة ، وهذا الجَلَب مدفوعًا ، وهذا العِلْق خسيسا .

فالحمد لله الذى عَمَرَ الدُّنيا بك ، وأخذ لمظلومها على يديك ، وأيَّدَ هـذا المُلْك بيُمنك ، وصَدَّق فِراسةَ الإمام فيك .

وأيّةَ منزلةٍ أرفعُ وأيّةُ حالةٍ أحمدُ، ممَّن ليس على ظهرها عالمٌ إلاّ وهو يَحِنُّ إليه ، أو قد رحل إليه ، أو قد صار إلى كنفِهِ وتحتَ جَناحه . وليس على ظهرها ظالمٌ إلاّ وهو يتّقِيه ، ولا مظلوم إلّا وهو يستعديه .

ومن يَقِفُ على قدرِ ثوابِ مَن هذا قدرُه ، وهذه حاله ؟ !

وعندى — مدَّ الله فى عمرك — كتبٌ سوى هذا الـكتاب ، وليس يمنعنى مِن أن أهديَها إليك معًا إلَّا ما أعرفه من كثرة شُغْلك ، وكثرةِ مايلزمك من التَّدبير فى ليلك ونهارك . والعلم وإن كان حياةَ العقل ، كما أنَّ العقلَ حياة الروح ، والرُّوح حياة البدن ، فإنَّ حكمَه حكمُ الماء وجميعِ الغذاء ، الذى إذا فضل عَن مقدار الحاجة عاد ذلك ضررًا . وإنَّما يسوغ الشَّرابُ ويُستمرأ الطَّعام الأوّلَ فالأوّل . فـكذلك العلم يجرى مجراه ، ويذهب مذهَبه .

ومن شأنِ النُّفوس الملالَةُ لِماَ طالَ عليها ، وكثُر عندها . فليس لنـا أن نـكون من الأعوان على ذلك ، ومن الجاهلين بما عليه طبائع البشَر ؛ ١١٧ ظ

فإنَّ أقواهم ضعيفٌ ، وأنشطَهم سَؤوم ؛ وإن كانت حالاتُهم متفاوتةً فإنَّ الضَّعفَ لهم شامل ، وعليهم غالب .

فإذا قُرئَ عليك — أيّدك الله — هذا الكتابُ التمسنا أوقات الجَمام[1] وساعاتِ الفراغ ، بقدر ما يُمكن من ذلك ويتهيَّأ . والله الموفِّق لذلك ، والمهيِّئ له . ثمَّ أتبعْنا كلَّ كتاب بما يليه إنْ شاء الله .

وليست بحمد الله من باب الطَّفرة والمداخَلة[2] ، ولا من باب الجوهر والعَرَض ، بل كلُّها في الكتاب والسُّنَّة ، وبجميع الأُمَّة إليها أعظمُ الحاجة .

ثم نسألُ الذي عرّفنا فضلَك ، أن يصلَ حبلَنا بحبلك ، وأن يجعَلنا من صالحي أعوانك ،المستمِعين منك ، والناظرين معك ؛ وأن يُحسِّنَ في عينك ويُزَيِّنَ في سمعك ، ما تقرَّبْنا به إليك ، والتمسنا الدنوَّ منك ، إنَّه قريب مجيب ، فعَالٌ لما يريد .

أطال الله بقاءك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وكرامته لك في الدُّنيا والآخرة .

* * *

تمت الرسالة بعون الله تعالى ومنِّه وتوفيقه . والله الموفق للصواب .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلامُه .

---

(١) الجمام ، كسحاب : الراحة .

(٢) انظر للطفرة والمداخلة حواشي الحيوان ٤ : ٢٠٨ .

٨

رسالة

إلى أبي الفرج بن نجاح الكاتب

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هى الرسالة الثامنة من رسائل الجاحظ ، انفردت بها نسخة مكتبة داماد وعنوانها :

« رسالة لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، كتب بها إلى أبى الفرج بن نجاح الكاتب » .

وهى غير الرسالة التى كتب بها إليه فى « المودة والخلطة » ، فهذه لم ترد فى مجموعة داماد ، وإنما وردت فى الفصول المختارة لعبيد الله بن حسان ، وكذا فى مختارات فصول الجاحظ نسخة المتحف البريطانى ، وقد نشرها السندوبى كذلك فى رسائل الجاحظ .

وسأقوم بتحقيقها ونشرها إن شاء الله بعد الفراغ من هذه المجموعة : مجموعة داماد .

وأبو الفرج هذا هو محمد بن نجاح بن سَلمة ، كما فى جمع الجواهر للحصرى ١٢١ . وأبوه نجاح بن سَلمة كان على ديوان التوقيع فى خلافة المتوكل وقتله سنة ٢٤٥ ووجه إلى ابنيه أبى الفرج وأبى محمد ، فأخذ أبو الفرج وهرب أبو محمد ، كما ذكر الطبرى فى حوادث تلك السنة .

والملحوظ فى هذه الرسالة أن الجاحظ قد عنى فيها بجمع أسماء من كنيته « أبو عثمان » التى هى كنيته أيضاً ، كما أنها قد سجلت للجاحظ قصيدة من شعره .

جُعلتُ فِداك ، وأطال الله بقاك ، وأعزّك وأكرمك ، وأتمّ نعمته عليك وأيّدك .

قد نسخت لك ـ أعزّك الله ـ فى صدر هذا الكتاب قصيدةً قيلت فى أبى الفرج أدام الله عزّه ، ذكرُوا أن قائلها رجلٌ يكنى أبا عثمان ، ولا أدرى أهو أبو عثمان هشام بن المغيرة[1] ، أم أبو عثمان عَفّان بن أبى العاص[2] .

ولا أدرى أهو أبو عثمان عنبسة بن أبى سفيان ، أم أبو عثمان سعيد ابن عثمان[3] ، ولا أدرى أهو أبو عثمان النَّهدى عبد الرحمن بن مِلّ[4] ، أم أبو عثمان ربيعة الرأىِ بن أبى عبد الرحمن[5] .

---

(١) جمهرة أنساب العرب ١٤٥ . وهو والد أبى جهل .

(٢) جمهرة أنساب العرب ٨٣ وهو والد عثمان .

(٣) جمهرة أنساب العرب ١١١ وهو سعيد بن عثمان بن عفان .

(٤) فى الأصل : « مليل »، صوابه من الجمهرة ٤٤٧ وتهذيب التهذيب ٦ : ٢٧٧ وتقريب التهذيب . وهو عبد الرحمن بن مل ـ بتثليث الميم ـ بن عمرو بن عدى بن وهب بن ربيعة بن سعد بن جذيمة بن كعب بن رفاعة بن مالك ابن نهد .

(٥) هو ربيعة الرأى بن أبى عبد الرحمن فروخ التيمى ، أدرك بعض الصحابة والأكابر من التابعين ، وكان صاحب الفتوى بالمدينة . توفى سنة ١٣٦ . تهذيب التهذيب والمعارف ٢١٧ وصفة الصفوة ٢ : ٨٣ ـ ٨٦ .

ولا أدرى أهو أبو عثمان سعيد بن خالد بن أَسيد[١] ، أم أبو عثمان إسحاق بن الأشعث بن قيس .

ولا أدرى أهو أبو عثمان المنذر بن الزُّبير بن العَوَّام[٢] ، أم أبو عثمان عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك[٣] .

ولا أدرى أهو أبو عثمان عبد الله بن خالد بن أسيد[٤] ، أم أبو عثمان أبو العاص بن [بشر بن[٥]] عبد دُهمان ، وهو اسمُه .

ولا أدرى أهو أبو عثمان عبد الله بن عبد الرحمن بن سَمُرة بن حبيب ابن عَبد شمس[٦] ، أَمْ أبو عثمان عبد الله بن عامر بن كُرَيز[٧] .

ولا أدرى أهو أبو عثمان سعيد بن أسعد بن إمام المسجد الجامع الأعظم ، أم أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب[٨] .

---

(١) جمهرة أنساب العرب ١١٣ .

(٢) جمهرة أنساب العرب ١٢٣ .

(٣) جمهرة أنساب العرب ٩٠ – ٩١ .

(٤) جمهرة أنساب العرب ١١٣ .

(٥) التكملة من جمهرة أنساب العرب ٢٦٦ .

(٦) جمهرة أنساب العرب ٧٤ . وفى الأصل : « بن جندب بن عبد شمس » ، صوابه من الجمهرة والإصابة ٣٤٦٩ .

(٧) الجمهرة ٧٤ ، ٧٥ ، ٣١١ .

(٨) عمرو بن عبيد بن باب : شيخ من شيوخ المعتزلة ، وأحد الزهاد المشهورين . توفى بحران سنة ١٤٤ ورثاه المنصور . قالوا : ولم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه . تاريخ بغداد ٦٦٥٢ والمعارف ٢١٢ .

ولا أدرى أهو أبو عثمان فيروز حُصَينٍ العنبرى[١] ، أَمْ أبو عثمان ابن عُمَر بن أبى عثمان الشَّمَّرى[٢] .

ولا أدرى أهو أبو عثمان خالد بن الحارث بن سليمان الهُجَيْمِى[٣] ، أم أبو عثمان أبو العاص بن عبد الوهاب الثقفى[٤] .

---

(١) فى الأصل : « فيروز بن حصن » ، صوابه ما أثبت من البيان ٢ : ٤٣ وجمهرة أنساب العرب ٢٠٩ . وهو مولى حصين بن مالك بن الخشخاش العنبرى قال ابن قتيبة فى المعارف ١٤٧ : « ومن موالى آل الخشخاش فيروز ، أعظم مولى بالعراق قدراً . وقد ولى الولايات وخرج مع ابن الأشعث ، فقال الحجاج : من جاءنى برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم ! فقال فيروز : من جاءنى برأس الحجاج فله مائة ألف درهم ! فلما هزم ابن الأشعث هرب إلى خراسان فأخذه يزيد بن المهلب فبعث به إلى الحجاج » . وقد نكل به الحجاج تنكيلا وقتله .

(٢) فى الأصل : « السمرى » ، صوابه من البيان ١ : ١٦ حيث ذكر أبوه « أبو حفص عمر بن أبى عثمان الشمرى » .

(٣) هو خالد بن الحارث بن عبيد بن سليمان الهجيمى البصرى ، كان من عقلاء الناس ودهاتهم ، وكان يقال له « خالد الصدق » . ولد سنة ١٢٠ وتوفى سنة ١٨٦ . ذكره فى البيان ٢ : ٢٢١ .

(٤) هو صاحب الرسالة التى رواها الجاحظ فى البخلاء ١٤١ – ١٥٣ وعقب عليها بذكر رد ابن التوأم عليها . وانظر أخبار أبى نواس لابن منظور ١٨٤ حيث ذكر أباه وإخوته ، ومنهم عبد المجيد الثقفى صاحب ابن مناذر الذى رثاه بقوله :

إن عبد المجيد يوم تولى هد ركنا ما كان بالمهدود

ولا أدرى أهو أبو عثمان سَعِيد بن وهب الشاعر[١] ، أم أبو عثمان عمرُو الأعورُ الخارَكى[٢] .

ولا أدرى أهو أبو عثمان الحكم بن صخر الثّقفى[٣] ، أم أبو عثمان عمرو بن بكر المازنىّ .

ولا أدرى أهو أبو عثمان الأعور النحوىّ[٤] ، أم أبو عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ .

١١٩ و والذى لا أشك فيه أنّه لم يقرضها أبو عثمان عمرو بن حَزْرة ، ولا أبو عثمان عمرو المخلخل ، ولا أبو عثمان إبراهيم بن يزيد المتطبّب ، ولا أبو عثمان سعيد بن حيان البزاز .

وقد بلغَنى عن أبى عثمان هذا المجهولِ موضعُهُ ، المغمور نسبه ، أنه قال : ما راكبُ الأسد الأسود ، والبحر الأخضر ، والمصبور على السَّيف الحسام[٥] ،

---

(١) ذكره الجاحظ فى البيان ٣ : ١٦٢ – ١٦٣ وترجم له ابن المعتز فى طبقات الشعراء ٢٥٧ – ٢٦١ ، وكان شاعراً ماجناً ، وله خبر مع هارون الرشيد . وانظر الأغانى ٢١ : ١٠٤ وتاريخ بغداد ٩ : ٧٣ .

(٢) ترجم له المرزبانى فى معجمه ٢١٩ وقال : « أزدى بصرى أصله من خارك : قرية بفارس على البحر ، ماجن خبيث ، كان على عهد المخلخل الوراق » . وخارك ، بفتح الراء كما فى معجم البلدان ، قال ياقوت : « منهم الخاركى الشاعر ، فى أيام المأمون أو ما يقاربها .

(٣) ذكره أبو الفرج فى الأغانى ١٧ : ١٢١ فى رواية للعتبى عنه . والعُتبى ، هو محمد بن عبد الله العتبى الأخبارى المتوفى سنة ٢٢٨ .

(٤) ذكره الجاحظ فى البخلاء ١٨٠ .

(٥) صبر على القتل صبراً : حبس حتى يقتل .

بأحقَّ بجهد البلاء وشماتة الأعداء ، ممّن تعرّضَ للمتصفِّحين[١] ، وتحكّك بالعيّابين ، وحكّم فى عِرض الحسَدةَ المغتابين .

فإن سَلِم فبحُسْن النيّة ، ولأنه مَدحَ كريماً ، ووصفَ حليماً . والكريم صَفوح ، والحليم متغافل . وإن ابتُلِىَ فبذنبٍ ، وما عفا اللهُ عنه أكبر .

وقال : اللهمَّ اجعلْ هذا القولَ حسناً فى عينه ، خفيفاً على سمعه ، وألهِمْه حُسنَ الظنِّ به ، وبَسطَ العُذْر له ، إنّك سميعُ الدعاء ، رحيمٌ بالضعفاء .

والقصيدة هى قوله :

أقامَ بدارِ الخفض راضٍ بحظِّــــهِ
وذو الحِرص يسرى حين لا أحدٌ يَسرى
يظنُّ الرِّضا بالقَسْم شـــيئاً مهوَّناً
ودُون الرضــــا كأسٌ أمرُّ من الصَّبرِ
جَزِعتُ فلم أعتِبْ فلو كنتُ ذا حِجاً
لقنَّعتُ نفسى بالقليــــل من الوَفْرِ
أظنُّ غبىَّ القـــوم أرغدَ عيشةً
وأجذلَ فى حال اليَســـارة والعُسْرِ
تمرُّ به الأحـــداث تُرعِدُ مَرّةً
وتُبرِق أخرى بالخطــوب وما يدرى
ســـواءٌ علَى الأيام صاحب حُنْكةٍ
وآخرُ كابٍ لا يَرِيش ولا يَـــبرى

(١) المتصفح : المتأمل المتعرف .

فلو شـــاء ربِّى لم أكن ذا حفيظةٍ
طَلوباً لغـــايات المكارم والفخرِ
خضَعتُ لبعض القـــوم أرجو نوالَه
وقد كنتُ لا أعطِى الدنيَّـةَ بالقَسْرِ
فلمَّا رأيت المرءَ يبـــذُل بِشرَه
ويَجعلُ حُسن البِشر واقيــةَ التِّبْرِ[1]
ربَعتُ على ظَلْعى وراجعتُ منزِلى
فصِرْت حليفاً للدراســـة والفكرِ[2]
وشاورت إخـــوانى فقال حكيمهم
عليك الفـــتَى المُرِّىَّ ذا الخلق الغَمْرِ
فتًى لم يَقفِ فى الدهر موقفَ ظِنّــةٍ
فيحتاجَ فيـــه للتَّنصُّل والعُذْرِ
١١٩ ظ أُعيـــذك بالرحمن من قولِ شامتٍ
أبو الفـــرج المأمولُ يزهد فى عَمرِو
ولو كان فيـــه راغباً لرأيتَـه
كما كان دهراً فى الرَّخاء وفى اليُسْرِ
أتَرضى ـ فدتك اليومَ نفسى وأسرتى ـ
بتأخـــير أرزاق وأنت تلى أمرى

---

(١) أى يجعل بشره بدلا من بذله وعطائه .

(٢) ربع على ظلعه : توقف وانتظر . والظلع ، بالفتح : العرج أو شبيه به .

ألا يافتىَ الكُتّاب والعسكرِ الذى تأزّر بالحسنى وأُيّد بالنَّصرِ
أخافُ عليك العينَ أو نفسَ وامقٍ وذو الوُدِّ منخوبُ الفؤاد من الذُّعر
وعَهدى به والله يُرشد أمرَه ويحفظُه فى القاطنين وفى السَّفْر
مُطِلاًّ على التدبير ما يستفزُّه مَكايدُ محتالٍ عقاربُه تَسرِى
برأىٍ يُزيل الطَّود من مستقرِّه وأوضحَ عند الخصم من وضَح الفجرِ
وعزمٍ كغرب المشرفىّ مصمِّمٍ وقلبٍ ربيط الجأش منثلج الصدر
فيا ابن نجاحٍ أنجح اللهُ سعيكم وأيّدكم بالنَّصر والعدد الدَّثْر (١)
قَعدتُ فلم أطلُب وجُلتُ فلم أُصِب خليلاً يواسينى ويَرغب فى شكرى
وإن أخفقَتْ كفِّى وقد علقتُكمُ فقد قال رأيى واستنمتُ إلى شعرى (٢)
أعيذك بالرحمن أن تُشمِتَ العِدى فَلَلفقرُ خيرٌ من شماتةِ ذى الغمْرِ (٣)
فإن تَرع وُدِّى بالقبول فأهلُه ولا يعرفُ الأقدارَ غير ذوى القدر
وحسبك بى إن شئتَ ودًّا وخُلّةً وحسبك بى يوم النَّزاهة والصَّبر
ألا ربَّ شكرٍ داثر الرسم دارسٍ وشكرٍ كنقش الحميريّة فى الصَّخر

قال أبو عثمان المجهول : إذا كان الممدوح ظاهرَ المحاسن كثير المناقب فلم يُجدِ الشاعرَ كان ألومَ .

---

(١) الدثر : الكثير .

(٢) استنام إليه : أنس به واطمأن إليه . وفى الأصل : « واستلمت » وإزاءها فى هامش الأصل الحرف « ظ » وتحته الحرف « ن » معناه الظاهر أنها « استنمت » .

(٣) الغمر بالكسر وبالتحريك أيضاً : الحقد والغل .

ونعوذ بالله أن يكون فيكم ما يستدعى الألفاظ الشريفةَ والمعانىَ النفيسة ، ويكونَ التقصيرُ منّى .

وكيفما تصرّفتْ بى الحالُ فإنّى لم أخرجْ من جهد المجتهدين الراغبين المخلصين . فإن وقعَتْ هذه القصيدة والتى قدّمنا قبلها بالموافقة فالحمد لله . وإن خالفت فنستغفر الله . وإن شيّعتم ضعفَها بقوّة كرمكم[1] ، وقوّمتم أودَها بفضل حلمكم ، كان فى ذلك بلاغٌ لما أمّلنا . والله الموفّق .

* * *

تمت الرسالة بعون الله وتوفيقه ، والله الموفّق للصواب برحمته والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه .

(١) شيعه تشييعاً : قواه .

٩

كتاب

فصل ما بين العداوة والحسد

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هى الرسالة التاسعة من رسائل الجاحظ ، وعُنوانها :

« فصل ما بين العداوة والحسد » ، أى فرق ما بينهما .

وقد سجل الجاحظ فى صدر هذه الرسالة أن هذه الرسالة مسبوقة بكتاب فضل الوعد ، وأن فضل الوعد مسبوق بكتاب أخلاق الوزراء .

أما الأول منهما فقد أشار إليه الجاحظ فى مقدمة الحيوان ١ : ٩ . وأما الثانى منهما فلم أجدله ذكراً .

ويبدو أنه ألف هذه الرسالة لأبى الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وزير المتوكل ثم المعتمد ، كما تدل عليه أواخر هذه الرسالة فى شعر الجاحظ وتعليقه على شعره ذلك .

وانظر لترجمة عبيد الله هذا تاريخ الطبرى ١١ : ٤٤ ومروج الذهب ٤ : ١١٩ والتنبيه والإشراف للمسعودى ٣١٤ وإعتاب الكتاب لابن الأبار ١٥٩ — ١٦٢ والوزراء والكتاب للجهشيارى ٢٥٤ والفخرى لابن طباطبا ٢١٦ ، ٢٢٨ .

وقد اعتمدت فى إخراج هذه الرسالة على نسخة الأصل فى مجموعة مكتبة داماد ، وهى النسخة الوحيدة التى نشر عنها الأستاذان الدكتور طه الحاجرى ، والمستشرق باول كراوس نسختهما التى أشرت إليها بالرمز « ط » .

ومما يجدر ذكره أن للجاحظ رسالة أخرى فى موضوع مماثل لهذا ، هى «رسالة الحاسد والمحسود » . وليست فى مجموعتنا هذه، فموعدها فى النشر والتحقيق بعد الفراغ من نشر هذه المجموعة بعون الله وتوفيقه إن شاء .

بسم الله الرحمن الرحيم

[1] أصحبَ الله مدّتك السعادةَ والسَّلامة ، وقرنَها بالعافية والسُّرور ، ووصَلها بالنعمة التي لا تَزُول ، والكرامة التي لا تَحُول . ١٢٠ ظ

هذا كتابٌ ـ أطال الله بقاءك ـ نبيلٌ بارع ، فُصِل فيه بين الحسَد والعداوة ، ولم يسبقْنى إليه أحد ولا إلى كتاب فضل الوعد الذى تقدَّم هذا الكتاب ، ولا إلى كتاب أخلاق الوزراء الذى تقدَّم كتابَ فضْل الوعد .

وإنَّما نبُلتْ هذه الكتب وحَسُنت وبَرَعتْ ، وبذَّت غيرَها ؛ لمشا كلتها شرفَ الأشراف ، بما فيها من الأخبار الأنيقة الغريبة ، والآثار الحسنة اللَّطيفة ، والأحاديث الباعثة على الأخلاق المحمودة ، والمكارم الباقية المأثورة ، مع ما تضمَّنتْه[2] من سِيَر الملوك والخلفاء ووزرائهم وأتباعهم ، وما جرت عليه أحوالهم .

فأنا أسألك بساطع كرمك وناصع فضلك ، لَمَّا[3] امتننتَ علىَّ بصرف عنايتك إلى قراءتها . فإنْ لم يمكنك تبحُّرها والتقصِّى لجميعها ، للأشغال التى

---

(١) صدرت هذه الرسالة بعبارة ليست من أسلوب الجاحظ ، ونصها : « الحمد لله رب العالمين كما هو أهله ، وصلى الله على محمد خاتم التبيين كما أمر به ، وعلى آل محمد كما سنه محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم كثيراً » .

(٢) فى الأصل : « ما تضمنتها » .

(٣) لما ، هنا ، بمعنى إلا ، كما فى التنزيل العزيز : « إن كل نفس لما عليها حافظ » .

تَعروك ، فبحسبك(١) أن تقف على حدودها ، وتتعرَّف معانىَ أبوابها بتصفُّح أوائلها ؛ فإنّ معك قلباً به من اليقظة والذكاء ، والتوقّد والحفظ ، ما يكفى معه النَّظر الخاطف(٢) .

إنه لم يخلُ زمنٌ من الأزمان فيما مضى من القرون الذاهبة إلاّ وفيه علماء محقِّون، قد قرءوا كتب مَن تقدَّمهم ، ودارسوا أهلها، ومارسوا [الموافقين(٣)] لهم ، وعانَوا(٤) المخالفين عليهم ، فمَخَضوا الحكمة ومجموا عيدانها ، ووقفوا على حدود العلوم ، فحفظوا الأمَّهات والأصول ، وعرفوا الشرائع والفروع ، ففَرَقوا ما بين الأشباه والنظائر ، وصاقبوا بين الأشكال والأجناس ، ووصلوا بين المتجاور والمتوازى(٥) ، واستنبطوا الغامض الباطن بالظاهر البيِّن ، واستظهروا على الخفىِّ المشكل بالمكشوف المعروف ، وعُرفوا بالفهم الثَّاقب
١٢١ و والعلم الناصع ، وقضت لهم المِحنة بالذكاء والفطنة ، فوضعوا الكتب فى ضُروب العلوم وفنون الآداب لأهل زمانهم ، والأَخلافِ من بعدهم . يزدلفون بذلك إلى الممتنّ عليهم بفضل المعرفة التى ركَّبها الله فيهم ، وأبانهم من غيرهم ، وفضَّلهم عليهم ، ويباهون به الأمم المخالفة لهم ، ويتبارون بذلك فيما بينهم . ولهم حُسَّادٌ معارضون من أهل زمانهم فى تلك العلوم والكتب ،

---

(١) فى الأصل : « وبنفسك » .
(٢) فى الأصل : « نظر الخاطف » .
(٣) موضعها بياض فى الأصل .
(٤) من المعاناة . وفى الأصل : « وعابوا » .
(٥) فى الأصل : « بين المتجاوز والمتوارى » .

منتحلةٌ يدّعون مثلَ دعاويهم ، قد وسَموا أنفسَهم بسِمات الباطل[١] ، وتسمَّوْا[٢] بأسماء العلم على المجاز من غير حقيقة ، ولبسوا لباس الزُّور متزخرفين متشبِّعين بما لا محصول له[٣] . يحتذون أمثلة المحقِّين فى زيِّهم وهَديهم ، ويقتفون آثارهم فى ألفاظهم وألحاظهم ، وحركاتهم وإشاراتهم ، ليُنسَبوا إليهم ويُحَلُّوا محلَّهم ، فاستمالوا بهذه الحيلة قلوبَ ضعفاء العامّة ، وجهلاء الملوك ، واتَّخَذهم[٤] المعادُون للعلماء المحقِّين عُدّةً يستظهرون بهم عند العامّة . وحَملَ المدِّعيةَ للعلم المزوَّرِ الحسدُ على بَهْت العلماء المحقِّين ، وعَضْهِهم والطَّعن عليهم[٥] ، وجرّأهم على ذلك ما رأَوْا من صَغْو ضَعَفة القلوب وإذلّة الناس إليهم[٦] ، وميل جهلاء الملوك معهم عليهم ، وأمَّلوا أن ينالوا بذلك بشاشة العامة ، وتستوىَ لهم الرِّياسة على طَغام الناس ورَعَاعهم ، ويستخولوا رُعَاتَهم[٧] وقومَهم ، فهمرُوا وهدَروا[٨] وتورَّدوا

---

(١) أى بسمات غير حقيقية .

(٢) فى الأصل : « وسموا » .

(٣) تشبع : تزين بما ليس عنده . وفى الحديث : « المتشبع بما لا يملك كلابس ثوبى زور » .

(٤) فى الأصل : « وانجدهم » .

(٥) العضه : أن يقول فيه ما لم يكن ؛ إفكا وبهتانا .

(٦) الصغو : الميل . وفى الأصل : « منه رأوا من صغو » .

(٧) فى الأصل : « رعاعهم » .

(٨) الهمر : الدمدمة بغضب . وجعلت فى ط : « فهمزوا » .

على أهل العلم بغباوتهم[١] ، وكشفوا أغطية الجهل عن أنفسهم ، وهتكوا ستراً كان مُسدَلا عليهم بالصَّمت . فقد قيل : « الصمت زَين العالم ، وسِتر الجاهل » ؛ طمعاً فى الرياسة وحبًّا لها . وقد قيل :

حبُّ الرياسة داءٌ لا دواء له وقلَّما تَجِدُ الراضين بالقِسَمِ

ولم يخل زمنٌ من الأزمنة من هذه الطبقة ولا يخلو . وهلاك من هلك من الأمم فيما سلف بحبِّ الرياسة . وكذلك من يهلِك إلى انقضاء الدّهر فبحبِّ الرياسة .

١٢١ ظ وقد قيل : هلاك الناس منذ كانوا إلى أن تأتىَ الساعةُ بحبِّ الأمر والنَّهى ، وحبِّ السَّمع والطاعة .

فأشكل على العامّة أمرُ العالم الحقيقىّ والمدَّعى المجارى المنتحل للزُّور والباطل ؛ ثم ترادفَ عليهم من هذه العلل التى يعمى لها السبيل الواضح والطَّريق المنشأ[٢] ، على الجاهل المستضعف ؛ وذى الغَباء المسترهَف[٣] .

ولست آمَنُ ــ جعلنى الله فداك ــ أن تكون هذه الكتب التى أُعنَى بتأليفها ، وأتأنَّق فى ترصيفها ، يتولَّى عرضَها عليك من قد لبِس لباسَ الزُّور فى انتحال وضع مثلها ، ونسبَ نفسَه إلى القوّة على نظائرها ، والمعرفة بما يقاربها ، إن لم يكن أخاها فابنَ عمِّها ، وتشبَّعَ بما لم يُطعِمْه الله منها .

---

(١) من قولهم : توردت الخيل البلدة ، إذا دخلتها قليلا قليلا قطعة قطعة . وفى الأصل : « توددوا » .

(٢) فى الأصل : « المنتا » .

(٣) من الرهيف ، وهو الرقيق اللطيف . وفى الأصل : « وذى الغنا » ، ووجهه ما أثبت .

ولعلَّ بعضَ من حَوْله[١] ، أو بعض من يهزل به ، ويرتع في عقله ويلهو بلبِّه ، ويضعه على طَبطابة اللَّعب[٢] ، وفي أرجوحة العبث ، يوهمه[٣] الحسدَ له على ما يدَّعي من ذلك ، ويتقدَّم إلى آخرين في إيهامهم إياه ذلك ، فيزيده فعلُهم ضراوةً بادِّعاء ما ليس معه وهو منه عارٍ . فإذا رجع إلى الحقائق علم أن مثله كما قد قيل :

ومن يَســـكن البحرَين يعظمْ طِحالُه
ويُغبَطْ بمـــا في البطن والبطنُ جائع[٤]

وقد قيل : « الذئب يُغبطُ وهو جائع » . فيلتوي في قراءتها ، ويقبض لسانه عن بَسطِ ما يحتاج أن ينشره منهـا ، ويقصِّر في تفخيم حروفها ولا يملأ فمه منها .

بلْ لا آمن أن يتجاوز ذلك إلى الطَّعن عليها بقولٍ أو إشارة ، فيوهم فسادَ معانيها ويُومى إلى سقوط ألفاظها ، من غير أن يُظهر المعاداة لها ، والحسدَ لمؤلّفها ، والحمل عليها بقولٍ يكون دليلاً على ما يضمر ، وهو أبلغ ما يكون من قلب المســتمع وأنْجعُه فيـه[٥] ، فيقع ذلك بخَلَده . وقد قيل : « مَن يَسمع يَخَلْ » .

---

(١) في الأصل : « ما حوله » .

(٢) الطبطابة : خشبة عريضة يلعب بها بالكرة . وفي الأصل : « طبطاب » .

(٣) في الأصل : « فيوهمه » .

(٤) البيت في الحيوان ٤ : ١٣٩ والشعر والشعراء ٧٣١ وأمثال الميداني ١ : ٢٥٥ .

(٥) في الأصل : « وأنجعه » .

وليس يقابله أحدٌ برَدٍّ[١] ، ولا يوازيه بنزاع ، فيزداد نشاطاً عندما يرى من خلاء الأمر . وقد قيل : « كلُّ مُجْرٍ فى الخلاء يُسَرُّ[٢] » وكلُّ مناظر متفرّدٍ بالنظر مسرور ، وإنّما يُعرَف جَرىُ الخيل عند المسابقة ، وبراعةُ النظر عند المخاصمة .

وقال لى بِشرٌ المريسى[٣] : عُرِض كتابى على المأمون فى تحليل النَّبيذ ، وبحضرته محمد بن أبى العبّاس الطُّوسى ، فانبرى للطَّعن عليه والمعارضة للحُجج التى فيه ، وأسهبَ فى ذلك وخَطب ، وأكثر وأطنَب ، فقلِقَ المأمونُ ١٢٢ و
واحتدم ، وهاج واضطرم ؛ لاستحقار الطُّوسى[٤] وخلاءِ المجلس له ، وكان

(١) فى الأصل : « بود » .

(٢) فى الأصل : « يسبق » ، صوابه من الحيوان ١ : ٨٨ و ٤ : ٢٠٧ والميدانى ٢ : ٧٣ وأمالى القالى ٢ : ٨٩ . ويروى أيضاً « مسر » كما فى البيان ١ : ٢٠٣ . وأصله أن الرجل يجرى فرسه فى المكان لا مسابق له فيه ، فهو مسرور بما يرى من فرسه . يضرب للرجل تكون فيه الخلة يحمدها من نفسه ولا يشعر بما فى الناس من الفضائل .

(٣) هو أبو عبد الرحمن بشر بن غياث بن أبى كريمة المريسى ، نسبة إلى مريس أو مريسة . ومريس : قرية بمصر ، اختلف فى ضبطها بفتح الميم وكسر الراء مخففة أو مثقلة ، أما مريسة فقد ضبطها صاحب القاموس كسكينة بكسر الميم وبتشديد الراء . كان أحد دعاة الجهمية ، وأبوه كان يهودياً قصارا صباغا . وإليه تنسب فرقة المريسية . توفى سنة ٢١٨ . تاريخ بغداد ٣٥١٦ والسمعانى ٥٢٣ ولسان الميزان ٢ : ٢٩ — ٣١ .

(٤) الاستحقار : الاحتقار والاستصغار .

يحبُّ أن يَزَعَه وازعٌ يكفُّه بحجّةٍ تُسكته ، فلما لم ير أحداً بحضرته يذبُّ عن كتابى قال متمثلاً :

يا لكِ من قُـــبّرةٍ بمعمَرِ خلا لكِ الجوُّ فبيضى واصفِرى
ونقّرى ماشئتِ أن تنقّرى[1]

فما كان إلاّ ريثَ فراغِه من التمثُّل بهذه الأبيات حتى استؤذن لى فدخلتُ عليه ، فقال : يأبا عبد الرحمن ، ما تقول فى النبيذ ؟ فقلت : حِلٌّ طِلقٌ يأمير المؤمنين . فقال : فما تقول فيما أسكر كثيره ؟ قلت : لعنَ الله قليلَه إذا لم يسكر [إلاّ[2]] كثيره . ثم قال : إنَّ محمداً يخالفك . فأقبلت على ابن أبى العباس فقلت له : ما تقول فيما قال أمير المؤمنين ؟ قال : لا خلافَ بينى وبينك . كلاماً يوهم به أهلَ المجلس ، حبًّا للتسلُّم منّى والتخلُّص من مناظرتى ، لا على حقيقة التحليل له . فاستغنمت ذلك منه وقلت له : فما لى لا أرى أثر قُواه فى عقلك ؟ فضحك المأمون ، فلمّا رأيت ضحكَه أطنبتُ فى معانى تحليل النبيذ ، وابن أبى العباس ساكتٌ لا ينطق ، وكان قبل دخولى ناطقاً لا يسكت . فلما رأى المأمونُ سكوتَه عند حضورى مع كثرة كلامه فى ثَلْب كتابى وعيبه ـ كان ـ قبل دخولى ، قال متمثّلاً :

مالكَ لا تنبحُ يا كلبَ الدَّوْمْ قد كنتَ نبّاحًا فما لك اليومْ[3]

---

(١) الرجز لطرفة ، قاله وهو صغير يصطاد القبر ، وهو ضرب من الطير . وقال ابن برى : هو لـكليب بن ربيعة التغلبي وليس لطرفة . اللسان (قبر) . وذكر ابن قتيبة فى الشعراء ١٤٠ أنه أول شعر قاله طرفة . وانظر الحيوان ٣ : ٦٦ و ٥ : ٢٢٧

(٢) ليست بالأصل .

(٣) أنشده فى الحيوان ٢ : ٧٥ .

ثم نظرَ إليَّ فقال : إنَّ الكتب عقولُ قومٍ وراءها عندهم حججٌ لها ، فما ينبغي أن يُقضَى على كتابٍ إلّا إذا كان له دافع عنه، وخَصمٌ يُبين عمّا فيه ؛ فإنّ أبناء النِّعَم وأولاد الأُسْد محسودون .

ثم قال : ياأبا عبد الرحمن ، بإزاء كل حاسد راهن .

وقد قيل فى مثلٍ من الأمثال : « الحَسَنُ[1] محسود » . وفى مثل
١٢٢ ظ آخر : « لن تعدَم الحسناء ذامًا[2] » . وقال الأحنف بن قيس :

ولن تصادف مَرعًى ممرعًا أبدًا إلّا وجدت به آثار مأكولِ[3]

يقول : يُعابُ[4] فى كلٍّ [مرعًى[5]] حَسَنٍ ويؤكل منه ، فيَعيبه ذلك .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ما أحدث الله بعبدٍ نعمةً إلّا وجدتَ له عليها حاسداً . ولو أنَّ امرأً كان أَقْوَمَ من القِدْح لوَجدتَ له غامزاً[6] » .

---

(١) فى الأصل : « الحسد » .

(٢) الذام ، بتخفيف الميم : العيب . ومثله الذيم . وضبطت فى ط بتشديد الميم سهوا .

(٣) وكذا فى أصل عيون الأخبار ٤ : ٩ . لكن فى أدب الدنيا والدين ١٣٥ « آثار منتجع » . والبيت فيه بدون نسبة .

(٤) فى الأصل : « يقال يعاب » .

(٥) تكملة يقتضيها القول .

(٦) القدح ، بالكسر : السهم .

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : الحاسد لا يملك إلا عنانَ حَسَده ؛ لأنه مغلوبٌ على نفسه .

وقال الخطّاب بن نُمَير السَّعدىّ : الحاسد مجنون ؛ لأنه يحسُد الحسنَ والقبيح .

وقال المهلّب بن أبى صفرة : الحسد شِهابٌ لا يبالى من أصابَ ، وعلى مَن وقع .

والعداوة لها عقل تسوس به نفسَها فيَنجُم قَرنُها ، وتُبدى صفحتها فى أوقات الهِتْر . وإلَّا فإنها كامنةٌ تنتهز أزمنة الفرص . والحسَد مسلوب المعقول بإزاء الضَّمير فى كلِّ حينٍ وزمانٍ ووقت .

ومن لؤم الحسد أنه موَكَّل بالأدنى فالأدنى ، والأخصِّ فالأخصّ . والعداوة وإنْ كانت تقبِّح الحسَن فهى دونَ الحسد ؛ لأنَّ العدوَّ المباين قد يَحُول وليًّا منافقاً ، كما يَحُول المولَى المنافق عدوًّا مباينا .

والحاسد لا يزول عن طريقته إلّا بزوال المحسود عليه عندَه . والعداوة تَحدُث لعلَّةٍ[1] ، فإذا زالت العلَّة زالت معها . والحسد تركيب لعله يحسد عليه[2] فهو لا يزول إلَّا بزواله . ومن هذا قال معاوية رحمه الله : يمكننى أن أُرضىَ الناس كلَّهم إلّا حاسدَ نعمة ، فإنّه لا يرضيه منها إلّا زوالها .

وأعداء النِّعمة إذا شوركوا فيها ونالوا منها تزحزحوا عن عداوتها ، وكانوا من أهلها الحامينَ عنها ، والدافِعينَ عن حماها .

---

(١) فى الأصل : « العلة » .
(٢) كذا فى الأصل .

ومن هذا قال المغيرة بن شُعبة : النعمة التى يُعاش فيها نعمةٌ محروسة ليس عليها ثائر يغتالها ، ولا ذو حسد يحتال فى غِيَرها .

١٢٣ و وقال قتيبة بن مسلم : خير الخير وأحصنُه خيرٌ عِيشَ فيه . وكلُّ خيرٍ كان يُرضَخُ[1] بذلاً كان من التالف ممنوعًا ، ومن الغِيَر آمنا .

وحُسَّاد النعمة إن أُعطوا منها وتَبَجبَحُوا فيها ، ازدادوا عليها غَيظًا وبها إغراء .

والعداوة تَخْلِقُ وتُمَلّ ، والحسد غَضٌّ جديد ، حُرِم أو أعطِيَ[2] ، لا يبيد . فكل حاسدٍ عدوٌّ ، وليس كل عدوّ بحاسد . وإنَّما حمل اليهود على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم — وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم أنّه نبيٌّ صادق ورسول مُحِقّ ، يقرءون بَعثه فى تَوراتهم ، ويتدارسونه فى بيت مِدْراسهم[3] — الحسدُ ، وحجز بين علمائهم والإيمان به ، ثم نَتَجَ لهم الحسدُ عداوتَه .

ومن الدليل على أنَّ الحسدَ آلم وآذَى وأوجعُ وأوضَع من العداوة ، أنّه مُغرًى بفعل الله عزّ وجلّ ، والعداوة عارِيَة من ذلك لا تتّصل إذا اتّصلت إلّا بأفعال العباد . ولا يُعادَى على فعل الله تباركت أسماؤه . ألا ترى أنك لم تسمع أحدًا عادى أحداً لأنَّه حسن الصورة جميلُ المحاسن ، فصيح

(١) رضخ له من ماله رضخا : أعطاه . والبذل : السخاء . وفى الأصل : « يوضح بدلا » .

(٢) فى الأصل : « إذا عطى » .

(٣) المدراس : الموضع الذى يدرس فيه . وفى الأصل : « مدارستهم » .

اللسان حسَن البيان . وقد رأيتَ حاسدَ هذه الطبقة وسمعتَ به ، وهم كثير تعرفهم بالخبَر والمشاهدة .

فهذا دليلٌ على أن الحسدَ لا يكون إلّا عن فساد الطبع ، واعوجاج التركيب ، واضطراب السُّوس[1] .

والحسد أخو الكذب ، يجريان فى مضمار واحد ؛ فهما أليفان لا يفترقان ، وضجيعان لا يتباينان . والعداوة قد تخلو من الكذب ؛ ألا ترى أنّ أولياءَ الله قد عادَوْ أعداءَ الله إذْ لم يستحلُّوا أن يكذبوا عليهم ؟ ! والحسد لا يبرأ من البُهت ، وكيف يبرأ منه وهو عموده الذى عليه يعتمد ، وأساسه الذي به البناء يُعقَد . وأنشد :

كضَرائر الحَسْناء قُلن لوجهها كذباً وزوراً إنَّه لدَميمُ[2]

والحسد نارٌ وَقودُه الرُّوح، لا تَبُوخ أبدًا أو يَفْنَى الوَقود[3] . والحسد لا يبلَى إلاّ ببِلى المحسود أو الحاسد . والعداوة جمر يُوقده الغضب ، ويطفئه الرِّضا ، فهو مؤمَّل الرُّجوع مرجوّ الإنابة[4] . والحسد جوهرٌ والعداوة اكتساب .

وقال بعضهم : الحسد أنثى ، لأنَّه ذليل ؛ والعداوة ذكرٌ فَحْل ، لأنَّها عزيزة . ١٢٣ ظ

---

(١) السوس ، بالضم : الطبع ، والخلق ، والسجية .

(٢) البيت لأبى الأسود الدؤلى . انظر حواشى البيان ٤ : ٦٣ . وفى البيان : « حسدا وبغيا » . والضرائر : جمع ضرة ، بالفتح وهى امرأة الزوج ، جمع نادر .

(٣) فى الأصل : « ويفنى الوقود » .

(٤) الإنابة : الرجوع ، وفى التنزيل العزيز : « منيبين إليه » .

والحسد وإنْ كان موكَّلا بالأدنى فالأدنى فإنّه لم يعرَ منه الأبعد فالأبعد.

فقد رأينا وشاهدنا مَن كان يسكن العراق وينتحل العلم والأدب، انتهى إليه خبَرُ مشاركٍ له فى الصناعة من أهل خراسان وجَنْبةِ بَلْخ[1] من اتّساق الرياسة فى بلده، وجميل حالِه ونبيل محلِّه عند أهل مصره، وطاعةِ العامَّة له، وترادُف الناس عليه، فطار قلبه فَرَقًا، وأخذَتْه الأَرْباء[2]، وتنفَّس الصُّعداء وانتفضَ انتفاضَ المُفْلس المطور[3]، فقال لى رجلٌ من إخوانى كان عَن يمينى، حين رأى ما رأى منه: بحقٍّ قال من قال: «لم يُرَ ظالم أشبَه بمظلوم من حاسدِ نعمة؛ فإنّ نَفَسه متّصل، وكربَه دائم، وفِكرته لا تنام».

وهو فى أهل العلم أكثر، وعليهم أغلب، وبهم أشدُّ لصوقًا منه بغيرهم من الملوك والسُّوقة. وكأنّ من ناله التقصير فى صناعة العلم عن غايته القصوى[4] قد استشعر حسدَ كلِّ ما يرِدُ عليه من طريف أدبٍ، أو أنيقِ كلام، أو بديعِ معنًى. بل قد وقع بخَلَده لضعفه، وقرَّ فى رُوعه لخساسته[5]، أنّه لا ينال أحدٌ منهم رياسةً فى صناعة، ولا يتهيّأ له سياسةُ أهلها، إلّا بالطَّعن

---

(١) فى الأصل: «وحبه»، بدون نقط. والجنبة: الناحية. وانظر الحيوان ٤: ٤٩.

(٢) الأرباء: جمع ربو، وهو البهر والنهيج وتواتر النفس.

(٣) هذا عكس ما أنشده فى الحيوان ٣: ٢٢٨:

وكنت فيهم كممطور ببلدته فسر أن جمع الأوطان والمطرا

وفى الأصل: «المعلس» تحريف.

(٤) فى الأصل: «عن غاية القصوى».

(٥) الخساسة: الخسة والدناءة. وفى الأصل: «لحاسته».

على نواصيهم[1] ، والعيب لِجِلّتهم ، والتحيُّف لحقوقهم .

قال لى مسلم بن الوليد الأنصارى الشاعر ، الذى يُعرَف بصريع الغوانى[2] : خُيِّل إلى نَوكَى الشُّعراء أنَّهم لا يُقضَى لهم بجودة الشِّعر إلّا بهجائى والطَّعن فى شعرى ، ولسانٍ يُهجَى به عرضى ، لا أنفكُّ متَّهما[3] من غير جُرم ، إلَّا ما سبق إلى قلوبهم من وساوس الظنون والخواطر التى أوهمتهم أنه لا يسجَّل لهم بجودة الشعر إلَّا إذا استعملوا فىَّ ما خُيِّل إليهم .

وأخبرنى أشياخنا من أهل خراسان أنَّ أبا الصَّلت الهروىّ كان عند الفضل بن سهل ذى الرياستين بمرو ، فقرأ عليه كتاباً ألَّفه النَّضر بن شُميل ، فطعَن أبو الصَّلت فيه ، وكان الفضل عارفاً بالنضر الشُّميلىّ ، واثقاً بعلمه ، ١٢٤ و
مائلاً إليه ، فأقبلَ على أبى الصَّلت وقال له : إن يحيى بن خالدٍ قال يومًا : إنّ كتبى لتُعرَضُ على من يغلُظ فهمه عن معرفتها ، ويَجسُو ذهنُه عنها ، ولا يبلغ أقصى علمه ما فيها[4] — يُعرِّض[5] بإسماعيلَ بن صُبيح[6] — فيطعنُ فيها ولا يدرى ما يُقرأ عليه منها . إلَّا أن نار الحسد تُلهبه فيَهذى

(١) النواصى : جمع ناصية ، وهم الرؤساء والأشراف .

(٢) توفى مسلم بن الوليد سنة ٢٠٨ ، كما فى النجوم الزاهرة . ٢ : ١٨٦ . وكان قد اتصل بذى الرياستين الفضل بن سهل ، فولاه بريد جرجان ، وبها مات . معجم المرزبانى ٣٧٢ .

(٣) فى الأصل : «منهما» .

(٤) فى الأصل : « أمانيها » .

(٥) فى الأصل : « فعرض » .

(٦) كان إسماعيل بن صبيح كاتباً ليحيى بن خالد البرمكى . الجهشيارى ١٥٠ . وقلده إبراهيم الحرانى ديوان زمام الشام وما يليها . الجهشيارى ١٦٨ .

هَذَيانَ المريض ، ويهمزُ هَمزاتِ الغَيْرَى[١] ، ثم لا يرضى أن يقفَ عند أوّل الطعن و يَميلَ عنه حتّى يستقصيَ على نفسه إظهارَ جهله عند أهل المعرفة ، باستيعابه الطَّعن على ما لم يبلغ درايتَه ، ولم يُحِط به علمه ، ثم يُنسيه جهلُه الطَّعنَ الذى تقدَّم منه فيها ، ويَحمله نوكُه على استعمال معانيها وألفاظها ، فى كتبه إلى إخوانه وأعوانه الذين شهدوه فى أوانِ طعنه عليها ، وحين ثَلْبه لها .

وقد عرفتُ حقيقةَ ما قال يحيى بن خالدٍ بالتَّجربة والابتلاء . وإنّى ربَّما ألّفت الكتابَ المحكم المتقَن فى الدِّين والفقه ، والرسائل والسِّيرة ، والخُطَب والخراج والأحكام ، وسائر فنون الحكمة ، وأنسبهُ إلى نفسى ، فيتواطأ على الطَّعن فيه جماعةٌ من أهل العلم ، بالحسَد المركّب فيهم ، وهم يَعرفون براعته ونَصاعته . وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلَّفاً لملكٍ معه المقدرة على التقديم والتأخير ، والحطِّ والرَّفع ، [والترغيب[٢]] والترهيب ، فإنَّهم يهتاجون عند ذلك اهتياجَ الإبل المغتلمة ، فإن أمكنتْهم حيلةٌ فى إسقاط ذلك الكتاب عند السيِّد الذى أُلِّف له فهو الذى قصدوه وأرادوه ، وإنْ كان السيِّد المؤلَّفُ فيه الكتابُ نِحريراً نِقاباً ، ونقريساً بليغاً ، وحاذقاً فطناً ، وأعجزتْهم الحيلة ، سرَقوا معانيَ ذلك الكتاب وألّفوا من أعراضه وحواشيه كتاباً ، وأهدَوه إلى ملك آخر ، ومتُّوا إليه به[٣] ، وهم قد ذمّوه وثَلَبوه لمّا رأوه منسوباً إلىّ ، وموسومًا بى .

---

(١) الهمز : العيب . والهماز : العياب . وفى الأصل : « همزان »، تحريف .

(٢) ليست فى الأصل .

(٣) أى توسلوا به إليه . والمت : التوسل بحرمة أو قرابة .

وربّما ألّفتُ الكتاب الذى هو دونَه فى معانيه وألفاظه ، فأترجمه باسم غيرى ، وأُحيله على من تقدّمنى عصرُه مثل ابن المقفّع والخليل ، وسَلْمٍ صاحبِ بيت الحكمة[(١)] ، ويَحيي بن خالد ، والعَتّابىّ ، ومن أشبه هؤلاء من مؤلِّفى الكتب ، فيأتينى أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذى كان أحكَمَ من هذا الكتاب ، لاستنساخ هذا الكتابِ وقراءته علىّ ، ويكتبونه بخُطوطهم ، ويصيِّرونه إمامًا يقتدون به ، ويتدارسونه بينهم ، ويتأدّبون به ، ويستعملون ألفاظَه ومعانيَه فى كتبهم وخطاباتهم ، ويروونه عنّى لغيرهم من طلاَّب ذلك الجنس فتثبت لهم به رياسة ، [و] يأتمُّ بهم قومٌ فيه ؛ لأنه لم يترجَم باسمى ، ولم يُنسَب إلى تأليفى . ١٢٤ ظ

ولربّما خرج الكتابُ من تحت يدى مُحصَفًا كأنّه متنُ حجرٍ أملسَ ، بمعانٍ لطيفةٍ محكمةٍ ، وألفاظ شريفة فصيحة ، فأخاف عليه طعنَ الحاسدين إنْ أنا نسبتُه إلى نفسى ، وأحسد عليه من أهُمُّ[(٢)] بنسبته إليه لجودة نظامه وحسن كلامه ، فأُظهره مُبْهمًا غُفلًا فى أعراض أصول الكتب التى لا يُعرف وُضّاعها ، فينهالون عليه[(٣)] انهيال الرَّمْل ، ويستبِقون إلى قراءته سباقَ الخيل يوم الحَلْبة إلى غايتها .

وحسَدُ الجاهلِ أهونُ شوكةً وأذلُّ مِحَنا ، من حسَد العارف الفطِن ؛ لأنّ الحاسد الجاهل يبتدر إلى الطَّعن على الكتاب فى أوّل وهلة يُقرأ عليه ، من

---

(١) ذكره ابن النديم فى الفهرست ١٧٤ قرينا لسهل بن هارون صاحب خزانة الحكمة ، وسعيدِ بن هارون شريك سهل بن هارون فى بيت الحكمة .

(٢) ط : « أهتم » ، خلافا لما فى الأصل .

(٣) فى الأصل : « عليها » .

قبل استتمام قراءته ورقةً واحدة ؛ ثم لا يرضى بأيسر الطعن وأخفِّه حتّى يبلغ منه إلى أشدِّه وأغلظه ، من قَبلِ أن يقف على فصوله وحدوده[١] . وليس ثَلْبُهُ مفسَّرًا مفصَّلا ، ولـكنه يُجمل ذلك ويقول : هذا خطأ من أوّله إلى آخره ،
١٢٥ و وباطل من ابتدائه إلى انقضائه ، ويحسب أنَّه كلما ازداد إغراقًا[٢] وطَعنًا وإطنابًا فى الحَمْل على واضع الـكتاب[٣] ، كان ذلك أقربَ إلى القَبول منه . وهو لا يعلم أنَّ المستمع إليه إذا ظَهَر منه على هذه المنزلة استَخفّ به ، وبكّته بالجهل ، وعلم أنّه قد حكم من غـير استبراء ، وقضَى بغير رويّة ، فسقطَ عنه وبطل .

والحاسد العارف الذى فيه تقيَّة ومعه مُسكة ، وبه طَعْمٌ أو حياة[٤] ، إذا أراد أن يغتال الـكتاب ويحتال فى إسقاطه ، تصفّح أوراقه ووقف على حدوده ومفاصله ، وردّد فيه بصره وراجعَ فـكره ، وأظهر عند السيِّد الذى هو بحضرته وجلسائه ، من التثبُّت والتأنّى حِبالةً يقتنص بها قلوبهم ، وسببًا يسترعى به ألبابهم[٥] ، وسُلَّما يرتقى به إلى مرادِه منهم ، وبِساطًا يَفرِشُ عليه مصارعَ الُخدَع . فيوهم به القصـدَ إلى الحقّ والاجتباء له . فربّما استرعى[٦] بهذه المخاتل والُخدَع قلبَ السيِّد الحازم .

فمن أعظم البلايا وأ كبر المصائبِ على مؤلّفى الـكتب إذا كان العارض

(١) فى الأصل : « وحروفه » . وانظر س ١١ .
(٢) فى الأصل : « غرقا » .
(٣) فى الأصل : « وضع الـكتاب » .
(٤) الطعم : العقل . وفى الأصل : « طعمة » .
(٥) فى الأصل : « يستدعى » .
(٦) فى الأصل : « استدعا » .

لها على السيّد الذى منه تُرجَى أثمانها ، وعنده تنفقُ بضائع أهلها ، على هذه الصِّفة التى وصفتُها من الحَسد والحذقِ بأسبابه ، والمعرفة بالوجوه التى تثلم المحسودَ وتهدُّه ، وتضع منه ومن كتبه . لا سيّما إنْ كان مع استبطان الحسَد واستعمالِ الدهاء والذّكاء جليساً لازماً ، وتابعاً لايفارِق ، ومحدِّثاً لا يَرِيم ، وليست له رِعَةٌ[1] تحجُزه عن الباطل ، ولا معه حذرٌ يبعثه على الفكر فى العواقب ؛ فإنّ هذا ربَّما وافقَ فترةَ السيِّد بطُول تَرداد الكلام ، وكثرة تكراره عليه ، من تأكيدِ خطائه[2] ، ونُصرته قوله ، وذِياده عنه ، واحتجاجه فيه ، فيؤثِّر فى قلبه ، ويضجِّع رأيه[3] . فليس للسيِّد الذى يحبُّ أن تصير إليه الأمور على حقائقها ، وتُصوَّرَ له الأشياء على هيئاتها ، حيلةٌ فى ذلك إلاّ حسمَ مادّة هذا من أهل الحسَد ، بالإعراض عنهم ، والاحتجاز دونهم .

وربَّما بلغ من الحاسد جهد الحسد إذا لم يُعمَل بشهوته ، ولم تنفذ سهامُ لَطائفه ، أن يقرَّ على نفسه بالخطأ ، ويعترفَ أنّ الطَّعن الذى كان منه فى ١٢٥ ظ
الكتاب عن سهوٍ وغفلة ، وأنّه لم يكن بلغ منه فى الاستقصاء ما أراد ، وكان مشغولَ الفكر مقسَّم الذهن ، فلمَّا فرغَ له ذهنُه وانفرد له همُّه راجع ما كان[4] بدرَ منه ، لتُظنَّ به الرِّعةُ ، ويقالَ إنّه لم يرجع عن قوله واعترفَ بالخطأ إلاّ من عقل وازع ، ودِينٍ خالص . وإنما ذلك حيلةٌ منه ودهاء

(١) الرعة : التقى والتحرج ، يقال ورِع يرِع ويَوْرَع رِعَة ووَرعا ، وورُع يورُع وروعا ووَراعة . وفى الأصل : « زعة » تحريف .

(٢) الخطاء ، كسحاب : الخطأ . وجعلت فى ط « خطابه » سهوا .

(٣) التضجيع : التوهين .

(٤) فى الأصل : « وكان » .

قدَّمه أمامَ ما يريد أن يوكِّد لنفسه ويوطِّد لها، من قبول القَول فى سائر ما يَرِد عليه من الكتب عن غير موافقةٍ على مَوَاضع، ويجعل ما قد تقدَّم له من الرُّجوع عن قوله عند ما تبيَّن له[١] خلافُ ما قال، أوثقَ أسباب عدالته، وأحكمَ عُرَى نَصَفته.

وكان يقال: مِن لطيف ما يستدعى به الصِّدقُ إظهار الشك فى الخبر الذى [لا[٢]] يُشَكُّ فيه.

وكان يقال: من غامض الرياء أن تُرَى بأنك لا ترائى. ومن أبلغ الطَّعن على ما تريد الطَّعن عليه أن تطعن ثم تستغفر الله، ثم تتمهَّل فترةً[٣]، ثم تَعودَ لطعنٍ هو أعظم منه وأطمُّ من الأوَّل؛ ليُوثَق بك فيه، ويقالَ: إنّ هذا لو كان عن حسدٍ مارجَع عن الطعن الأوّل.

وقد قيل: ذو الغِيبة المشهورُ بها المنسوب إليها يقلُّ ضررُه، ويضعُف كيده، لما شاع له فى الناس وانتشر منه، فكان عندهم ظَنيناً متَّهماً، ومطبوعاً عليها، يستمعون منه على قضاء ذمام المجالسة والتلذُّذ به، من غير قبول[٤] ولا اصطفاء له.

وإنما البليّة فى غِيبة حُذّاق المغتابين الذين يسمعون، فيضحكون ولا يتكلَّمون. وأحذق منهم الذين يستمعون ويُسكتون القائل ويدعون الله

(١) فى الأصل: «عند التبين له».
(٢) ليست فى الأصل.
(٣) فى الأصل: «ثم تمهل فترد».
(٤) فى الأصل: «قول».

بالصَّلاح للمقُول فيه ، فهم قد أسكتوا القائل المغتاب ودعَوا المقُول فيه ، وأوكدوا قول القائل[١] ؛ لأنَّه لو حلّ عندهم محلَّ البراءة مما قيل له لُجِبِّه القائلُ ورُدِع عن قوله .

ومُظهر التَّوقِّي قليلهُ عند العامّة كثير . والمتورِّد المتقحِّم لا تـكاد العامّة ١٢٦ و
تقبل منه .

وقد قال بعض العلماء : إنّ عُبيد الله[٢] بن عبد الله بن عتبة بن مسعود كان من نبلاء المغتابين وحُذّاقهم حيثُ يقول :

مُسًّا تُرابَ الأرض ، منه خُلِقتُما وفيهـا المعادُ والمصير إلى الحشرِ
ولا تعجبا أن تُؤتَيـا وتعظَّما فما حُشِيَ الإنسانُ شرًّا من الـكبر[٣]
فلو شئت أدلى فيـكما غير واحد عـلانيةً أو قال ذلك في سرِّ[٤]
فإن أنا لم آمُر ولم أنهَ عنـكما ضحِكتُ له حتّى يلجَّ فيستشرى

ومن هذا سرق العتابيُّ[٥] المعنَى حيثَ يقول :

إنْ كنتَ لا تحذر شَتْمى لما تعرِف من صفحى عن الجاهلِ

(١) يقال وكده توكيدا ، وأوكده ، وآكده إيكادا .

(٢) فى الأصل : « عبد الله » ، صوابه من البيان ١ : ٣٥٦ . وانظر الحيوان ١ : ١٤ .

(٣) فى المحبر ٢٩٧ : « لاتعجبا أن تؤتيا وتـكلما » ، وفى البيان والحيوان : « ولا تأنفا أن ترجعا فتسلما » .

(٤) فى الأصل : « أدنى فيـكما » ، صوابه من المراجع السابقة .

(٥) هو كلثوم بن عمرو العتابى ، من شعراء الدولة العباسية ، كان منقطعا إلى البرامكة فوصفوه للرشيد ووصلوه به ، فبلغ عنده كل مبلغ . الأغانى ١٢ : ٢ — ٩ وتاريخ بغداد ١٩٦١ ومعجم الأدباء ١٧ : ٢٦ . على أن الأبيات نسبت فى الخزانة ٤ : ١٢ إلى كعب بن زهير .

فاخشَ سكوتى سامعاً ضاحكاً فيك لمشنوعٍ من القائلِ
مقالةُ السُّوء إلى أهلها أسرعُ من منحدرٍ سائلِ
ومَن دعا الناسَ إلى ذمِّه ذمُّوه بالحق وبالباطل

وسئل القاسم بن معن عن ابن أبى ليلى ، فقلَّب كفَّيهِ[1] وقال :

من الناس من يَخفَى أبوه وجدُّه وجدُّ أبى ليلى لكالبدر ظاهرُ

فلم تثبت عليه به حجةٌ فى ذمٍّ له ولا مدح . وقد بلغ ما أراد .

وسئل يوماً عن علمه فقال : أوعُوه وَطْباً ، فإن كان محضاً أو مشُوباً أظهرَه الوطبُ وماخِضُوه[2] .

فإنْ قَدَحَ ـ جعلنى الله فداكَ ـ بالحسدِ قادحٌ فيما أؤلفه من كتابى لك ، وسبقَ إلى وهمك شكٌّ فيه ، أعلمتَنى النُّكتةَ التى قَدح فيها ، ثم قابلْه بجوابى ، فإنى أرجو ألاّ تحتاج إلى حاكمٍ عند تجانِى القولين بين يديك ، لعلوّ الحقّ على الباطل ، ودموغه إيّاه . ١٢٦ ظ

والحسد أذلُّ نفساً من أن يُجانِىَ أحدًا ، والعداوة إنَّما قدِّمت عليه لأنها عزيزةٌ منيعة .

ويقال : الحسد لا يبدو إلاّ فى العين وعلى اللسان المقصور عند أهله المؤتلفين على . . .[3] والعداوة تبدو وتَنجم قُرونها وينبسط لسانها عند الموافقين له والمخالفين عليه .

---

(١) فى الأصل : « كفه »
(٢) يعنى من يمخضون الوطب .
(٣) بياض فى الأصل بمقدار كلمة .

وسئل خالد بن صفوان عن شبيب بن شيبة فقال : ذاك امرؤ سِيطَ بالحسد وجُبِل عليه ، فليس له أخٌ فى السرّ ولا عدوٌّ فى العلانية[1] .

وسئل العَتّابى عن أهل بغداد فقال : حُسّادٌ ، إخوانُ العلانيةِ ، وأعداء السَّريرة ، يعطونك الـكلّ[2] ويمنعونك القُلّ .

ومما يدلُّك على أنَّ الحسد أخسُّ وأغبَنُ من العداوة ، أنّ المِلَل كلَّها ذمَّتْهُ وعابته . ولا نعلم أنّ شاذًّا من الشواذِّ ، وشارداً من الشُّرّاد ، فَضْلاً عن جِيل من الأجيال ، أمرَ بالحسد ؛ كما قيل : « عادِ من عاداك ، وقارعْ بالعداوة أهلها » . ثم عظُم شأنُ العداوة عندهم ، وجلَّ قدرُها لديهم ، حتّى اختلفوا فى وجوه العمل فيها ؛ فمنهم مَن أمر بها على الحزم والعقل .

وقال الشَّعبيُّ لبِشر بن مروان : لو وجَّهتَ إلى عمرو بن محمد بن عقيل مولى آل الزُّبير ــ وكانَ شتَمه ــ مَن يأتيك به سحباً وجرًّا ! فقال بشر : إنِّى مستعملٌ فى عدوِّى قولَ القائل :

وعادِ إذا عاديتَ بالحزم والنُّهى تَنلْ ظفراً ممن تُريد وتَغلبُ

فـكان بهذا ممن يرى المعاداةَ بالحزم ، ويغتالُها بالعقل والتأنِّى .

وكان عروة بن المغيرة يقول : شرُّ العداوة ما سُتِر بالمداراة ، وأشقاها للأنفس ما قُرِع بمثلها بادياً . وكان ينشد :

---

(١) انظر البيان ١ : ٤٧ ، ٣٤٠ والحيوان ٥ : ٥٩٢ وعيون الأخبار ٣ : ٧٣ .

(٢) انظر ماسبق فى ص ٢٤٨ ، ٢٩٨ .

لا أتّقي حَسَكَ الضَّغائن بالرُّقى فِعلَ الذليلِ ولو بقيتُ وحيدا[١]
لـكن أُعِدُّ لهـا ضغائنَ مثلها حتّى أداوىَ بالحقود حُقودا ١٢٧ و
كالخمْر خير دوائها منها بهـا تَشفى السَّقيمَ وتُبرئُ المنجودا[٢]

فانتهى قوله إلى ابن شُبرمة فقال : « لله درُّ عُروةَ ، هـذه أنفس العرب ! » .

فهؤلاء رأوا كشفَ المعاداة ولم يَرَوا التأنّي .

ومنهم من رأى المعاداةَ بعد الفِرار منها والإعذار فيها ، فإن هى أبت إلا المقارنة قارَنوها بمثلها .

قال شبيب بن شيبة : إذا رأيت الشرَّ قد أقبل إليك فتطامَنْ له حتّى يتخطَّاك ، ولا تَهِجْه ولا تبحثْ عنه ؛ فإنْ أبَى إلاّ أن يَبرُكَ عليك فـكن من الأرض ناراً ساطعة تتلظّى[٣] . وأنشد :

إذا عاداك مختنِـكٌ لبيبٌ فعـادِ النَّومَ واحترسِ البيَاتا
ولا تُـثِرِ الرَّبوضَ وخلِّ عنها وإن ثارت فـكن شَبحًا مَواتا

---

(١) الحسك : جمع حسكة ، وهى الشوكة .

(٢) المنجود : المكروب . و نحوه قول أبى نواس :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء وداونى بالتى كانت هى الداء

وأصل المعنى للأعشى حيث يقول :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

انظر سرقات أبى نواس لمهلهل بن يموت ص ٧٠ .

(٣) فى الأصل : « ساطعا يلتقى » .

تَجُزْكَ إلى سواكَ ونَحِّ عنها   نخير الشرِّ أسرعه فَواتا[١]
وإن مالت عليك وخفتَ منها   فواجِهْها مجاهرةً صِلاتا[٢]

ومنهم من أمر بقبول الإنصاف وترك المحاسبة . قال عبيد الله بن عبد الله ابن [عتبة بن] مسعود : إنّ الملاماتِ والمذمّاتِ كلَّها قبيحة ، وأقبح المَلامة والمَذَمَّة ما كانتا فى ترك نَصَفة أو شدّة منافسةٍ فى تعداد الذُّنوب . وأنشد :

منافسةُ العدوِّ أو الصديقِ   تجرُّ إلى المذمّة والملامه
إذا أعطاكَ نِصفًا ذو ودادٍ   وبعضَ النِّصف فانتهز السَّلامه[٣]

ومنهم من قال : لا ترض من عدوِّك إلاّ بالظُّلم ، ولا تقبلْ إنصافه ونافسه فى ذلك[٤] . قال العباس بن عبد المطلب :

أبا طالب لا تقبل النِّصف منهم   ولو أنصفوا حتى تَعُقَّ وتَظلما

ومنهم من أمر بمعونة الدهر على العدوّ إذا حمل عليه . قال : حدثنى ١٢٧ظ
إبراهيم بن شُعبة المخزومى قال : سمعت من حكى لى عن مُصعَب بن الزبير قال : إذا رأيت يد الدهر قد لطمتْ عدوّك فبادره برجلك ، فإنْ سلم من الدَّهر لم يسلمْ منك . وأنشد :

إذا بركَ الزّمانُ على عدوٍّ   بنكبته أعنتَ له الزّمانا

---

(١) فى الأصل : « ونح عليها » .
(٢) مصدر صالتَ ، والفعل ومصدره لم يرد فى المعاجم المتداولة . ومادة (صلت) تدل على الظهور والسرعة .
(٣) النصف ، بالكسر : الانصاف .
(٤) فى الأصل : « من ذلك » .

قال العتّابى : قلت لطوق بن مالك[1] : إنّ من شرط الدهر ومن صناعة الزمان السّلب ، فإذا حملت الأيام على عدوّك ثِقلاً وأمكنتك منه فزده ثِقْلًا إلى ثقله . قال : فقال لى طَوْق : من لم ينتهز من عدوّه انتهزَ منه ، وحالت الأيام التى كانت بيضًا عليه سودًا . وأنشد :

لله درُّك ما ظننتَ بثـائرٍ حَرّانَ ليس على التُّراب براقدِ
أحقدتَه ثم اضطجعتَ ولم ينم أسفًا عليك وكيف نومُ الحاقدِ
إن تُمكِنِ الأيامُ منك ، وعلَّها ، يومًا نُوفِّك بالصُّواع الزائد[2]
ولئن سلمتَ لأتركنَّك عارضا بعدى لـكل مُسـالمٍ ومعاند

ومنهم من كان يرى جَبر كسرِ العدوّ وإقالةَ عثرته ، ونُصرتَه عند وثوب الدَّهر عليه .

قال : حدثنى ابن عبد الحميد قال ابن شُبرُمة[3] : كانت الحرب يوم

(١) فى الأصل : « لمالك بن طوق » وفى هامشه : « لطوق بن مالك » ، وهو الصواب بدليل ما سيأتى بعده . وهو طوق بن مالك بن طوق بن مالك بن عتاب ، كما فى جمهرة أنساب العرب ٣٠٤ . وله خبر آخر مع العتابى فى الأغانى ١٢ : ٦ . وأبوه مالك بن طوق ، كان والياً على الأهواز ، وكان شاعراً . الأغانى ١٧ : ١٥٧ . وهو صاحب رحبة مالك بن طوق ، أنشأها فى عصر الرشيد ، وهو القائل للرشيد حين أراد أن يفتك به :

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا
يلاحظنى من حيثما أتلفت

(٢) وعلها ، أى ولعلها . فى الأصل : « توفك » ، تحريف . والصواع : مكيال ، وربما شرب به .

(٣) هو عبد الله بن شبرمة بن حسان بن المنـذر الضبى ، أبو شبرمة الـكوفى القاضى ، ولاه أبو جعفر قضاء الـكوفة . وكان ثقة فى الحديث ، شاعراً حسن الخلق جوادا . ولد سنة ٧٢ وتوفى سنة ١٤٤ . تهذيب التهذيب .

صِفِّينَ بين العرب مَحضةً لا شوبَ فيها، فكانت محاربتهم كِدامًا واعتناقًا، وكانوا إذا مرُّوا برجل جريحٍ كانوا يقولون: خذله قومُه فانصروه، وألقاه دهره بمضيعةٍ فردُّوه إلى أهله.

وقال ابن شُبرمة: مازلنا نسمع أنَّ المصيباتِ تنزَع السجيّات.

قال: وأنشَدنى بعضُ أهل العلم فى هذا المعنى:

فلَوْ بى بدأتم قبل من قد دعوتمُ ... لفرّجتُها وحدى ولو بلغتْ جَهدى

إذا المرءُ ذو القربى وذو الحقد أجحفَتْ ... به سَنةٌ سلّتْ مصيبتُه حقدى[1]

ومنهم من رأى الإفضال على عدوّه وتركَ مجازاته. وهذا كثير لا يُحتاج فيه إلى استقصاء شواهده. ١٢٨ و

قال غَيْلان بن خَرَشة الضّبىّ[2] — وقال بعضهم: بل الأحنف ابن قيس[3] — لا تزال العرب بخيرٍ ما لبِست العمائم وتقلّدت السيوفَ وركبت الخيل، ولم تأخذها حميّة الأوغاد. قيل: وما حميّة الأوغاد؟ قال:

---

(١) نسب هذا البيت فى عيون الأخبار ٣ : ١٠٧ إلى أبى الأسود الدؤلى. وليس فى ديوانه المنشور فى نفائس المخطوطات. والسنة: الجدب والقحط.

(٢) غيلان بن خرشة، كان سيد بنى ضبة بالبصرة، وكان من البلغاء. الاشتقاق ١٩٤ وجمهرة ابن حزم ٢٠٤. وكان غيلان أحد أصحاب أبى موسى الأشعرى، ثم انتقض عليه وكان سبباً فى أن يعزل عثمان أبا موسى الأشعرى ويولى مكانه عبد الله ابن عامر. الجهشيارى ١٤٧.

(٣) الذى فى البيان ٢ : ٨٨ و ٣ : ٩٨ أن القول للأحنف. والنص فيه: « وقال غيلان بن خرشة للأحنف، يا أبا بحر، ما بقاء ما فيه العرب؟ قال: إذا تقلدوا السيوف، وشدوا العمائم ... ». فالقول والجواب إنما هو للأحنف.

أن يَرَوا الحِلْم ذُلاًّ ، والتَّواهُبَ ضَيماً[١] .

وقال الشَّعبيّ لرجل قال له : ألا تنتقم من فلانٍ فقد عاداك ونصَبَ لك ؟ فقال :

ليست الأحلامُ فى حال الرِّضا إنّما الأحلام فى حال الغضَبْ

وأنشدنى بعض العلماء بيتين وقال : إنّ الزُّبيرىّ[٢] كان كثيراً مايتمثَّل بهما :

وإنّى لِأعدائى على المقت والقلى بنى العمّ منهم كاشح وحسودُ
أَذُبُّ وأرمى بالحصى من ورائهم وأبدأ بالحُسنَى لهم وأعود

وكان عبد الملك بن مروان إذا أُنشِد :

إنى وإن كان ابن عمىَ كاشحًا لَمُراجمٌ من دونه وورائه[٣]
ومُعِيرُه نصرى وإن كان امرأً متزَحزحًا فى أرضه وسمائه[٤]
وإن اكتَسى ثوباً نفيساً لم أقل يا ليت أنَّ علىَّ حسنَ ردائه[٥]

---

(١) فى حاشية ه من نسخ البيان : « التواهب هو أن يترك من حقه لصاحبه عند الحاكم ، على وجه المروءة ومكارم الأخلاق . فإذا رأى أن ترك ذلك ذلة فتلك حمية الأوغاد » .

(٢) هو عبد الله بن مصعب ، كما فى تاريخ الطبرى ١٠ : ١١٢ . وكان عاملا للرشيد على المدينة واليمن . وانظر البيان ١ : ٣٢ و ٣ : ١١٠ .

(٣) الشعر لهذيل بن مشجعة البولانى ، كما فى الحماسة ١٨٦٠ بشرح المرزوقى . والكاشح : المضمر العداوة . وفى الحماسة : « غائبا لقاذف من خلفه » .

(٤) فى الحماسة : « ومفيده نصرى » .

(٥) فى الأصل : « ثوباً نسيساً » ، تحريف . وفى الحماسة : « ثوباً جميلا » .

وإذا تخرّق فى غنـاه وفَرته   واذا تَصعلك كنت من قرنائه[1]

قال : هذا والله من شعر الأشراف . نفى عن نفسه الحسدَ واللؤم والانتقام عند الإمكان ، والمسألةَ عند الحاجة .

ومنهم من أمرَ بالسَّفه فى العداوة واستعمالِ الُخرق فيها .

حدّثنى نوح بن أحمد عن أبيه عن ابن عبّاس قال : جاء النابغةُ الجعدىّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل معك من الشِّعر ما عفا الله عنه ؟ قال : نعم . قال : أنشدْنى منه . فأنشده :

وإنّا لقومٌ ما نعـوِّد خيلَنا
إذا ما التقينا أن تَحِيدَ وتَنفرا[2]
وتُنكر يومَ الرّوع ألوانَ خيلِنا
من الطّعن حتى تَحسبَ الجَوْنَ أشقرا
وليس بمعروفٍ لنا أن نردَّها ١٢٨ ظ
صِحاحًا ولا مستَنكراً أن تعقَّرا
بَلغنا السَّماءَ مجدُنا وسناؤنا
وإنَّا لنبغى فوق ذلك مَظْهرا

---

(١) التخرق : التوسع فى الإنفاق . ويقال وفره ماله : جعله وافرا لم ينقص منه .

(٢) الأبيات من قصيدة للنابغة الجعدى فى جمهرة أشعار العرب ١٤٥ — ١٤٨ . وهى أولى المشوبات . ورويت أيضاً فى الاستيعاب ص ١٥١٥ والخزانة ١ : ٥١٣ — ٥١٤ واللآلئ ١٤٧ ، ٧٧٢ .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى أينَ يا أبا ليلى ؟ فقال : إلى الجنّة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إلى الجنّة إن شاء الله » .

ثم رجع فى قصيدته فقال :

ولا خير فى جهلٍ إذا لم يكن له حليمٌ إذا ما أورد الأمرَ أصدَرا
ولا خير فى حِلمٍ إذا لم تكن له بوادرُ تحمى صَفوَه أن يكدَّرا[1]

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا فضَّ الله فاكَ ! ». قال : فأتتْ عليه عشرون ومائة سنة ، كلَّما سقطت له سِنٌّ اثَّغَرت أخرى مكانها ؛ لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فهذا أحسن ما رُوى فى البادرة التى يُصان بها الحلم .

وقال الشاعر الجاهلىّ[2] :

صَفحنا عن بنى ذُهلٍ وقلنا : القومُ إخوانٌ
عسى الأيّامُ أن يَرجِعـ ـنَ حيًّا كالذى كانوا[3]
فلما صرّح الشَّرُّ وأمسَى وهو عُريانُ

---

(١) البادرة : الكلام الذى يسبق من الإنسان فى الغضب ، كما فى اللسان (بدر) عند إنشاد هذا البيت .

(٢) هو الفند الزمانى ، واسمه شهل بن شيبان . شاعر جاهلى قديم ، كان أحد فرسان ربيعة المشهورين ، شهد حرب بكر وتغلب وقد قارب المائة . الخزانة ٢ : ٥٨ — ٥٩ والأغانى ٢٠ : ١٤٣ — ١٤٤ واللآلى ٥٧٩ . والقصيدة هى ثانى مقطوعة فى حماسة أبى تمام .

(٣) الحى : الواحد من أحياء العرب ، والبطن من بطونهم . وفى الحماسة : « قوما » .

مَشَينا مِشـــيةَ الليثِ بَدا واللّيثُ غضبانُ[١]
بضربٍ فيـه توهين وتضجيعٌ وإذعانُ[٢]
وطعنٍ كفم الزّقِ وَهىَ والزّقُّ ملآنُ[٣]
وفى الشرّ نجـــاةٌ حِيـ نَ لا يُنجيكَ إحسانُ

حدثنا أبو مِسْهر عن أبيه عن خالد بن عَمرو الكلبىّ قال :

كنَّا مع أبى بَرْزَة الأسلمىِّ[٤] فى غَزاة ، فكان منّا رجل يمتار لنا المِيرةَ ويقوم بحوائجنا ، فإذا أقبلَ قلنا : جزاكَ اللهُ خيرا . فغضب لدعائنا ، فشكونا ذلك إلى أبى برزة ، فقال أبو برزة : كنّا نسمع أنّ من لم يصلحه الخير أصلحَه الشرّ ، فاقلبوا له . فكنّا نقول له إذا أتانا بالحوائج : جزاك الله شرًّا وعَرًّا[٥] ، فيضحك لذلك .

وأنشدنى رجلٌ عن بعض الأعراب :

١٢٩ و
أرى الحلمَ فى بعض المواطن ذلّةً وفى بعضها عزًّا يُشرِّف فاعلَه
إذا أنت لم تَدفَع بحلمك جاهلًا سفيهًا ولم تَقرِنْ به من يُجاهلُه
لبستَ له ثوبَ المَـذلّة صاغراً فأصبحَ قد أودى بحقِّك باطلُه

---

(١) فى الحماسة : « غدا » .

(٢) فى الحماسة : « وتخضيع » ، وهو اختلاط الصوت .

(٣) فى الحماسة : « غذا » بالذال المعجمة ، أى سال

(٤) صحابى جليل ، وهو نضلة بن عبيد الأسلمى ، مشهور بكنيته ، نزل البصرة وشهد مع على قتال الخوارج بالنهروان ، وأتى خراسان فنزل مرو ، ومات بالبصرة سنة ٦٠ . الإصابة ٨٧١٠ والاستيعاب ٢٨٧٢ والاشتقاق ١٠٦ .

(٥) العر : الشر والشين ، وأصل معناه الجرب .

فأبقِ على جُهَّـال قومك إنّه   لـكلِّ حليمٍ موطنٌ هو جاهلُه[١]

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « استوصُوا بالغَوغاء خيراً ، فإنهم يطفئون الحريق ، ويسُدُّون البثوق[٢] » .

وقال أبو سلمى[٣] فى الجاهلية :

لا بدَّ للسُّـودَد من رِماح[٤]   ومن عَديد يُتَّقى بالراحِ[٥]

* ومن كلابٍ جَمّةِ النُّباحِ *

وقال مسلم بن الوليد[٦] :

حلفتُ لئن لم تلقَنى سـفهاؤها   خُزاعةُ والحيَّانِ عوفٌ وأسلَمُ

لأرتجعنَّ الودَّ بينى وبينهـا   بقافيةٍ تَفرِى العـروقَ فتحسِمُ

من اللاء لا يرجعن إلاّ شواردًا   لهنَّ بأفواه الرجال تَهَمْهُـمُ

أصابوا حليمًا فاستعدُّوا بجاهل   إذا الحلم لم يمنعك فالجهلُ أحزمُ

ولم نستقصِ الأبواب كلَّها بالمعارضة[٧] فى هذا الـكتاب ، ولو استقصينا

---

(١) أى لـكل حليم موطن يجب أن يجهل فيه وينزع عن حلمه .

(٢) البثوق : جمع بثق ، وهو منبعث الماء يخرقه السيل .

(٣) الحيوان ١ : ٣٥١ / ٣ : ٧٩ . والرجز بدون نسبة فى البيان ٣ . ٣٣٥ .

(٤) فى الحيوان والبيان : « من أرماح » .

(٥) فى الأصل : « ومن عداء » ، صوابه فى الحيوان والبيان .

(٦) الأبيات لم ترد فى ديوان مسلم ولا ملحقاته ، وفى الديوان ١٧٧ — ١٨٣ قصيدة على روى هذه الأبيات .

(٧) فى الأصل : « المعارضة » .

لطالت بنا الأيّام وتراخت الليالى إلى بلوغ الغاية فى تمام الكتاب . وإنّما ذكرنا من كل باب عَرَضَ فيه ما دلّ على معناه الذى إليه قُصِد .

ولم نر الحسَد أُمرَ به أحدٌ من العرب والعجم فى حالٍ من الأحوال ، ولا ندبَ إليه ونبَّه عليه . وقد نُبِّه على العداوة وفُصِّل بين أحوالها بما قد بيَّنَّاه ، فظهر فضلُها على الحسد بذلك .

وكنت امرأً قليل الحُسَّاد حتَّى اعتصمتُ بعُروتك ، واستمسكتُ بحبلك واستذريت فى ظِلّك[1] ، فتراكَمَ علىَّ الحُسَّاد وازدحموا ، ورمَونى بسهامهم من كل أَوبٍ وأفق ، وتتايَعوا علىَّ تتايُعَ الدَّبْرِ[2] على مُشتار العَسَل . ولئن كثروا لقد كثُر بهبوب ريحك إخوانى ، وبنَضْرة أيامك وزهرة دولتك خُلَّانى . وأنا كما قلت : ١٢٩ ظ

فأكثرتَ حُسَّادى وأكثرتَ خُلَّتى
وكنتُ وحُسَّادى قليلٌ وخُلَّانى

فلمَّا بلغت هذا الفصلَ من تأليف هذا الكتاب دخَل علىّ عشرةُ نفرٍ من من الكُتَّابِ قد شملهم معروفك ، ورفع مراتبَهم جميلُ نظرك ، فهم من طاعتك والمحبّة لك على حسب ما أوليتَهم من إحسانك وجزيل فوائدك ، فأفاضوا فى حديثٍ من أحاديث الحسد ، فشعَّب لهم ذلك الحديثُ شعوباً

---

(١) استذرى بالشجرة : استظل بها وصار فى دفئها . واستذرى بفلان : التجأ إليه . وفى الأصل : « واستذرأت » .

(٢) تتايع على الشىء : تهافت فيه وأسرع وتساقط . وفى الحديث : «ما يحملكم على أن تتايعوا فى الكذب ، كما يتتايع الفراش فى النار» . وفى الأصل: « تتابعوا على تتابع » ، صوابه بالياء . والدبر : جماعة النحل .

افتنُّوا فيها ـ والحديث ذو شجون ـ فما برحوا حتَّى أتتنى رقعةُ أَناسِيَةٍ[1] من الحسّاد فيها سهامُ الوعيد ، ومقدّمات التهديد والتحذير والتخويف ، للطَّعن على ما أَلَّفت[2] من الكتب إن أنا لم أضمن لهم الشركة فيما يُجرَى علىّ ، فدفعت رُقعتَهم إلى من قرُب إلىَّ منهم ، فقرأها ثم قال : « قاتَلَهم الله ! أبظالِم يرومون النَّيل ويلتمسون الشركة فى المعروف ! لَنزعُ الرُّوح بالكلاليب أهونُ من بذل معروفٍ بترهيب » . وأنشأ يقول :

أبقى الحوادث من خليـ ... ـلك مثل جندلة المرَاجم[3]

قد رامنى الأعداء قبـ ... ـلك فامتنعتُ من المظالم

ودَفعها إلى من قرُب منه فقرأها . وقال الثانى : « صَكَّة جُلمود ، لكل مُرعِدٍ حَسُود ، يَستطر العُرف بالتهديد . خلِّ الوعيدَ ، يذهب فى البِيد » . وأنشأ يقول :

أَبرِقْ وأرعِدْ يا يزيـ ... ـدُ فما وعيدُك لى بِضائر[4]

ودفعَها إلى الثالث فقرأها وقال : « سألوا ظلما ، وخوَّفوا هَضمًا ، لَقُوا حرباً ولقيتَ سِلما » . وأنشأ يقول :

---

(١) أناسية : جمع إنسى أو أناس . وفى اللسان (أنس) : « ويبين جواز أناسى بالتخفيف ـ يعنى تخفيف الياء ـ قول العرب : أناسية كثيرة . والواحد إنسى وأناس إن شئت » .

(٢) فى الأصل : « ألف » .

(٣) الشعر لمعاوية ، فى أمالى القالى ٢ : ٣١١ . وفى الأصل : « أما الحوادث » و « المزاحم » ، صوابهما فى الأمالى وشرح القصائد السبع لابن الأنبارى ٣٢٩ .

(٤) البيت للكميت ، كما فى اللسان (برق ، رعد) ومجالس العلماء ١٤١ وشرح القصائد السبع ٥٢٣ .

زعم الفرزدقُ أن سيقتل مِربعاً   أبشِرْ بطول سلامة يا مربعُ[١]

ودفعَها إلى الرابع فقرأها وقال : « قول الذّليل وبولُه سِيَّان » .
وأنشأ يقول :

ماضرَّ تغلبَ وائلٍ أهجوتَها   أم بُلتَ حيثُ تناطحَ البحرانِ[٢] ١٣٠ و

ودفعها إلى الخامس فقرأها وقال : « نهيق الحمار ، ودمُ الأعيار جُبارٌ جُبَار[٣] » . وأنشأ يقول :

ما أُبالى أنَبَّ بالحَزن تيسٌ   أم لَحَانى بظهرِ غيبٍ لئيمُ[٤]

ودفعها إلى السادس فقرأها وقال : « إذا عَلِقتك الأمجاد ، فليهُنْ عليك الحُسّاد » . وأنشأ يقول :

إذا أهلُ الكرامة أكرمونى   فلا أخشى الهوانَ من اللِّئامِ

ودفعها إلى السابع فقرأها وقال : « كيف يخاف الصُّرَعة ، من هو فى ذى المَنَعة » . وأنشأ يقول :

---

(١) البيت لجرير فى ديوانه ٣٤٨ وجمهرة أنساب العرب ٢٨٣ والشعراء ٤٦٦ . ومربع ، هو مربع بن وعوعة بن سعيد ، كما فى جمهرة أنساب العرب . ومربع هذا هو راوية جرير ، وكان الفرزدق قد حلف ليقتلنه .

(٢) للفرزدق فى ديوانه ٨٨٢ والبيان ٣ : ٢٤٨ والخزانة ٢ : ٥٠١ ، وهو من قصيدة يذكر فيها تفضيل الأخطل إياه ، مادحا فى ذلك بنى تغلب ، ويهجو فيها جريرا . وتغلب هم قوم الأخطل . تناطح البحران : تقابلا . وانظر الحيوان ١ : ١٣ .

(٣) الأعيار : جمع عير بالفتح ، وهو الحمار الوحشى . والجبار : الهدر . وكذا وردت الكلمة مكررة .

(٤) لحسان بن ثابت فى ديوانه ٣٧٨ والحيوان ١ : ١٣ .

كم تنبحون وما يغنى نباحكم
ما يملك الكلبُ غير النَّبح من ضررِ

ودفعَها إلى العاشر (١) فقرأها وقال : « نَوكى هلكَى ، لم يعرفوا خَبَرك ، ولا درَوْا أمرك » . وأنشأ يقول :

فلو علِم الكلاب بنو الكلاب بحالك عند سيِّدنا لذلُّوا

وعندى صديقٌ لى من السُّوقة له أدبٌ ، فقال لى بعقب فراغهم مُسِرًّا : إنّ هؤلاء الكتّاب قد أظهروا الاستخفاف بقول الحُسّاد ، وضربوا الأمثال فى هوانهم عليك ، وعرفوا أنَّك فى منعة من عزِّ أبى الحسن أطال الله بقاءه ، ومعقلٍ لا يُسامَى ولا يُنال . وأنا أقول بالشُّفعَة (٢) :

توقَّ قومًا من الحُسّاد قد قَصَدوا لحطِّ قدرك فى سرٍّ وفى علَنِ

فقلت له : إنّى أقول بيتين هما جوابك وجواب الحُسَّاد :

إنّ ابن يحيى عبيدَ الله أمّننى
من الحوادث بعد الخوف من زمنى (٣)
فلستُ أحذر حُسَّادى وإن كثُروا
ما دمت مُمسِكَ حَبلٍ من أبى الحسنِ

فلما رأى صديقى اقتفائى آثار الكتَّاب ، باستهانتى للحساد عند اعتلاقى

(١) كذا فى الأصل بدون أن يذكر قبله ما قال الثامن والتاسع ، فقد يكون إغفالا من الجاحظ لها ، وقد يكون سقطا من النسخة .

(٢) فى الأصل : « بالشفقة » .

(٣) يعنى عبيد الله بنْ يحيى بن خاقان ، وزير المتوكل ثم المعتمد . انظر مروج الذهب ٢ : ٣٧١ والتنبيه والإشراف ٣١٤ وإعتاب الكتاب لابن الأبار ١٥٨ ، ١٦٢ والفخرى ٢١٦ ، ٢٢٨ .

حبائلك أعزّك الله ، أنشأ متمثِّلا بِقولِ نصر بن سيّار[١] : ١٣٠ ظ

إنِّى نشأت وحُسَّادى ذوو عددٍ ياذا المعارجِ لا تنقُص لهم أحدا[٢]

إنْ يحسدونى على ما قد بَنَيت لهم فمثل حُسن بلائى جرَّ لى الحسدا

وليس العجب أن يكثروا وأنا أنعَق بمحاسنك ، وأهتِف بشكرك ، ولـكن العجبَ كيف لا تتفقّت أكبادُهم كمدا .

وكان بعضهم يقول : اللهــمَّ كثِّر حُسَّادَ ولدى ؛ فإنَّهم لا يكثرون إلَّا بكثرة النِّعمة .

فإنْ كان والدِى سبقَ منه هذا الدُّعاء ، فإنَّ الإجابة كانت مخبوءة إلى زمان عزِّك ؛ فقد رأينا تباشيرها ، وبدت لنا عند عنايتك غايتُها .

وكان بعض الصالحين يقول : اللهم اجعلْ ولدى محسودين ، ولا تجعلهم مرحومين ؛ فإنّ يومَ المحسود يومُ عِزّة ، ويومَ الحاسد يومُ ذلَّة .

---

(١) نصر بن سيار : أمير من الدهاة الشجعان ، كان أمير خراسان سنة ١٢٠ ولاه هشام بن عبد الملك ، ثم غزا ماوراء النهر ففتح حصونا وغنم كثيراً ، وعمل أيضاً على خراسان لمروان بن محمد آخر الأمويين ، وقد انتبه إلى استفحال الدعوة العباسية فـكتب إلى بنى مروان بالشام فلم يأبهوا بالخطر ، وظل يكافح حتى عجز وتغلب أبو مسلم على خراسان ، فخرج نصر من مرو إلى قومس ، واستمر فى كفاحه إلى أن لحقه المرض فى مفازة بين الرى وهمذان ، ومات بساوة سنة ١٣١ . وفى الأصل : « يقول بشعر »

(٢) فى الـكتاب العزيز : « من الله ذى المعارج » قال قتادة : ذى المعارج : ذى الفواضل والنعم ، وقيل معارج الملائـكة ، وهى مصاعدها التى تصعد فيها وتعرج فيها . وقال الفراء : ذى المعارج من نعت الله ، لأن الملائـكة تعرج إلى الله فوصف نفسه بذلك .

ويقال : إنّه لمّا مات الحجّاج سمعوا جاريةً[١] خلف جِنازته وهى تقول :

اليوم يرحمنا من كان يحسدُنا واليوم نَتْبعُ من كانوا لنا تبعا

ويقال : إنّ زيادَ بن أبيه قال لِحُرَقَةَ ابنة النعمان[٢] : أخبريني بحالكم . قالت : إن شئتَ أجملتُ وإن شئتَ فسَّرتُ . فقال لها : أجملى . فقالت : « بتنا نُحسَد ، وأصبحنا نُرحَم[٣] » . فخطبها زيادٌ وكانت فى دَيرٍ لها فكشفَتْ عن رأسها ، فإذا رأسٌ محلوق ، فقالت : أرأسُ عروس كما ترى يازياد ؟ وأعطاها دنانير فأخذتْها وقالت : جزَتْك يدٌ افتقرتْ بعد غنًى ، ولا جزَتك يدٌ استغنتْ بعد فقر !

ولا نعلم الحسدَ جاء فيه شيء أكثر من حديث روى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « لاحَسدَ إلا فى اثنتين[٤] : رجل آتاه الله حفظ القرآن فهو يقوم به

(١) فى البيان ٣ : ١٧٧ : « خرجت عجوز من داره وهى تقول » .

(٢) حرقة هذه بنت النعمان بن المنذر بن امرئ القيس بن عمرو بن عدى ابن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مالك بن عمم بن نمارة بن لخم . المؤتلف ١٠٣ . ولها مقطوعة فى الحماسة ١٢٠٣ بشرح المرزوقى رويت أيضاً فى المؤتلف . وبعض أخبارها فى البيان ٢ : ٨٩/٣ : ١٤٥ ، ١٦١ . وحرقة بضم الحاء المهملة وفتح الراء ، كما فى اللسان والقاموس . قال فى اللسان : « وحريق ابن النعمان ابن المنذر . وحرقة بنته » ، ومثله فى شرح الحماسة للتبريزى لكنه جعل أخاها « حرق » كزفر . وفيهما يقول الشاعر :

نقسم بالله نسلم الحلقه ولا حُريقاً وأخته الحرقه

(٣) أى كنا فى نعمة محسودين بالأمس ، فأصبحنا اليوم ولا حاسد لنا ، بل نحن فى موضع الرثاء .

(٤) فى الأصل : « اثنين » ، صوابه فى صحيح البخارى . انظر فتح البارى ٣ : ٢١٩ و ١٣ : ٢٥٣ وصحيح مسلم ١ : ٥٥٨ — ٥٥٩ والترغيب والترهيب ٣ : ١١ ومسند ابن حبان ١٢٥ ، ١٢٦ .

آناء الليل وآناء النَّهار ، ورجل آتاه الله مالًا فهو ينفقه فى وجوه البِرّ آناءَ الليل وآناءَ النهار » .

فهذا الحسدُ إنَّما هو فى طاعة الله عزّ وجلّ ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم .

١٣١ و وقال بعض الأشراف :

احسُدْ على نَيل المكارم والعلى إذْ لم تكن فى حاله المحسودِ
حَسَدُ الفتى بالمكرمات لغيره كرمٌ ولكن ليس بالمعدود

فهذا ما انتهى إلينا من أخبار الحسد ، وزادك الله شَرفًا وفضلًا ، وعلمًا ومعرفة ، ولا زلتَ بالمكان الذى يُهدَى إليك [فيه] الكتبُ ، وتتحف بنوادر العلوم وفرائد الآداب ، إنَّه قريب مجيب .

* * *

تم الكتاب ولله المنة ، وبيده الحول والقوة

تتلوه رسالة من كلام أبى عثمان أيضاً فى ذم القواد

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وسلامه .

١٠
رسالة
في صناعات القواد

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هى الرسالة العاشرة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها فى نسخة الأصل :

«رسالة لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله ، فى ذم القواد » .

وفى مقدمة نسخة الأصل أيضاً أنها تسمى « صناعات القواد » وتسمى أيضاً « طبائع القواد ».

وجاء فى جمع الجواهر للحصرى ١١٦ : « وللجاحظ فى هذا النوع رسالة كتب بها إلى المعتصم ، وقيل إلى المتوكل ، فى الحض على تعليم أولاده ضروب العلوم وأنواع الأدب » .

ثم روى الحصرى طرفا من هذه الرسالة كانت موضع مقارنة فى النص .

وجاء عنوانها فى طراز المجالس ٦٧ « صناعات القواد » ثم ساق الرسالة بأكملها. وكان هذا النص موضع مقارنة أيضاً فى نسخته المطبوعة والنسختين المودعتين بدار الكتب برقم ٦٦ ، ٦٧ أدب م .

وتمتاز هذه الرسالة بأنها قد سجلت كثيراً من الألفاظ الدخيلة والمولدة التى كان يستعملها الصناع والعمال وأصحاب المهن المختلفة .

بسم الله الرحمن الرحيم

[1]أرشدك الله للصَّواب، وعرَّفكَ فضل أولى الألباب، ووهب لك جميلَ الآداب، وجعلك ممن يعرف عزّ الأدب كما تعرف زوائد الغنى. ١٣٣ ظ

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: دخلت على أمير المؤمنين المعتصم بالله فقلت له: يا أمير المؤمنين، فى اللسان عشر خصال: أداة يَظهر بها البيان، وشاهد يُخبر عن الضمير، وحاكم يفصل بين الخطاب، وناطق يُرَدُّ به الجواب، وشافع تُدرَك به الحاجة، وواصف تُعرف به الأشياء، وواعظ يُعرَف به القبيح، ومُعزٍّ يُردُّ به الأحزان[2]، وخاصَّةٌ يُزهَى بالصَّنيعة[3]، ومُلْهٍ يونِق الأسماع.

وقال الحسن البصرى: إنّ الله تعالى رفع درجةَ اللسان، فليس من الأعضاء شىء ينطق بذكرِه غيره.

وقال بعض العلماء: أفضل شىء للرجلِ عقلٌ يُولَد معه، فإنْ فاته ذلك

---

(١) قبله فى الأصل: «هذه رسالة لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، منسوبة فى نسخة إلى ذم القواد، وفى أخرى إلى كتاب صناعات القواد، وفى أخرى إلى كتاب طبائع القواد».

(٢) فى المطبوعة من الطراز: «ومغرد ترد به الأخزان»، تحريف.

(٣) فى الأصل: «يذهب بالصنيعة»، وأثبت ما فى النسخة المطبوعة من الطراز.

فمالٌ يُعظَّم به ، فإنْ فاته ذلك فعلمٌ يعيشُ به[١] ، فإن فاته ذلك فموتٌ يجتثُّ أصلَه .

وقال خالد بن صفوان : ما الإنسان لولا اللِّسانُ إلاّ ضالّة مهملة ، أو بهيمةٌ مرسَلة ، أو صورة ممثَّلة[٢] .

وذُكر الصَّمت والنطق عند الأحنف فقال رجلٌ : الصَّمت أفضل وأحمد . فقال : صاحب الصمت لا يتعدّاه نفعه ، وصاحب المنطق ينتفع به غيره . والمنطق الصَّوابُ أفضل[٣] .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رحم الله امرأً أصلحَ من لِسانه » .

قال : وسمع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه رجلاً يتكلَّم فأبلغَ في حاجته ، فقال عمر : هذا والله السِّحرُ الحلال .

١٣٣ و وقال مَسلمة بن عبد الملك : إنّ الرجل ليسألني الحاجة فتستجيبُ نفسى له بها ، فإذا لحنَ انصرفت نفسى عنها .

وتَقدم رجلٌ إلى زياد فقال : أصلح الله الأمير ، إنَّ أبينا هلك ، وإن أخونا غصبنا ميراثَه . فقال زياد : الذى ضيعت من لسانك أكثر مما ضيَّعت من مالك[٤] .

---

(١) ما بعد « يولد معه » ساقط من الطراز .

(٢) البيان ١ : ١٧٠ .

(٣) فى الأصل والطراز : « والصواب » ، صوابه من مطبوعة الطراز .

(٤) الخبر فى البيان ٢ : ٢٢٢ وعيون الأخبار ٢ : ١٥٩ ونزهة الألباء ١٢ .

وقال بعض الحكماء لأولاده : يا بنيّ أصلحوا من ألسنتكم ، فإنّ الرجل لتنوبُه النائبة فيستعير الدابّة والثياب ، ولا يقدر أن يستعير اللّسان .

وقال شَبيب بن شَيبة ورأى رجلاً يتكلّم فأساء القول ، فقال : يا ابن أخي ، الأدبُ الصالح خيرٌ من المالِ المضاعف .

وقال الشاعر[1] :

وكائن ترى من صامتٍ لك مُعجِبٍ زيادتُه أو نقصُه فى التكلُّمِ
لسانُ الفَتَى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه فلم يبقَ إلاّ صورةُ اللحم والدَّمِ

فخذْ يا أمير المؤمنين أولادَك بأن يتعلموا من كلِّ الأدب ؛ فإنّك إن أفردتَهم بشيء واحد ثم سئلوا عن غيرِه لم يحسنوه .

وذلك أنّى لقيت حِزَاماً[2] حين قدِمَ أمير المؤمنين من بلاد الرُّوم ، فسألته عن الحرب كيف كانت هناك ؟ فقال :

لقيناهم فى مقدار صَحْن الإصطبل ، فما كان بقدرِ ما يَحُسُّ[3] الرجلُ دابّتَه حتّى تركناهم فى أضيقَ من مَمْرغة . وقتلناهم فجعلناهم كأنهم أنابير سِرجين[4] ،

(١) هو زهير بن أبى سلمى ، كما فى المعلقات برواية الزوزنى ، وليس فى رواية ابن الأنبارى أو التبريزى أو ديوانه بشرح ثعلب وبشرح الشنتمرى .

(٢) فى الأصل : « خزاما » ، وأثبت ما فى الطراز وجمع الجواهر . وفى جمع الجواهر : « وذلك أن حزاما صاحب خيلك حين سألته عن الوقعة ببلاد الروم » .

(٣) حس الدابة يحسها حساً : نفض عنها التراب ، وذلك إذا فرجنها بالمحسة . وفى مطبوعة الطراز فقط : «يحش» بالشين .

(٤) الأنابير : الأكداس ، جمع أنبار ، وهذه جمع نبر بالكسر .

فلو طُرحتْ رَوثةٌ ماسقطَتْ إلاَّ على ذنَب دابّة .

وعمل أبياتاً فى الغزل فكانت :

إن يَهدِمِ الصدُّ من جسمى مَعالقَه
فإن قلبى بقَتِّ الوَجد معمورُ[١]

إنّى امرؤ فى وَثاقِ الحبّ يَكبحه
لجامُ هجرٍ على الأسقام معذورُ[٢]

علِّلْ بجُلِّ نبيلٍ من وصالك أو
حُسْنِ الرُّقاد فإنَّ النَّوم مأسورُ[٣]

أصاب حبلَ شِكال الوَصْل حينَ بدا
ومِبضع الصدِّ فى كفيه مشهورُ[٤]

لبستُ برقعَ هجر بعد ذلك فى
إصطبل وُدٍّ فرَوث الحُبِّ منثورُ[٥]

---

(١) القت : الفصفصة ، وهى من علف الدواب .

(٢) عذر الدابة عذرا : شد عليها العذار ، وهو السير الذى يكون عليه اللجام . وفى جمع الجواهر : « ويح امرئ فى وثاق الحب » .

(٣) فى جمع الجواهر : « أنل خليلك نيلا من وصالك » ، والمأسور : المشدود بالإسار ، وهو الحبل .

(٤) الشكال ، ككتاب : ما تشد به قوائم الدابة . وفى جمع الجواهر : « أمنت فتل شكالى حين ودعنى ومبضع الحب » .

(٥) فى الطراز : « إصطبل حب » .

قال : وسألت بَخْتِيَشُوع [الطبيب[1]] عن مثل ذلك فقال :

لقيناهم فى مقدار صَحْن البِيمارستان ، فما كان بقدر ما يختلف الرجل ١٣٣ ظ
مَقعدين[2] حتى تركناهم فى أضيقَ من مِحْقَنة ، فقتلناهم فلو طرحت مِبضعًا
ما سقط إلّا على أكحَلِ رَجُل[3] .

وعمل أبياتًا فى الغزل فكانت :

شَرِب الوصلُ دَسْتَجَ الهجر فاسْتَطْ ‏ لَقَ بطنُ الوِصال بالإسهالِ[4]
ورمانى حِبِّى بقُولَنجِ بَينٍ ‏ مُذهلٍ عن مَلامة العُذّالِ[5]
ففؤاد الحبيب ينحَله السُّـ ‏ لُّ وقلبى معذَّبٌ بالمَلالِ[6]
وفؤادى مُبرسَم ذو سَقَامٍ ‏ يابنَ ماسُوهَ ضلَّ عَنِّى احتيالى[7]
لو ببقراط كان مابى وجالِيـ ‏ نُوسَ باتا منه بأكسَفِ بالِ

(١) التكملة من طراز المجالس وجمع الجواهر . وهو بختيشوع بن جبريل ابن بختيشوع ، وكان سريانيا نبيل القدر ، وكان يضاهى المتوكل فى اللباس والفرش، وكان عظيم المنزلة عنده ، ثم إنه أفرط فى إدلاله عليه فنكبه . وكان موته سنة ٢٥٦ . طبقات الأطباء ١ : ١٣٨ — ١٤٤ والقفطى ٧٢ — ٧٣ .

(٢) اختلف الرجل : ذهب إلى المتوضأ إذا أخذه بطنه .

(٣) الأكحل : عرق فى اليد إذا قطع لم يرقأ الدم .

(٤) الدستج ويقال الدستيج : آنية تحول باليد .

(٥) البيت ساقط من جمع الجواهر .

(٦) وهذا ساقط من الطراز .

(٧) كذا فى الأصل وإحدى مخطوطتى الطراز . يريد «ماسويه» . وفى سائر نسخ الطراز : « يابن السوء » . وفى جمع الجواهر : « يابن ماسويه » ولا يستقيم به الوزن . وابن ماسويه هو أبو زكريا يحيى أو يوحنا ، خدم المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل . الفهرست ٤١١ والقفطى ٢٤٨ — ٢٥٦ .

قال : وسألت جعفراً الخياطَ عن مثل ذلك فقال :

لقيناهم فى مقدار سُوق الُخلقان ، فما كان بقدر ما يَخيط الرجل دَرْزًا[١] حتَّى قتلناهم وتركناهم فى أضيق من جربَّانٍ[٢] ، فلو طرحتْ إبرةً ما سقطت إلّا على رأس رجل .

وعمل أبياتاً فى الغزل فكانت :

فَتَقتَ بالهجر دُروزَ الهوى   إذْ وخزتنى إبرةُ الصّدِّ
فالقلب من ضِيق سراويلهِ   يعثُر فى بايكة الجهد[٣]
جشَّمتَنى يا طيلسانَ النوى   منك على شوزكتى وجدى[٤]
أزرار عينى فيك موصولة   بعُروة الدمع على خدّى
يا كستبان القَلبِ يا زِيقَه   عذَّبنى التَّذكارُ بالوعد[٥]
قد قصَّ ما يعهد من وَصله   مِقراضُ بينٍ مُرهَفُ الحدِّ[٦]

---

(١) الدرز : موضع الخياطة ، كما فى شفاء الغليل ، ويقال للقمل والصئبان : بنات دروز ، ومنه أخذ الدرزى الخياط الذى صحفته عامة عصرنا بالترزى .

(٢) جربان القميص: جيبه ، يقال بضم الجيم والراء وبكسرهما ، وهو بالفارسية « كريبان » .

(٣) فى جمع الجواهر : « يعثر بى فى تكة الجهد » .

(٤) فى جمع الجواهر : «على سوء شقا جدى » ، وفيه أيضاً «حسدتنى » بدل : « جشمتنى » .

(٥) فى جمع الجواهر : « يادستبان القلب » ، كما أن سائر البيت فيه محرف .

(٦) فى جمع الجواهر : « ما أعرف من وصلة » .

يا حُجزة النَّفس ويا ذيلَهـا مالىَ من وصلكَ من بُدِّ[١]
ويا جـربَّانَ سُرورى ويا جَيبَ حياتى حُلْتَ عن عهدى[٢]

قال : وسألت إسحاق بن إبراهيم عن مثل ذلك – وكان زرّاعًا[٣] – فقال :

لقيناهم فى مقدار جَرِيبينِ من الأرض ، فما كان بقدر ما يَسْقى الرجل ١٣٤ و
مَشَارَةً[٤] حتّى قتلناهم ، فتركناهم فى أضيق من بَاب ، وكأنَّهم أنابير سُنْبُل[٥] ،
فلو طُرِح فَدّانٌ[٦] ما سقط إلّا على ظهر رجل[٧] .

وعمل أبياتاً فى الغزل فكانت :

زرعتُ هواه فى كراب من الصَّفا وأسقيتُه ماءَ الدوام على العهدِ[٨]

---

(١) الحجزة ، بالضم : معقد السراويل والإزار وفى الأصل والطراز المطبوع . « ياحزة النفس » ، وفى المخطوط : « ياحيرة النفس ويا ويلها » ، صوابه من جمع الجواهر .

(٢) سبق تفسير الجربان فى ص ٣٨٤ . وفى جمع الجواهر : « جيب غرامى » .

(٣) فى جمع الجواهر : « زارعا » .

(٤) المشارة ، بفتح الميم : الدبرة ، وهى البقعة من الأرض تزرع . وفى طراز المجالس : « من سانية » .

(٥) الأنابير ، سبق تفسيرها فى ص ٣٨١ .

(٦) الفدان : الذى يجمع أداة الثورين فى القران للحرث ، والآلة التى يحرث بها .

(٧) فى طراز المجالس : « على ظهر ثور » ، تحريف . وفى جمع الجواهر : « إلا على رأس رجل » وبعده فى جمع الجواهر : « فصاروا مثل أكوام التبن » .

(٨) فى جمع الجواهر : « فى جريب مثلث » .

وسَرجَنْتُه بالوصل لم آلُ جاهدًا ليُحرزَه السِّرجِين من آفة الصَّدِّ(١)
فلمَّا تعالى النَّبتُ واخضرَّ يانعاً جرى يَرَقانُ البَين فى سُنبُل الودِّ(٢)

قال : وسألت فرجًا الرُّخَّجىَّ(٣) عن مثل ذلك — وكان خبّازًا — فقال :

لِقيناهم فى مقدار بيت التَّنُّور ، فما كان بقدر ما يخبِز الرجلُ خمسة أرغفة حتى تركناهم فى أضيق من حَجَر تنّور ، فلو سقطت جمرة ما وقعت إلّا فى جَفنة خبّاز(٤) .

وعمل أبياتاً فى الغزل فكانت :

قد عَجَن الهجرُ دقيقَ الهوى فى جَفنةٍ من خَشَب الصدِّ
واختمرَ البينُ فنارُ الهوى تُذْكَى بسِرجينٍ من البُعدِ(٥)
وأقبل الهجرُ بمحراكهِ يفحص عن أرغفة الوَجدِ(٦)

---

(١) السرجين : السماد تدمل به الأرض ، معرب .

(٢) اليرقان : دود يكون فى الزرع ثم ينسلخ فيصير فراشاً . وفى جمع الجواهر : « وأفرك حب الحب فى سنبل الود » . وبعده بيتان ، وهما :

أتته أكف الهجر فيها مناجل فأسرعن فيه حين أدرك بالحصد
فياشؤم مالى إذ يعطل للشقا ويا ويح ثورى صار معلفه كبدى

(٣) نسبة إلى رخج ، كسكر ، وهى كورة ومدينة من نواحى كابل .

(٤) فى جمع الجواهر : « فلو طرحت جردقا لما وقع إلا فى خوان الخبز على كثرة القتلى » .

(٥) السرجين ، سبق تفسيره . وفى جمع الجواهر : « تزجى بشوك الهجر من بعدى » .

(٦) المحراك . أداة تحرك بها النار . وفى جمع الجواهر : « وأقبل الصد بهجرانه » .

جَــرادق الموعِد مسْمومة مثرودة فى قَصعة الجهـــدِ[١]

قال : وسألت عبد الله بن عبد الصمد بن أبى دَاوُد عن مثل ذلك — وكان مؤدِّبا — فقال :

لقيناهم فى مقدار صَحْن الـكُتَّاب[٢] ، فمـا كان بقدر ما يقرأ الصبىُّ إمامَه[٣] حتى ألجأناهم إلى أضيق من رَقْم[٤] فقتلنـاهم ، فلو سقطت دواةٌ ما وقعت إلّا فى حِجر صبىّ .

وعمل أبياتاً فى الغزَل فـكانت :

قد أماتَ الهجرانُ صِبيانَ قلبى ففؤادى معذَّب فى خَبَــالِ[٥]
كَسَر البينُ لَوح كِبدى فما أط مع ممن هويتُه فى وصــالِ[٦]
رفع الرقْم من حيــاتى وقد أط لَق مولاىَ حبلَه من حبــالى
مَشق الْحُبُّ فى فؤادىَ لَوحَيـ نِ فأغرى جوانحى بالسُّـلالِ[٧] ١٣٤ ظ

---

(١) الجرادق : جمع جردق ، وهو الرغيف ، فارسى معرب . وفى جمع الجواهر : « جرادقا للوعد مسمومة » .

(٢) الصحن : الساحة وسط االدار . والـكتاب : موضع تعليم الصبيان ، وأصل الـكتاب هؤلاء الذين يتعلمون الـكتابة ، ثم أطلق الاسم مجازا على الموضع الذى يتعلمون فيه . وفى اللسان : « والـكتاب موضع تعليم الـكتاب » وفى جمع الجواهر : « فى مقدار كتف » .

(٣) إمام الصبى : مايتعلمه كل يوم ، يقدر له على مقدار يومه .

(٤) فى جمع الجواهر : « من فم الرقم » . والرقم ، بسكون القاف : الرمز الـكتابى المستعمل للتعبير عن أحد الأعداد ؛ وفتح القاف خطأ شائع .

(٥) جمع الجواهر : « موله ذو خبال »

(٦) فى جمع الجواهر : « لوح وصلى » .

(٧) المشق : سرعة الـكتابة ، ومد الحروف فى الـكتابة والسلال : السل .

لاقَ قلبى بنانُه فمداد الـ ـعَين من هجر مالِكِى فى انهمال[١]
كُرسُفُ البين سوَّد الوجهَ من وصـ ـلى فقلبى بالبين فى إشعال[٢]

قال : وسألت علىَّ بن الجهم بن يزيد[٣] — وكان صاحبَ حمام — عن مثل ذلك فقال :

لقِيناهم فى مثل بيت الأنبار[٤] ، فما كان إلّا بقدر ما يغسل الرجل رأسَه حتى تركناهم فى أضيقَ من باب الأتُّون ، فلو طرحتَ لِيفةً ما وقعت إلّا على رأس رجل .

وعمل أبياتاً فى الغزل فكانت :

يا نُورةَ الهجر حَلقتِ الصَّفا لما بدت لى لِيفةُ الصَّدِّ[٥]
يا مِئزر الأسقام حتَّى متى تُنقَع فى حوض من الجَهْد
أوقِدْ أَتُونَ الوصلِ لى مَرّةً منك بزِنبيلٍ من الودِّ[٦]

(١) أصله من لاق الدواة : أصلح مدادها . وفى طراز المجالس : « لاق قلبى مداده » ، وفى جمع الجواهر : « لاق كبدى دواته » .

(٢) الكرسف : القطن ، وكانوا يجعلونه هو أو الصوف فى الدواة .

(٣) فى جمع الجواهر : « وسألت الجهم بن بدر » .

(٤) لعله يعنى البيت الذى تحفظ فيه الثياب . وفى اللسان : « والأنبار : بيت التاجر الذى ينضد فيه متاعه » . وبعده فى جمع الجواهر : « فقاتلناهم بمقدار ما تحلق النورة ، ثم ألجأناهم إلى أضيق من الأبزن ، فهزمناهم بقدر ما يغسل الرجل وجهه ، فلو طرحت ليفة . . . . » .

(٥) جمع الجواهر : « بما بدا من ليفة » .

(٦) الأتون : الموقد ، وهو بتشديد التاء ، وتخفيفها من لغة العامة . والزنبيل بكسر الزاى كقنديل ، وقد تفتح ، وهو القفة .

فالبينُ مُذْ أُوقِدَ حمّـــامُه قد هـاج قلبى مسلخ الوجد[١]
أفسـد خِطمىَّ الصَّفا والهوى نُخَالَة النَّــاقض للعهـــد[٢]

قال : وسألت الحسن بن أبى قمـاشة[٣] عن مثل ذلك — وكان كنَّاسًا — فقال :

لقِيناهم فى مقدار سَطح الإيوان ، فمـا كان إلّا بقدر ما يكنس الرجل زَبِيلًا[٤] حتّى تركناهم فى أضيق من جُحر المَخرَج ، ثم قتلنـاهم بقدر ما يشارط الرجل على كَنْس كنيف ، فلو رميتَ بابنة وَردَانةٍ[٥] ما سقطتْ إلّا على فم بالوعة[٦] .

وعمل أبياتاً فـكانت :

أصبح قلبى بَرْبَخـاً للهوى تَسـلَحُ فيـه فَقْحَةُ الهَجرِ[٧]
بنـات وردان الهوى للبـلى أصبَرُ من ذَا الوجدِ فى صدرى[٨]

---

(١) فى جمع الجواهر : « هيج قلبي مشلح الوجد » .
(٢) جمع الجواهر : « بحاله الناقص » .
(٣) جمع الجواهر : « الحسن بن أبى قماش » .
(٤) الزبيل : الزنبيل ، وهو القفة . وفى جمع الجواهر : « زنبيلا » .
(٥) بنت وردان ، هى المعروفة فى مصر بالخنفس . معجم المعلوف ٣٦ وانظر الحيوان ٢ : ١٥٣ و ٣ : ١٣ ، ٣٧١ و ٤ : ٣٩ ، ٢٧٢ ، ٣٠٠ . وابنة وردانة ، لعلها من لغة العامة فى عصره .
(٦) فى جمع الجواهر : « إلا على ظهر قتيل » .
(٧) البربخ : مجرى البول . يسلح ، من السلاح بالضم ، وهو النجو . وفى جمع الجواهر : « للهوى مخرجا » .
(٨) البيت ساقط من جمع الجواهر .

خَنافسُ الهِجران أثكلننى يومَ تولَّى مُعرِضًا صبرى(١)
أسقم ديدانُ الهوى مُهجتى إذْ سلحَ البَينُ على عُمرى

قال : وسألت أحمدَ الشَّرابىَّ عن مثل ذلك فقال : ١٣٥ و

لقيناهم فى مقدار صحن بيت الشَّراب ، فما كان بقدر ما يصفِّى الرجلُ دنًّا(٢) حتى تركناهم فى أضيق من رَطِليّة(٣) فقتلناهم ، فلو رميت تُفّاحةً ما وقعت إلا على أنف سكران .

وعمل أبياتاً فى الغزل فكانت :

شربت بكأس للهوى نبذة معًا ورقرقت خَمر الوصل فى قَدَح الهَجْرِ(٤)
فمالت دِنان البين يدفعُها الصِّبا فكسَّرن قرَّابات حُزْنى على صدرى(٥)
وكان مِزاج الكأس غُلَّةَ لوعةٍ ودورقَ هِجرانٍ وقِنِّينَتَىْ غدرِ

قال : وسألت عبد الله بن طاهر(٦) عن مثل ذلك — وكان طبّاخا — فقال :

لقيناهم فى مقدار صَحْن المطبخ ، فما كان بقدر ما يَشوِى الرجُل حَمَلًا حتّى

---

(١) جمع الجواهر : « نومى فولى معرشاً » .
(٢) جمع الجواهر : « بمقدار ما يبزل الرجل دنا » .
(٣) الرطلية ، بفتح الراء وكسرها : نسبة إلى الرطل ، والمراد وعاء أو كأس يسع رطلا من الشراب . وانظر الحيوان ٣ : ٢٣٦ . وبعده فى جمع الجواهر : « ثم سالت دماؤهم كالدردى ، فلو طرحت كأسا لما وقع إلا فى كف رجل » .
(٤) جمع الجواهر : « بكأس اللهو من راحة الهوى » .
(٥) القرابات : ضرب من الأوانى ، كما هو ظاهر ؛ ولم أجده فى المعاجم .
(٦) جمع الجواهر : « عبد الله الطاهرى » .

تركناهم فى أضيقَ من مَوقِد نار ، فقتلناهم فلو سقطت مِغرفةٌ ما وقعت إلا فى قِدر[١] .

وعمِل أبياتاً فى الغزل فكانت :

يا شبيهَ الفالوذ فى حُمرةِ الخـ ـدِّ ولَوزِينجَ النُّفوسِ الظِّماءِ
أنت جَوزينجُ القُلوب وفى اللّيـ ـنِ كلِينِ الخَبيصةِ البيضاءِ[٢]
عُدْتُ مُستهتَرًا بسِكباجٍ وُدٍّ بعد جُوذَابةٍ بجَنْبِ شِواءِ[٣]
يا نسيمَ القُدور فى يوم عُرسٍ وشبيهًا بشُهدةٍ صفراءِ[٤]
أنت أشهى إلى القلوب من الزُّبْـ ـدِ مع النِّرْسِيان بعد الغَداءِ[٥]
أُطعِمَ الحاسدون ألوانَ غَمٍّ فى قِصاعِ الأحزانِ والأدواءِ[٦]

---

(١) جمع الجواهر : «لقيناهم فى مقدار مطبخ أمير المؤمنين ، فما كان إلا بمقدار ما يشوى الرجل حملا أو جديا ، أو يفرغ من طبخ ثلاثة ألوان أو يعقد فالوذجة ، حتى تركناهم فى أضيق من أثافى القدر ، فلو طرحت ملعقة لما وقعت إلا على بطن قتيل » .

(٢) فى جمع الجواهر : « الصفراء » .

(٣) السكباج : لحم يعالج بالخل والتوابل ، ويضاف إليه أحياناً الزعفران والسذاب . محاضرات الراغب ١ : ٢٩٢ وكتاب الطبيخ للبغدادى ٩ . والجوذاب ، بالضم : طعام يتخذ من سكر ورز ولحم . وانظر باقى صفته فى كتاب الطبيخ ٧٠ — ٧٢ .

(٤) جمع الجواهر : « ياقتار القدور » و « بشهدة بيضاء » .

(٥) النرسيان : ضرب من أجود التمر . وفى اللسان : « وأهل العراق يضربون الزبد بالنرسيان مثلا لما يستطاب » .

(٦) فى جمع الجواهر : « والضراء » .

قد غلا القلبُ مذ نأتْ عنك داري غليانَ القدور عند الصِّلاءِ[١]
هام قلبي لمَّا كَسَرن غَضارا تِ سروري مغارفُ الشَّحناء[٢]
فتفضَّلْ على العميدِ بيومٍ جُد بوصلٍ يُكبَتْ به أعدائي[٣]
وتفضَّلْ على الكئيب بِبَزْما ورْدِ وَصلٍ يَشفِى من الأدواء[٤]

١٣٠ ظ قال : وسألتُ — أطال الله بقاءك — محمد بن داود الطوسيَّ عن مثل ذلك — وكان فرّاشا — فقال :

لقيناهم فى مقدار صَحن بساط[٥] ، فما كان إلا بقدر ما يفرش الرجل بيتًا[٦] حتّى تركناهم فى أضيق من مِنصّة فقتلناهم ، فلو سقطت مِخَدَّة ماوقعتْ إلَّا على رأس رجل .

ثم عمل أبياتاً فى الغزل فكانت :

كَسَحَ الهجرُ ساحةَ الوصل لمَّا غبَّر البينُ فى وجوه الصَّفاء[٧]
وجَرى البينُ فى مرافق ريشٍ هى مذخورةٌ ليوم اللقاءِ[٨]

---

(١) فى الأصل وطراز المجالس : « السلاء » ، صوابه فى جمع الجواهر .
(٢) الغضارات : الصحاف المتخذة من الغضار ، وهو الطين الحر .
(٣) العميد والمعمود : الذى عمده الحب ، أى أوجعه وأضناه .
(٤) البزماورد: ضرب من الخبز يحشى بشواء مدقوق مضاف إليه الخل والأفاويه. وانظر بقية صفته فى كتاب الطبيخ ٥٩ .
(٥) جمع الجواهر : « فى مثل تربيع الفسطاط » .
(٦) بعده فى جمع الجواهر : « أو بيتين » .
(٧) الكسح : الكنس . وفى الأصل والطراز : « كسر » تحريف . وفى جمع الجواهر : « كنس » ، وهى بمعنى كسح .
(٨) المرافق : جمع مرفقة ، وهى المخدة .

فرشَ الهجر فى بيوتِ هموم ... تحت رأسى وسادةَ البُرَحَاء[(١)]
حينَ هيّأت بيت خَيشٍ من الوصـ ... ـلِ لأبوابه ستور البهاء[(٢)]
فرشَ البحرُ لى بيوتَ مُسوحٍ ... مُتَّكاها مَطارح الحصباء[(٣)]
رقَّ للصبِّ من براغيثِ وجدٍ ... تعترى جلدَه صباحَ مساء[(٤)]

قال : فضحك المعتصم حتى استلقَى ، ثم دعا مؤدِّب ولده فأمره أن يأخذهم بتعليم جميع العلوم .

* * *

تم كتاب الجاحظ ولله المنة ، وبيده الحول والقوة ، والله سبحانه الموفق للصواب . والحمد لله أولا وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامه .

بعده زيادات ليست للجاحظ[(٥)]

---

(١) فى الأصل ومخطوط الطراز : « لى بيوت » ، صوابه فى مطبوع طراز المجالس . والبرحاء : الشدة ، والمشقة . وفى جمع الجواهر :

فلقد بث فى فراش همومى ... تحت خدى وسائداً لضنائى

(٢) الخيش : ثياب رقاق النسج غلاظ الخيوط تتخذ من مشاقة الكتان .

(٣) المتكأ : ما يتوكأ عليه لطعام أو شراب أو حديث . وفى الأصل وطراز المجالس : « متكآتها من الحصباء » ، صوابه فى جمع الجواهر . والمطارح : جمع مطرح ، بالكسر ، وهو المفرش ، كما فى المعجم الوسيط .

(٤) فى جمع الجواهر : « من بواعث وجد قد تخالسنه » . وبعد هذا البيت فى جمع الجواهر بدلا من الكلام التالى هنا : « ياأمير المؤمنين ، إنما ينطق اللسان بما يتصور الجنان ، ويظهر فى الكلام ما يخطر على الأوهام ، فمن لم يعرف إلا شيئاً واحداً لم يتكلم عليه ، ومن كثر علمه كثرت خواطره ، واتسعت مذاهبه ، ورب هزل أنفع من جد إذا أصيب به موضع الحاجة ، ووضع بحيث تقع همم النفوس عليه . والسلام » . ثم قال الحصرى معقباً على هذه الرسالة :

« والجاحظ صنع هذه الأشعار لما وضع هذه الأخبار ، وكان قديراً على الشعر سراقاً له » .

(٥) وهى فى مقدار ثلاث ورقات من الأصل ، على لسان أهل الصناعات .

فهرس الكتب والرسائل

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة
جمهورية مصر العربية تليفون : ٩٠٥٢٩٦